أما تـــزال بـَـراقش.؟(1)

مولود قاسم نايت بلقاسم
وزير التعليم الاصلى والشؤون الدينية



حضرات الاساتذة الافاضـــل

حضرات الســادة والسيدات

اخوتى الطلبــة والطالبات

أود ان ابدأ هذه الكلمة بما ختمنا به الملتقى الثامن فى بجاية ، وأرحب بالاساتذة الافاضل فى مدينة الورود والشقائق ، والجنان والحدائق ، مظنة الهواء والعيـــون ، ايغمراسن بن زيان ، فى تلمسان !

(1) كلمة افتتاح الملتقى التاسع للفكر الاسلامى المنعقد بتلمسان يوم 1 رجب 1395 هـ الموافق 10 يوليو 1975 م .

حضرات السـادة ،

نجتمع اليوم لنتدارس نقاطا ستا ، الاوليان فى صميم تاريخنا ، وتاريخ العـالم الاسلامى عموما •

1) احداهما مساهمة تلمسان الزيانية فى الحضارة والفكـر الاسلاميين والعالميين ـ أسباب ازدهارها وعوامل انهيارها •

2) وثانيهما موقف اسطنبول وباقى العالم الاسلامى من سقوط الاندلس وآخـر مسلميها وأمام الغزو الاوروبى للعالم الاسلامى عموما •

وواضح من عنوان النقطة الاولى اننا نود ان نستعرض ما ساهمت بـه عاصمـة ايغمراسن فى مجال الفكر والحضارة لا على صعيد الجزائر فحسب ، ولا المغرب الكبير ، ولا حتى العالم الاسلامى على سعته ، ولكن أيضا على مستوى الحضارة والفكر العالميين •

فيكفينا ان نذكر ان احد اساطين الفكر على مستوى العالم الاسلامى ، والمؤسس الاول لعلم الاجتماع البشرى ، كما يقول هو نفسه بحق ، عبد الرحمن بـن خلدون ، درس يافعا فى هذه المدينة حسبما يذكره ويفصله هو فى حياته التى كتبها بنفسـه ، وكانت منهله الاول الذى أصبح به فيما بعد ما اصبح ، حتى أسس قواعد علم الاجتماع البشرى قبل أوغست كونت Auguste Comte ، وويستر مارك Westermarck ، وليفى برول Lévi-Brühl ، ودور كايم Durkheim ، وغورفيتش Gurvitch ، ويانكيليفيتش Jankélévitch ، وغيرهم من الهايمات والفيتشات !

وبالنقطة الثانية نريد أن نلقى نظرة على « موقف الدولة العثمانية وباقى العـالم الاسلامى من سقوط الاندلس ومن آخر مسلميها ، وأمام الغـزو الاوروبى للعالـم الاسلامى عموما » ، لنعرف فيما اذا كانت الدولة العلية على مراحل نشاتها ، ونموها ، ثم هرمها ، قامت بواجبها نحو أهل الاندلس الذين كانوا فى غمة ، ثم نحو باقى العالم الاسلامى الذى كان يلاقى ضربات الغزو الاوروبى الشرس ، أم بقيت سلبية ، تتفرج ، وتنتظر المصير المحتوم لمن كان يلوذ بها ، ويرى فيها المنقذ الوحيد الى جانب الدفـاع الـذاتى ؟

هناك من يقول ان اسطنبول لم تحرك ساكنا ، أو لم تسكن متحركا ، وآخرون يقولون انها فعلت كل ما تستطيع ، أو أنها ما كانت تستطيع فعل شيء !

3) وبالنقطة الثالثة اردنا أن نتاكد من صحة أو ضعف دعوى من يقول أن الشعر في الاندلس بسخفه ، واسفافه ، ودعوته الى التحلل من كل شيء ، ثم الى الانحلال ، الذى يعقبه الاختلال ثم الاحتلال ، وقد أعقبه فعلا كما نعلم جميعا ، كان السبب فيما حدث ، أم أنه كان له مجرد مرآة وانعكاس ، وان الشعر وصف لشيء موجود مستقل عنه ، غير متوقف عليه ، وغير كامن فيه ؟

4) وبالنقطة الرابعة قصدنا أن نوسع من سابقتها ، ونشمل الآداب والفنون عموما ، ونمد بصرنا فى تتبع فعلها لنشمل بنظرتنا العالم اجمع ، لننظر فى « دور الآداب والفنون عموما ، والشعر والموسيقى خصوصا ، فى تعزيز اخلاق أمة أو انحلالها ، وفى شحذ عزائمها أو قتل روحها » •

فهناك بلدان استعملت هذه الآداب والفنون ، ورعتها ، وغذتها ، ونمتها ، ووجهتها لتعزيز وحدتها ، وتقوية بنيانها ، وتماسك مجتمعها ، وتحقيق اهدافها ، وابراز شخصيتها • وأخرى تركتها تنمو هكذا فوضويا تبث فيها الانحلال والفوضى ، وتخرب بها بيوتها بايديها ، وتجنى بها كبراقش على نفسها •

5) وبالنقطة الخامسة وددنا أن نطرق فى ملتقاكم هذا نقطة فى صميم حياة الامة الاسلامية ، وتتصل وثيق الصلة بدعوة الاسلام ، وبها تنفر شبابها من الاسلام أو تجذبه، اليه وهو المتعرض لمختلف الهزات والزوابع، والدعايات الكاذبة والاغراءات، وهو التساؤل الملح عن « العدالة الاقتصادية والاجتماعية فى الاسلام وواقع الامة الاسلامية اليوم » •

ونحن نعرف ان الاسلام الذى تدعو جميع أركانه الى التعاضد والتعاون ، والى الاخوة الحقة والتضامن ، ويستنكر جميع اصناف الاستغلال واللامبالاة ، الى أن جعل امام مثل ابن حزم دية الميت جوعا على الامة كلها ، واعتبر كل فرد فيها مسؤولا عن الجائع والعريان ، وفصل ذلك كله فى باب ما سوى الزكاة ، اذ لم يتوقف فى فهمه

للاسلام عند تادية ركـن الزكاة ، بل قال ان للدولة ان تاخذ اكثر مـن الزكاة عنـد الضرورة ، والزكاة ، ان سمحتم بالمقارنة ، تماثل ضرائب اليوم فى غير بلاد الاسلام ، أى أن للدولة أن تاخذ أكثر من الضرائب لاسعاف الفقير والمحتاج ، ولصالح الامة ٠

ثم لنذكر ان الرسول صلى الله عليه وسلم أول من أعلن وطبق فيما نعلم ذلك التساوى فى العناصر الحيوية للامة ، وهى الماء ، والكلأ وما فى حكمه (وهى الارض) ، والنار وما فى حكمها (وهى الطاقة) !

6) وبالنقطة السادسة ارتاينا ان ندرس « مقصد الشريعة من الحج والطريقـة التى يؤدى بها اليوم » ، وننظر فيما اذا كانت هذه الطريقة توافق مقصد الشريعة ، وفيما اذا لم تكن بعض انواع السلوك أثناء الحج متنافية مع هذا القصد ، وفيما اذا لم تكن بعض تلك المظاهر تضر بالاسلام، عوض ان تفيده ، وفيما اذا لم تكن منه منفرة، بدل أن تكون به مبشرة ، وندرس هذا كله على ضوء مقصد الشريعة الذى هو صالح هذه الامة وعزة دينها ٠

هذه هى النقاط الست ، التى نود ان نتدارسها معا بكل صراحة واخوة ، لصالح الامة فى مجموعها ٠

واذ اشكركم على روح الاستعداد الطيب ، أرحب بكم مرة اخرى فى تلمسـان ، وأتمنى لكم مقاما طيبا فيها ، ولأعمالنا مطلق النجاح ٠

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

النظرية السياسية
للسلطان أبى حمو الزيانى الثانى
ومكانها بين النظريات السياسية المعاصرة لها

الدكتورة وداد القـاضى
الجامعـة الاميركية
ـ بـيروت ـ

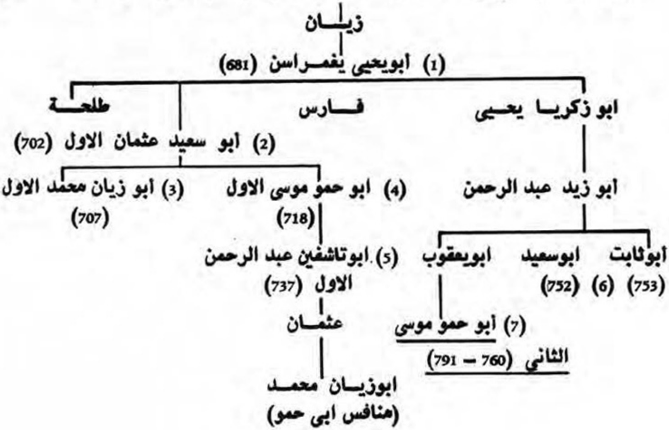


يهدف هذا البحث الى اكتشاف النظرية السياسية للسلطان أبى حمو موسى بـن يوسف الزيانى الثانى (760 ـ 791) ومدى علاقتها بالتجربة السياسية لابى حمـو نفسه ، ثم مكان هذه النظرية بين النظريات السياسية فى المغرب فى القرن الثـامن للهجرة • وهو ينقسم الى ثلاثـة اقسـام رئيسية هى ـ بعد التقديم ـ (1) التجربة السياسية لابى حمو ، (2) فالنظرية السياسية لابى حمو ، ثم (3) مقارنة نظرية أبـى حمو بنظريات كل من لسان الدين بن الخطيب وأبى القاسم بن رضوان وعبد الرحمن ابن خلـدون •

تقـــــــديم :

يحتل السلطان أبو حمو موسى بن يوسف بن عبد الرحمن الزيانى مكانة خاصة فى تاريخ دولة بنى زيان ، لانه كان أول من تولى السلطنة فيها بعد فترة من الاحتـــلال المرينى لقاعدتها تلمسان من بيت أبيه ، ولم تخرج تلك السلطنة من بيته بعده قط حتى انقضاء دولة الزيانيين بأسرها ، فكان بذلك مؤسس الفرع الثانى من بنى عبـد الواد ، ذلك الفرع الذى استمر فى الحكم بتلمسان وغيرها من بلاد المغرب الاوسط مدة قرنين من الزمان ، من 760 الى 962 ·

ويتصل نسب السلطان أبى حمو بالسلطان أبى يحيى يغمراسن بن زيان مؤسس الفرع الاول من بنى عبد الواد الذى حكم بتلمسان وضواحيها مدة قرن وربع من الزمان (من 637 ـ 753) اتصالا مباشرا اذ ان يغمراسن (637 ـ 681) هو جـده الثالث ، وكان من الممكن أن يورث يغمراسن السلطنة الى ابنه أبى زكريا يحيى ـ جد أبى حمو الثانى ـ لولا ان أبا زكريا هذا توفى فى حياة أبيه (سنة 660) فأعطى يغمراسن ولاية عهده لابنه الآخر أبى سعيد عثمان (681 ـ 703) فابقاها هذا فى أسرته ·
أولا فى ولديه أبى زيان محمد (703 ـ 707) وأبى حمو موسى الاول (707 ـ 718)



ثم فى ولد ابنه موسى ، أبى تاشفين عبـــد الرحمن (الاول) (718 ــ 737) وبذلك انحجبت امكانات الولاية أمام بنى أبى زكريا يحيى بن يغمراسن ·

وزاد هذا الانحجاب تمكنا سعى جاد واع من جانب أبى سعيد عثمان بن يغمراسن فى ابعاد ولد هذا الفرع عن التطلع الى نيل السلطان ، تمثل فى اخراجه ابن أخيـــه أبا زيد عبد الرحمن بن أبى زكريا يحيى بولده مـن تلمسان الى الاندلس سنة 694 ، فأقام بها (1) ·

وحاول ملك المغرب أبو سعيد عثمان المرينى استغلال الجفوة بين فرعى بنى زيان ، فاستدعى الى جنابه من الاندلس سنة 712 أبا زيد عبد الرحمن ابن يحيى ، فقــــدم عليه ، وأقام عنده أياما قلائل · ثم دفع تغير الظروف ملك المغرب الى صرفه عن قطره (3) فلحق بتلمسان فى السنة نفسها الا أن صاحب تلمسان آنذاك أبا حمو موسى بن أبى سعيد عثمان أوجس خيفة منه على ملكه ، فأخرجه ــ فعل أبيه به من قبل ــ الى الاندلس سنة 713 ، فاستقر بغرناطة ، منها لدى أصحابها بنى نصر (4) ، وظل فيها ، يشترك فى جهاد الروم ، الى أن قتل فى وقعة وادى قرطونة سنة 716 (5) ، فمات تاركا أولادا ثلاثة هم : أبو يعقوب يوسف ، وأبو سعيد ، وأبو ثابت ·

وبقى أولاد أبى زيد عبد الرحمن هؤلاء فى الاندلس حتى سنة 723 ، عندما استدعاهم للرجوع الى تلمسان سلطانها أبو تاشفين عبد الرحمن بن أبى حمو موسى بن أبى سعيد

---

1) بغية الرواد 2 ، 14 ·

2) البغية 2 ، 14 ·

3) فى نص البغية 2 ، 14 أن ملك المغرب صرف عبد الرحمن بن أبى زكريا يحيى لانه كان ينقل الى ابن عمه سلطان تلمسان وعدو ملك المغرب اخبار المغرب ، لما كان عليه من محبة أصيلة لقبيلته · الا ان احدى نسخ مخطوط البغية أوردت سببا مغايرا ، وهو أن ملك المغرب أصطلح مع الزيانى صاحب تلمسان ، فكأنه لم يعد هناك من مسوغ لابقاء «منافس» لسلطان تلمسان لديه (انظر : البغية ، 2 ، 14 ، الحاشية رقم 6)

4) البغية 2 ، 14 ·

5) المصدر نفسه : 14 ــ 15 ·

عثمان (6) ، فرجعوا اليها وأقاموا فيها مكرمين ، وشهدوا سائر أيام أبي تاشفين ، وما تلاها بين سنتي 737 و 749 من احتلال تلمسان من قبل بني مرين · وما لبثت الدولة أن دالت لابي سعيد وأبي ثابت منهم ، فتولياها مشتركين من سنة 749 الى سنة 753 ، عندما انهى الاحتلال المريني لتلمسان مرة أخرى دولتهما ، منهيا عهدهما بقتل أبي سعيد وهرب أبي ثابت في فل من بني عبد الواد (7) وكان أخوهما أبو يعقوب يوسف في اثناء ذلك منقطعا الى العبادة بندرومة (8) فيما كان ابنه أبو حمو موسى ، المولود سنة 723 بالاندلس ، يسكن تلمسان ، ويظهر ميلا الى الاشتراك في الحياة السياسية بها ·

ولا تحدثنا المصادر بشيء عن النشاط السياسي المبكر لابي حمو ، وأول مرة يتعرض اجدها لذكره في هذا المجال عندما يذكر أنه كان في صحبة عمه السلطان أبي ثابت في احد احواز بجاية سنة 753 فارين من المرينيين على اثر هزيمة السلطان وأخيه أمامهم ، وتحدثنا الرواية ها هنا ، ان اعوان المرينيين قبضوا على الرجلين وهما متنكران، وأرادا معرفة السلطان منهما ، فتقدم أبو حمو وادعى أنه هو السلطان رغبة منه في الدفاع عن عمه ، الا أن بعض الناس تعرف على السلطان الحقيقي ، فأخذه ، ولما سئل عن هوية صاحبه ادعى أنه أحد اتباع دولته ، ورجاهم أن يسرحوه ، فخلوا سبيله (9) وفيما كان العم يساق الى مقتله (10) ، كان أبو حمو يسرع في الهرب مع جماعة من أصحابه ، حتى استقر به المقام في تونس لدى صاحبها السلطان أبي اسحاق ابراهيم ابن أبي يحيى الحفصي ووزيره ابن تفراجين ، فأقام لديهما معززا مكرما مجرى عليه (11) لمدة خمس سنوات ·

---

6) المصدر نفسه : 16 ·
7) العبر 7 ، 121 ·
8) البغية 2 ، 16 ·
9) انظر البغية 2 ، 17 — 18 والعبر 7 ، 121 — 122 ·
10) انظر العبر 7 : 121 وتاريخ الدولتين : 94 ·
11) انظر البغية 2 : 18 — 20 والعبر 7 : 122 ·

وأوعز السلطان أبو عنان المريني الى صاحب افريقية الحفصي باخراج أبي حمو وقومه من بلادهم ، فرفض صاحب افريقية طلبه ، فأغرى ذلك أبا عنان بالحملة ضده (12) ، فنهض مشرقا سنة 758 وملك قسطنطينة وبلد العناب وأرسل أسطوله وجيشه فحاصر تونس وملكها ، فارتحل السلطان أبو اسحاق الحفصي باتجاه الجريد ومعه أبو حمو وأصحابه ، وحدثت احداث اضطرت أبا عنان الى الرجوع الى المغرب ، والى سحب جيشه وأسطوله من تونس ، فغادر بلاد المغرب الاوسط ، فلحقه جيش الحفصي ، الا أنه عاد الى حضرته بتونس دون أن تتم أية مواجهة بينه وبين المريني (13) . ومن هناك أخذ أبو حمو وقومه يعدون العدة للاتجاه نحو تلمسان .

وتفصيل ذلك أن بعض العرب من زغبة كانوا خارجين على سلطان أبي عنان ، وقد اضطروا الى ترك ديارهم في صحراء المغرب ولحقوا بافريقية ، فلما علموا بانصراف أبي عنان الى فاس ، داخلتهم الرغبة في العودة الى بلادهم ، فدعوا أبا حمو الى مرافقتهم على ان يحالفوه في الاجلاب على تلمسان وينصبوه للامر . فوافقهم على عزمهم (14) . وصادف هذا العزم قبولا من جانب السلطان الحفصي ووزيره ابن تفراجين لما في ذلك من ازعاج لعدوهم المريني وشغل له عنهم ، فقاما باصلاح شأن أبي حمو بما قدرا عليه من آلة السلطان ، وذلك في سنة 759 (15) ، فسار بمجموعة متجها الى تلمسان .

---

12) هذا هو السبب الذي ذكره ابن خلدون في العبر 7 : 122 ، وقد لا يكون السبب الوحيد لقيام أبي عنان بحملته (انظر مثلا تاريخ الدولتين 96 والاستقصاء 3 : 201 – 202) .

13) انظر في حملة سنة 758 البغية 2 : 20 والعبر 7 : 297 وتاريخ الدولتين 96 – 98 والاستقصاء 3 : 201 – 202 .

14) انظر الاستقصاء : 4 ، 4 .

15) انظر العبر 7 : 122 و 301 ومن الطريف ان نلاحظ هنا أن أبا حمو لم يذكر أي شيء عن المحركات الحقيقية لتوجهه نحو تلمسان ، وانما نسب الفضل كله لنفسه و (حميته) لتحصيل ملكه ورد دولته الى نصابها (انظر واسطة السلوك 13) ، كذلك يلاحظ أن يحيى ابن خلدون (في البغية 2 : 20) لم يذكر أي شيء عن دور صاحب افريقية الحفصي في تجهيز قوات أبي حمو الى تلمسان .

ولم تكن الرحلة الى تلمسان سهلة على أبى حمو وأصحابه ، فقد حفلت بالعديد من المواجهات العسكرية مع نواب المرينيين واعوانهم فى المغرب الاوسط ، كما لم تخل من المد والجزر عن ولاءات القبائل العربية لصاحبها (16) . ولاشك أن هذا كله قد عـوق سيرها ، فاستغرقت ما ينيف على الستة اشهر . الا ان وصول خبر وفاة السلطان أبى عنان أول سنة 760 رفع من معنويات رجالها (17) ، فشدوا عزائمهم وحملوا على تلمسان

وكان خبر أبى حمو وأصحابه قد بلغ الوزير المتآمر على ، ملـك المغرب السعيـد ابن أبى عنان ، فجهز المدد الى تلمسان من الحامية والاموال (18) ووصـل أبو حمو بانصاره الى تلمسان ، فنازلوها ثلاثة أيام ، وافتتحوها عنوة فى اليوم الرابع (18) ، فدخلها أبو حمو ظافرا لليال خلون من ربيع الاول سنة 760 وبايع له الناس بالخلافة (19) فأمر بالنداء على بنى مرين بالخروج غير منظرين ، وصفح عنهم ، ولم يتعرض لهـم بأذى (19) ، وكان فيمن خرج منهم متولى تلمسان من قبل المرينيين ابن السلطان أبى عنان (20) ، وبذلك انتهى عهد تلمسان بالاحتلال المرينى الثانى ، وابتدأ عهد الزيانيين بها تحت سلطان أبى حمو الثانى مرة أخرى ، فكانت أيامه فيها تمثل تجربة سياسية حافلة بالوان النشاط العسكرى والمالى والادارى والعمرانى .

* * *

وليس من الصعب على الدارس اكتشاف ابعاد التجربة السياسية لابى حمو نظرا لان المصادر التاريخية عنيت بالعديد من اخبار أبى حمو ، ومن بينها مصدر شـديد الاهمية هو « بغية الرواد فى ذكر الملوك من بنى عبد الواد » لابى زكريا يحيى بن أبى بكر محمد بن خلدون ، أخى المؤرخ ابن خلدون ، وترجع أهمية هذا الكتاب الى أن مؤلفه كان معاصرا لابى حمو ، مشتركا فى الحياة السياسية فى المغرب ، وقد تنقل فى العديد

16) تجد افضل وصف لهذه الرحلة وأكثره تفصيلا ، فى البغية 2 : 21 — 23 والواسطة 23 .

17) انظر البغية 2 : 24 والعبر 7 : 122 .

18) انظر العبر 7 : 122 .

19) انظر البغية 2 : 27 والعبر 7 : 123 .

20) انظر العبر 7 : 122 — 123 .

من المناصب الكتابية في الدول المختلفة التي كانت ذات استقلال في المغرب آنذاك ، وكان أحد هذه المناصب منصب كتابة السرلدى أبي حمو نفسه بين سنتي 766 و 772 (21) ثم بين سنتي 776 و 780 (22) سنة مقتله (23) ، فالرجل عاش مقربا الى أبي حمو فترة غير قصيرة من سنى حكمه ، وكان مطلعا على دقائق الاحداث التي كانت تجرى في مملكته ، ثم كان ـ وهذا هو الاهم ـ شديد الولاء له ولآله . وقد حمله هذا الولاء لابي حمو ، فضلا عن استقراره لديه حتى آخر أيامه ، على أن يكتب تاريخا مفصلا لدولته ودولة من سبقه من قبيله ـ بني عبد الواد ـ فكانت نتيجة ذلك كتابة « بغية الرواد » . وقد قسم أبو زكريا ابن خلدون كتابه هذا الى جزئين ، الاول ، وهو الاصغر في اخبار من سبق أبا حمو من بني زيان الى الملك ، والثاني ، وهو الاكبر ، في اخبار أبي حمو وحده ، فجاء هذا الجزء محتويا على تفصيلات مبينة دقيقة ، مكتوبة بثقة العارف ، واتساع المطلع ، واهتمام المولى ، وكل هذه صفات تعين الدارس على تصور عصر سيادة أبي حمو تصورا جيدا . غير أن في كتاب أبي زكريا نقطتي ضعف رئيسيتين يعوقان الدارس عن الافادة منه ، وهما توقفه سنة 777 ، واسرافه في الثناء على أبي حمو في بعض الاماكن ، بحيث يستغلق على الدارس ما اذا كان ما يقوله احيانا تقريرا للواقع أو مدحا للملك . ويمكن للدارس أن يضيف هنا « ضعفا » ثانويا آخر في كتاب أبي زكريا وهو اعتماده على السجع والترادف المكثفين ، وهذا ما يجعل المعنى المقصود بيانه مبهما غير واضح ، على أن الدارس لا تعييه هذه النقائص ، اذ يسدها الى حد كبير تاريخ أبي عبد الرحمن الكبير « العبر » فهو ـ رغم اختصاره ـ مقارنة بكتاب « البغية » شديد الدقة ، واضح المؤدى ، ويستمر حتى بعد مقتل أبي حمو سنة 791 ، كما أن حديثه عن أبي حمو جاء في مكانين رئيسيين منفصلين ، احدهما في تاريخ بني عبد الواد ، وثانيهما في تاريخ بني مرين ، وفي كل مرة من المرتين ينظر المؤرخ الى الاحداث من منظور مختلف ، فيمكن الدارس من رؤية الامور من زاوتي الولاء والعداء ، هذا ومن

---

21) انظر التعريف بابن خلدون : 102 والبغية 2 : 238 .

22) انظر البغية 2 : 307 والعبر 7 : 140 .

23) انظر العبر 7 : 140 .

المهم أن نذكر أن مقتل أبى زكريا ابن خلدون على يد ولد أبى حمو (24) ، لم يجعل المؤرخ عبدالرحمن أخاه يتعصب ضد أبى حمو ، وكذلك لم يدفعه الى التعصب قيام أبى حمو بالتآمر ضده شخصيا ـ كما سيأتى بيانه من بعد ـ (25) ، ولو كان يريد أن يعلن عداءه لابى حمو وآله لفعل ذلك بسبب من ولائه فترة غير قصيرة لبنى مرين ·

هذان هما المصدران الكبيران للدارس وربما وجب أن يلحق بهما كتاب « نظم الدر والعقيان فى شرف بنى زيان » لابى عبد الله التنسى الا انى لم استطع الحصول عليه بعد ، وبعد هذه الكتب ياتى فى مرتبة ادنى تواريخ الدول المعاصرة لدولة أبى حمو ، مثل كتاب « اللمحة البدرية فى الدولة النصرية » للسان الدين بن الخطيب (776) وكتابى « الفارسية » (810) وتاريخ الدولتين الموحدية والحفصية ، للزركشى أبى عبد الله محمد بن ابراهيم (894) وحديثهم جميعا عن أبى حمو شديد الايجاز ثم كتاب « روضة النسرين فى دولة بنى مرين » لابن الاحمر (807) وحديثه عن أبى حمو أطول ، الا انه واضح التعصب عليه ميال الى الثلب له ، ويخالفه فى هذا منهج الناصرى صاحب « الاستقصا فى اخبار دول المغرب الاقصى » فانه لا يتحامل على أبى حمو ، ولكنه بالمقابل لا يوليه عناية كبيرة لانه يقع خارج دائرة اهتمامه الا فيما ندر ، عندما تصبح مقدرات أبى حمو فى يد من يعنى بهم الناصرى ·

ويأتى بعد ذلك بعض الاخبار المتفرقة عن أبى حمو فى المصادر واقيمها ما جمعه لسان الدين بن الخطيب عنه في ترجمته له فى كتاب «الاحاطة بالتعريف بعلماء غرناطة» فانها تحتوى على مادة شديدة الدلالة على صورة أبى حمو فى نفوس مفكرى عصره وسياسييه ، وادنى منها مرتبة اخباره المتفرقة فى كتابى أبى العباس المقرى (1041) « نفح الطيب » ، و « ازهار الرياض » · الى جانب نتف منثورة هنا وهناك فى المصادر ·

بقى هنالك المصدر « الشعرى » ـ اذا صحت التسمية ـ واعنى به هذا العدد الكبير من المدائح التى قالها الشعراء فى أبى حمو ، أو التى قالها أبو حمو نفسه فى الفخر ،

24) انظر العبر 7 : 140 ·

25) انظر التعريف بابن خلدون : 217 ، وانظر ما يلى ص 14 ·

وهى ذات قيمة ثانوية جدا للدارس المؤرخ نظرا لاحتوائها على احكام قد تكون قيلت فى موضع المدح لا موضع التقرير ، وبها يلحق ما أورده أبو زكريا بن خلدون من مقدمات تطريزية ، لكتابه « بغية الرواد » ٠

* * *

تعلمنا المصادر أن أبا حمو شرع فور تسلمه زمام السلطة ينظر فى تمهيد قواعد ملكه ، ويجدد رسوم دولته (26) ، ولكن ما أن مضى عليه اكثر من شهر وبعض شهر وهو فى سدة الخلافة ، حتى وجد نفسه ــ رغم كل جهوده لتوطيد دعائم مملكته بخاصة ــ غير قادر على فصل نفسه ــ ودولته ــ عن الصراعات السياسية الدائرة فى ارجاء المغرب ، ورای أنه ــ شاء أم أبى ــ مضطر أن يقوم بدوره زيانيا ــ فى هذه الصراعات ، وبذلك كانت خلافته ، التى استمرت ما ينيف على ثلاثين سنة (760 ــ 791) معرضا لالوان تلك الصراعات ، وخاصة لان موقع بلاده كان يقع فى مكان متوسط بين القوتين الكبيرتين المتنافستين فى المغرب آنذاك ، المرينيين فى المغرب والحفصيين فى الشرق ٠

أما المرينيون فقد كانوا اشد اعداء أبى حمو ، والى مناوأتهم ــ أو مصالحتهم احيانا ــ انصرف الجزء الاكبر من مجهوداته السياسية والعسكرية ٠ ولم يكن ذلك بالامر الغريب ، فقد كان المرينيون اعداء لبنى عبد الواد ــ رغم اشتراكهم معهم فى الانتساب الى زناتة ــ منذ أواخر أيام الموحدين ، وقبل أن يقيم بنو عبد الواد دولة خاصة بهم ، اذ كان بنو عبد الواد يعتبرون اولياء الموحدين وانصارهم ، فيما كان المرينيون يحاولون انتزاع السلطان منهم (27) ٠ وقد جرت بين الفريقين منذ ذلك الوقت حروب عديدة (28) انتهت فى النصف الاول من القرن السابع باستيلاء بنى عبد الواد على تلمسان وضواحيها ، واستيلاء بنى مرين على المغرب والجزء الاكبر من دولة الموحدين بالمغرب ، فيما كانت فلول الموحدين من الحفصيين تمكن لنفسها دولة خاصة فى افريقية وشرق المغرب الاوسط ٠ وقد كان المرينيون يرون فى انفسهم الورثة الطبيعيين لدولة الموحدين ، فكانت آمالهم كثيرا ما تتجه الى ضم المغرب كله مع افريقية تحت لوائهم

26) انظر البغية 2 : 38 ٠

27) انظر البغية 1 : 104 ٠

28) انظر البغية 1 : 104 ــ 105 ٠

لذلك حفل تاريخهم بمحاولات القضاء على الدويلات الاخرى الناشئة فى ارض المغرب ، وفى مقدمتها ـ بطبيعة الحال ـ دولة بنى عبد الواد فى تلمسان · من هنا شهدت هذه الدولة ـ منذ نشأتها سنة 631 ـ سلسلة من المجابهات مع المرينيين ، كانت كثيرا ما تمثل فيها الجانب الاضعف ، وقد انتهت هذه المجابهات مرتين باحتلال مرينى لتلمسان فى القرن الثامن كما سبق ذكره (29) ، ولما كان مجيء أبى حمـــو العبد الوادى الى تلمسان فى ربيع الاول سنة 760 يمثل انتهاء الاحتلال المرينى الثانى ويشير الى عودة الحياة الى بنى عبد الواد ، فقد كان أبو حمو فى نظر المرينيين عـــدوا يجب أن يتخلص منه · لذلك ما ان مضى على استقراره فى عاصمة ملكه أكثر من شهر ونصف حتى ارسل المرينيون فى آخر شهر ربيع الثانى من سنة 760 جيشا عظيما اضطره الى الخروج من عاصمته نفسها الى الصحراء (30) ·

ومنذ ذلك الوقت خاض أبو حمو معارك كثيرة مـــع المرينيين ، انتصر فى بعضها وانهزم فى غيرها ، واضطر اربع مرات ان يترك قاعدته تلمسان فى ايـــدى المحتلين المرينيين لمدد متفاوتة فى الزمن ، الاولى سنة 760 المذكورة قبل ، وقد ترك منها تلمسان مدة 48 يوما (31) والثانية فى السنة التالية (761) وقد غادر فيها تلمسان يوم 29 رجب ، مفسحا المجال أمام السلطان أبى سالم المرينى ليدخلها يوم 6 شعبان ، ثم عاد اليها بعد ان افرج السلطان أبو سالم عنها يوم 12 شعبان ، فدخلها يوم 8 رمضان ، فكانت غيبته عنها مدة 40 يوما (32) ، والثالثة بين شهر محرم من سنة 772 وشهـــر ربيع الثانى من سنة 774 أيام السلطان عبد العزيز المرينى ، فكانت مدة الاحتـــلال

29) انظر ما سبق ، ص 3 ·

30) انظر فى خبر هذه الحملة البغية 2 : 5 والعبر 7 : 302 303 ، وروضة النسرين : 55 والاستقصاء 4 : 5

31) انظر البغية 2 : 52 ·

32) انظر البغية 2 : 75 — 78 والعبر 7 : 124 — 125 و 311 — 312 وروضة النسرين : 56 والاستقصاء 4 : 33 — 34 ·

المريني اكثر من سنتين ، وكانت اسوأ خرجات أبي حمو على الاطلاق (33) ، وأما المرة الاخيرة فكانت في شهر صفر من عام 784 حتى عام 786 ، وكان اشد خرجات أبي حمو على عمران المدينة ، اذ هدم المرينيون خلالها القصور الجميلة التي كان بناها بنو عبد الواد بمعونة الاندلسيين (34) . وفي كل مرة من هذه المرات كان أبو حمو يتحمل المشاق العديدة في المنفى بشجاعة وعزم وصبر ورباطة جأش ، وحتى عندما يبلغ به اليأس مبلغه لا يتوانى عن السعي في الرجوع بقوة السلاح الى سلطانه لدى أول بادرة تشير الى أن الرجوع اليه ممكن . وهذا كان حاله بخاصة في خرجة سنة 772 ـ 774 اذ انه قاسى فيها التشرد في الحواضر والبوادي والقفار ، وعانى من الثلج والعرى والجوع والعطش والغارة والنهب والهزيمة والخيانة وفقدان الحليف والاشراف على الهلاك ، وحلول اليأس ـ وغير ذلك مما دفع أبا زكريا ابن خلدون أن يسمى الخرجة كلها ، بـ « التمصيص الاكبر والابتلاء الاشهر ، بما لم يعرف لملك من ملوك الاسلام نظيره ، ولا عد في مثلات العجم الخالية شبهه » (35) ، الا ان عزم أبي حمو كان يقابله اصرار مقابل من بني مرين للقضاء عليه ، وقد لاحت الفرصة الكبرى أمامهم عندما لجأ اليهم ابن السلطان أبي حمو ، واسمه أبو تاشفين عبد الرحمن ، وطلب منهم أن يعينوه على التخلص من والده لكي يستطيع أن يستقل بالسلطة وحده ، بعد ان اخفق في ان يصل الى غرضه ذاك مستقلا بين سنتي 788 و 790 ، فأعانوه بجيش عظيم ، فدخل تلمسان برجال بني مرين سنة 791 ، وكانت نهاية أبي حمو في المعركة قتلا على يد حليف ابنه المريني (36) . وهكذا نجح المرينيون في اخضاع أبي حمو نهائيا في آخر المطاف بعد

---

33) انظـــر البغية 2 : 236 ــ 270 والعبر 7 : 132 ــ 135 و 329 ــ 330 و 336 ــ 337 وروضة النسرين : 56 والاستقصاء 4 : 57 .

34) انظر العبر 7 : 141 ــ 143 و 324 ــ 325 وروضة النسرين : 57 (وجعـــل بداية الاحتلال سنة 786) .

35) البغية 2 : 237 ، ووصف المصاعب هذه تجده في البغية 2 : 237 ــ 269 ، وانظر ايضا : العبر 7 : 330 ــ 334 .

36) انظر العبر 7 : 143 ــ 148 و 361 وروضة النسرين : 58 والاستقصاء : 4 ، 76 .

ثلاثين سنة من المحاولات المتكررة لذلك · الا ان ثمن اخضاعه هذا كان غاليا على تلمسان اذ أنها تحولت الى ايالة من ايالات السلطان المرينى ، يخطب له على منابرها ، ويبعث اليه بالضريبة كل سنة ، وصار ملكها ـ أبو تاشفين ـ عاملا لبنى مرين ليس أكثر (37) ·

أما الحفصيون ـ الى الشرق من تلمسان ، فى المغرب الاوسط وافريقية ، فقد كانت علاقات أبى حمو بهم مختلفة عن علاقاته بالمرينيين ، اذ كان الحفصيون يشتركون معه فى عدائه للمرينيين ، وكانت حملات المرينيين المتكررة عليهم واحتلالهم للبلاد المختلفة الواقعة تحت سلطانهم (38) مما يزيدهم قربا منه · وقد ظهر تعاطفهم معه فى وقت مبكر ، من قبل أن يستولى على السلطة فى تلمسان ، اذ احتضنوه وحموه واجروا عليه على اثر مقتل عميه أبى سعيد وأبى ثابت على يد المرينيين سنة 753 كما مر ذكره (39) ، وانما تجهز أبى حمو واستعد لنيل ملكه بمساندة الحفصيين المعنوية والمادية (40) غير ان الامور لم تكن صافية خالصة بين أبى حمو والحفصيين جميعهم ، لان الحفصيين أنفسهم كانوا منقسمين فيما بينهم ، ولان بلاده كانت تتاخم بلادهم ، فكانت اطماعه تسول له الاستيلاء على بعض بلادهم ، فينزل له على رغبته بعض الحفصيين (مثل أبى عبد الله محمد بن يحيى الحفصى صاحب بجاية) (41) ويرفض الخضوع له غيره من الحفصيين (مثل أبى العباس أحمد بن محمد الحفصى) (42) فيجد أبو حمو نفسه طرفا فى صراعاتهم الداخلية ، فضلا عن كونه عدوا طامعا فيهم ، فتقع المعارك بين الفئات المختلفة ، وتتراوح البلاد في المغرب الاوسط فى التبعية السياسية ، حينا لاحد الحفصيين وحينا لابى حمو الزيانى (43) ، وتضطرب الاحوال ، ولا ينتصر أبو حمو فى معركة الا ليخسر غيرها ، وتقع معركة كبيرة سنة 767 قرب بجاية فتدور الدائرة عليه ،

---

37) انظر العبر 7 : 147 — 148 و 362 والاستقصاء 4 : 76 ·
38) انظر مثلا : العبر 7 : 301 وتاريخ الدولتين : 81 — 88 و 96 — 99 ·
39) انظر ما سبق ، ص : 4 ·
40) انظر ما سبق ، ص : 4 — 5 ·
41) انظر البغية 2 : 151 — 160 والعبر 7 : 128 والتعريف بابن خلدون : 98 — 99 ·
42) انظر البغية 2 : 182 والعبر 7 : 129 ·
43) انظر مثلا حال تدلس فى البغية 2 : 103 و 151 والعبر 7 : 128 ·

لانه لم يحسب حسابه امتناع بجاية ، واغفل الحزم فيما دونها والاستعداد ، ولانه انخدع بوعود سماسرة الفتنة ، ولم يشعر بمدى مرض قلوب اصحابه من جهته ، فينتابه الغضب ويخرج الى عدوه مخالفا لمشورة اهل الرأى ، فينهزم هزيمة نكراء ، ويتركه الناس فيسلم عياله وامواله وحظاياه وينجو بنفسه ، وينزل له وزيره عن ركوبه حتى يستطيع أن يصل الى تلمسان (44) . وقد كان من الممكن أن يظل مجال المواجهة بين أبى حمو والحفصيين محدودا لولا عاملان اثنان ساعدا على اذكاء الصراع فى المغرب الاوسط واطالة زمانه ــ غير انقسام الحفصيين واطماع أبى حمو ــ وعملا على ان يكون اشتراك أبى حمو فى ذلك الصراع أمرا ضروريا ، ان لم يكن حتميا ، وذانك هما ، ظهور منافس لابى حمو على سلطان تلمسان من بنى عبد الواد ، هو أبو زيان بن عثمان ابن أبى تاشفين الاول ، ثم المد والجزر فى ولاء القبائل العربية فى المغرب الاوسط بخاصة لابى حمو ، وانما ذكرت هذين العاملين المجتمعين ، لانهما ارتبطا معا فى تاريخ أبى حمو ، فكان اشتداد حركة أبى زيان ضد أبى حمو أكثر ما يقترن بالحصار المد فى ولاء القبائل العربية لابى حمو ، وفى ما كان همود أبى زيان وانهزامه وتقهقره أكثر ما ينتج عن اقبال هذه القبائل على أبى حمو ومنحه القدر العظيم من ولائها . لذلك كان أبو حمو حريصا على ابقاء صلاته بمختلف القبائل العربية حسنة للغاية ، فلا يهتم بشتى اشكال الملاينة (45) ، واغراهم بالمال والاقطاعات والثياب الرفيعة ووجوه الحرير الملون والذراريع والعمائم (46) ، وراسل قوادهم ووجوههم (47) وعفا عمن اساء اليه منهم (48) رغبة فى اصطناعهم ، وتطلبا لخدمتهم . واذا كان قد اخفق فى مساعيه لضمهم الى صفوفه غير مرة ، فذلك كان ــ فى معظم الاحوال ــ لان منافسه أبا زيان كان هو

---

44) انظر فى خبر هذه الوقعة البغية 2 : 182 ــ 183 والعبر 6 : 379 ــ 380 و 7 : 129 و 130 والتعريف بابن خلدون : 100 .

45) انظر امثلة من ذلك البغية 2 : 113 و 205 و 209 والعبر 7 : 125 .

46) انظر امثلة من ذلك فى البغية 2 : 195 و 201 و 205 و 206 والعبر 7 : 131 .

47) انظر مثلا فى ذلك البغية 2 : 198 والعبر 7 : 131 .

48) انظر مثلا البغية 2 : 150 ــ 151 و 206 .

الاخر يحاول جهده حشد القبائل العربية الى جانبه ، أو لان مصالح القبائل العربية كانت تتضارب فيما بينها بشدة ، فتميل فئة منها الى أبي زيان فيما تميل الاخرى الى أبي حمو · وأيا كان الامر ، فقد خاض أبو حمو سلسلة من المعارك مع جيوشه وعربه ضد أبي زيان واوليائه ، انتصر في عدد منها (49) ، وانهزم في بعضها (50) · غير ان هذا البعض نفسه كان حافلا بما يهدد سلامة أبي حمو نفسها وامكان استمرار سلطانه بتلمسان ، وخاصة لان اعداءه من المرينيين كانوا يحتضنون أبا زيان في بعض الاحيان ومنه وقعة سنة 769 التي كادت تودي بحياة أبي حمو وتذهب بسلطانه ، لولا شدة احتماله وقوة عزيمته واصراره على الوصول الى سلطانه بأي ثمن · وقد شهد هذه الوقعة وما تلاها من هزيمة أبو زكريا ابن خلدون ، وكان فيمن فر مع أبي حمو حين لم يعد الموقف يحتمل سوى الفرار ، ووصف ما تعرض له أبو حمو ورفاقه من المخاطر على اثر الهزيمة فقال : « ··· الى أن افرده الناس سوى شرذمة قليلة أنا منهم ··· » فاستركب الحرم وحمل الاموال واكفل بذلك الحصيان والنصارى المستخدمين ، وتقدمهم منتحيا خيام خلصائه الاوفياء ··· وأضل الكفلاء بما معهم سبيله ، فقفوا آثار العسكر حيارى ، وبلغ هو مأمنه ، فسر خلصاؤه بسلامته ··· ثم حملوا ذخائرهم ، ونبذوا الاهل والمال عرضة للنهب ، وساروا مع مولاهم ··· ثم حملوا ذخائرهم ، ونبذوا خريت وتنكب من شر المنافقين سانحة وبارحة ، فركبنا وعور جبل ذي كهوف وشعاب واجمات ، ولم ننشب اذا توسطناه أن نبحتنا كلابه ، وتعاوت من كل أوب علينا ذئابه ، ثم أتوا برجل الدباء والجأونا الى مهواة تساقطنا من عند آخرنا بقعرها العميق · ولم نلف به نهجا ، فادهمنا منه لهبا اغين نرجو نجاة الانفس مستعينين في صعوده ركبانا

49) انظر البغية 2 : 112 – 113 و 132 و 133 – 135 و 197 – 198 و 308 والعبر 7 : 125 – 126 و 131 و 135 ·

50) انظر البغية 2 : 146 – 149 و 182 – 183 و 184 – 194 و 200 – 205 والعبر 7 : 126 – 127 و 129 – 131 والتعريف بابن خلدون : 102 – 103 والفارسية 185 – 187 ·

51) انظر امثلة من ذلك من البغية 2 : 142 – 146 و 149 و 183 والعبر 7 : 125 و 126 – 127 و 129 والتعريف بابن خلدون : 100 – 102 والفارسية 185 – 187 ·

بجذب شجره ومررنا نلهب المركض ، والذؤبان الانيسة تستك لعوائها الاسماع ، وربما اعترضنا ابعاضهم فنردهم على الاعقاب ، هكذا الى الاسفار ، فاذا نحن قد اصبحنا تيها قرب محلتنا بالامس ، فابتدأنا العمل من أوله ورملنا أثر العساكر ، فاذا طلائع المخالفين المبيتة للعساكر قد فجأتنا صادرة عنهم تتعقبنا ذات اليمين وذات الشمال فتصدت عربنا لاجابة سائلهم ... فانقلبوا أولا عن آخر الينا ، فاحضرنا ... الى عروض وعر تسنمناه الا من اعيا مركوبه . وفي فتنة ثابت الى عربنا حمياتهم ، فدعوا نزال ورجعوا في وجوه أولئك الطغام وانصبوا اليهم من عل بمنحط الصخر ، فانقلبوا صاغرين من نجد الشواهق الى غوره ، فمن صريع يجود بنفسه وثخين يتشحط في دمه ومغلول يقاد برسنه ... (ثم) اجننا الليل ، فسرناه مدلجين غربا . وأصبحنا ... فجددنا السير يومنا وخمسة بلياليها بعده ، لم نطعم فيها ولا جيلنا (اقرأ : خيلنا) قوتا سوى مرة شيئا منزورا ... ولا ذقنا النوم فيها الا غرارا ، وبعد غروب الشمس من اليوم السابع ... دخل أمير المسلمين ... ملكه .(52)

هذا وقد انتهى أمر الصراع بين أبي حمو ومنافسه أبي زيان بعد فترة تقارب العشرين سنة منذ 761 ، الا انه توقف في حدود سنة 781 عندما لم يعد أبو حمو زيان قادرا على تحريك الحرب ــ فضلا عن الانتصار فيها ــ ضد أبي حمو . (35)

اما القبائل العربية فانها ظلت عنصرا مؤرقا لابي حمو ــ بقدر ما كانت عنصرا مساعدا له ــ اذ كان ولاؤها يميل في أي وقت ولاي سبب الى أي عدو خارجي لابي حمو ــ بما في ذلك المرينيين (54) ولهذا وجد أبو حمو نفسه مضطرا أن يخوض الحرب ضد من يحاربون الى صف عدوه منها كما فعل بسويد واحلافهم سنة 760 (55) أو من

52) البغية 2 : 203 — 206 .

53) انظر العبر 7 : 124 — 125 و 139 .

54) انظر مثلا البغية 2 : 142 — 143 والعبر 7 : 126 .

55) انظر مثلا حادثة سنة 760 في البغية 2 : 63 .

ينشقون عنه بعد أن يعلنوا ولاءهم له ــ كما فعل بأبى الليل بن أبى موسى اليزيدى(56) أو من يقلقون عليه بايعاز منعدوه كما فعل بمغراوة سنة 763(57)، كما كان كثيرا ما يشن حملات انتقامية صرف ضد أى شخص ذى نفوذ ينضم الى عدوه دون أن يكون منهم ، كما فعل بعبد الرحمن ابن خلدون المؤرخ سنة 774 ، فانه لما عرف عنه ميله الى عدوه المرينى ابان خرجته الثالثة من تلمسان ، وتشجيعه اياه ضد أبى حمو ، اوعز الى بعض حلفائه من عرب المعقل أن يعترضوه ، ففعلوا وانزلوه عن فرسه ونهبوه وتركوه فى القفــــر • (58)

وهكذا تضافرت العوامل العديدة : من عداء المرينيين فى الغرب ، الى تنمر بعض الحفصيين فى الشرق ، الى قيام أبى زيان ابن عثمان ، الى عدم التوازن فى ولاء القبائل العربية لابى حمو ، الى خيانة لابن أبى تاشفين ــ تضافرت معا لتجعل من أبى حمــو قطبا من اقطاب الصراع السياسى والعسكرى فى المغرب ، ولتجعل النشاط الحربى ابرز ما فى السنين الاحدى والثلاثين من حكمه ، وقد دفع هذا أبا حمو الى التفنن فى اختراع الوسائل التى تضعف عدوه وتقوى مكانه ، فبث عيونه فى بلاد عدوه لاستطلاع احواله (59) ، وطالب من يوالونه اما باليمين الموثق (60) أو بالرهن (61) دلالــة على ولائهم ، وحاول أن يختار الطقس المناسب للمعركة فى بعض المرات (62) ولــم يقم بالهجوم على عدوه الا بعد مشورة اصحاب الرأى من اصحابه (63) (باستثناء حادثة

56) انظر مثلا حادثة حرب أبى الليل بن ابى موسى اليزيدى سنة 764 فى البغية 2 : 133 — 135 والعبر 7 : 126 .

57) انظر مثلا حادثة أبى حمو مع مغراوة فى البغية 2 : 112 والعبر 7 : 126 .

58) انظر الحادثة بتفصيلها فى التعريف بابن خلدون : 217 — 218 .

59) انظر مثلا البغية 2 : 51 .

60) انظر مثلا البغية 2 : 149 (سنة 769) .

61) انظر مثلا البغية 2 : 135 (سنة 764) .

62) انظر مثلا العبر 7 : 138 .

63) انظر مثلا البغية 2 : 51 و 197 .

سنة 767 التى انهزم فيها وقد مر ذكرها (64) ، ولم يتوان عن الهجوم السريع على عدوه عندما كانت الفرصة تسنح له وتفرض عليه انتهازها وتحقيق انتصار خاطف على ذلك العدو (65) كما لم يتوان عن اللحاق بعدوه ونهبه وقتل اكبر عدد من افراده اذا تم له الانتصار (66) فاذا احس بطلائع الانهزام ارسل جيوشه تعيث فى بلاد عدوه وتقتلع زروعها وتنسف قواتها وتخرب عمرانها ، وذلك كان من الخطط التى لجأ اليها كثيرا فى تاريخه ، وكانت كل مرة تنتهى بافراج عدوه عنه وانتصاره هو لا مباشرة عليه (67) ، كذلك لجأ أبو حمو الى التآمر ضد عدوه المرينى بالذات والكيد له ، وذلك عندما احتضن منافسين لسلطانين من سلاطينه فى فترتين متباعدتين اثناء حكمه ، الاول هو الامير عبد الحليم ابن أبى على المرينى ، وقد احتضنه أبو حمو سنة 762 مكايدة للسلطان أبى سالم المرينى ، فانه أمر بنى مرين الواصلين من الجزائر الى تلمسان ببيعته ، ولما دعى له بالمغرب كساه شارة الملك وسرحه فى شىء من الآلة والناس مكرما (68) ، والثانى محمد بن محمد بن عبد الله بن عبد الحق ، وقد جمع العرب من أصحابه على بيعته سنة 770 ، وكساه شارة الملك وأرسله مع العرب لحصار سلجماسة، مكايدة فى السلطان عبد العزيز المرينى (69) .

غير أن أبا حمو لم يكن يلجأ الى الحرب فى كل مواجهته مع العدو ، بل كان يحاول قدر الامكان الابقاء على السلم بينه وبين عدوه ، وكان يسخر لذلك الغرض أرسالـه وسفراءه (70) ، ويرسل معهم فى بعض الاحيان هدايا قيمة اذا كانت السفارة فى عقد

64) انظر ما سبق ، ص : 11 .

65) انظر البغية 2 : 97 (سنة 768) .

66) انظر امثلة من ذلك فى البغية 2 : 197 – 198 و 235 و 251 .

67) انظر فى ذلك حوادث السنوات : 761 و 764 و 766 و 771 و 772 (انظر البغية 2 : 76 و 135 و155 – 156 و 222 – 223 و245 والعبر 7 : 125 و 128 و131 328 والاستقصاء 4 : 33)

68) انظر البغية 2 : 90 – 91 و 95 والعبر 7 : 316 والاستقصاء 4 : 43 وانظر أيضا ص 74

69) انظر البغية 2 : 183 و 193 والعبر 7 : 129 .

70) انظر مثلا البغية 2 : 62 و 101 و 165 – 166 .

الصلح (71) وكان اعداؤه ـ وأولياؤه أيضا ـ يواجهونه بالمثل ، فيرسلون اليه سفراءهم ، فكان مجلسه محط رحال للعديدين من سفراء بنى مرين وبنى حفص ، كما شهد ذلك أبو زكريا ، بن خلدون بنفسه (72) ، وسفراء بنى نصر (73) • غير ان حذر أبى حمو ويقظته كانت تجعله يقابل هؤلاء السفراء ، وخاصة سفراء الاعداء ـ بالطبع ـ بقدر غير قليل من سوء الظن ، فيتفرس فيهم ويحاول أن يعرف حقيقة معدنهم وخفايا نوايا سلطانهم من طريقتهم فى اداء رسالة مولاهم ، وهذا أمر فعله مع عمر بن عبد الله وزير سلطان المغرب أبى سالم المرينى (سنة 761) فانه ـ فيما يرويه هو عن نفسه ـ انزله في دار وزيره عبد الله بن مسلم ، وأمر وزيره باختباره فوجده رجلا يريد المكيدة عن طريق اعطاء المال لاهل وهران طلبا لولائهم للمرينيين من دون ابى حمو ، ويريد الخديعة على عبد الله بن مسلم حتى يجتذبه الى جانبه هو وسلطانه ، وذلك لما كان تقدم بينهما من المودة والصداقة • فلما عرف ذلك أبو حمو ، أخذ يدخله على مجالسه الخاصة ، ويتحدث أمامه بما يوهمه انه من اسراره ، فزاد بذلك طمعه ، وابطأ فى العودة الى سلطانه وأبو حمو يطيل بقاءه عمدا لديه ، والاخبار ترد على المرينى بمكانه لدى سلطان تلمسان ، فتزيد سوء الظن به سوءا • ولما عرف ابو حمو تأكد الحقد بين الطرفين ، وانخداع الرسول بتقريب السلطان اليه ، اطلق سراحه ، فغادره ، معاهدا اياه ان يغدر بسلطانه ، فلما رجع الى بلاده وجد الدنيا مقلوبة عليه ، فثار على سلطانه وقتله (74) • الا ان أبا حمو لم يكن دائما حكيما فى تصرفه مع الرسل ، ولقد حدث سنة 771 ان طلب منه السلطان عبد العزيز المرينى المهادنة ، فاشترط أبو حمو بعض الشروط التى لم يرضها المرينى ، ولما جاء رسول عبد العزيز بخبر رفض الشروط ، طرده ابو حمو ، فكان ذلك الطرد سببا من اسباب احتلال عبد العزيز المرينى لتلمسان فى السنة التالية • (75)

71) انظر البغية 2 : 89 والعبر 7 : 125 •

72) انظر البغية 2 : 132 •

73) انظر البغية 2 : 114 و 166 — 178 •

74) انظر الواسطة : 158 — 160 •

75) انظر البغية 2 : 224 و 234 — 236 •

ولا شك فى ان الوضع المتوتر وامكانات الحرب الدائمة بين أبى حمو واعدائـــه المختلفين قد جعلت أبا حمو يعتنى عناية خاصة بجيشه وفى هـــذا المجـــال يحدثنا أبو زكريا بن خلدون ان أبا حمو احتفل بجيشه احتفالا عظيما سنة 767 ، واقـــام استعراضا له فى ابهة ما بعدها ابهة وحضر ابو حمو نفسه ذلك الاستعراض ووصفه ابن خلدون فقال : صدرت الاوامر العلية للقبيل الاعز وكافة القواد المذكورين بحشد العساكر الى الحضرة الكريمة لتعرض بين يدى خليفة الله ··· وفى أول شوال اجتمعت المحلات كافة بالبسيط الافيح مـــن ظاهر الحضرة ، فجلس أمير المسلمين ··· لعرض جيوشه المظفرة فى خباء مطل من أعلى هضبة على بسيط مسلوب اصطفت به الكتائب، لا يحويها العد ولا تحيط باقطارها الابصار ، من كل شاكى السلاح ، منحدب على قناة المنا لا يعرف الا سيفه ولا يستشير غير عزمه ، فقد اخذوا زينتهم ، تحسبهم الخمائـــل المزهرات من فوق الكثبان الهائلة ، وسط كل كتيبة فنين جلد الوشى وخلخل اللجين ، يخطمه بسلسلة من الفضة ، غلمان لبسوا اقبية الخز الملون وعليه هودج مغشى بأنواع الحلل ، قد برزت منه قينة يسبى جمالها وصقال منظرها الناظرين ، فامسكت بغشارة تغنى بشجارة زناتية مما يهيـــج أريحيات الهمـــم ، ويبعث حمايـات النفـــوس ثـــم زحفوا للسلام عليـــه زرافا مـــن ضحى اليوم الى غروب شمسه وحذاق الكتبـــة بين يديه الكريمتين ، يحصون جموع القبائل والشعوب وينوعون الرامح منها والنابل ، فكانت فذلكة حساب الجميع اثنا عشر ألف فارس مرتزقة (76) ·

وكما عنى أبو حمو بجيشه لتأمين سلامته وسلامة سلطانه كذلك عنى بتحصيـــل ما يستحقه من الاموال من جبايته ، حتى يبقى لدولته اتزانها الاقتصادى فى السلـــم كما فى الحرب وانما يدلنا على مدى تشدده فى وجوب حصوله على المال الذى هو حق له ولدولته ، الحادثة التى حدثت سنة 777 ، عندما قام سالم بن ابراهيم كبير الثعالبة من العرب ووالى الجزائر من قبله بالاستبداد بعمله واضافة جبايته الى نفسه · فلما جاء وقت الجباية ، وأوعز أبو حمو الى عماله باستيفاء جبايتها ، استراب سالم من أمـــره ،

76) البغية 2 : 181 — 182 ·

وظل يداهنه رجاء أن تشغله الفتنة الناشئة يومذاك ضده عن مطالبته · الا أن الامور دارت على غير ما اشتهاه سالم ، اذ انتصر أبو حمو على المفتتنين في بلده سنة 778 ، ولما رأى أبو حمو أن سالما لا يحرك ساكنا ، تقدم اليه بجيوشه وأوليائه ، فرأى سالم أن قد أحيط بأصحابه ، فلاذ بالطاعة لابي حمو وحمل عليها اصحابه ، وعقد لهم السلطان من ذلك على ما أرادوه وأخذ منهم أمواله (77) · ففي هذه الحادثة لم يتروع أبو حمو على الحرب في سبيل تحصيل أمواله ، وهذا يعني أنه كان حريصا جدا على نقل جبايات الاقاليم الى خزينته باستمرار ، وان ذلك أمر كان يحدث بقدر غير قليل من الانتظام ، هو الذي دفع لسان الدين بن الخطيب لان يقول في وصف سياسة أبو حمو المالية أنه كان « ··· جماعا للمال ··· حلب ضرع الجباية » (78) ، وبعث أبا زكريا بن خلدون ليقول ان من عناصر ازدهار حكم أبي حمو « مال يجبى فيخزن » (79) · وقد كانت نتيجة هذه السياسة الحكيمة ان أمرى بيت مال أبي حمو (80) ، ولم يعد بحاجة لان يمد يده طالبا المعونة المالية من غيره ، بل انه استطاع بماله أن يعين أهل الاندلس على جهادهم ضد الروم بالمال والذهب والفضة والزرع والخيل المسومة والمراكب المشحونة مرتين على الاقل ، سنة 763 وسنة 767 ، (81) واستطاع به أيضا أن يستألف الاعوان في الحروب ـ كما مر من قبل ـ (82) وأن يخزنه لحين الحاجة اليه في الظروف الطارئة ، وقد جاءت تلك الحاجة في تاريخ أبي حمو سنة 776 ، عندما نزلت بالبلاد مجاعة عظيمة شاهدها أبو زكرياء ابن خلدون ووصفها فقال : انها نتجت عن اعصار عظيم أهلك زرع صائفة تلمسان وحيوانها ، فأكل الناس بعضهم بعضا وافتقروا الى ما لدى السلطان ، فتصدق عليهم بنصف جبايته كل يوم على ضعفائها ، يجتمعون في الرحاب الفسيحة المعينة فيقسم حفظة الملك الارزاق عدلا بينهم ، كذلك

77) انظر العبر 7 : 138 ·
78) الاحاطة 10 (مخطوط الرباط) 115 ·
79) البغية 2 : 11 ·
80) انظر الاحاطة (مخطوط الرباط) 115 ·
81) انظر البغية 2 : 325 — 326 ·
82) البغية 2 : 11

قرر أبو حمو بمناسبة المجاعة أن يضم هؤلاء الضعفاء أجمعين فى بيمارستانات ياتيهم رزقهم فيها صباح مساء ، شتاء السنة وربيعها ، حتى دعاهم خصب البادية ودرور ضروع ماشيتها الى الاصحار اليها ، وفتح أهراء الزرع وأباح بيعه للناس ، وخفض سعره ، بحسب ما اقتضته المجاعة وأحكامها (83) فهذا التدبير الذى قام به أبو حمو كان ولا شك نتيجة لسياسة مالية حكيمة كان يتبعها فى السنوات السابقة على سنة المجاعة ، وذهب فيها الى خزن المال دون انفاقه كله تحسبا للطوارىء ٠

غير أن هذا الخزن لم يجعل أبا حمو ـ فيما يبدو يقصر فى حقوقه تجاه موظفى دولته وجيشه من ناحية أرزاقهم وعطاءاتهم ، وهذا أمر يستدل عليه من قول ابن خلدون عنه : ان من عناصر نجاحه « أرزاق تنفذ وتوزن » (84) ٠

والحديث عن السياسة المالية لابى حمو يقود الدارس الى البحث فى السياسة الداخلية له اذ ذاك يجد أول ما يجد اتجاه أبى حمو الى الحرص على انزال الناس فى مراتبهم الصحيحة دون تزيد ولا تنقص ، ولذلك رفع من مرتبة نفسه عن سائر الناس وأبدى غضبه ممن لا يقبل يده ولا يبايعه (85) والتزم بالوقار والهيبة ووضع الحجاب على بابه ، فلما دخل مجلسه أبو زكريا بن خلدون للمرة الاولى سنة 764 دهش لما رآه هنالك من مظاهر الرسميات ، وصور ذلك بعبارة بليغة قائلا : (وفتح الباب ، ورفع دونى الامن والاجلال والمهابة والاجلال ، فلم ارتب فى كسرى المدائن والايوان ، أو طور الحجى محتفا بنور الايمان) (86) ٠ وكما طبق أبو حمو حفظ المرتبة على نفسه كذلك طبقها على أهل مجلسه من رجال دولته ومجالسيه (87) بل وعد الناس عامة ، كما نراه فى الاحتفال بالمولد النبوى الشريف ، فان الضيوف

83) انظر فى ذلك قصة حدثت له مع أحد المرابطين الصوفية . اذ غضب عليه أبو حمو لانه لم يبايعه ويقبل يده ثم عفا عنه لما علم مكانه من التصوف (انظر البستان : 174) .

84) البغية 1 : 142 ٠

85) انظر البغية 2 : 132 ٠

86) انظر البغية 2 : 114 و 174 ٠

87) انظر ما سبق ، ص 12 والحاشية رقم 2 ٠

فيه كانوا يجلسون » على مقاعد عينها الاختصاص ورتب بعضها فـــوق بـعض المناصب » . (88).

والذى يستنتجه الناظر فى تاريخ أبى حمو أن أبا حمو كان يوجه جل اهتمـامه الى الرجال الذين يعينونه فى تصريف أمور دولته ، من الوزراء والكتاب وأصحـــاب الاشغال والعمال والقضاة والقواد ، وأن هؤلاء كانوا اكثر من يتعامل معهم ويتصـــل بهم ويستأنس برأيهم، وقد كان أبو حمو حريصا منذ اليوم الذى بدأ فيه ملكه بتلمسان أن يختار كبار رجال دولته ، اذ يذكر أبو زكريا ابن خلدون ، انه فيه اختار وزيـره وصاحب اشغاله وصاحب انشائه وتوقيعه وقاضيه (89) ، وكل هذا مما يضع الناظر فى حكم أبى حمو فى جو « بيروقراطى غير خاف » .

وقد اظهر أبو حمو بشهادة ابن خلدون ميلا الى «تحديد الحدود وترتيب الالقاب» (90) وهذا يعنى انه كان يختار لكل منصب من مناصب الدولة الرجل الذى يحمل مـــن الكفايات ما يؤهله لملء المنصب المراد وضعه فيه . ولا يخبرنا تاريخ أبى حمو بشىء عن مدى تفرس أبى حمو فى الرجال الذين اختارهم لادارة دولته ، كما لا يخبرنا بالشىء الكثير عن العدد الكبير الذى لا بد كان متوليا لمناصب الدولة فى سنى ملك أبى حمـو الاحدى والثلاثين ، ولكن مما نعرفه عن مجموعة صغيرة من رجال دولة أبى حمـــو ، نلاحظ أن أبا حمو لم يوفق فى اختيار معظم هؤلاء الرجال ، من الوزراء والعمـــال والقواد والسفراء والكتاب ، فانه اذا كان قد احسن اختيار عبد الله بن مسلم لوزارته، لما ظهر من اخلاص عبد الله له وشجاعته فى الدفاع عن بلده حتى الموت (91) ، فلقد اساء اختيار الحاج أبى عمران موسى بن على بن برغوث فى المنصب نفسه (92) لان هذا

88) البغية 2 : 40 .

89) انظر البغية 2 : 38 .

90) البغية 2 : 310 .

91) انظر العبر 7 : 123 — 127 .

92) انظر البغية 2 : 38 .

لـــم يظـــل عـــلى ولائـه له اثنا الاحتلال المرينى الثالث ، ولذلـــك فان أبا حمــو نفـــاه الى الاندلس عندمـا رجـــع الى تلمســـان (93) • قـــال ابن خلـــدون : « لاشعـاره اياه لباس الوزارة ولـــم يعمـــل بمقتضاها » (94) واذا كان عامـــلا ابى حمو وولده المنتصر وأبو زيـان قـــد ظلا عـــلى طاعة والدهما أبى حمو (95) فان ابنه الآخر وعامله أيضا أبا تاشفين تآمر على كاتبه أبى زكريا بن خلدون وقتله (96) ، واستعان عليه هو نفسه بالعدو لاجل قتله (97) ، رغم انه كان أحب أولاده اليه وقـد اعطاه ولاية عهده ، وأطلق يده (سنة 776) على السيف والقلم والخراج والحكـــم فى دولته (98) • كذلك مر قبل كيف عصى سالم بن ابراهيم عامل أبى حمو على الجزائر أبا حمو وكاد يخرج عن طاعته (99) ، ولم يكن توفيق أبى حمو مع القواد احسن بكثير، فنحن نعلم أن أحدهم ـ وهو عثمان بن مسلم الزردانى ـ ابطن النفاق ضد أبى حمو وتسلم قيادة أحد جيوشه ثم انحاز الى عدوه (100) ، وان اثنين آخرين خاناه وتركاه الى عدوه أيضا وهما : وادقل (واتقل) بن عبو بن حمادن وسعيد بن تصاليت (101) فاضطر أبو حمو الى قتلهما بعد ان عاد من تشرده (102) ، وكذلك فعل بمحمد بن عمر البريطل (103) ، سفيره الى ملك المغرب وغيره أيضا (104) • أما يحيى بن خلـــدون كاتب أبى حمو الذى نعرف عنه قدرا أكبر من المعلومات ، الذى ارخ للسنوات الـتى

93) انظر البغية 2 : 274 .
94) البغية 2 : 274 .
95) انظر العبر 7 : 140 و 143 و 145 .
96) انظر العبر 7 : 14 .
97) انظر ما سبق : ص 10 .
98) انظر البغية 2 : 313 والعبر 7 : 139 .
99) انظر ما سبق ص : 18 — 19 .
100) انظر البغية 2 : 193 .
101) انظر البغية 2 : 161 و 240 و 254 و 269 .
102) انظر البغية 2 : 274 .
103) انظر البغية 2 : 274 .
104) انظر البغية 2 : 166 و 207 و 224 و 234 .

شهدها من ملك أبي حمو ، فانه انضم الى دولته معززا مكرما سنة 766 (105) ولكن عندما حالت ظروف أبي حمو واستولى المرينيون على بلاده سنة 772 وهرب أبو حمو الى البادية ، لم يتمسك به ولم يعينه في محنته ، وانما فارقه « لخيالات سوداوية ونزعات شيطانية » (106) ، وعندما عادت أحوال أبي حمو فمالت الى الصعود ، رجع اليه يحيى سنة 776 ، وعبر عن ندمه على ما فعله معه في السابق « معترفا » بالذنب ، متبرئا من الاصرار ، مستقيلا العثار » (107) ، فغفر له أبو حمو زلته ، وعفا عنه ، واعاده الى خطته وسابق جرايته • (108)

فأبو حمو اذن لم يوفق في اختيار عدد غير قليل من رجال دولته ، وهذا لا شك أمر يعود الى قصور فراسته فيهم بالدرجة الاولى ، وان كان يمكن اعتبار تغير الاسياد ، والخوف الغالب من الاعداء والمصلحة المستحكم طلبها في النفوس ، اسبابا أخرى تنضاف الى قصور فراسة أبي حمو ، وتسهم في أن يكون عدد رجال دولته من غير اصحاب الكفاية لها • غير انه لا بد أن نلاحظ أن أبا حمو لم يكن رفيقا اجمالا فيمن يخون عهده ووظيفته ، وما فعله بوزيره أبي عمران وقواده هو أبلغ برهان على انه في نهاية المطاف كان يبقى مفاتيح أمور دولته بيده •

هذا الدور الفعال لبيروقراطية الدولة ـ سلبا وايجابا ـ كان يقابله دور ساكن صامت لسائر الرعية في دولة أبي حمو • وكل ما نعرفه عنهم في هذا المجال ان أبا حمو كان يهتم بالرفق بهم واكرامهم والعطف عليهم في الازمات ، كما في حادثة المجاعة السابق ذكرها (109) ـ انه كان يقيم العدل فيهم : فيعقد لمظالمهم المجالس كل يوم بعد صلاة العصر ، وهذا مجلس وصفه أبو زكريا بن خلدون وصفا حيا فقال : « فاذا صلى العصر واقتعد سرير الخلافة ، فتحت الابواب ، واذن لهم فدخلوا لا يحويهم الكت

---

105) انظر التعريف بابن خلدون : 102 ـ 103 ، وانظر أيضا ازهار الرياض 1 : 238 .
106) البغية 2 : 238 •
107) البغية 2 : 307 •
108) انظر البغية 2 : 308 •
109) انظر ما سبق ، ص : 19 ـ 20 •

والحساب ، ثم اصطفوا شاخصة ابصاوهم تجاهه ، يذكر مرآهـم المعرض الاكبـــر ، فيقدمون اليه واحدا بعد واحد ، سواء في ذلـــك الشريف والمشروف ، والقـــوى والضعوف ، فينصب المظلوم ، ويعد المستجير ، ويهدى العائل ويرحم المسكين ، الى غروب الشمس ، سنة متصلة غير منفصلة ، وعادة مبتعدة لا تهمل » • (110)

اما فيما عدا ذلك فالرعية (باستثناء البيروقراطية الحاكمة) لا يكاد يكون لهـــا وجود يرى أو صوت يسمـــع •

على ان أبا حمو خدم الرعية ـ فى مجملها ـ عندما قام ببعض النشاط العمـرانى لاجلها الا ان الناظر فى أنواع هذا النشاط يجده قليلا فى مجمله ، كما يجـده ـ فى معظمه ـ متجها وجهة دينية نابعة من صلب اهتمام أبى حمو بالامور الدينية اجمـــالا واعراضه عن اللذات الدنيوية على اشكالها (111) • ولا يشكل استثناء عليها ســـوى تشييده لدار الصناعة السعيدة ـ ذات الفائدة الحربية ـ وهى دار جمع فيها الصنـاع على اختلاف صناعاتهم ، فكان العمل يقوم فيها على قدم وساق ، وتعرض منتجاتهـــا مرتين فى اليوم امام الخليفة ، وقد وصف الكاتب أبو زكريا ابن خلدون هذه الـــدار وصفا بليغا قال فيـــه :

« ••• ان دار الصنعة السعيدة تموج بالفعلة على اختلاف اصنافهم وتباين لغاتهم وأديانهم ، فمن دراق ورماح وذراع ولحام ووشاء وصراج وخباء ونجار وحداد وصائـغ ودباج وغير ذلك ، فتستك لاصواتهم وآلاتهم الاسماع ، وتحار فى احكام صنائعهـم الاذهان ، وتقف دون بحرهم الهائل الابصار • ثم تعرض قومتهم أصيلان كل يـــوم مصنوعاتهم فيه بين يدى الخليفة أيده الله ، ويخزن كل بحجار صنعه المعد له ، وينصف العاملين من ارزاقهم عدلا ، هكذا ابدا » • (112)

وكان مما اشتغل به أبو حمو من العمران الدينى سنة 763 انشاء اكبر اثر بنيانى تركه فى تلمسان وهو المدرسة مع الزاوية التى بناها على قبر والده وقبـــرى عميـه

110) البغية 2 : 11 ـ 12 •
111) انظر الاحاطة 15 (مخطوط الرباط) 115 •
112) البغية 2 : 161 •

أبى سعيد وأبى ثابت . وقد عين أبو حمو الاوقاف والجرايات بها من العقار المنوع(113) وانفق عليها الاموال الكثيرة ، وضاعف بها عدد العمال ، واحضر لها احسن المغارس ، وأعلى بناءها ، ووسع ابنيتها ، واستجلب المياه ، ورسم فيها الخطط (114) . وعندما جهزت سنة 765 ، اصطفى لتدريس العلم بها الفقيه أبا عبد الله محمد بن أحمد الشريف الحسنى (771) (115) وكان افتتاح الاقراء بها فى 15 صفر سنة 765 ، فحضر أبو حمو الافتتاح ، وكان يوما مشهودا . (116)

والى نفس النوع من العمران الدينى ينتمى احتفال أبى حمو بالمولد النبوى احتفالا ليس له نظير . وقد احتفل به للمرة الاولى فى السنة الاولى من توليه سلطان تلمسان (سنة 760) ، فدعا اليه الخاصة والعامة من أهل تلمسان وحشد فيه الوان الآلات الطريفة ، واسمع الكثير من الامداح النبوية ، وبعضها من تأليف السلطان نفسه ، فتحدث الناس فيه (117) . وما لبث أن رتب السلطان لهذا الاحتفال كل سنة ، فصار من المناسبات التى يستعد التلمسانيون لها سنة بعد سنة ، ويتبارى الشعراء ومن بينهم أبو حمو فى نظم القصائد والموشحات والمخمسات فى مدح النبى بها (118) ،

113) البغية 2 : 104 .

114) البغية 2 : 136 .

115) انظر ترجمة الشريف الحسنى فى نيل الابتهاج : 255 والبستان فى ذكر الاولياء والعلماء بتلمسان : 164 — 184 .

116) انظر البغية 2 : 136 .

117) انظر البغية 2 : 40 وما بعدها .

118) انظر امثلة من امداح أبى حمو النبوية فى الواسطة : 167 — 174 والبغية 2 : 41 — 44 و 65 — 67 و 84 — 88 — 97 — 99 و 125 — 126 و 137 — 139 و 152 — 154 و 162 — 164 و 186 — 189 و 208 — 210 و 224 — 226 .

ومولديات أبى زكريا بن خلدون فى البغية 2 : 215 — 222 و 230 — 234 ونفح الطيب 6 : 510 — 513 و 515 — 517 .

ومولديات محمد بن يوسف الشغرى فى البغية 2 : 44 — 47 و 68 — 72 و 127 — 130 و 189 — 193 و 210 — 214 و 226 — 230 .

ومولديات الحاج أبى عبد الله بن أبى جمعة المعروف بالتلالى طبيب تلمسان فى البغية 2 : 47 — 49 و 72 — 75 و 100 — 101 و 139 — 142 و 154 — 155 و 164 — 166 .

وقد وصف أبو عبد الله التنسي هذا الاحتفال غير مرة ، فمما كتبه عنه في كتابه « نظم الدر والعقيان في شرف بني زيان وذكر ملوكهم الاعيان » •

وكان السلطان أبو حمو يقوم بحق ليلة مولد المصطفى صلى الله عليه وسلم • ويحتفل لها بما هو فوق سائر المواسم • يقيم مدعاة يحشر لها الاشراف والسوقة ، فما شئت من نمارق مصفوفة ، وزرابي مبثوثة ، وشمع كالاصطوانات ، واعيان الحضرة على مراتبهم تطوف عليهم ولدان قد لبسوا اقبية الخز الملون وبايديهم مباخر ومرشات ينال كل منها بحظه ، وخزانة المنجانة ذات تماثيل لجين محكمة الصنعة ، باعلاها ايكة تحمل طائرا فرخاه تحت جناحيه ، ويختله فيهما ارقم خارج من كوة بجذر الايكة صاعدا ، وبصدرها ابواب مرتجة بعدد ساعات الليل الزمانية ، يصاقب طرفيها بابان كبيران ، وفوق جمعها دوين رأس الخزانة قمر اكمل يسير على خط الاستواء سير نظيره في الفلك ، ويسامت أول كل ساعة بابها المرتج ، فينقض من البابين الكبيرين عقابان ، يفي كل واحد منهما صنجة صفر يلقيها الى طست من الصفر المجوف بوسطه ثقب يفضى بها الى داخل الخزانة فيرن وينهش الارقم أحد الفرخين ، فيصفر له أبوه ، فهناك يفتح باب الساعة الذهبية ، وتبرز منه جارية محتزمة كاظرف ما انت راء ، بيمناها اضارة فيها اسم ساعتها منظوما ، ويسراها موضوعة على ما فيها كالمبايعة بالخلافة ، والمسمع قائم ينشد امداح سيد المرسلين وخاتم النبيين سيدنا ومولانا محمد صلى الله عليه وسلم ، ثم يؤتى آخر الليل بموائد كالهالات دورا ، والرياض نورا ، وقد اشتملت من أنواع محاسن المطاعم على الوان تشتهيها الانفس وتستحسنها الاعين ، وتلذ بسماع اسمائها الاذان ، ويشره مبصرها للقرب منها والتناول ، وان كان ليس بغرثان • والسلطان لم يفارق مجلسه الذى ابتدأ جلوسه فيه وكل ذلك بمرأى منه ومسمع حتى يصلى هنالك صلاة الصبح • على هذا الاسلوب قضى ليلة المصطفى صلى الله عليه وسلم في جميع أيام دولته ، وما من ليلة مولد مرت في أيامه الا ونظم فيها

قصيدا فى مدبح مولد المصطفى صلى الله عليه وسلم ، أول ما يبتدىء المسمع فى ذلك الحفل العظيم بانشاده • ثم يتلوه انشاد من رفع الى مقامه العلى فى تلك الليلة نظما(119)

كذلك أقام السلطان أبو حمو احتفالا كبيرا سنة 770 لمناسبة ختم ولده الناصر لسورة البقرة (120) ، واحتفالا ثانيا مماثلا لمناسبة الختمة نفسها من قبل ولده الآخر أبى زيان سنة 776 (121) ، دعا اليها ـ على حد تعبير أبى زكريا بن خلدون « الامم عربها والعجم » (122) و « الاشراف والمشروف والرفيع والوضيع » (123) ، وحشد فيهما أصناف المغنين وأرباب العزف والآلات الموسيقية بتلمسان، فاجتمع الناس بداره، وابتهجوا بالغناء على أنواعه ، وطعموا من ألوان الطعام العديدة المقدمة لهم عنده ، فكان هذان اليومان من الايام المشهودة • وهذان الاحتفالان أيضا مما يقع فى دائرة العمران الديني •

ومما يقع فى دائرة العمران الدينى أيضا قيام أبى حمو بالانعام على حجاج بيت الله الحرام ، وتحميلهم قصائد الشوق الى النبى والى الحرم (124) • كما يقع فيه اتجاه أبى حمو الى العناية بمعالجة الموضوعات الدينية فى شعره الكثير ، حتى لم يكد يخرج هذا الشعر عن المولديات والتشوق الى النبى، وما الى ذلك (125) وقد فرض هذا الاتجاه

119) نقلا عن نفح الطيب 6 : 514 — 515 ، وقد اورد التنسى وصفا آخر للاحتفال بالمولد النبوى فى تلمسان فى كتابه الآخر . روح الارواح . وقد نقله المقرى فى النفح 6: 513 — 514 •

120) انظر : البغية 2 : 223 •

121) البغية 2 : 313 •

122) البغية 2 :

123) البغية 2 : 310 •

124) انظر) الواسطة : 10 •

125) عرف لابى حمو غير اشعاره الدينية قصيدة فى رثاء والده (البغية 2 : 104 — 107) وقصيدة فى وصف مخاطرته حتى وصل الى تلمسان (الواسطة : 15 — 19) وأخرى فى وصف مقاسياته فى المنفى بين سنتى 772 و 774 (البغية 2 : 264 — 268) وقصيدة فى مخاطبة وزير المغرب (البغية 2 : 156 — 159) وقصيدتان فى الفخر (الواسطة : 6 والبغية 93 — 95) •

فى الشعر نفسه على من اتصل بأبى حمو من شعراء عصره ، اذ نظم المولديات وما شابهها أشهرهم من أمثال محمد ابن قيس الثغرى كاتب أبى حمو ، وأبى زكريا يحيى ابن خلدون كاتبه الآخر ، ثم طبيب تلمسان ابن أبى جمعة المعروف بالتلالسى (126) وان لم يصرفهم هذا عن نظم الشعر فى مدح أبى حمو والاشادة بعمران تلمسان زمانه (127) وقد بلغت مجموع قصائد أبى حمو وقصائد الشعراء الذين مدحوه درجة من الكثرة تمكن معها أبو عبد الله التنسى من جمع كتاب كامل منها سماه (راح الارواح فيما قاله المولى أبو حمو من الشعر وقيل فيه من الامداح ، وما يوفق ذلك على حسب الاقتراح) (128) وفى هذا دليل على نشاط الحركة الشعرية فى تلمسان زمن أبى حمو .

* * *

تلك كانت فصول التجربة السياسية لابى حمو ، ومنها يبدو لنا أبو حمو ملكا شجاعا مقداما شديد العزيمة يقظا صابرا عظيم المقدرة على الاحتمال ، رابط الجاش ، مقدما الكفاح فى سبيل البقاء فى سلطانه على كل شىء وهو أيضا ملك « موصوف برجاحة وسداد » (129) كما قال لسان الدين بن الخطيب ، يعنى بجيشه فى سبيل الانتصار فى الحرب ، وبماله فى سبيل الاستقرار فى الملك والانتصار فى الحرب واعانة المجاهدين فى الاندلس معا . كذلك هو رجل دولة من طراز رفيع ، لا يخلط بين مراتب الناس ، ولا يتصنع فيجعل نفسه كواحد منهم، بل يضل متسما بالوقار والهيبة ويعتنى باختيار يده اليمنى ـ رجال دولته فيخطىء ويصيب ولكنه لا يلقى بمفاتيح الدولة الى أحد غيره . أما سائر الرعية فانه يحسن اليها ويعدل فيها ويرفق بها،ولكن لا يعيرها القدر الكبير من الاهتمام ، وان كان يحاول أن يخدمها ببعض العمران المتجه وجهة دينية أو حربية ، متعلقة بميوله الاصلية فى الاعراض عن الملذات الدنيوية ، والاهتمام

126) انظر ما سبق ، ص 26 ، الحاشية رقم 1 .

127) انظر امثلة من هذه القصائد فى البغية 2 : 10 — 19 و 45 — 49 و 96 — 97 — 100 — 101 — 107 — 109 و 114 — 122 — 125 و 143 — 145 و 287 — 296 و 296 — 299 و 311 و 313 و 315 — 325 و 329 و 333 — ونفح الطيب 6 : 500 — 508 .

128) نفح الطيب 6 : 513 .

129) اللمحة البدرية : 107 .

بالاغراض الدينية · ولما أراد لسان الدين بن الخطيب أن يبين صفات أبى حمو قال فيـــه :

« هذا السلطان مجمع على حزمه وضمه لاطراف ملكه ، واضطلاعه باعباء ملـــك وطنه ، وجره لدولة قومه ، وطلوعه بعادة قبيله ، عاقل حازم حصيف ثابت الجـــأش وقور مهيب ، جماع للمال ، مباشر للامور ، هاجر الملذات ، مشمر يقظ ··· ونبهت دولته ، وأتعب جيرته ، فهو ممن يشار اليه بالسداد » · (130)

وبعد : فان أبا حمو هذا كان أديبا مفكرا سياسيا ، وهو صاحب كتاب « واسطة السلوك فى سياسة الملوك » الذى ضمنه نظرية السياسة فى الحكم وهو موضـوع دراستنا فيما يـــلى : (2)

أما ان الكتاب لابى حمو ، فامر ليس فيه شك قط ، واظن أن لسان الدين بن الخطيب عناه هو دون أن يسميه فى قصيدته السينية فى مدح صاحبه أبى حمو وذلك فى قوله :

أما سياستـك الـــتى أحكمتهـــا ورمـت بالتقصـــير رسطاليـــا

فلو أن كسرى الفرس أبصر بعضها ما كان يطمع أن يعدى سوسا(131)

كذلك ذكر الكتاب كل من يحيى بن خلدون (132) والمقرى (133) ، وكلاهما سمـاه « نظم السلوك فى سياسة الملوك » (134) ، وهو أمر مستغرب ، لان أبا حمو سماه ـ بنصه على ذلك « واسطة السلوك فى سياسة الملوك » (135) ، وكذلك فعل لسان الـديـن

---

130) الاحاطة 15 (مخطوط الرباط) 115 ، ويذكر فى هذا المجال ان ابن الاحمر صاحب روضة النسرين وصف أبا حمو بالجبن والبخل ، (ص 17) ولكن هذا يحمل على محمـل التحامل لا غير (انظر صفحة 44 ــ 45 من الكتاب نفسه) .

131) البغية 2 : 290 والنفح 6 : 198 .

132) انظر البغية 2 : 8 .

133) انظر ازهار الرياض 1 : 249 .

134) انظر البغية 2 : 8 والازهار 1 : 249 ، واسقط ابن خلدون القسم الثانى من العنوان

135) الواسطة : 3 .

ابن الخطيب ، الذى شاهد الكتاب فى جملة هدية أبى حمو الى ابن الاحمر النصرى (136) مما يؤكد صحة اسمه كما وردت فى كتاب أبى حمو ·

أما تاريخ كتابة الكتاب فلا نعرف سنة معينة له على وجه التدقيق ولكن الامــــر المؤكد انه كتب سنة 760 لان أبا حمو يتحدث فيه عن رحلته الى تلمسان واستقـــراره ملكا بها تلك السنة (137) وقبل سنة 777 ، لان يحيى بن خلدون كان عارفا بوجـوده وهو يكتب تاريخه بغية الرواد » وهذا التاريخ ينتهى عن سنة 777 · فاذا شاء الدارس أن يتلمس المزيد من التحديد لتاريخ كتابة هذا الكتاب ، فربما امكنه ان يحدد الفتـرة بين 771 و 777 ، لان واحدة من القصائد التى ذكرها أبو حمو بين قصائده فى كتابــه ذاك (138) انشدت فى الاحتفال بالمولد النبـــوى سنة 771 (139) ، وكان من عادات أبى حمو أن حمو ينظم قصيدة أو أكثر فى كل موسم (140) ، فاذا صح ان هذه القصيدة كانت مما نظمه خصيصا لذلك الموسم ، كان الافتراض بأن الكتاب ألف بعد سنة 771 (وقبل سنة 777) صحيحا ·

وقد أوضح أبو حمو هدفه من كتابه هذا فى مقدمته عليه مبينا أنه كتبه ليتحف به ابنه وولى عهده ووارث مجده والخليفة ان شاء الله بعده ، ولاجل ذلك ضمنـــه « وصايا حكيمة وسياسة عملية علمية ، مما يختص به الملـوك وتنتظم بهـا أمورهـــم انتظـام السلوك » (141) وهذا يعنى أن الفكر السياسى المسجل فى هذا الكتاب يحتوى عـــلى ما يمكن أن يكون ذا فائدة لابى تاشفين بن أبى حمو ، من بنى زيان ، يعيش فى القـــرن الثامن الهجرى ، ويتوقع يصير ملكا فى وقت من الاوقات ، فاذا توصـــل بحـول اللــه أن يصير ملكا ، كان الكتاب خير دليل له فى السياسة العملية والنظرية · فهل نستطيع

---

136) انظر الاحاطة 15 (مخطوط الرباط) ، 115 .
137) انظر الواسطة : 13 — 14 .
138) انظر الواسطة : 172 .
139) انظر البغية 2 : 224 .
140) انظر النفح 6 : 515 نقلا عن نظم الدر والعقيان .
141) الواسطة : 3 .

أن نجد فى هذا الكتاب نظرية أصيلة لابى حمو تختلف عن نظريات المؤلفين الكثر فى السياسة من المسلمين ؟ أو بكلمات أخرى • كم هو مقدار الاصالة فى نظرية أبى حمو السياسية ، اذا كانت هنالك لديه نظرية ؟

ان المدخل الاساسى للاجابة على هذا السؤال هو النظر فى المصادر التى استقى منها أبو حمو أقواله وفى مدى خطورة الاثر الذى تركته هذه المصادر ـ ان وجدت ـ فى أقواله • وفى هذا المجال يطالعنا المقرى بنص اتهامى صريح يقول فيه ان أبا حمو بكتابه « لخص ••• سلوان المطاع لابن ظفر ، وزاد عليه فوائد ، وأورد فيه جملة من نظمه ، وأمورا جرت له مع معاصريه من ملوك بنى مرين وغيرهم (142) فهذا القول يسلب أبا حمو الجزء الاكبر من « الاصالة » فى كتابة كتابه اذ يجعله الكتاب ـ فى جانبه الاعظم ـ تلخيصا لسلوان المطاع • فهل كان الكتاب فعلا كذلك ؟

ان الناظر فى كتاب أبى حمو يلاحظ أن الرجل يميل الى عدم ذكر المصادر التى ينقل عنها فى كتابه ، ولكنه يلاحظ أيضا أنه ذكر ابن ظفر مرة عرضا • وذكر كتاب سراج الملوك للطرطوشى مرة أخرى مصدرا صريحا له • وهذا القولان يدلان على أن المؤلف لم يكن **يتعمد** اخفاء مصادره ، ولكنه لم يجد ضرورة لذكر هذه المصادر فى درج كلامه • فاذا حاول الدارس أن يتتبع نقول أبى حمو نصا عن المصادر فى السياسة وما شابهها ـ **بقدر الامكان** ـ وجده ينقل عن أربع مصادر رئيسية ترتيبها بحسب كثر النقول عنها :

أ) كتاب سراج الملوك للطرطوشي (520) ونقل عنه فى 20 موضع على الاقل

	السراج	الواسطة
1) قصة الهرمزان وعمر	90	119
2) قصة معاوية وصعصعة بن صوحان وسؤال الاول عن عمر	98	119 ـ 120
3) قصة عمر والربيع بن زياد الحارثى	227 ـ 228	73

142) الازهار I : 249 •

	السراج	الواسطة
4) عمر بن عبد العزيز يتحدث عن الظلمة فى الاسلام	263 ـ 264	121
5) عبيد الله بن مروان الحمار وملك النوبة	93 128	129
6) دوبان الحكيم والمامون	328 ـ 329	64 ـ 65
7) نظام الملك والصوفى أبى سعيد	217 ـ 218	164 ـ 166
8) المنصور بن أبى عامر والوزير المصحفى	303 ـ 304	117 ـ 118
9) المستعين بن هود وابن ردمير	302 ـ 303	116 ـ 117
10) قصة ملك بلدفور (بلد قوزانة)	211	125
11) قصة أحد الملوك وتفاضل المال والجيش	211	125
12) حديث قدسى عن العدل	255 ـ 256	119
13) حديث نبوى عن العدل	76	118 ـ 119
14) قول لوزياد فى المزارعين	208	78
15) قول لجعفر بن يحيى فى الخراج	208	78
16) فى أن العقل قسمان غريزى ومنتسب	113 ـ 114	22
17) حكمة للحكماء فى العدل	88	119
18) حكمة عن الاسد والثعلب والقيادة	299	78
19) تشبيه مكان الوزير بين الملك والرعية بالطبيب	120	34
20) تشبيه وزير السوء بالماء الصافى فيه تمساح	120	34

ب) **كتاب العقد لابن عبد ربه** (328) ونقل عنه فى 7 مواضع :

	العقد	الواسطة
1) حديث عمر وأبى هريرة	46	74
2) عمر والحارث بن وهب	46	74
3) عمر وعمرو بن العاص	46 ـ 48	74 ـ 75
4) عمر ومعوية	48 ـ 49	75 ـ 76
5) عمر وأبو سفيان	49	76

6) خبر المامون والمرأة فى مجلس المظالم	28 ـ 29	85
7) حديث نبوى عن العدل	28	118

ج) **كتاب المنهج المسلوك فى سياسة الملوك** لعبد الرحمن بن عبد الله (القرن السادس) ونقل عنه فى 7 مواضيع :

	المنهج المسلوك	الواسطة
1) خبر عمر مع والى حمص	118 ـ 119	76 ـ 77
2) القول فى الحسد وقصة خاقان ملت الترك مع بهرام ملك الفرس	58 ـ 64	104 ـ 109
3) تشبيه الملك العظيم بثمانية اشياء	88 ـ 89	111 ـ 112
4) تشبيه المملكة بالبستان	89 ـ 90	112 ـ 113
5) الرعية والملك	90 ـ 91	113 ـ 114
6) الملك والعدو	91 ـ	114
7) نصائح عامة للملك (143)	91 ـ 92	114 ـ 115

د) **سلوان المطاع فى عدوان الاتباع** لمحمد بن ظفر المالكى ونقل عنه فى ثلاث (3) مواضيع :

	السلوان	الواسطة
1) قصة الشيخ الفارسى والمامون	20 ـ 30	65 ـ 72
2) قصة وزير سابور	33 ـ 56	34 ـ 51
3) قصة حصن الاركن	61 ـ 80	89 ـ 103

143) كذلك أورد أبو حمو قصتى الشيخ الفارسى والمامون ، وحصن الاركن ، وقد وردتا فى المنهج : 81 ـ 85 و 76 ـ 81 على التوالى ، الا ان مؤلف المنهج نقلها عن ابن ظفر (انظر المنهج : 126) ، ولذلك يرجح ان أبا حمو نقلها من سلوان المطاع .

هذا بالاضافة الى مصادر أخرى ثانوية يصعب تحديدها بدقة ، ولا يفيد كثيرا الوقوف عليها ، لان النقل عنها جزئى فيما يتصور . (144)

والناظر فى نقول أبى حمو عن المصادر يلاحظ الملحوظتين التاليتين :

1 ـ ان كتاب ابن ظفر لا يشكل المصدر الرئيسى لكتاب أبى حمو من حيث عدد مرات النقل ، وان كان أبو حمو قد نقل عنه عددا كبيرا من الصفحات ، أكثر من أى كتاب آخر (28 صفحة من الواسطة) الا أن هذه الصفحات كلها لا تحتوى على غير قصص ثلاث ، وكلها مما نقله أبو حمو حرفيا عن السلوان ، وبذلك تكون دعوى المقرى أن كتاب الواسطة فى جانبه الاعظم تلخيص لكتاب السلوان دعوى باطلة .

2 ـ ان هذه النقول وغيرها مما لم احدد مصدره (145) لا تعدو أن تكون اما قصة تروى للتمثيل ، أو حكمة تذكر للاعتبار ، أو تشبيها يهدف الى تقريب القضية من الاذهان ، وأقل ما تكون بحثا فى مسائل مباشرة فى السياسة (مثل النقول الثلاثة الاخيرة عن المنهج المسلوك) ، وهذا يعنى أن أبا حمو لم يعتمد النقل عنها المصادر الا

144) من ذلك مثلا كتاب العقد الفريد للملك السعيد لابى سالم محمد بن طلحة القرشى النصيبى القاضى (ـ 602) فقد نقل عنه أبو حمو حديثا نبويا فى العدل (ص : 7 من العقد و 21 من الواسطة) . هذا فضلا عن ان بعض الاقوال التى فى كتاب أبى حمو يصعب تحديد مصدرها لشيوعها فى المصادر مثل القول (ص : 118) « فلا سلطان الا بجيش ، ولا جيش الا بمال ، ولا مال الا بجباية ، ولا جباية الا بعمارة ، ولا عمارة الا بالعدل » ، فقد وردت باشكال مختلفة ، منها بابدال كلمة « جيش » بكلمة « جند » فى سراج الملوك : 88 ـ 89 ، وباسقاط العبارة الرابعة فى الاقوال المنسوبة لاردشير (عهد اردشير : 16) وغير ذلك . هذا ومن المؤكد أن بعض النصوص الاخرى فى كتاب أبى حمو مأخوذة من المصادر مثل قصة خاتون أخت ملك الخزر (8 ـ 9) ، وقصة صاحب السحابة (24 ـ 25) وقصة المأمون مع ابن أبى حفصة (26) ، وقصة المنصور ومالك بن انس وابن أبى ذئب وابن سمعان (27 ـ 29) ، ولكن الاستدلال على المصادر التى أوردتها بنصوصها امر عسير ، ولا يؤثر فى اى استنتاج أساسى عن مصادر الكتاب .

145) انظر الحاشية السابعة .

فى نقاط جزئية جانبية ، وأن نقله ذاك لم يؤثر على بناء كتابه ، ولا على نظرية السياسة فى خطوطها العريضة ، بل كان عبارة تلمس لما فى المصادر وأخذ منها بمقدار ما يفيد هذا الاخذ فى تاكيد البناء الخاص والنظرية الخاصة ·

أما أن أبا حمو كان ذا تصور خاص لمبنى كتابه ، فأمر لا يرقى اليه الشك لانـــه مبنى ذكره بأقسامه الكبرى فى المقدمة بقــوله : « ورتبناه ترتيبا » وبوبناه تبويبا » ، وجعلناه على أربعة أبواب ···

الباب الاول : فى قواعد الملك والوصايا والآداب والحكم المرشدة الى طرق الصواب ·

الباب الثانى : فى قواعد الملك وأركانه وما يحتاج الملك اليه فى قوام سلطانه ·

الباب الثالث : فى الاوصاف التى هى نظام الملك وكماله وبهجته وجماله ·

الباب الرابع : فى الفراسة ، وهى خاتمة السياسة ، فهذه عدة الابواب (146) ·

عاد فحافظ عليه فى متن كتابه محافظة رقيقة جاعلا كل باب باستثناء الباب الاخـــير فى أربعة فصول :

فالباب الاول فيه أربع توصيات : الاولى الى الاتصاف بالعدل ، والثانية الى تغليب العقل على الهوى ، والثالثة الى حفظ المال ، والرابعة الى حفظ الجيوش والاجناد ·

والباب الثانى فيه أربع قواعد لحفظ الملك : قاعدة العقل ، قاعدة السياسة ، قاعدة العدل ، وقاعدة جمع المال والجيش ·

والباب الثالث فيه أربعة أوصاف محمودة للملك وهى الشجاعة والكرم والحلـــم والعفو حتى اذا وجد أبوحمو أن هناك تداخلا فى الموضوعات بين فصل وفصل أو باب وباب أسرع الى الاشارة الى أن بعض هذا الموضوع أو ذاك قد مر من قبل ، كأن يقول (وقد ذكرنا لك ترتيب الجيش فى قاعة السياسة) (147) أو يقول « وقد قدمنا لك أنه لا ينبغى لك أن تخاطر بنفسك» (147)، أو يقول « كما أشرنا لذلك فى باب السياسة»(147) فهذا

146) الواسطة : 3 — 4 ·

147) الواسطة : 123 — 130 — 150 ·

وأمثاله (148) ، يدل على شدة وعى أبى حمو بالبناء الـذى اختاره لكتابه ورغبته فى ألا يحتل ذلك البناء (149) ويؤكد أن أبا حمو بنى كتابه بناء على منهج تصور واضح فى ذهنه ، فاذا أضفنا الى ذلك أن مبنى الكتاب لا يتفق مع أى مبنى لاى كتاب آخـــر وصلنا فى السياسة ـ فيما وصل اليه اطلاعى ـ ادركنا اصالة الاطار العام لفكر أبو حمو السياسى واستقلاله من مؤثرات الخارجية التى كان يمكن أن تدخل على الكتاب من النقل عن المصادر •

وعندما يحاول الدارس أن يلتمس مـدى الاصالة فى فكـر أبى حمو السياسى فى تفصيلاته ، فانه لا يسعه الى أن يسجل النقاط التالية بالنسبة لكمية أخذه من المصادر وطبعتـــه :

1 ـ ان أبا حمو ينقل من أماكن متباعدة من المصدر الواحد ويدرجها فى مكان واحد فى كتابه (مثل ص : 78 ، فان فيها نقولا عن الطرطوشى ص : 208 و 299) •

2 ـ انه ينقل عن غير مصدر فى مكان واحد من كتابه (مثل ص : 73 ـ 78 ، فان النقل فيها يتراوح بين الطرطوشى والعقد والمنهج المسلوك فالطرطوشى مرة ثانية) •

ـ انه ينقل قصة أو حكمة مذكورة فى أحد المصادر تحت أحد الابواب فيضعها هو فى باب آخر غير ذلك الباب (مثل قصة حصن الاركن ، فان صاحب المنهج المسلوك يوردها تحت باب المشورة ، فيما يوردها أبو حمو تحت باب الوزير) •

---

148) انظر مثلا الواسطة : 151 و 153 •

149) لقد استطاع أبو حمو على وجه الاجمال أن يحافظ على سلامة بناء كتابـه وعدم اصأبته فى التكرار الكثير . ولكن وهناك نصا «طويلا» (ص 60 و 63) عاد فكرره حرفيا دون لزوم (ص 119 و 121) وهذا ـ فيما يبدو لى ـ ليس من عمل المؤلف وانما من اضطراب أوراق المخطوط الذى طبع عنه الكتاب . كذلك تكررت فقرات قصيرة عن دور الوزير وما هى الاشيام التى يشبه بها (ص 34) فى ص 103 ، ولكن هذه لم تؤثر فى بنام الكتاب . غير ان النص الوحيد الذى اصاب البنام بالخلل الحقيقى هو النص الطويل المذكور عن المنهج المسلوك (ص 111 و 115) . فهذا ادخل موضوعات منوعة غير ذات صيلة مباشرة بالموضوع الاصلى فى النص .

4 ـ انه يعمل يد الانتقاء بشدة فيما يأخذه عن المصادر ، فيسقط منها أشياء كثيرة كان الدارس يتوقع أن يجدها لديه ، بسبب كثرة ورودها فى كتب السياسة المؤلفة قبل ، حتى لقد اصبحت « كلاسيكية » الورود هناك (ومن بينها مصادر أبى حمو نفسه) ، وذلك مثل الاستشهاد بالآيات القرآنية ، فان ورودها نادر جدا لدى أبى حمو بينما هو كثير جدا فى كتب السياسة الاخرى ، وكذلك الشأن بالنسبة للحديث ـ وان كان أبو حمو يقوم بالاستشهاد به أكثر ، ومثل هذا طرق الموضوعات التى اصبحت «كلاسيكية» أيضا فى بعض الفصول المعينة من كتب السياسة ، مثل قسمة الوزارة الى وزارة تفويض ووزارة تنفيذ فان هذه لا وجود لها فى كتاب أبى حمو .

5 ـ وبالمقابل فان أبا حمو يعالج العديد من الموضوعات المطروقة كثيرا فى كتب السياسة معالجة جديدة ، مخالفة لمعالجة كتاب السياسة المسلمين وغيرهم لها ، وذلك بخاصة فى الابواب الاخلاقية ، فانها عنده لا تظل أبوابا أخلاقية وعظية صرفا وانما تلبس لباسا فلسفيا ، فالشجاعة تقسم الى اربعة اقسام : الشجاعة التى يصحبها الرأى والشجاعة التى لا يصحبها العقل ويصحبها الرأى ، والشجاعة المتوسطة والشجاعة التى لا يصحبها العقل ولا الرأى (ص : 129 ـ 135) ، والكرم يكون أيضا على اربعة انواع فى الملوك ، فمنهم من يكون كريما كرما متوسطا ، ومنهم من يكرم على رعيته دون نفسه وأهل بيته ومنهم من يكرم على نفسه وأهل بيته دون رعيته ومنهم من لا يكرم لا على رعيته ولا على أهل بيته (ص : 136 ـ 139) ، وكذلك الحال بالنسبة للحلم والعفو وغير ذلك أيضا .

6 ـ كذلك لا يكتفى أبو حمو بايراد الامثلة التى توردها المصادر على الافكار الرئيسية فى كتابه ، وانما يلجأ فى كثير من الاحيان الى ايراد أمثلة عليها من أحداث وقعت زمانه أو قبل زمانه بقليل ، ـ أحداث لم نجد أحدا غيره من كتاب السياسة يستفيد منها من حيث هو أنها تمثل عبرة يجب أن يعتبر السياسى أو الملك بها وذلك مثل حديثه عن لقاء أبى الحسن المرينى ، والطاغية الفنش وفى وقعة طريف (سنة 741) (ص : 132 ـ 133) وحديثه عن أبى تاشفين بن أبى حمو الاول الزيانى واخفاقه فى رد المرينى عن احتلال بلاده لانه فرط فى الجيش وعني بجمع المال (ص : 125 ـ 126) وغير ذلك .

بل انه استشهد بما وقع له هو نفسه من احداث ، مثل تفرسه فى عبد الله بن عمر وزير ملك المغرب ورسوله اليه (سنة 761) مثلا على وجوب التفرس بالسفراء (ص : 158 ـ 160) ومثل رواية حكاية حاله عندما خاطر بنفسه من تونس الى تلمسان طلبا لسلطانه (ص : 13 ـ 15) مثلا على ضرورة المخاطرة فى سبـــيل السلطان • وهذا كله مما يدل على حسن استيعاب أبى حمو للمواقف والآراء التى يتحدث عنها ، بحيث ان التمثيل عليها من دون الرجوع الى المصادر ـ يجىء طبيعيا دقيقا معا •

فأبو حمو اذن نقل فى كتابه عن المصادر فى السياسة وغيرها عند العرب ، الا أن هذه المصادر لم تستعبده بل كان هو الذى يطوع مادتها بحسب حاجته اليها وتصوره لفائدتها ، فيأخذ منها ما يدخل ضمن اطار نظريته الخاصة فى السياسة بوعى شديد ليبرز به خطوط النظرية الخاصة ، فاذا عرفنا أن نسبة المنقول عن المصادر لا يزيد بكثير على خمس مادة الكتاب ، وأن سائر الكتاب من عمل أبى حمو نفسه بالضرورة ، أدركنا أن حظ نظرية أبى حمو السياسية من الاصالة كبير جدا ، وأن كتاب « واسطة السلوك فى سياسة الملوك » خير ما يمثل أصالة هذه النظرية •

* * *

واذا شاء الدارس أن يتلمس السبب وراء هذا القدر الكبير من الاصالة فى نظرية أبى حمو السياسية ـ رغم توفر العديد من المصادر السياسية النظرية لديه وعـدم تحرجه من النقل عن تلك المصادر حرفيا فى بعض الاحيان ـ فان عليه أن ينظر فى مدى العلاقة بين تجربة أبى حمو السياسية فى الواقع وحديثه النظرى عن السياسة فى ذلك كتابه • ذلك ان أبا حمو كان هو نفسه ملكا ، خـلافا للغالبية العظمى ممن كتبـــوا فى السياسة قبله من المسلمين وغير المسلمين ، وكان قد شرع فى كتابه بعد انقضاء احدى عشرة سنة على توليه الملك ـ على الاقل ـ (760 ـ 771) ، فكانت قد توفرت له تجربة عريضة فى الحكم ، كان من الممكن أن تؤثر عليه وهو يصوغ نظريته عنه ، ومن خلال هذه التجربة ونجاح أبى حمو فى خوض غمراتها ، نشأ لديه شعور بالرضى عن الذات ، جعله يرى فى نفسه ما يمكن أن نسميه « الملك المثالى » فو يصرح فى أحـــد الاماكن من كتابه بعبارة ناصعة أنه الملك المثالى الذى يجب على الملك أن يقتدى بـه ،

وذلك فى قوله « فكذلك ينبغى لك أن تقتدى بكل أفعالنا ، ويؤل أمرك الى ما آل اليه مآلنا » (ص : 19) • وقد قام فى أماكن عديدة من كتابه بالنص على أن تصرفه هو التصرف السليم الذى على ابنه (أو على الملك) اتباعه ، فقال « وهذا يا بنى هو رأينا ••• فعلى هذا المنحى يكون سيرك ، فيرجى من الله خيرك » (ص : 5 و 7) وقال « نظمنا فى الشوق الى ••• المقـــام الشريف ••• قصيدة ••• فخذ يا بنى على هذا المثال ، وانسج على هذا المنوال » (ص : 10 و 11) ، وقال « واتبع آثارنا في القيام بليلة مولد النبى عليه السلام ••• » (ص : 167) ، كذلك استشهد غير مرة على القواعد السياسية الواجب على الملك اتباعها بما فعله هو من التصرفات الحميدة عندما كان فى السلطان ، فاستشهد بمخاطرته من تونس الى تلمسان على القاعدة القائلة ان المخاطرة فى سبيل السلطان هو الموقف الوحيد الذى تحمد فيه المخاطرة (ص : 13 ـ 19) ، واستدل على كيفية التفرس بالرسل من الملوك لاجل الاطلاع على خفايا النوايا لدى سلاطينهم بما فعله هـو ووزيره عبد الله بن مسلـم لـدى وصـــول عمـر بن عبـد الله وزيـــر المغرب اليها رسولا من قبل ملك أبى سالم المرينى (ـ 762) بل انه استغل كتابـــه مرات عديدة ليسجل فيه قصائد مـــن شعره فى مختلف الموضوعات الدينية وغـــير الدينية (ص : 5 ـ 7 و 10 ـ 11 و 15 ـ 19 و 167 ـ 174) ، مفتخرا بتلك القصائـد وحاضا ابنه على نظم مثلها اذا توفرت لديه الموهبة الشعرية (ص : 167) ، ومعتبرا أن القدرة على نظمها لما يزيد الملك جمالا الى جمال وكمالا الى كمال (ص : 167) •

والناظر فى تاريخ أبى حمو من ناحية وفى نظريته السياسية من ناحية أخرى يجد أن العلاقة بين تجربة أبى حمو السياسية فى الواقع ونظريته فى السياسة كما عرضها فى كتاب « الواسطة » علاقة وثيقة جدا ، تحددت فيها خيوط النظرية الى حـــد بعيد بمقدار ما كان الواقع يمدها به من أبعاد ، حتى ليكاد كتاب « الواسطة » أن يكون هو الوجه النظرى لما كان يطبقه أبو حمو فى الواقع ، أو لما كان يرغب أن يطبقه فى الواقع وأخفق فيه • ـ أقول « ليكاد » ، لان الكتاب يحمل دون شك أثرا آخـر ينضاف الى الواقع فى تكوين نظرية أبى حمو ، وهو الاثر الثقافى المستمد من الاطلاع ـ ولا أقول من المصادر التى نقل أبو حمو عنها ـ وقد ظهر هذا الاثر جليا فى مكان بارز من النظرية،

وذلك لدى اعتماد أبى حمو القاعدة الرباعية فى الحديث عن الناحية الخلقية للملك ، وفيما عدا ذلك ، فقد كان الواقع السياسى لابى حمو هو الذى يحرك نظريته فى كتابه ، فهذا الواقع هو الذى وجه بعض **تفصيلات تلك النظرية فى الكتاب** ، مثل اعتبار المخاطرة فى سبيل السلطان استثناء مرخصا منه للملك من بين سائر أنواع المخاطرة ، وهو الذى أثر فى **تركيب اقسام الكتاب** ، مثل غيبة المنظور البيروقراطى على أى منظور آخر لدى الحديث عن الرعية ، وهو الذى قرر **حجم الحديث عن الموضوعات المتعلقة بالنظرية** فى الكتاب ، مثل كبر حجم الاجزاء المخصصة للتحدث عن الجيش ودوره ضد العدو فى مقابل الحجم الصغير الذى يحتله الحديث عن العمران ، وذلك هو نفسه الذى حدد توزيع الموضوعات فى الكتاب ، بحيث اجتمع الحديث عن الجيش والمال فى فصل واحد غير مرة هناك ، ثم انه ، ـ وهذا هو الاهم ـ هو الذى قرر القاعدة الاساسية **التى ترتكز اليها نظرية ابى حمو السياسية** ، كما يجيء توضيح ذلك فيما يلى ٠

* * *

وليس من السهل على قارىء كتاب «واسطة السلوك» أن يكتشف النظرية السياسية لابى حمو ، ذلك أن الكتاب ، وان كان واضح المبنى ، فانه متكلف التعبير ، متداخل الفقرات ، متشابك الموضوعات ، قد لا يدل عنوان الفصل منه على كل ما سيرد فيه ، بينما قد يرد فى العنوان ما يستأثر بجانب غير رئيسى مما قد يجيء تحته ، وقد يستغرق الحديث عن أفكار متعددة أسطرا معدودة ، بينما يستغرق التمثيل على فكرة واحدة صفحات عديدة ، ثم قد يتحدث فى المكان الواحد عن أمور عديدة بينما يتحدث عن الموضوع الواحد فى أماكن متفرقة ، هذا فضلا عن أن بعض الرقابة فى النغمة ، والتساوى فى المعالجة ، وكلاهما يجعل تمييز المهم من الاهم أمرا عسيرا ٠ من أجل ذلك ، كان على الدارس الذى يريد أن يكتشف النظرية السياسية لابى حمو أن يتجاوز المبنى الذى أسس عليه كتاب « الواسطة » وأن يعيد بناءه بناء ذهنيا جديدا ذا بعد فكرى واضح المعالم ٠ ولعل أفضل ما يمكن للدارس أن يفعله فى هذا المجال ، أن يحاول تلمس المنطلق الفكرى الاساسى الذى ينطلق منه أبو حمو ، أعنى المنطلق الذى يدور حوله كل شيء آخر فى الكتاب ، فانه بهذه الطريقة يستطيع أن ينظم فرائد الكتاب

الموزعة فى عقد منتظم الفقرات ، ويخرج بالنظرية قائمة البنيان ، خالية من التداخل فى الافكار (150) ·

والمفتاح الاساسى الذى يمكن أن يقود الدارس الى اكتشاف منطلق أبى حمو الفكرى ، هو قوله فى مقدمته على كتابه أنه ضمن كتابه « وصايا حكمية وسياسية علمية عملية ، مما تختص به الملوك وتنتظم به أمورهم انتظام السلوك » (ص 3) · فالملك وانتظام أمره فى دولته هو هم أبى حمو الاكبر · فاذا انطلق الدارس من هذه النقطة ، وحاول أن يرى كتاب أبى حمو من خلالها ، فانه يخرج باستنتاج محدد يفيد أن نظرية أبى حمو السياسية ترتكز على قاعدة أساسية مؤداها أن الملك اذا وجد فى موضع الملك ، فان كل شىء حوله يمكن أن يؤثر فى مقدراته يجب أن يتحول لحمايته والمحافظة عليه واعزازه ونصره فى الداخل والخارج ، فى السلم والحرب · والشخص الوحيد الذى يجب عليه أن يدير دفة الاشياء بحيث تتجه فى صالح الملك هو الملك نفسه ، اذ هو المدار الذى تدور حوله كل الافلاك ، ومفتاح هذه الافلاك جميعها فى يده ، وما عليه الا أن يحسن ادارتها ووضعها فى مدارها الصحيح لكى تصير فى خدمة سلامته ودوام دولته ·

والناظر فى هذه القاعدة الاساسية لنظرية أبى حمو السياسية ، لا يسعه الا أن يلمح فيها أثر التجربة السياسية لابى حمو فى الواقع ظاهرا جليا · فان الصعوبة التى واجهها أبو حمو ابتداء فى الوصول الى السلطان ، وتعرض سلامته للتهديد غير مرة فى المعارك العديدة التى خاضها ، وطرده مرة بعد مرة عن سلطانه ، حتى لقد كان هذا السلطان يؤذن بالزوال ــ كل هذه العوامل كان لها أثر عظيم فى تظخيم اهمية سلامة الملك ودوام سلطانه لدى أبى حمو ، فكانت هى قبل أى شىء آخر الباعث الذى أملى

150) ترد معظم « عبارات » الكتب غير المنقولة من المصادر فى صيغة الخطاب ، وتبدأ بتعبير يا بنى ، والمقصود بهذا طبعا ولد ابى حمو الامير ابو « تاشفين » وقد رأيت أن استعمل فى الحديث عن الآراء المعبرة عنها بقالبها لفظ الملك لان المقصود بالمبادىء السياسية فى « الكتاب تربية ولى العهد الذى سيصبح ملكا . ثم ان أبا حمو يستعمل لفظ الملك فى الخطاب احيانا لانه هو مدار تفكيره عامة » ·

على أبى حمو تصرفاته فى حياته السياسية ، كما كانت هاجسه الاكبر الذى فــرض نفسه على نظريته السياسية ٠

وحيث كان الامر كذلك ، فقد أخذ أبو حمو على عاتقه أن يشرح للملك كيف يحافظ على نفسه وكيف يحرك الاشياء من حوله بحيث تساعده على البقاء فى ملكه ٠ فتعرض لجميع العناصر التى برهنت تجربته على أنها تؤثر فى مقدرات الملك ، وأوضح للملـك كيف يتصرف تجاه كل عنصر منها ، فتدوم له سلامته ويبقى سلطانه ٠ والناظر فيما تعرض له أبو حمو من هذه العناصر يجد أنها تقع فى خمس مجموعات رئيسية هى :

1 ـ خلق الملك ، وقاعدة النجاح فيها الالتزام بقواعد أخلاقية محدودة ٠

2 ـ رعية الملك ، والعنصر الفعال فيها يقوم على القاعدة البيروقراطية ٠

3 ـ ثم مال الملك ، ومن خلاله شرح أبو حمو القاعدة الاقتصادية للملك ٠

4 ـ ثم الجيش ـ العدو ، وكان أداء أبى حمو لتبيان القاعدة العسكرية للملك ٠

5 ـ ثم فراسه الملك الجارية فى جميع العناصر السابقة والمكونة القاعدة السيكولوجية للملـــك ٠

أما القاعدة المنسية فى كل هذا البناء ، فقد كانت القاعدة الحضارية المبنية عـلى العمران ، وتلك قاعدة لا يكاد يكون لها وجود فى سياسة أبى حمو النظرية ، نظـــرا لان تاثيرها المباشر على سلامة الملك ودوام سلطانه تاثير ضعيف جدا ، وهذا أمر ان دل على شيء يدل على أثر الواقع السياسى لابى حمو ـ مرة أخرى ـ فى تفكيره النظـــرى السياسى كما يؤكد ما ذهبنا اليه من تحـــديد للقاعدة الاساسية لنظرية أبى حمـــو السياسية ٠

* * *

1 ـ خلق الملك : القاعدة الرباعيـــة

يعتبر خلق الملك من القواعد الاساسية لنجاح الملك فى نظر أبى حمو ، وقـــد ورد فى كتابه العديد من الصفات التى يتطلب من الملك أن يتحلى بها ، منها ما هو دينى الصبغة مثل الديانة والتقوى وطاعة الله وذكره وحسن التسليم له وفعل الخير والعفة وعـــدم الاغترار بالدنيا أو الاستسلام للذاتها وشهواتها ، تلك الشهوات المفسدة للدين والعقل

(ص : 4 و 75 و 20 و 21 و 29) ـ ومنها ما هو أكثر عمومية مثل الصدق والوفاء بالوعد (ص : 19) ، ويتطلب أبو حمو من الملك أن يكون حييا ، وقورا ، مهيبا ، لا يكثر من الدخول الى الحمام ، ولا يسرف فى الضحك بل يكتفى بالابتسام ، ولا يكثر من الكلام وانما يؤثر عليه الصمت ، ولا يستخفه اللعب فى الميدان فيتزيد فيه ويخرج بذلك عن الاتزان المطلوب منه (ص : 4 و 7 و 19 و 20) • وهو يحذره من أن يتصف بالعجب وخبث السريرة والشكر لنفسه والمخالفة لنصحه ، اذ هذه صفات تؤديه مؤدى الهلاك (ص : 4 و 5 و 20 و 122) • ونظرا لان الملك يتولى منصبا سياسيا فان هناك صفات كبرى تتعلق بوظيفته لابد من توفرها فيه حتى ينجح فى المحافظة على ملكه ، صفات على رأسها العقل والعدل الشجاعة والحلم والكرم والعفو ، بما ينضاف اليها من الحزم وحسن التدبر للامور والفكرة والروية والعشورة واليقظة وعدم الغفلة (ص : 4 و 5 و 7 و 21 و 23 و 129 و 139) •

وقد كان أبو حمو يتحدث عن هذه الصفات حديث العارف بقيمتها ، الا أن تجربته فى الواقع لم تكن وحدها هى التى جعلته يتحدث عنها ، وانما كان لثقافته فى الاخلاق يد فى التوقف عندها • وهذا أمر يجد الدارس دليله فى أمرين الاول : فى تمييز أبى حمو الضمنى بين فضائل ثانوية يستحسن أن يكون الملك متصفا بها وفضائل كبرى من الضرورى أن يكون الملك متخلقا بها ، والثانى : فى كيفية معالجة أبى حمو لهذه الفضائل الكبرى فى كتابه • أما التمييز بين الثانوى والضرورى فهو واضح فى عدم تخصيصه الحديث فى فصول مستقلة سوى لفضائل العقل والعدل والشجاعة والكرم والحلم والعفو ، وأما كيفية معالجة لهذه الفضائل الكبرى فهو باقامتها على القاعدة الفلسفية الرباعية فى الاخلاق ، تلك القاعدة تنص على ارجاع أصول الاشياء الى ثلاثة عناصر يجمعها كلها عنصر واحد ، فتكون النتيجة وجود أربعة عناصر أساسية لها • وهذه الفكرة مستمدة من نظرية أفلاطون فى الفضيلة • اذ يرى أفلاطون أن هناك ثلاث فضائل كبرى تقابل القوى الثلاث للنفس الانسانية : هنالك الحكمة والشجاعة والعفة ، وهذه كلها اذا اجتمعت معا حققت الفضيلة الرابعة وهى العدالة ، وقد استغل المفكرون المسلمون هذه النظرية فى ميادين مختلفة ، فأخذها قدامة بن جعفر (ـ 326)

وطبقها على النقد الادبى معتبرا أن الشعر يدور حول هذه الفضائل الكبرى ومتفرعاتها ان كان مدحا وحول نقيضاتها ان كان هجاء، وانه لذلك لا يتعدى القاعدة الاخلاقية (151) وجعل مسكوية (ـ 529) هذه الفكرة محورا لفلسفته الاخلاقية مازجا بينها وبين نظرية ارسطوطاليس فى اعتبار الفضيلة وسطا بين طرفين (152) • وترددت هذه الفكرة عند كثير من مفكرى المسلمين حتى كادت تصبح عامة •

وقد تناول أبو حمو هذه القاعدة وطبقها على علم السياسة فى نطاق الاخلاق (وكذلك كان غرض واضع هذه النظرية وهو أفلاطون ، أعنى تطبيقها قبل كل شىء على الصعيد السياسى) ، ولعله أول من استوحى ما جاء فى الوصية المنسوبة الى ارسطوطاليس يوصى بها الاسكندر ، كما سوف نرى وقد سيطرت هذه القاعدة الرباعية على أبى حمو بشكل ظهر واضحا فى كتابه كله ، وليس وحسب فى حديثه عن الفضائل الكبرى ، فبنى كتابه نفسه على أربعة أبواب ، وقسم كل باب ـ باستثناء الباب الاخير ـ الى أربعة فصول ، وعندما جاء ليتحدث عن كل فضيلة من الفضائل الكبرى جعلها تقع فى أربعة احتمالات ، وهذا بالذات هو الذى يهمنا فى هذا المقام •

وأولى الفضائل التى تحدث عنها أبو حمو فى فصل خاص وتطلب وجودها ضرورة فى الملك كانت فضيلة العقل ، وقد مدح فى مطلع الفصل العقل ، واستشهد على فضله بحديث قدسى وأحاديث نبوية وأقوال للصحابة والتابعين (ص : 23) ثم قرر انه بالعقل يكتسب الفضائل وتجتنب الرذائل « (ص : 23) وانه بالعقل » يجمع بين الدنيا والآخرة (ص : 23) • ومن ثم كان العقل ـ سواء كان غريزيا أم مكتسبا (ص : 22) ـ من الضرورات اللازمة للملك ، تجعل خاتم الملك فى يده دون غيره (ص : 23) •

وبعد ذلك قسم أبو حمو الملوك بحسب العقل الى أربعة اقسام : ملك له عقل يصلح به دنياه واخراه ، وملك له عقل يصلح به دنياه دون آخرته ، وملك له عقل يصلح به أخراه دون دنياه وملك له عقل لا يصلح به دنياه ولا آخرته (ص : 23)

151) انظر الشعر : 29 ـ 31 •

152) انظر : تهذيب الاخلاق : 16 •

وعلامته أن يكون الملك فيما بينه وبين نفسه حسن السريرة وأن يكون مع رعيته حسن السيرة ، مؤثرا عقله على هواه ، محبا لرعيته ما يحبه لنفسه ، وهذا العقل اذا توفر في الملك • يبقى ذكره بعد أن يموت ، ومثاله بين خلفاء المسلمين عمر بن عبد العزيز (ص : 23 ـ 24) • اما الملك الثاني فان عقله غير تام ، تصلح به دنياه دون آخرته ، وهذا يرشد الملك الى حسن السياسة مع الرعية فتحبه الرعية وتأنس به ، وتعمل على بقاء مملكته ، ومثاله ملوك الفرس من العجم وأبو جعفر المنصور من المسلمين (153)، فانهم أقاموا سياسات عظيمة ، لكنهم اضاعوا فى نهاية الامر اخراهم (ص : 26 ـ 29) اما الملك الثالث فانه ذو عقل ناقص يجعل الملك ينصرف الى العبادة والزهادة فيهمل أمر رعيته ودولته ، فتسود الفوضى فى دياره ، ولا يلبث أن يملك عليه عدوه بلاده فيكون قد تعجل هلاكه بيده ، أما الملك الرابع فانه يسيىء الى الدين والرعية وينصرف الى الملذات ، فلا يلبث الناس أن يزيلوه عن ملكه قهرا ، ومثاله بين خلفاء المسلمين الوليد بن يزيد والامين بن الرشيد (ص : 29 ـ 31) • وقد نصح أبو حمو الملك أن يكون فى عقله مثل الملك الاول ، حتى ينال الآخرة الى جانب الدنيا •

ويشكل « العدل » الفضيلة الكبرى فى فضائل الدنيا لدى أبى حمو ، ولذلك يورد عددا كبيرا من الاحاديث والحكم فى شأنه مؤداها جميعا ان العدل هو الضمان الاكبر لدوام المملكة ، بل انه يبدأ كتابه كله بقوله : « اعلم يا بنى ان العدل سراج الدولة فلا تطف سراج العدل بريح الظلم ، فان ريح الظلم اذا عصفت قصفت ، وريح العدل اذا هبت ربت ، ومن شروط الامارة العدل فى الاحكام » (ص : 4) ، فالعدل « أسس الدولة ••• ورأس السياسة ومدار الرئاسة » (ص : 119) • ثم يعود فيجعل العدل ضمانا لحياة الملك نفسها : « يا بنى من تدرع بدرع العدل وقى شر العدى ومن تلبس الجور سقى كأس الردى » (ص : 5) ، فالعدل خير من ماء الحياة ، وهو كنز الامير الذى لا يفنى (ص : 5) ، والاساس الذى يقول عليه الملك كله ، وقد قالت الحكماء « الملك بناء والعدل أساس ، فاذا قوى الاساس دام البناء ، وان ضعف الاساس انهار البناء ،

---

153) اعتبار أبى حمو أبا جعفر المنصور ممن نالوا الدنيا دون الاخرة أمر يستدعى التوقف ويحير القارىء اذ لا يكاد يجد له سببا مفهوما •

فلا سلطان الا بجيش ولا جيش الا بمال ، ولا مال الا بجبايا ، ولا جبايا الا بعمارة ، ولا عمارة الا بالعدل » (ص 118) ·

وعندما حكم أبو حمو القاعدة الرباعية فى العدل قال ان الملك يكون بالنسبة الى العدل مراعيا اما لنفسه وخاصته ورعيته ، أو مراعيا لخاصته وأقاربه دون رعيته ، أو مراعيا لرعيته بخاصة ، أو تاركا للعدل فى جميع الاحوال (ص : 119 ـ 121) · وأفضل الملوك من أقام العدل فى نفسه وخاصته ورعيته ، ومثاله بين خلفاء المسلمين عمر بن الخطاب وعمر بن عبد العزيز ، وبهما يجب ان يقتدى الملك دائما (ص : 119 ـ 120) ، اذ من العدل أيضا أن يقام العدل على جميع الناس دون استثناء ·

ويختلف العدل عن العقل فى انه لا يعالج هو وحده على أساس القاعدة الرباعية وحسب ، بل تعالج فضائل أربع أخرى هى : الشجاعة والكرم والحلم والعفو على أساس صلتها بالعدل بطريقة أو باخرى ، بعد ان تكون كل واحدة منها قد عولجت ببناء على القاعدة الرباعية ذاتها · وانما كان ذلك كذلك الآن للعدل صلة أساسية بالتوسط أو الاعتدال ، فضلا عن المساواة فى المعاملة ، وكلا المعنيين ظهر فى معالجة أبي حمو للفضائل الاربع المذكورة ·

أما الشجاعة فان أبا حمو مدحها بشدة فى مقدمة الفصل الذى خصصه لها قائلا : « انها وصف محمود وبها يتفاخر الوجود » (ص : 129) وجعلها مقترنة بالكرم ، متجافية عن البخل : « واعلم بأن الشجاعة والكرم اخوان ، كما ان الجبن والبخل اخوان ، ودليلهما ان الشجاع يجود بنفسه فاحرى أن يجود بماله ، والبخيل يبخل بماله فكيف يجود بنفسه » (ص : 129) · وقد جعل الشجاعة بحسب القاعدة الرباعية اما شجاعة يصحبها رأى وعقل (ص : 129 ـ 130) واما شجاعة لا يصحبها عقل ويصحبها رأى (ص : 134) واما شجاعة غير مفرطة (ص : 135) واما شجاعة لا يصحبها رأى ولا عقل « فهى فى الحقيقة هور » ، (ص : 135) · وهذا التقسيم الرباعي غير متوازى الفقرات تماما ، وأبو حمو يرى أن الاقسام الثلاثة الاولى منه مفيدة للملك ، من دون القسم الاخير ، وهذا يعنى نفى التطرف والدعوة الى التوسط أو العدل ·

وأوضح من فضيلة الشجاعة اقترانا بالعدل فضائل الكرم والحلم والعفو ، اذ ان أبا حمو ـ خلافا للمعتاد لدى كتاب السياسة من المسلمين ـ لا يرى أنها من الصفات الواجب توفرها ـ هكذا على الاطلاق ـ فى الملك وانما يرى اقامة العدل فى استعمالها شرط أساسى لكونها مستحبة أو مستهجنة لدى الملك • وهو يقسم كل واحدة من هذه الفضائل الى أربعة اقسام ، فيرفض ثلاثة منها ، ويستبقى واحدة ، مقررا أنها تمثل « المعادلة » التى يجب على الملك ان يحرص عليها عندما يتمتع بتلك الصفة •

أما بالنسبة الى الكرم فان الملوك تنقسم بالنسبة له الى أربعة اقسام هى نفسها الاقسام الاربعة ـ حرفيا تقريبا ـ التى وردت فى « الوصية الى الاسكندر » اذ كانت الوصية « الملوك الاربعة : ملك سخى على نفسه سخى على رعيته ، وملك سخى على نفسه لئيم على رعيته ، وملك لئيم على نفسه لئيم على رعيته ، وملك لئيم على نفسه سخى على رعيته » (154) فان هذا يوازى تماما ما قاله أبو حمو ان الملوك اما ملك كريم على نفسه ورعيته ، أو ملك كريم على رعيته دون نفسه وخاصته وأهل بيته ، أو ملك كريم على نفسه وأهله دون رعيته ، أو ملك لا يتكرم لا على نفسه أو على خاصته ولا رعيته (ص : 136 ـ 137) • وبذلك يكون الكرم احيانا فى موضع الذم وأحيانا فى موضع المدح ، ويكون أبو حمو متبعا لنظريته اليونانية فى الاخلاق معدلا فى الاتجاه العام لدى كتاب السياسة المسلمين فى تطلب الفضائل الكبيرة مطلقة دون قيد فى الملوك أو من نزل منازلهم • فصيح ان الكرم بالنسبة لابى حمو محمود والبخل مذموم (ص : 136) الا ان الملك الذى يكون كريما على رعيته دون نفسه وأهل بيته أيضا مذموم، كذلك الملك الذى يكرم على نفسه وأهل بيته دون رعيته (ص : 137)،ولا يحسن كرم الملك الا اذا كان الملك عادلا فى توزيعه بين نفسه وأهل بيته ورعيته ، متوسطا غير مسرف ولا مفرط فى الانفاق فى دربه (ص : 136) • اذ ذاك يكون الكرم وسيلة الملك الى قلوب الناس ، فتحبه النفوس وتميل اليه القلوب وتخضع الرؤوس ، قال أبو حمو « فى الحديث : جبلت القلوب على حب من أحسن اليها ، وبغض من أساء اليها ، والاحسان

154) كتاب السياسة فى تدبير الياسة المعروف بسر الاسرار ••••••
73/فى كتاب الاصول اليونانية للنظريات السياسية فى الاسلام) •

أملك شيء للانسان » (ص : 136) • والملك اذا كان كريما ، عادلا فى كرمه ، يهــرع الناس من جميع الافاق ، ويكثر أنصاره ، وتتوافر جنده ، ويعظم مجده ، ويقل معانده • ويقهر حاسده ، وتتسع أوطانه (ص : 136) •

وموقف أبى حمو من الحلم يشبه موقفه من الكرم ، فهو يعترف بأنه مــن الصفات الحميدة (ص : 137) الا أنه يرى أنه لا يكون صحيحا الا اذا طبقه الملك على رعيتـــه وخاصة ، « لان من العدل المساواة فى الاحكام بين الخاص والعام » (ص : 138) ، أما اذا اضطرب الحكم لدى الملك فانه يكون « من طبع المجانــين » (ص : 139)، وكذلك اذا اختل حلمه بــين حلم على الخاصة وحدها حينا، وحلم على العامة حينا آخر (ص : 138 ــ 139) •

والعفو أيضا فى نظر أبى حمو من الصفات المحمودة المطلوب توفرها لدى الملـــك فى معاملته للرعية (ص :139) ، الا أنه اذا كان موجها الى من لا يستحق العفو فهـــو مذموم (ص : 141) وكذلك اذا كان موجها الى من يستحق العفو ومــن لا يستحـــق العفو (ص : 140) ، واذا ظهر بشكل تخفيف عام للاحكام على الناس فيكون الملـــك لا تاركا للعقوبة ولا مفرطا فيها (ص : 140) وانما يجب على الملك أن يعفو عمن يستحق العفو ويعاقب من يستحق العقوبة (ص : 139) ، فيكون بذلك محققا للعدل فى العفــو قبل كل شيء •

هكذا كان موقف أبى حمو من الملك فى ناحية الخلق وما يلحق به ، نصح بالتحـــلى بالفضائل الدينية والدنيوية ، وتحضيض على الالتزام بفضيلتى الدين والدنيا ، العقــل والعدل ، وما يلحق بهما من فضائل هى الشجاعة والكرم والحلم والعفو • فاذا اتبـــع الملك هذه الفضائل والصفات نجح سعيه ودام ملكـــه •

غير أن هناك صفة أخرى يمكن أن تلحق بخلق الملك ويتطلبها أبو حمو فيه لمكانـــه من الملك ، تلك هى صفة السياسة • وانما نعلم أهميتها فى نظرية أبى حمـــو لانـــه افردها بفضل خاص مثل سائر الفضائل الخاصة بالدنيا من دون الآخرة ويقصد منها تلين قاعدة العدل بحيث تتميز بالمرونة الى جانب اصابة الحق • والمرء يجد آثــار تقرير الالتزام بها فى حديث أبى حمو عن العفو نفسه •

فالعفو السليم فى نظر أبى حمو لا ينحصر فى فضيلة العدل ، بحيث يعاقب مستحق العقوبة ويعفو عن غير مستحقها ، ولكن يجريه الملك « على حساب الاوقات والاشخاص والطبقات » (ص : 139) ، ويكون ذلك بأن ينظر فى الظروف المحيطة بالقضية المطروحة أمامه وفى الشخص المتعلقة به هذه القضية ، فيدرسها جميعا جدا ، ثم يقرر ما اذا كان يريد أن يعفو أو يعاقب ، بحسب المصلحة الدنيوية المتوخاة لا حسب الامور الاخروية ، فرب شخص يستحق العقوبة فيعفى عنه وآخر لا يترك ويستقص منه » (ص : 139) ، ويستدل على صحة هذا بقوله « فانا قد رأينا أصحاب الجرائم العظام ، التى لا يحب فيها الا الحمام يجلبهم العفو الى الاذعان · ويقودهم ما تعودوه من الامان ، فلو بذلت لهم الاموال ، وأعددت لهم الحماة والابطال لما قدرت عليهم ولا توصلت اليهم » (ص : 140) · من هنا ، فان أبا حمو ، بعد أن يقرر أن هناك ثلاث جرائم لا يسع الملك أن يعفو عنها وهى هتك الحرم وافشاء السر المكتم والقدح فى الملك ، ويقول ان جزاءها القتل بلا خوف (ص : 129) لا يلبث أن يستدرك فيقول : « يا بنى لا تبق على مثل هذا الا أن يكون فى الابقاء عليه مصلحة عامة » (ص : 139) ·

ويبدو أن ماهية «المصلحة العامة» فى نظر أبى حمو أمر يقرره الملك ، ونظرا ان هذه المصلحة تختلف من رجل الى رجل ومن ظرف الى ظرف ومن فئة من الرعية الى فئة غيرها منها ، فان على الملك أن يقرر فى كل حال على حدة ما هو التصرف المناسب الذى يجب أن يتصرف على هديه ، فيكون « كالطبيب الماهر الذى يعرف الاعراض فيعطى الادوية على حسب الامراض » (ص : 86) · وذلك بحق هو أساس صفة السياسة التى يجب على الملك أن يعامل الرعية على أساسها فان تعريفها هو الجرى مع الناس (155) « وفق زمانهم وأغراضهم وأوقاتهم وطبائعهم وطبقاتهم » (ص : 86) ، قال « ومن حسنت سياسته عظمت رياسته » (ص : 31) ·

---

155) اذا رجع الدارس الى تجربة أبى حمو السياسية ، محاولا ان يحدد من خلالها الدور الذى قامت به الرعية فى التأثير على مقدرات أبى حمو ، فانه يجد هذا الدور معدوما أو شبه معدوم ، لا يظهر له أثر الا فى الازمات الكبرى ، كما حدث فى المجاعة الكبرى ·

2 ـ رعية الملك : القاعدة البيروقراطية سنة 776 (156) • كذلك اذا رجع الى تاريخ بى حمو وحاول أن يستكشف صلة أبى حمو برعيته ـ بالمعنى العام ـ فانـه واجـد الا صلة هناك بينه وبينهم الا فى مجالس المظالم (157) ، وهذه ـ على كثرة وقوعها بحسب قول أبى زكريا ابن خلدون ـ لا تعدو أن تمثل ظاهرة واحدة وحسب • فئة واحدة من الرعية كانت واضحة المعالم فى تاريخ أبى حمو ، وتلك هى الفئة التى كانت شديدة التأثير على مقادير الامور فى دولته ، أعنى بها فئة أصحاب الدولة • من الوزراء والكتاب وأصحاب الاشغال والعمال والسفراء والقواد (158) فان تعامل أبى حمو معهم كان دائما ، وظهورهم فى تاريخه مستمرا •

هذا الوضع فى واقع التجربة السياسية لابى حمو انعكس على معالجة أبى حمو لموضوع الرعية فى نظريته ، اذ استأثرت « بيروقراطية الدولة » بالحديث ، فلم ينل سائر الناس منه سوى النزر اليسير ، اذ لم يتوقف الا قليلا عند العامة والدهماء من بين أفرادها لا لشىء الا ليصرح الا بسوء ظنه فى عقولهم وأغراضهم وطبائعهم الاصلية « المجبولة على الفساد وعلى اتباع الاهواء وقلة السداد » (ص : 87) ، ويذكر أن الغالب عليهم « الشرار والهرج والاضرار » (ص : 87) • وهذا التمييز فى الاهتمام يشير الى أن أبا حمو لا يعينه من الرعية ـ فى النظرية كما فى الواقع ـ غير الاشخاص الذين يؤثرون فى تسيير مقدرات الملك ، والذين للملك علاقة مباشرة بهم ، وواجبات معينة عليه مراعاتها لدى تعامله معهم ، وهذا أمر يزداد يقينا عندما نرى أن هناك تمييزا فى العناية بين أفراد الفئة الواحدة بحسب وثوق علاقتهم بالملك وكثافة تعاملهم معه ، اذ يستغرق الحديث عن الوزير أضعاف ما يستغرقه الحديث عن ا لقضاة ، والحديث عن الجلساء أضعاف الحديث عن العمال • كذلك يلاحظ أن أبا حمو لا يعنى بالحديث عن كل فئة من فئات الرعية الا من زاوية وجودها وصلة الملك بها ، وليس من زاوية صلتها هى بالملك ، ولذلك خلا كتابه من أى ارشادات لفئات الرعية عن كيفية

156) انظر ما سبق ، ص : 19 •

157) انظر ما سبق ، ص 22 •

158) انظر ما سبق ، ص : 20 •

التصرف مع الملك (كما هو الحال فى بعض كتب السياسة لدى المسلمين) ، بل كـــان الامر دائما يدور حول الملك ، اذا وجدت لديه رعية : كيف يتصرف هو معها • وفى هذه الملاحظات كلها دليل أكيد على أن الرعية فى مفهوم أبى حمو النظرى ـ مثلها فى واقعـه العملى ـ هى فلك يدور حول الملك ، وأن الاهتمام بها متأت من صلتها بالملك حتى لكأن وجودها نفسه متوقف على وجود الملك •

ولقد صرف أبو حمو القسط الاكبر من عنايته الى تحديد الرجال الذين يكونـــون بيروقراطية الدولة ، محددا معالم كل واحد منهم تحديدا واضحا ، وشارحا الدور الذى يلعبه فى الدولة ، ومن ثم مبينا الصفات المطلوب توفرها فيه لملء الوظيفة المنوطة بـــه ، وقد عددت من أعضاء هذه الفئة احدى عشرة جماعة هى : الوزراء والجلساء وكاتب السر وكاتب الاشغال وفقيه الدولة وقاضيها وعمالها وصاحب شرطتها وصاحب الحسبة بها ، ثم أعوان الملك • ورغم أن أبا حمو عد فى درج الحديث أيضا « القواد » فقد رأيت أن أضم الحديث عنهم الى الجيش ، حيث يرد ذكرهم لدى أبى حمو مرة ثانية • وهذه الفئات مـن البيروقراطية فى نظرية أبى حمو كانت ولا شك انعكاسا لفئات البيروقراطية فى واقعه عندما كان فى الحكم ، ولعل من المفيد هنا أن نذكر بما مر من أن أبا زكريا بن خلدون ابتدأ حديثه عن دولة أبى حمو بتحديد هويـة وزيره وكاتبـــه وصاحـب أشغالـــه وقاضيه (159) •

لنذهب الآن الى كتاب « الواسطة » ولنر ما هى الصفات التى يراها أبو حمو متطلبة فيمن يحتل كل منصب من تلك المناصب ، حتى تسلم الدولة ومعها يسلم الملك ويستمر سلطانه ، فان المسؤول عن اختيار رجال الدولة هو الملك وحده دون غـيره •

(1) أما **الوزير** فانه يحتل أعلى مراتب الدولة فى تصور أبى حمو ، وهو يمثل أكثر الناس تأثيرا فى قدر الملك ، ولذلك يشغل الحديث عنه أكبر قدر من المكان بين سائـــر موظفى الدولة (ص : 32 ـ 60) • ويرى أبو حمو أن على الملك أن يختار « وزيرا كبيرا خطيرا ، بالامور بصيرا » (ص : 32) ، يكون محتويا على ثمانية خصال (رباعية مزدوجة)

---

159) أنظر ما سبق ، ص : 21 ، والحاشية رقم 2 •

هى : أن يكون من خيار قومه وعشيرته ، فيتنزه على المعايب ، ويكون وافر العقل، ليحفظ سر الملك والدولة ، ويكون حاضر الذهن سريع الفهم ، فيفهم على الملك من أقل اشارة ، ويكون راجح الرأى حتى يصلح رأى الملك اذا احتاج الى اصلاح ، ويكون ناصحا ودودا صالحا ، فلا يغش الملك فى نصيحته اياه ، ويكون شجاعا فى المهمات لانه ينوب عن الملك فى المواجهات الكبيرة ، ويكون بليغ البيان والعبارة لانه جمال ملك الملك ، ثم يكون كثير المال غير ذى حاجة حتى يستغنى بثروته عن الطمع والرشوة (ص : 32 ـ 33) • ومن المهم أن يكون الوزير أحسن من الملك فطنة وسياسة لان الملك يسوس من تحته فقط بينما يسوس الوزير من فوقه ومن تحته أيضا (ص : 33 ـ 34) • وويلاحظ هنا ، فى هذه العبارة الاخيرة ، أن أبا حمو ناقض فى التطبيق العملى الموقف النظرى ، فانه اذا اجتمعت الشروط التى تطلبها فى الملك لم يعد الوزير خيرا منه •

والوزير أقرب الناس الى الملك ، ومعه يصرف قدرا كبيرا من وقته ليتعرف الى أحوال دولته ويصدر أوامره ـ عبر الوزير ـ بشأنها ، كما يخصه بجزء غير قليل من خلوته ، ويكون مسؤولا عن ترتيب الحراس فى قصره (ص : 81 ـ 84) • هذا وينبه أبو حمو الملك الى وجوب تعهد الوزير ، وعدم قتله اذا اقترف جريمة تستحق القتل ، الا لسبب ظاهر الوجود (ص : 140) وهذا أمر طبقه أبو حمو فى الواقع ، اذ اختار نفى وزيره الذى خان شارات وزارته على قتله • كما سبقت الاشارة اليه •

2) ويشترط فى **جلساء الملك** فى نظر أبى حمو أن يكونوا ذوى أفهام جيدة ، فصحاء اللسان ، ينصحون الملك نصيحة خالصة فى السر والاعلان ، ولا يخالطون الناس بكثرة ، ويعظمون الملك اذا أظهر لهم التبسط والتأنس (ص : 60) • وهم أفضل من يمكن أن يختار الملك منهم وزيره اذا حدث لوزيره مكروه (ص : 60) •

3) ويحتل **كاتب السر** منصبا من أهم مناصب الدولة ، ومرتبته تاتى ثانية بعد الوزير لذلك وجب أن يكون صحيح المذهب ، قائلا بالحق قليل الاخوة والاصحاب ، من ذوى البيوت والاحساب (ص : 146) وهو الرجل ا لذى تصله الكتب من أنحاء المملكة كلها، فيقرأها أولا ثم يعرضها على الملك متخيرا منها ما تجدر قراءته أمام الوزير وما تجدر قراءته على الملك فى الخلوة ثم يتلقى رد الملك عليها بعد أن يتفاوض معه بشانها ، ويعود

فيكتبها بقلمه ويرسلها الى صاحبها أينما كان فى المملكة (ص : 81 ـ 82) من هنا كان على الملك أن يختار كاتب سره من وجوه أهل البلد ، فصيح اللسان جرىء الجنان ، بليغ البيان ، عارفا بالآداب ، بارع الخط ، عالما بالحل والربط ، كاتما للاسرار ، وقورا ، ذا عقل وافر حاضر ... جميل الهيئة واللباس » (ص : 60 ـ 61) . وكل ذلك ، «لان الكاتب عنوان المملكة ... ومن كتابك يستدل على عقلك » (ص : 61) . فانما يجب أن يحرص الملك على اختيار كاتبه حرصا على صورته هو قبل أى شىء آخر متعلق بالكاتب نفسه أو بالدولة ذاتها .

4) أما **كاتب الاشغال** فيضبط أعمال الملك ، ولذلك يجب أن يكون مقتدرا فى الحسابات ، موثوقا مؤتمنا فى خلقه ، يجمع فى نفسه بين المعرفة بأنواع الخراج والجبايات والايراد والاصدار ، وبين العدل والحزم فى الحصول عليها من الناس . ويستحسن أن يكون رجلا موسرا فيستغنى عن استعمال الطرق الملتوية للحصول على بعض المال الذى يمر تحت يديه ، كما يرجى أن يكون محبا فى سلطانه ، فيتلقى أوامره يوميا بشأن الجبايات بصدر رحب وقبول تام (ص : 61 و 82 ـ 83) .

5) ويجب على الملك أن يختار لدولته **فقيها** عالما معروفا بالصلاح من ناحية وبالمعرفة بقضايا الحلال والحرام من ناحية أخرى، حتى اذا أشكل على الملك شىء، كان أحسن الناس لتبيان الحكم السليم فيها ، كما أن من مهمته أن يعظ الملك ويذكره بأمور الآخرة . (ص : 61) . ففائدته تكون عظيمة بقدر ما يستطيع هو أن يخدم ملكه ويساعده على سلوك الصراط المستقيم .

6) ولا يختلف وضع **قاضى البلد** كثيرا عن وضع فقيهها ، وانما يختار الملك القاضى من بين الفقهاء ، ويحتاط فى اختياره بأن يكون أفضل الفقهاء فى متانة الدين والرغبة فى مصالح المسلمين . ويشترط فيه أن يكون عادلا ، شجاعا فى قول الحق ، لا يرتشى ، ويساوى بين الشريف والدنىء ، والقوى والضعيف فى أحكامه (ص : 61 ـ 62) .

7) ويجب على الملك أن يختار لوظيفته **العامل** رجلا عارفا بجباية الخراج ، يجمع الكفاية والدربة والضبط والامانة والديانة ، وذلك حتى لا يضيع عى الملك أى حق من

حقوقه المخزنية،ولا تصاب الرعية أيضا بالظلم (ص : 72) والعامل هذا ـ فيما يبدو ـ هو نفسه من يسمى « الحاكم » فى لغة أبى حمو (ص : 152) ٠

8) وتعتبر خطة **صاحب الشرطة** خطة كبيرة لدى الملوك ، فعلى الملك أن يختار لها رجلا صاحب ديانة وهمة ومكانة وسياسة ورياسة ورأى وفراسة ويكون واجبه أن يطلع الملك يوميا على كل ما يحدث فى حاضرة ملكه ، فيعرف الناس ـ بذلك ـ أن الملك مطلع على كل صغيرة وكبيرة من أحوالهم ، فيخافونه أكثر فأكثر (ص : 83) ٠

9) وعلى الملك أن يختار **عـونا** يقدمه على أعوانه فيتولى معهم الانتقام له ممن يريد من الناس ٠ ولذلك ينبغى ان يكون قائد الاعوان محبا فى ملكه ، مدربا تدريبا جيدا ، صاحب نجدة واستعداد مستمر لتلبية أوامر الملك ، متيقظا دائما ، عارفا بأخلاق الملك فى حال غضبه وارهاقه ، فلا ينفذ أوامره الصادرة تحت ضغط أحد هذين العاملين ، وانما ينتظر قليلا حتى يزول ما به ويرى ما يأمره به (ص : 63) ٠

10) أما **صاحب الحسبة** فوظيفته من جملة مناصب الدولة ، الا أن أبا حمو لا يتعرض لها بأى شرح مفصل (ص : 153) ٠

11) يبقى بعد ذلك **الارسال** (أو السفراء) المتوجهون من قبل الملك الى الملوك أمثاله ٠ وهؤلاء يجب أن يكونوا من وجوه قبيلة الملك وخيار عشيرته ، ممن يليق بالرسالة ، فيكون الواحد منهم قوى القلب ، صادق القول ، محافظا على دينه ، كاتما للاسرار والاخبار ، فصيح اللسان ، حسن العبارة ، مليح الهيئة ، محبا لسلطانه ، راغبا فى مصلحته ، قليل الطمع متنزها عما فى أيدى الناس (ص : 153 ـ 154) ٠

هؤلاء هم رجال البيروقراطية فى الدولة التى حكمها أبو حمو وفى الدولة التى رسم خطوطها فى نظريته ، وهى ترى مدى اهتمامه بهؤلاء الرجال من دون غيرهم من أفراد الرعية ٠ غير أنه يجب أن نعترف بأن أبا حمو أعطى بعض النصائح للملك فيما يتعلق بسائر أفراد الرعية ـ وان جاء ذلك فى صفحة أو بعض صفحة فقط ـ وكل ما قاله للملك تقريبا فى هذا المجال ـ كان صورة لتجربته الواقعية : فقوله ان الملك يجب ألا يغفل عن واجبه تجاه الارامل والايتام المحتاجين والضعفاء والمساكين وأهل السجون كل

يوم جمعة ، فينظر فى أحوالهم ويستمع لمظالمهم ويصدر حكمه فيها ، ويرد من قضاياهم ما يتعلق بالشرع (ص : 84 ــ 85) هو صورة من مجلس المظالم الذى كان يعقده يوميا أيام حكمه (160) ، وكذلك حديثه عن الدهماء والعامة ، فقد قرر أبو حمو فى نظريته أن معاملتها خاضعة للتغير بتغير ظروف البلاد ، فاذا كان الزمن زمان رخاء وخير فان على الملك أن يسير بهم أحسن سيرة ، يعدل فيهم ، ويوصى الولاة بالتحفظ عليهم ، ويضبطهم غاية الانضباط من غير تفريط ولا افراط (ص : 87) • اما اذا كان الزمان زمان فتنة وثورة وفساد ، فيجب على الملك أن يظهر عليهم فضله حتى يستفيد بطاعتهم على الاقل ، حتى اذا خرج الامر من يده واضطر أن يدفعهم بجنده ، فعل (ص : 87) • وهذه المعاملة للعامة تختلف فى زمان القحط ، اذ يقدم الملك الرأفة على الشدة فى معاملته لها ، فيرفق بهم فى الجبايات ، ويحسن لضعفائهم المحتاجين ، ويؤثرهم بما ادخره لشدائدهم زمن الرخاء من فوائدهم (ص : 87 ــ 88) وانما يعتبر هنا بما فعله يوسف الصديق ، « فانه اختزن الطعام فى زمن الرخاء وأمر الناس بذلك ، فوجدوا ذلك فى زمن الشدة واللأواء ، وجعل ذلك سببا الى أن ملكه مصر ، فعاد ملكا بعد أن كان مملوكا » (ص : 88) • فان هذه النظرة تذكر الدارس بمجاعة سنة 776 (161) التى عامل فيها الرعية معاملة حسنة ميزتها عن عادته فى معاملتها ، فاستحقت بذلك أن تفرد بالذكر • أما قوله ان على الملك أن يكرم أهل التجارات وأصحاب الحرف والصناعات ويحترمهم لان الضرورة قد تدعوه للانتفاع بهم فى الشدائد ، فيقفون معه الموقف المرضى فى المصادر والموارد (ص : 87)

بقى أن نذكر أن النظرية « الطبقية » تحكمت فى نظرية أبى حمو السياسية كما كانت تحكمت فيه فى الواقع (163) ، اذ نص على وجوب أن يحفظ الملك مراتب الناس

---

160) انظر ما سبق ، ص : 22 ــ 23 •

161) انظر ما سبق ، ص : 19 •

163) انظر ما سبق ، ص : 19 ــ 20 •

بحسب حظهم من الشرف ، وهذا يظهر فى أشد صورة وضوحا فى ترتيب الدخول على الملك فى مجلسه اليومى ، اذ يدخل عليه على الترتيب : الوزير وكاتب السر ، فصاحب الاشغال ، فصاحب الشرطة ، فخاصة الملك وخلصانه ، ثم أشياخ القبائل المقربون اليه ، فقواد الاجناد (ص : 81 ـ 83) ، وبعد ذلك يأتى سائر الناس ، عندما يخصص لهم وقت للدخول على الملك ، مثل يوم الجمعة (ص : 84 ـ 85) أو غيره ، وحتى هؤلاء يكونون على درجات ، فأولهم الشرفاء ، ثم الفقهاء ، ثم أرباب الحرف والصناعات والتجارات ، ثم العامة والدهماء (ص : 86 ـ 87) ومن أدنى المراتب بينهم الارامل والايتام والضعفاء والمساكين وأهل السجون (ص : 84) · وهذا الترتيب هو صورة أخرى من صورة مجلس أبى حمو فى الواقع ، ويظهر فيه سيطرة « البيروقراطية » بشكل لافت للنظر ·

3) مال الملك : القاعدة الاقتصادية

كان أبو حمو من رجال السياسة الذين يعرفون قيمة المال للملك ، ولذلك عنى بجمع ماله من جباياته وتدبر فى أمور انفاقه فأمرى بيت ماله ولم ينكسر تحت وطأة الحاجة الى المال قط (164) · وعندما يقرأ الدارس موقف أبى حمو النظرى من المال من حيث هو قوة اقتصادية فعالة تؤثر على سلامة الملك وحفظ دولته ، فانه يجد فيها الكثير من التفصيلات التى لم نعرفها فى سيرته ، ولكن هذا لا يعنى أن أبا حمو لم يكن يتحدث فى شؤون المال عن حذق المجرب ، فان كل ما قاله عنه يتفق فى منخاه العام مع منهج أبى حمو العام ، كما عرفناه فى تجربته ، بل مجرد حديثه عن امكانات « القحط » فى الدولة كما سوف نراه ، يعتبر صدى لتجربته فى مجاعة سنة 776 (165) ، كما أن قرنه للمال بالجيش فى غير مكان من كتابه تأكيد للدور الذى يقوم به المال فى جمع الرجال بغرض الحرب ، وذلك دور للمال كان أبو حمو قد عرف قيمته بتجربته الخاصة مرات عديدة (166) · ويحتل الحديث عن المال مكانا لا بأس به فى كتاب أبى حمو ، ومنه

164) انظر ما سبق ، ص : 18 ـ 19 ·
165) انظر ما سبق ، ص : 19 ـ 20 ·
166) انظر ما سبق ، ص : 19 والحاشية رقم 6 ·

يستنتج أن المال فى نظره من النخائر الفاخرة (ص : 10) التى يحفظ بها الملك قوته ، اذ هو الوسيلة التى بها يتوصل الملك الى أغراضه مع صديقه ومع عدوه ، زمن السلم وزمن الحرب ، فهو ـ بكلمات أبى حمو ـ العنصر الذى « به تدفع العدى ، ويتقى به من الردى ، به تدفع آلام الاعراض ، ويتوصل الى المقاصد والاغراض ، وبه تستفتح الصياصى ، وتسملك النواحى ، ويفاد العاصى ويستدنى القاصى » (ص : 9) ، قال : « وبالمال تستعبد الرجال ، وتبلغ الآمال ، وتذل به الرقاب ، وتستفتح به الابواب ، وتسهل الامور الصعاب ، وتنال به الرغائب ، وينجى به من كل المصائب » (ص : 9) ·

غير أن المال بحد ذاته لا يشكل قوة فعالة للملك فى نظر أبى حمو ما لم يقترن بوجوده لدى الملك سياسة حكيمة تحرك وجوه تحصيله الاستفادة منه وانفاقه · وفى هذا المجال ذكر أبو حمو عددا من القواعد التى يجب على الملك أن يحافظ عليها ليصير المال خادما له ولدولته ومصدر قوة حقيقية فاعلة له ·

وأهم هذه القواعد أن يحاول الملك أن يحصل من المال أكثر مما تسمح به ايالته من البلاد والاقاليم (ص : 121) فيصبح جمع المال شغله الشاغل ، فينصرف بذلك اهتمامه عما يجب أن يتوفر عليه من مصادر قوته الاخرى (ص : 124) · غير ان هذا لا يعنى أن للملك أن يفرط فى تجميع المال من ايالته ، لان هذا أيضا يضعف دولته (ص : 126) ، وانما عليه أن يحصل المال المشروع له عن طريق الرفق بالرعية فى مطالبتها ، لان الرعية « اذا عوملت بالرفق كثر فيها النماء والرزق » (ص : 9) ، ومن ثم كثر لديها المال ، بينما اذا عوملت بالجور هلكت « واذا هلكت الرعايا عدمت الجبايا » (ص : 9) ومن هنا كان على الملك ان يستعين على جمع ماله بالثقات من العمال ، واذا تسامح معهم فى أى شىء فلا يتسامح فى جورهم على الرعية قط (ص : 9) ·

هذا بالنسبة لتحصيل المال · اما بالنسبة لانفاقه ، فان أبا حمو ينصح الملك بان يراعى مبدأ « الفائدة » فى انفاق ماله ، لان « خير المال ما وقع به الانتفاع وشر المال ما تركته للضياع » (ص : 9) · فلا يعطيه الا فيما يصلح عليه ، ويجلب المنفعة اليه (ص : 122) · غير انه يجب ألا ينفعه الا فى حقه ، ولا يخرجه الا الى مستحقه ، وألا يسرف فى انفاقه على وجه الاجمال ، بل يسلك فى ذلك طريقا متوسطا بين الاسراف

والتقتير ، فلا يبالغ فى استغلاله ــ مثلا ــ لاجل لذات دنياه ، كالخروج عن الحد فى اللباس والزينة والبناء المفرط الخارج القياس ، « فان خير الامور أوسطها وأحسنها أوقتها وأضبطها » (122 وأيضا ص : 9) ، ومن شأن الاسراف فى الانفاق على اللذات والمبانى واللهو أن يودى بالملك الى التهلكة (ص : 127 ــ 129) · كذلك على الملك أن يراعى التوافق بين كمية المال الذى ينفقه وبين الغرض الذى لاجله ينفق ذلك المال ، فلا « يعطى ألفا لمن يستحق مائة ، ولا مائة لمن يستحق ألفا » (ص : 122) ، وانما نبه أبو حمو الملك الى ذلك لان الملك قد تستهويه لذة الشكر فيعطى من المال أكثر مما تستحقه مناسبة العطاء ، وهذا أمر لا يجوز لان الشكر لا يدوم بأكثر مما يدوم المال ، والاسراف فى العطاء يفضى الى الاقلال ، والاقلال يقطع الشكر فى نهاية المطاف (ص : 122) ·

وفيما يحض أبو حمو الملك على الايثار مما أفاء الله عليه من الانعام ، وخاصة بعض فئات الرعية من ذوى الاغراض الدينية مثل حجاج بيت الله الحرام (ص : 10) ، نجده أميل الى أن يوصى الملك بالحرص على ماله وعدم التساهل فى اخراجه (ص : 9 و 122) ، مهما بدا له سهلا جمعه من خراجه · وعليه فى هذا المجال ألا يحتقر ما يجمعه من المال ، بغض النظر عما اذا كان هذا المال كثيرا أو قليلا (ص : 122) ، « ورب بحر تجمع من نقط ، ورب مستبحر نزح » (ص : 122) · ذلك أن المال خير معين للملك اذا نزل ببلاده كوارث مثل القحط أو الفتنة ، فاذا حل القحط بها استعان بماله على الرعية ، وقضى لهم ما عليه من الحقوق المرعية ، فلم يؤثر القحط فى مملكته (ص : 122) أما اذا حدثت فيها فتنة فانه يستعين بالجيش للقضاء على الفتنة (ص : 122) والجيش دون مال لا يقوم ، ومن ثمه لا يمكن القضاء على الفتنة من غير المال ·

والحقيقة أن اقتران الجيش نفسه بالمال كان من أبرز الظواهر فى كتاب أبى حمو ، حتى انه عنهما جاء ليتحدث عن قواعد الملك ، جمع المال والجيش فى قاعدة واحدة (ص : 121 ــ 129) ، وفسر قيامه بذلك بأن كلا منهما « متوقف على صاحبه ومطلوب بمطالبه ، فلا مال الا بجيش ولا جيش الا بمال » (ص : 121) ·

جيش الملك العدو : القاعدة العسكرية :

كان الجيش اهم مؤسسة من مؤسسات الدولة فى أيام أبى حمو ، اذ كانت طبيعة الاحوال فى المغرب تفوض عليه أن يلجأ اليه باستمرار لحل مشكلاته مع اعدائه ، فكان الجيش من العناصر الاساسية التى أثرت فى مقدراته ، ولذلك عندما جاء ليكتب نظريته ى الملك خص الجيش بقسم كبير من كتابه عنها ٠

ولم يبن لنا تاريخ أبى حمو أقسام الجيش لديه ، بينما ورد ذكر لهذه الاقسام فى نظريته ٠ ويمكننا ان نتأكد من ان الاقسام المذكورة فى النظرية فى كتاب «الواسطة» كانت هى نفسها بالفعل أقسام الجيش فى دولة أبى حمو لانه يذكر بينها فئة يسميها « مماليك الملك » ويحددها بـ « الاعلاج والنصارى والاغزاز والوصفان » (ص : 81) ٠ فهذا حتما تصنيف ذو طابع محلى ٠ من هنا يمكننا أن نفيد فائدة تارخية من كتاب الواسطة (نظرى) لانه يعرض فئات الجيش كما كانت زمن أبى حمو ، وهذا أبين دليل على مدى ارتباط نظريته أبى حمو بتجربته السياسية ٠

وقد أسهب أبو حمو فى حديثه عن الجيش اسهابه فى الحديث عن رجال دولة الملك وسمى اقسامه ، وحدد المطلوب من كل فئة فيه ، كما فعل فى البيروقراطية قبله ، فجاء تركيب الجيش على الشكل التالى :

يعتبر أبو حمو **قواد الجيش** من أهم المفاتيح للملك فى الجيش ، ويجب أن يكونوا من أفضل جنده كفاية وحزما وبسالة ومعرفة ودراية وممن لا يصلون الى الرعية بمضرة أو اذى ، ومن أهم صفاتهم أن يكونوا محبين للملك ، صادقين فى محبتهم له ، ويكون طوفانهم على الثغور ومنعهم اياها مدعاة لاطمئنان الملك (ص : 61 ـ 62) ٠

ويجعل أبو حمو القسم الاول من الجيش : **خاصة الملك** ، وهم يتالفون من وجوه القبائل ، الذين يستخلصهم الملك لنفسه معتمدا فى اختيارهم أن يكونوا بخاصة محبين له (ص : 79) ٠

والقسم الثانى : **قبيل الملك** : وعلى الملك أن يرضيهم لمكانهم من القرابة منه ، فيقدم الاشياخ على الجموع ، ويجعل على كل جماعة منهم شيخا من كبارهم وأعيانهم ، على أن يكون كل واحد من هؤلاء الاشياخ من بين أكثر قبيلة محبة له ورغبة فى خدمته ،

واستعدادا لتحريض جماعته على طاعته وأسلمهم ريبة ، وأبعدهم من النميمة والغيبة (ص : 79) ٠

والقسم الثالث : **حماة الملك وأنصاره** ، وهؤلاء يظلون محيطين بالملك لا يفارقونه ليلا ولا نهارا ، ويكون ترتيبهم على ميمنة وميسرة ومقدمة وساقة ، ويجب على الملك أن يختارهم من أصحاب الثبات فى الشدائد ، ومن أكثر الناس موالاة له واستعدادا لنصرته فى حال الحاجة ، وقد يقع الاستنجاد بهم فى حال انقسام قبيل الملك نفسه على الملك ، فيرجى أن يكونوا على استعداد لضرب المخالف منهم فى أى وقت (ص 79 80) ٠

والقسم الرابع والاخير : **مماليك الملك** ، ويتالفون من الاعلاج والنصارى والاغزاز والوصفان ودور هؤلاء « احتياطى » لقمع كل عصيان ، ويجب لذلك أن يكونوا شجعانا ذوى بأس ، كما يجب على الملك ألا يدعهم يفارقونه طرفة عين (ص : 81) ٠

ويلاحظ هنا أن أبا حمو لم يتعرض فى أقسام الجيش الى « الاولياء » ، أى العرب الذين كان يتالفهم أبو حمو ــ وغيره من ملوك عصره ــ فيحاربون الى جانبه ، وذلك أمر مفهوم بالطبع ، لان هؤلاء لم يكونوا قسما نظاميا من الجيش ٠ غير أنه من اللافت للنظر أن أبا حمو لا يتعرض لذكر العرب ــ الاولياء ــ قط فى كتابه ، رغم أنهم كانوا يمثلون قوة لا يستهان بها فى موازين القوى فى المغرب فى القرن الثامن ، ولا أجد تفسيرا لهذه الظاهرة لدى أبى حمو سوى التحرج من ذكر وسائل استئلافهم ــ من مال وغيره ــ وكثرة تنقيلهم لولائهم بين الملوك ، فان أبا حمو ــ كان ما يزال بحاجة لهم حين كتب كتابه ، ولا يريد أن « يكشف » وضعهم ٠

ولا يخبرنا تاريخ أبى حمو الواقعى بالشىء الكثير عن عناية الملك بالجيش وان كان يحدثنا باستعراض أبى حمو له سنة 767 (167) ، وهذا يذكر الدارس بقوله أبى حمو فى نظريته ان الجيش « ابهة الخلافة » (ص : 12) ٠ غير أن هذا لا يعنى أن أبا حمو عندما اخذ يبين نظريته فى كيفية معاملة الملك للناس فى كتابه كان يتكلم خارج تجربته فلا شك أنه استوحى هذه التجربة عندما تكلم عن معاملة الجيش ، كما كان استوحاها عندما تكلم عن معاملة الرعية ، وهذا أمر قد نجد برهانه فى تقريره وجوب دفع رواتب

مماليك الملك مشاهرة ـ كما سيأتى ـ فان ذلك تفصيل دقيق لابد أن أبا حمو كان يسير عليه ولذلك قرره على الملك ·

وينصح أبو حمو الملك بأن يجعل عدد الرجال فى جيشه متوافقا مع ما تسمح به ايالته ودخله وعدد سكانه (ص : 121) وأن يقيم نوعا من التوازن فى الاهتمام بين الجيش والمال فلا يفرط فى الجيش مقابل الاشتغال بجمع المال (ص : 124) ، ولا يجمع المال مقابل التفريط فى الجيش (ص : 126) · أما اذا فرط الملك فى الجيش والمال معا فان ذلك يقوده الى التهلكة (ص : 127) ·

ويلح أبو حمو على وجوب تعهد الملك الجيش زمن الرخاء ، وأن يصطنع رجاله بالاحسان ، ولا يغلظ عليهم فيضمروا له البغض والشنان ، بل يسايسهم حتى يستألف قلوبهم ويردف ذلك بتأمين عطائهم والعدل فى أرزاقهم « على قدر بيتاتهم وشجاعتهم وسابقتهم للخدمة واصطناعاتهم ومحبتهم وانقيادهم وألفتهم واجتهادهم » (ص : 12 و 123) فيزدادون ولاء له · كذلك على الملك أن يحقر صغيرهم ، ولا يغضب كبيرهم ، بل ينوه بقوادهم وفضل أنجادهم ، ولا يضيع لاحد فعلته ، ولا ينسى له سبقيته (ص : 12) ويجب على الملك أيضا أن يحرص على ضم جيشه بعضه الى بعض ، ويحفظ سلامته من الاختلال والنقص (ص : 123) وذلك حتى يزيد فى منعته ، فلا يمكن لعدو أن يستميل أفراده الى حزبه ويردهم عن حزب الملك (ص : 132) ، وهذا أمر يمكن تقويته بأن ينظر الملك فى حال جيشه مرة فى كل سنة ، ويتدبر أمره ويتفقد عدده ويزيد عدده اذا أمكنه (ص : 12 و 89 و 124) ، وانما كان فساد أمر كثير من الدول مثل الامويين والعباسيين والعبيديين والموحدين لانهم أهملوا جيوشهم بالتفريط وسوء التدبير وركنوا الى اللذات والتبذير (ص : 124) ·

ويخص أبو حمو قبيل الملك ـ من بين سائر الاجناد باهتمام منفرد ، فيقرر أن على الملك أن يحافظ عليهم ويرفق بهم ويواسيهم ولا يحوجهم الى غيره ، ولا يمنع عنهم خيره (ص : 79) ويستألف قلوبهم ، ويشركهم فى قليله وكثيره (ص : 123) ويجرى

على أغراضهم ، ولا يستاء اذا وجدهم يعرضون عنه بعض الشيء في بعض الاحيان ، بل يعدهم بنيل مطلوبهم ، حتى تميل اليه قلوبهم ، فاذا رجع بعضهم الى هوى الملك وظل بعضهم الآخر مدبرا عنه ، فعلى الملك أن يسلط من أطاعه منهم على من عصاه ، فيدخل التباغض بينهم وتفترق جموعهم وتضعف قواهم (ص : 86) • وهذه سياسة يجب على الملك أن يتبعها مع أجناده على اختلاف رتبهم وفئاتهم (ص : 86) •

أما مماليك الملك فيرى أبو حمو فى معاملتهم رأيـا خاصا فيما يتعلق برواتبهم ، وذلك بان تدفع لهم مشاهرة من بيت المال بقدر ما يصلح اودهم وأهلهم وولدهم ، على قدر طبقاتهم (ص : 124) كما مرت الاشارة اليه •

ومقابل ندرة المعلومات فى تاريخ أبى حمو عن كيفية معاملته للجيش فى واقـــع الامر ، يجد الدارس قدرا كبيرا من المعلومات عن تحركاته قبيل الحرب مع عدوه ، وعددا أكبر من الاخبار عن الوسائل التى كان يتبعها فى الحرب مع ذلك العدو • وعندما يقرأ الدارس ما كتبه أبو حمو فى نظريته عن الطرق التى يجب على الملك أن يستعملها فى مواجهة عدوه فى مختلف الظروف ، يجد أن الكثير من هذه الطرق كان مستمدا دون ريب من تجربته ، وان غيرها كان أيضا استنتاجا ذا علاقة بتجربة أبى حمو العسكرية الطويلة بشكل أو بآخر وخاصة منها ما يتعلق بترتيب الجيش لدى الزحف ، فانه ذا لون محلى يوحى بأنه مؤسس على التجربة • ومما هو جزء من تجربته يقينا نصيحته للملك باستئلاف الاولياء بالمال وشتى أشكال الملاينة ، وبالشورى قبل الخروج الى الحرب الا فى حال انتهاز الفرص والمخاطرة فى سبيل السلطان ، واللحاق بالعدو بعد الانتصار عليه ، واللجوء الى الحرب التخريبية لاضعاف العدو ، والفرار الى المعقل فى حـــال الهزيمة (168) ، وكل هذا مما كان له صدى واضح فى نظرية أبى حمو فى كيفيـــة معاملة العـــدو •

ونظرا لان أبا حمو كان اكثر شيئا اهتماما بسلامة الملك ، فانه عرض فى كتابـه فى مجال الحرب الى ثلاثة موضوعات كبيرة ، تكون فى مجموعها « الاستراتيجية » التى

168) انظر ما سبق ، ص : 15 — 17 •

كان يفيء اليها ، الاول : التدابير الوقائية السابقة للحرب التى تمكن الملك من السلامة اذا اضطر ان يخوض حربا مع عدوه ، والثانى : التكتيكات العسكرية التى يجـدر بالملك ان يتبعها اذا دخل الحرب ، والثالث : الوسائل الانقاذية التى يلجأ اليها الملـك فى حال هزيمة فى الحرب ٠

أ) التدابيـر الوقائيـة :

1) أولها عناية الملك بالجيش ومحافظته على تماسكه وابقائه راضيا عليه مستعـدا لحماية دولته ، وهذا أمر قد مر الحديث عنه من قبل (ص : 69) ، ثم أن يقيم الملك نوعا من التوازن بين جيشه وماله ، وتلك قضية قد مر ذكرها ذكرا عابرا (أنظر ص 66 و 69) وسوف نوضح هنا تأثيرها فى المجال العسكرى كما عرضه أبو حمو ٠ فالملك اذا فرط فى جميع جيشه وشغل نفسه بتجميع الاموال من دون الرجال ، فانه ينهزم فى المعركة فى حال هجوم عدوه عليه ، لا فرق فى ذلك بين أن يكون عدوه هذا أقوى منه أو أضعف منه (ص : 121) ٠ وقد يعمد الملك فى تلك الحالة الى محاولة انقاذ وضعه انقاذا سريعا فيحاول أن يجمع الرجال عن طريق بذل المال ، الا أن الناس يرفضون المال منه لانهم تعودوا منه قلة العطاء فى الشدة والرخاء ، وبذلك يخيب سعيه ولا يجد ما ينقذه من ورطته (ص : 124 ـ 125) ٠ ويقول أبو حمو ان مثل هذه الحادثة جرت للسلطان أبى تاشفين بن أبى حمو الاول الزيانى ـ ابن عم والد السلطان أبى حمو ـ ، فانه فـرط فى جيشه عندما حصره بنو مرين ، وأمسك يده عن العطاء فى الحصار ، واستعد بالحصن وبالقنيل من الانصار حتى كاد أن يدخل العدو عليه البلد ، اذ ذاك طلب لمن يعطى المال فلم يلتفت اليه أحد ، ولم يجد من يأخذ منه المال ، فانهزم هزيمة منكرة ودخل المرينى البلد عليه عنوة ، فذل بعد ما كان عليه من العز (ص : 125 ـ 126) كذلك لا يحسن حال الملك اذا فرط بالمال واشتغل بتجميع الرجال وتعظيم أعداد الاجناد ، لانـه اذا دهمه عدوه وعرف ضعفه من جهة المال ، وكان أحسن منه مالا ، حاول أن يخدع جيشه ويصيرون الى عدوه ، ولو كانوا من اخوانه ، « ومثل هذا مثل من قـوى عدوه عليه بالمال ويستميله اليه بالخداع ، وعند ذلك قد يقبل الجيش العرض منه ، فيتركون الملك وجب هلاكه اليه » (ص : 126) وهذا ما حدث لمصعب بن الزبير ، اذ استكثر من الرجال

ثم قتر عليهم فى المال ، فاستغل الوضع عبد الملك بن مروان ، وأرسل الكتب اليهم والاموال ، ومناهم الامانى ان غدروا بمصعب ، فما لبثو يوم المعركة مع عبد الملك أن تركوه (ص : 126 ـ 127) ٠

فالملك يجب أن يجمع من الرجال بقدر ما يسمح له به المال فى دولته (ص : 121) ، ويعنى بهما معا عناية متساوية ، اما اذا أهملها معا وانصرف الى لذاته فيكون ذلك سبب هلاكه وهلاك دولته (ص : 128) ، وذلك هو ما آل اليه أمر بنى أمية عندما انصرف ملوكهم الى اللذات والشهوات وتركوا أمر تدبير الجيش والمال (ص : 128 ـ 129) ٠

هذا وعلى الملك أن يتذكر أن عدد الاجناد فى الجيش يلعب دورا هاما فى النصر فى الحرب (ص : 78) ، الا أنه يجب ألا ينسى أن كثرة عدد الشجعان العظام المتوفرة فى الجيش الواحد أهم بكثير من كثرة عدد الاجناد فيه على الاطلاق (ص : 116) ٠ وهذا الطاغية ابن ردمير ملك النصارى ، عندما التقى مع أمير المسلمين على وشقة ، كان عسكراهما متكافيين ، كل واحد منهما يراهق عشرين ألف مقاتل بين خيل ورجال ، فلما دنا اللقاء سأل الطاغية من يثق بعقله وممارسته الحروب من رجاله ، استعلم من حضر فى عسكر المسلمين من الشجعان الذين نعرفهم ويعرفوننا من منهم حضر ومن غاب ، فذهب ثم رجع وقال : فلان وفلان ، حتى عد سبعة رجال ٠ فقال له ابن ردمير : انظر الآن فى عسكرى من الرجال المعروفين بالشجاعة ، من غاب منهم من حضر ، فعدهم فوجدهم ثمانية ، فقام الطاغية مسرورا وتفاءل بالنصر وكذلك كان ، اذ انكسر المسلمون وتفرق شملهم وملك العدو مدينة وشقة (ص : 116 ـ 117) ٠

2) ومن التدابير التى يستحسن أن يلجأ لها الملك أن يدخل الدواخل بين أعدائه ، حتى يوقع الشتات فى قلوبهم ، فيصبح كل واحد منهم متحرزا من صاحبه ، يطلب له سقطة يوقعها فى جانبه ، فاذا تشاغل بعضهم ببعض ضعفت قوتهم وتمكن الملك من غلبتهم (ص : 123) ٠ بل ان شجارهم فيما بينهم قد يجعلهم يفشون أسرارهم الى الملك فيرجعون الى صداقته ، ويدخلون فى حزب أوليائه ، ويميلون الى جنابه ، وان لم يكونوا من أصحابه ، لان كلا منهم يحذر من صاحبه ويخشى منه سوء عاقبته (ص : 123) ٠

3) وقد يلجأ الملك الى صرف الاموال على أعدائه حتى يستميلهم الى جانبه ، وذلك مثل انفاقه المال على أرسال عدوه ، فانه فى كثير من الاحيان قد يستميلهم بذلك اليه ، ويجعلهم ينقلون ولاءهم من سلطانهم اليه ، بل ويفشون أسرار هذا السلطان عنـده ، فينكشف خبره ، وتظهر حقيقته ، وهذا يسهم فى مساعدة الملك على رسم خطط معه (ص : 161) ، وهذه وسلية لجأ اليها أبو حمو بحق فى واقعه .

4 ـ 5) وهناك طريقان وقائيتان أخريان ذكرهما أبو حمو ـ ولكن عن كتاب المنهج المسلوك ـ نثبتها فى جملة آراء أبى حمو لانه ـ فيما يبدو لى ـ اكتفى بذكرهما منقولتين فلم يرد أن يكررهما رغم أنه يعتقدهما ، وذلك هو أن يتقدم الملك فى الحيلة للامر قبل نزوله ، فانه اذا نزل به ضاقت عنه الحيل « فهو فى المثل كالسكر الذى يسكر عـلى الارض التى يخاف غرقها ، فانه ان عمل قبل وصول الماء اليها ، فانه يثبت ويمنع الضرر عنها ، وان وصل الماء اليها فلا حيلة فيه بالسكر » (ص : 114) .

6) كذلك على الملك أن يتفرس في عدوه ويلازم جانب الحـذر تجاه ما يصدر عنه ، فيلاحظ ما اذا كان يعاهده بالحسنى ويواليه ويقضى له جميع مآربه أو اذا كان يناضره فى كل الحالات ، وحتى اذا بعث اليه بالتهنئة أو الموالاة أو التعزية أو استجلاب المورة فانه يجب ألا يركن اليه ، ويسبق الظن فى ذهنه على أنه يريد فى الحقيقة اختباره ، ليعرف الصحيح من أخباره (ص : 153) . هذا وان كثيرا من نوايا العـدو الصحيحة يكتشفها الملك عن طريق التفرس فى أرساله كما مر .

7) وينبغى للملك أن يعرف وجوه الكيد الذى به يكيد عدوه ، ان يمر فيحترس من مثلها ، ولا ينسى أنه ان اصاب برميته فهو مستهدف لرمية غيره ، فاذا احتال على عدوه بضروب الحيل ثم لم يحتفظ من كل ما يظن انه يبلغه من عدوه ، كان عمله غير نافع له فى العاقبة ، قال : « وقد كان يقال : احترس من تدبيرك على عدوك كاحتراسك مـن تدبيره عليك ، فرب هالك بما دبر ، وساقط فى البئر الذى حفر » (ص : 114) .

8) فاذا كان الملك فى وضع يخاف عدوه منه على نفسه وسلطانه ، فيجب عليه أن يظهر بمظهر الرقة والوداعة ويحسن كلامه معه ويظل فى الوقت نفسه متيقظا محترسا ، يقوى حصونه وجيشه ، حتى اذا حانت لحظة اللقاء وثب عليه وغلبه على ملكه (ص : 115)

9) غير ان الضمانة الكبرى للملك فى سعيه للانتصار على عدوه هى أن يكــون متحليا بصفة الشجاعة الحق ، وهى الشجاعة التى يصحبها الرأى (ص : 129 ــ 130) ، من دون الشجاعة التى لا يصحبها عقل ولا رأى ، والتى اسمها الحقيقى الهور والتهور (ص : 135) ، ومن دون الشجاعة التى تأتى على الملك فجأة عندما يرى عدوه أمامه ، اذ كان قبل أن يهاجمه العدو زاهدا عن الدنيا منصرفا الى شؤون الآخرة فكان يظن أنــه من زهده لا يضره احد الاعداء ولا تصله يد الاعداء ، فتلك شجاعة قاصرة عــن الرأى مذمومة بالنسبة للدنيا والآخرة (ص : 134 ــ 135) • أما الشجاعة الحق ، فانها تجعل الملك منصورا مطاعا ، يرهبه الاعداء ، ويطمئن به الاولياء (ص : 129) ، وأوضح مــا تظهر به فى مواقع الحروب • فكيف يسير الملك الشجاع الحرب اذا وقعت ؟

ب) ضروب التكتيك العسكرى المؤدى الى النصر :

1) دور الملــك فى المعــركة :

ان أول ما يجب على الملك أن يدركه أنه ليس من الشجاعة فى شىء ان يخاطر بنفسه فى الحروب ، باستثناء واحد وهو مخاطرة الملك فى طلب الملك والسلطان (ص : 130) فان المخاطرة تكون محمودة فى هذا الشأن لان الملك اذا خاطر بنفسه فى طلب سلطانه ، واسترجاع بلاده وأوطانه حمدة مخاطرته فى سره واعلانه (ص : 12 ــ 13) • لانه اذا نجح فى سعيه نال غاية مطلبه ، واذا مات دون غرضه كان له فى موته اجمل العــذر (ص 13) وأوضح مثال على المخاطرة بالنفس فى سبيل السلطان كما يقول أبو حمو ، مخاطرة بنفسه لاجل استرداد تلمسان من حكم المرينيين سنة 760 وقد ساق حكايــة تلك المخاطرة بتفصيل غير قليل فى كتابته (ص : 13 ــ 15) وأردفها بقصيدة ميمية من نظمه تحكى حكاية المخاطرة ذاتها (ص : 15 ــ 19) •

2) خطة المبادرة متى تكون ضرورية :

وهناك موقف آخر يجدر بالملك ان يأخذ المبادرة بالهجوم على عدوه ، وذلك اذا كان العدو قريبا لبلاده ويكثر من الفساد فى بلاد الملك ومعاندته ، اذ ذلك يجب على الملك ان يسلط خيله على بلاد العدو ، ويسعا فى شتاته وفساده ، ويضعف بلاده غاية الضعف

ويرهق اهلها بالغارات والزحف • فاذا قدر الملك على اخذ ذلك العدو وحصاره ، وقهره فى بلاده والتضييق عليه هنالك ، كان فى ذلك الخير كل الخير له • اما اذا لم يستطع ان يهزمه بل رأى أن احواله تشتتت ونكاية عدوه تعذرت ، فعليه ان يعود الى بـــلاده بمن معه من الرجال والعتاد فيزيد هنالك فى جيشه ومدده ، ثم يسرع الى عدوه فيها جمه • فاذا استطاع ان يأخذه على غرة فان العدو يداخلـه الخوف والاضطراب لما يراه يراه من فساد بلاده وقلة جيشه واحشاده ، وتكون الهزيمة عليه كاملة • اما اذا لـم يستطع ان يأخذه على غرة وكان بامكان عدوه ان يستنجد بجيشه قبل اللقاء معـــه ، فالمجابهة تكون اصعب الا ان هزيمة العدو تظل امرا مرجو ، وخاصة اذا تم اللقاء بين حدى بلاد الطرفين المتنازعين (ص : 115 ــ 116) •

والموقف الآخر الذى يجب على الملك الا يتردد فيه عن الهجوم على عدوه ، هو عندما يكون الهجوم من باب انتهاز الفرصة السانحة (ص : 31) • اذ ذاك يجب عليه الا يعمد الى التأجيل قط (ص : 19) ، وتلك تجربة كان أبو حمو قد خبرها بنفسه •

اما فى سائل الاحوال ، فان على الملك الا يحجم على العدو الا بعد فكر وروية وتدبر وحذر ــ (ص : 31 و 122) ، اذ رأس الشجاعة الحذر والتوقى مثلما ان سياستها محاربة عند التلقى (ص : 129) •

3) ترتيب الجيش فى الميـــدان :

فاذا عزم الملك على ملاقاة عدوه ، فعليه أن يرتب جيشه ترتيبا معينا يوم الحرب ، ارهابا لعدوه ، وانتظاما لجموعه ، فيقسمه فى أربعة أقسام ميمنة وميسرة وتقـــدمة وساقة ، ويقدم على كل من الميمنة والميسرة قائدا مقداما ، أما التقدمة فيقدم منهم فرسانا من أنحاء القبائل الشجعان ، يكونون فى نحر العدو اذا قصد اليه ، ويقدم عليهم أيضا قائدا من الابطال ، ويجعلهم فى قسمين : قسم يلى الميمنة بين يديها ، وقسم يلى المسيرة بين يديها • أما الساقة ، وهى قلب الجيش ، فانها لا تقارن بالميمنة ولا المسيرة ، لانها « القلب الذى يوقف الجيش ويشده ويصد العدو ويرده » (ص : 131) ، فلا يكون فيها الا أهل الشجاعة والنجدة والشدة والكفاية ، وعلى الملك أن يرتبها ويجعل عليها قائدا

عن يمينها وقائدا عن يسارها ، من زعماء خاصته الانجاد ، يضبطانها ويحفظانها فى اقبالها وادبارها ، لتبقى موفورة بحيث لا يفل أحد منها ولا يتزحزح ولا يتحول وحتى لو انكسرت الميمنة والميسرة ، فان الساقة تثبت مع الملك على حالها (ص : 130 ــ 131) ٠

4) خطـــة الزحـــف

وعندما يتقدم الملك للهجوم على عدوه ، عليه أن يجعل راياته أمامه (ص : 130) ، ويتوكل على الله (ص : 131) وينهض الى عدوه زحفا لكى يرهبه خوفا ورجفا (ص 133) ٠ وعليه أيضا أن يسير أمامه « كشافة » يسميهم أبو حمو « فرسان الاقتداء ورســل الاعتداء » (ص : 132) ، تكون وظيفتهم أن يعلموا الملك بجهة عدوه ، لانه عند التقاء الجمعين وتزاحم الصفين ، تلتبس على الملك جهة العدو ، ولا يدرى الدنو من البعـد ، ولا سيما اذا اختلطت الرجال وارتفع الغبار وتلاقت الصفوف المتزاحمة (ص 131 132) ٠

فاذا كان العدو فى مواجهة الملك ، فعلى الملك أن يتقدم اليه بعد التانى والتدبير (ص : 133) ، بصبر ظاهر ، وجاش ثابت ، فيشتد بثباته المقاتلون ، أما هو فانه يثبت نظره على ساقته ، التى هى قلب جيشه ولا يلتفت يمينا ولا يسارا ، وان انكسر أحد الجناحين فلا يهتم به ، ولا ينقل بصره اليه ، ولا ينفتل بسببه ، لانه انكسار أحـــد الجناحين مع ثبات القلب لا يضر ، ومن شأن الملك اذا نقل بصره الى الجناح المنكسر أن يتشوش خاطره فيبادر اليه مع العساكر ، فيكون ذلك بدء الهزيمة عليه ، لان الجيش اذا رأى ملكه يميل الى أحد الجهتين يحسب أنه منهزم فيدب الرعب فى قلوب أصحابه ، وتقع الهزيمة الكاملة عليه (ص : 130) ٠

على أن الكشافة قد يخفقون فى تحديد الجهة التى منها يتقدم العدو ، وقد يحدث أن يجد الملك نفسه متقدما فى اتجاه معين فاذا بالعدو يقابله عن يمينه أو عن يساره (ص : 132) ٠ اذ ذاك على الملك أن يمتنع عن الانفتال الى عدوه بسرعة ، لان فى هــذا الانهزام وفوت المطلوب (ص : 131) ، وانما عليه أن يسير باتجاهه سيرا رفيقا ، بين توقف وامهال ، فلا يشعر العدو بالملك فى الانتقال ، ويقل للقلب ثبــوته وتلاحمه ، وربما خدع هذا العدو فانتقل الى جيش الملك ، فكان فى انفتاله القضاء عليه (ص 135) ٠ وقد حدث أن أبا الحسن المرينى التقى مع الطاغية الفنش (سنة 741) بالجزيرة الخضراء ،

فلما التقى جيشا الطرفين هناك نظر أبو الحسن فرأى الطاغية متحيرا عن مواجهته ، يطلب جانبا من جوانبه يهاجمه منه ، فانتقل أبو الحسن اليه ، وكان انتقاله اليه بسرعة ، يريد الهجوم عليه دفعة واحدة ، فرأى المقاتلون من أصحابه أنـه قد انتقل بعلاماته وساقاته ، فظنوا انه انهزم ، فانكسرت الميمنة والميسرة ، ووقعت عليه الهزيمة النكراء (ص : 133) ·

5) المطـــاردة :

فاذا انتصر الملك فى حربه مع عدوه وفر عدوه من أمامه ، فعليه أن يلحق به عـلى الفور بأثقاله وأسبابه وأمواله ، ويسير وراءه ليلة ونهاره ، فاذا بادره أخـذ أمواله وأثقاله وقتل رجاله ، وربما كبا بالعدو نفسه جواده أو عثر أو دهش وتعثر ، فيظفر الملك به · فاذا استطاع العدو أن يصل الى بلده وحصنه فعلى الملك أن يلحقه الى هنالك لانه عند ذلك يكون فى أضعف أحواله ، ويكون القضاء عليه امرا لا يحتاج الى تطويل (ص : 133) ·

جـ) التكتيك العسكرى فى حال الهزيمة :

وحيث أن الهزيمة يمكن أن تقع على الملك فى أى ملاقاة ، فعلى الملك أن يكون قد أخذ أهبة من قبل لاحتمالاتها ، ويكون قد أعد لنفسه أربعة أشياء تساعد على أن ينقذ نفسه ان لم يستطيع انقاذ ملكه وهذه الاشياء الاربعة هى :

1) حصن يلجأ اليه لدى الشدائد ويتحصن فيه من العدو ، وصفته أن يكون حصنا حصينا لايرام ، وقلعة قوية لا تطلب ، قد اشتمل على الماء ، والمختزنات وحفل بالوان ذخائر الملك وأمواله وأثاثه وأمتعته وأثقاله ، يسكن فيه اجرياء جند الملك وحماتـه وقواده ، ويشحنه هو بالرجال والرماة الشجعان من ناحية ، وبأهل الصناعات وأرباب التجارات الذين يستطيعون أن يكفوا أهل الحصن حاجاتهم من ناحية أخرى ، ويستحسن ان يكون موقع هذا الحصن فى مكان الزرع فيه ممكن ، واذا كان على ذلك ساحل البحر فنعم الحصن هو ، وخاصة اذا كان بحره تحت حكم الملك نفسـه (ص : 88 ـ 89) ·
وحصن الاركن الذى روى قصته ابن ظفر ونقلها أبو حمـو ، والذى كان سببا فى

استعادة الملك الهندى المسمى بالاركن بلاده بعد احتلال كسرى انوشروان لها مدة طويلة من الزمان هو خير مثال على الكيفية التى يجب أن يكون عليها الحصن (ص : 89 : 103) ·

2) جواد من عتاق الخيل وخيارها وكرامها وسراعها ، يلجأ اليه الملك فى حال انهزامه واضطراره الى الهرب (ص : 103) ·

3) ذخيرة ثمينة من الجواهر المختلفة ، يكون قد جمعها على مر الايام فتظهر فائدتها عندما يعترى الملك من أمور دنياه ، اذ يستطيع بها أن يجمع المال ويقيم أوده ، ويصلح أمره ، ويعيد الكرة على عدوه (ص : 103) ·

4) وزير يكون معينا له على شدته وأنيسا فى وحدته ، قد تمرن بالاسفار ، وجرب الامور والاخبار (ص : 103 ــ 104) ·

فاذا توفرت هذه الوسائل لدى الملك فمن شأنها أن تقليه من عثرته اثر هزيمته وتؤمله مرة أخرى فى أن يعود الى سابق عهده ·

هذا ما تحدث عنه أبو حمو بشأن ملاقاة العدو ، وهو كثير من حيث الكمية ، دقيق من حيث الدخول فى التفصيلات ؛ وهو يدل على مدى افادة أبى حمو من تجربته العسكرية الطويلة من ناحية ، الا أنه يدل أيضا ــ من ناحية أخرى ــ على اهتمامه الشديد ــ ملكا ومفكرا وسياسيا ــ بالجيش ورسم الخطط له لمواجهة العدو ، وما ذلك الا لان الحياة السياسية فى المغرب فى القرن الثامن كانت مليئة بامكانات المواجهة العسكرية ، وذلك أمر خبره أبو حمو كما لم يخبره أى ملك عاصره ، نظرا لطول مدته فى السلطان ، وكثرة اعدائه من حوله ·

ولكن هناك ملاحظة على نظرية أبى حمو فى الجانب الاستراتيجى ، وهى أنها ــ على اتساعها ــ لم تشمل كل نواحى تجربة أبى حمو العسكرية ، وفيها بعض النقاط الشديدة الاهمية التى كان يجدر بأبى حمو أن يفيد مخاطبه الملك بها ، اذ كان قد خبرها قبل أن يكتب كتابه ، ومنها استعمال الجواسيس أو العيون لاستطلاع أمر العدو (172) ووجوب اخذ الرهن من الاولياء ضمانا لولائهم فى بعض الاحيان والاكتفاء بالوعد

الشفوى فى أحيان غيرها (172) • ثم ان تاريخ أبى حمو يدل على انه كان يرى محاربه المنافقين من اعوان الملك ، والمقلقين عليه ، والمنشقين عنه (172) ، وكل هذا مما لم يذكره فى نظريته » كما لم يذكر أن على الملك أن يحارب بلا هوادة من تسول له نفسه منافسته على السلطان ـ كما فعل هو نفسه مع ابن عم أبيه أبى زيان ـ ولعله لم يشأ أن يتعرض لهذا الموضوع لان حربه مع أبى زيان لم تكن قد انتهت بعد عندما كتب كتابه « الواسطة » • كذلك لجأ أبو حمو فى الواقع الى احتضان بعض منافسى بنى مرين على الخلافة (172) ، وتلك وسيلة مهمة لمكيدة الاعداء ، ولم يذكرها أبو حمو فى نظريته ، وربما كان ذلك لان بنى مرين احتضنوا منافسة هو أبا زيان فى وقت من الاوقات • وبعد ، فان تجربة أبى حمو العسكرية العريضة علمته أن اختيار الطقس المناسب من شأنه ان يكلل سعى المهاجم بالنصر (172) ، وان من شأن عوامل مثل سماسرة الفتنة ومرض القلوب والغدر والخيانة والرعب أن تؤدى الى هزيمة المهاجم ، كما حدث له غير مر ةفى تاريخه (173) ، وهذه وأمثالها مما لا يظهر له أثر فى نظرية أبى حمو •

على أن الحرب أو الاستعداد للحرب بطريق مباشر أو غير مباشر لم تكن اللغة الوحيدة التى تعامل بها أبو حمو مع أعدائه ، وانما كان فى زمن السلم يلجأ الى السفارة اليهم ، كما كانوا يلجأون هم أيضا الى السفارة اليه ، كما مر من قبل • ونحن نعلم من تاريخ أبى حمو انه كان يكرم السفراء القادمين عليه (174) ، كما نعرف مما أخبرنا به هو فى « الواسطة » أنه كان يتفرس فيهم وفى كتبهم ليعرف ما خفى من أهدافهم (175) ، ولكن هذا يدخلنا فى موضوع جديد •

170) انظر ما سبق ، ص : 15 •
171) انظر ما سبق ، ص : 15 — 16 •
172) انظر ما سبق ، ص : 15 •
173) انظر ما سبق ، ص : 11 •
174) انظر ما سبق ، ص : 16 •
175) انظر ما سبق ، ص : 16 — 17 •

5) فراسة الملك : القاعدة السيكولوجيه

هذه قاعدة بارزة فى كتاب أبى حمو ، ومن أجلها خصص بابا كاملا من كتابه واسطة السلوك معلنا بذلك دورها المنفرد ، كما جعل هذا الباب آخر باب فى كاتبه ، مشيرا بذلك الى فعاليتها فى كل ما سبق من موضوعات الكتاب ·

والحقية أن أبا حمو يعد فريدا بين كتاب السياسة لدى المسلمين فى تخصيص الفراسة بهذه الاهمية ، وفى تفصيله فى الحديث عن كيفية تطبيقها · وهذا أمر قد يرجع الى محصوله الثقافى ، لان الوصية الى الاسكندر تحتوى على فصل عن الفراسة ، ان كانت معالجتها هنالك تختلف تماما عن معالجة أبى حمو لها ـ الا أنه يعود أيضا الى تجربة أبى حمو فى الحكم ، فانه كان يعتقد نفسه ابانه أنه موهوب بالفراسة ، والى موهبته فيها نسب نجاحه خلاله فى الكشف عن النوايا الحقيقية لعمر بن عبد الله رسول ملك المغرب واحباطها نجاحا عظيما ، كما حدثنا به هو نفسه (176) · الا أن أبا حمو أخفق اخفاقات عديدة فى تطبيق الفراسة لدى اختيار العديد من أصحاب المناصب فى دولته ، بدليل أن الدارس يلاحظ أن عديدين منهم غدروا به أو لم يعملوا بمقتضى الوظيفة الموكلة اليهم لديه ، فكان أن أضطر أبو حمو الى قتلهم أو نفيهم أو حربهم وما الى ذلك · (177) ، ولو كان أبو حمو قد أحسن استعمال الفراسة فيهم لما وكل اليهم تلك المناصب ، اذ لابد أن يظهر عليهم ـ حسب رأيه ـ بعض الامارات التي يستدل بالفراسة على ما تبطنه نفوسهم من الغدر أو سواه · ولعل أبا حمو كان مكتئبا لما ظهر فى دولته من الخلل فى هذه الناحية ، فحاول أن يستدركها باعطاء التفصيلات لولى عهده عن كيفية تطبيق الفراسة فى رجال الدولة والجيش ـ وفى العدو أيضا ـ فكانت النتيجة كتابة فصل من أجمل فصول كتاب « الواسطة » وأشدها حيوية ، وأكثرها ابرازا لمدى قدرة أبى حمو على فهم النفس الانسانية وتتبع حركاتها ، ورصد تغير هذه الحركات ، وتلونها ، وتقلبها وتحولها ، وتلك قدرة وضعها أبو حمو فى خدمة

---

176) انظر ما سبق ، ص : 14 — 15 ·

177) انظر ما سبق ، ص : 20 — 21 ·

الملك المرجوة نصيحته حتى يفيد منها فى بناء دولته ولا يقع فيما وقع فيه هو من سوء تطبيق الفراسة ، وبذلك تكون الفراسة الطاقة السيكولوجية التى بها يحمى نفسه ويضمن لملكه الاستقرار ·

والفراسة بتعريف أبى حمو « قوة نفسانية ربانية ، يؤيد الله بها النفوس حتى ينقلب بها المعدوم كالمحسوس ، ويطمع فى مراءاتها كل خفى ، حتى كأن الامر جلى » (ص : 141) · وهذا يعنى بكلام أوضح ، أنها الملكة التى يستطيع الملك بها أن ينفذ الى خبايا النفوس وخفاياها فيدرك حقيقة ما يعتمل فيها صافيا من دون كدر ، غير مكتف بما تنبئه به ظواهرها ، اذ هذه الظواهر كثيرا ما تكون براقة خادعة ، نصيبها من الصدق فى احيان عديدة غير كبير ، ورغم أن أبا حمو يصنف الفراسة بين القوى النفسية التى لا تكون لدى المرء الا اذا اخصه الله بها ، فانه لا يجد حرجا فى أن يجعلها ضمن ما ينصح الملك باكتسابه من الصفات ، وذلك ـ فيما يبدولى ـ لسببين :

الاول : ان الفراسة قائمة على الحذر واليقضة والوعى الشديد ، بل سوء الظن بغير نفس الفرد الى حد بعيد ، وتلك صفات يمكن للملك ـ كما يمكن للرجل اجمالا ـ أن يكتسبها ، وقد طالب أبو حمو الملك بأن تكون بين ما يجب ان يحرص على توفره فيه من الصفات ، كما مر ، حتى أنه طالبه بألا يؤمن الاحداث من النساء ولا من يميل من الاحداث منهن على طعامه وشرابه ، خوف أن يخلطن فيه ما يرين انه ينفعهن ولا يضره (ص : 20) · وحذره من أن يطلع أى أحد على قصره حتى لو كان أقرب أولاده اليه (ص : 21) · ونهاه عن أن يجعل لقصره بابين (ص : 20) وحضه على الا يغفل عن تفقد هذا القصر فى ليله ونهاره ، مردفا القول « ولا تأمل عليه أحدا غيرك » (ص : 20) ·

والثانى : أن الفراسة ملكة يمكن تدريب المرء عليها عن طريق شرح الطرق التى يمكن أن تمارس بها ، وهذا هو الهدف الذى نصب أبو حمو نفسه لتحقيقه فى كتابه ، فكان باب الفراسة عنده عبارة عن مجموعة من المظاهر المفترضة التى يمكن أن يظهر بها مختلف رجال الملك ، يتلو كل واحد منها تبيان للحقيقة الكامنة وراء المظهر ـ فاذا قابل الملك واحد من هذه المظاهر ، ولم يعرف ما هى الحقيقة المختفية وراءه ، رجع الى

كتاب أبى حمو فوضع عليها يديه دون كبير جهد · وهذه الطريقة فى معالجة احـــدى قواعد الملك مختلفة كثيرا عن الطريقة التى عالج بها أبو حمو سائر قواعد الملك (ومن هنا افرادها فى باب مستقل فى نظرى) وهى مليئة بالنظرات السيكولوجية الدقيقة ·· وانما أملى الطريقة عليه ـ فيما يبدولى ـ أن الفراسة من الصفات التى قد تتوفر فى الملك وقد لا تتوفر فيه بالخلقة الطبيعية والهبة الربانية ، وحيث أن أبا حمو يرى توفرها فيه ، فانه يود أن يفيد الملك ـ نصيحه ـ فى كيفية تطبيقها على الاقل ـ على أن أبا حمو لا يضع الاشياء أمام الملك بشكل فج ، وانما بشكل لبق يتخذ قالب « الاختبار » مـن جانب الملك لمن يريد أن يمتحنه من أهل دولته ، كان يقول : « يا بنى ، اذا أردت أن تتفرس فى وزيرك هل هو كامل العقل أو ناقص العقل ، فاذا رأيت ·· (ص : 143) ، أو يقول « يا بنى وان أردت أن تعرف من جلسائك من هو محب فيك ، فأودعه ··· » (ص : 144) · أما الهدف من الفراسة ، والفائدة النهائية منها فامر لا يذكره أبو حمو ولكن يفهم من كلامه احمالا عنها أنه يريد أن يتمكن الملك بواسطتها من ابقاء الشخص المناسب فى الوظيفة المناسبة فى دولته وجيشه ، فلا يقع الخلل فى أى منهما بسبب من الاختلال بين ما تتطلبه الوظيفة من الشخص (كما مر شرحه من قبل) وبين مؤهـلات الشخص نفسه الذى سيحتلها · وربما أن الاختلال فى الدولة والجيش يلقى ظله عـلى الملك ، فتحتل أحواله بطبيعة الحال ، فان نصيحة الملك بالفراسة أمر ضرورى لابى حمو من حيث حرصه دائما على سلامة الملك ودولته ·

ويطول بنا المقام لو ذهبنا نستقصى جميع المواصفات الافتراضية التى تعرض لهـــا أبو حمو فى باب الفراسة ، ولكن يمكننا أن نعدد الاشخاص الذين يجـــدر بالملك أن يختبرهم بالفراسة ، والامور التى يمكن أن يستدل على حقيقتهم منهـا ، ثـم نحـــاول استقصا الطرائق التى يمكن للملك بها أن يطبق الفراسة · ونختم الحديث بأخذ مثـــل واحد ممن يطبق الملك عليهم الفراسة · فالملك ينبغى أن يفترس فى وزيره فيعرف اذا كان كامل العقل أو ناقصه واذا كان ناصحا له ، صادقا معه ، مفضلا لخدمته على شكران ذاته والعمل لمصلحته (ص : 142 ـ 144 و 145 ـ 146) ، وفى جلسائـه ليعتبر من هو المحب فى جنابه ، المسرع لقضاء آرائه ، الحافظ لسره ، أو من هو على غير ذلك ، وما اذا

كان جلساؤه متفقين أم لا (ص : 144 ـ 145) ، وفى **كاتب سره** ليتأكد ما اذا كان قائما بالحق ، حافظا للسر (ص : 146 ـ 148) ، وفى قضاته فيعلم مدى تكالبهم على القضاء وميلهم الى الذرية والفساد ، ومدى قبولهم للرشا وتسامحهم فى الاحكام ، وكذلك الحال بالنسبة **للمفتى** (ص : 147 ـ 249) • أما **القواد** فيجب على الملك أن يمتحنهم ليرى ما اذا كانوا يقبلون الرشا (ص : 149 ـ150) ، وأما **الجيش** فيجب أن يتفرس فى اهتماماتهم أيام السلم ، هل فى الزينة واللهو واللعب والنساء ، أم بالتفاخر بالخيل والعدة وآلة الحرب والنجدة ، وأيام الحرب : هل ينشطون لدى الحرب أم يترددون ••• (ص : 150 ـ 51) • كذلك يجب على الملك أن يتفرس فى **صاحب أشغاله** فيفحص مآكله ومشربه وحاله وملبسه وعلاقته بسائر العمال والوزراء والاجناد (ص : 151) ويفعل شيئا مشابها مع **الولاة** وينظر بالاضافة الى ظلمهم للرعية ومدى قبولهم للرشا (ص : 151 ـ 152) • وأحسن طريق لاختيار حقيقة **الحكام** مدى حب الاخيار لهم وبغض الاشرار لهم أو العكس (ص : 152 ـ 153) ، وكذلك الحال مع **صاحب الحسبة** (ص : 153) • أما **السفراء** فان اعمال الفراسة فيهم من أهم الامور لسلامة مهمتهم ، وأصلا فان أحدا منهم يحب ألا يرسل الا بعد أن ينجح فى الاختبار (ص : 153) ، وعندما يرجع يتفرس فيه الملك ليدرك مدى ولائه له ، وحرصه عليه وليكتشف ما اذا كان عدوه قد استماله اليه ، وأغراه بالمال والكسوة والجهاز أن يخون ملكه ويقضى بأحواله اليه (ص : 154 ـ 157) •

وقد عرض أبو حمو طرائق عديدة يمكن للملك بواسطتها أن ينجح فى الوصول الى حقيقة الرجل الذى يتفرس فيه ، أبرزها ست هى :

1) أن يتفرس فى كلام الرجل ومثل ذلك مثل التفرس فى الوزير عندما يتعين للملك عند أحد الناس مال • فاذا تعرض الوزير للملك بتركه فى نفس الحال ، وألح عليه فى الكلام عليه ، وأظهر له وجوها من الاعتذارات بضعف المطلوب واقلاله ورقة حاله ، فليعلم الملك أن الوزير يريد منفعة نفسه ، واذ ذاك عليه أن يزجره عن مقاله ويأمره أن لا يعود الى أمثاله • فاذا تمادى عليه بالحاح ، وجد فى ذلك ، فليعلم الملك أنه

قد رشى عن ماله ، وان كف بعد أن زجره ولم يعد الى سابق الذى عنه أخره ، فليعلم أن كلامه عن صحة من غير غرض ولا داعية تدعوه الى أخذ غرض (ص : 142) ·

2) أن يتفرس فى **حركات** الرجل ، ومثل ذلك مثل القاضي يوليه الملك خطة القضاء ، قال أبو حمو : «فتفرس فيه أيضا فى حديثه وصمته، وفى مشيه وجلوسه وسمته، فان كان قبل القضاء يعرف بالصمت فى لسانه ، ثم بعدما قضيته ظهر لك منه انطلاق لسانه مما لم يكن من شأنه ، وأظهر البشاشة والشكر ، والثناء والذكر ، فتعلم أنه محب فى القضاء وانه متصنع فى الرياء وان كان طليق اللسان ثم التزم الصمت بعد القضاء ، وأظهر السكون فى جملة الاشياء ، فتعلم أنه متصنع وانه بالناموس متلفع · ثم تختبره فى مشيته ، فان زاد على حاله المعتادة ، وحدث منه فيه شيء من نقص أو زيادة فتعرف أنه متصنع فى حاله ، متنمس فى أفعاله · وان نظرت لتلك الزيادة ورأيتها خرجت عن العادة ، وهى بسرعة وبشاشة ، ومبادرة وهشاشة ، فتعرف أنه فرح بالقضاء واغتبط به ، ونال منه غاية مطلبه ، وتلك خدمة لاجل ولايتك اياه ، وتصرف بين يديك لترضاه ، وان نقص من ذلك فتعلم انه يتقعد عليك ، ويظهر الناموس اليك ، ويتزهد بين يديك ، لتستحسن حاله ولتغرك أحواله ، وتظنه على شيء فى أموره ، فلا تعتبره فى شيء ولا يغرك بغروره » (ص : 149) ·

3) أن يتفرس فى **أسارير** الرجل ، ومثل ذلك مثل الجلساء يرد الملك وهم عنده خبر سار ، فمنهم من ينقبض وجهه فيعلم الملك أنه مبغض له ، ومنهم من تتهلل أساريره ويهش ، ويبش ، فيعلم الملك أنه محب له ، قال أبو حمو : « لان الانبساط والانقباض يفيضان من القلب على الوجه ، فيبدو ما فى الباطن على الظاهر وتطلع فى وجهه البشائر ، وتطلع انت عن ذلك على السراير » (ص : 145) بل ان المسرور من الخبر السار سرعان ما يحمر وجهه بينما الكاره له يصفر وجهه ، والسرور ، كما يقول أبو حمو : « يكسو الوجه لطافة وحمرة حتى يصير كانه جمرة ، والحسد يكسوه غبرة أو كدرة أو صفرة ··· ولشدة تغيره وحقده لونه يسود ويربد » (ص : 145) ·

4) أن يتفرس فى **تصرفات** الرجل ، كأن يرقب حال الجند ـ مثلا ـ فاذا رآهم الملك مشتغلين بالبناء والزينة واللهو واللعب والنساء فيعرف أنه لا يعول عليهم فى

الشدائد ، بينما اذا رآهم آخذين فى التفاخر بالخيل والعدة والتداريع وآلة الحرب بالنجدة ، يعلم انهم ممن يعول عليهم فى الشدائد (ص : 150) ·

5) كذلك يستطيع الملك أن يستدل على حقائق عماله عن طريق النظر فى **علاقاتهم بعضهم ببعض** ، ومثل ذلك الحكام ، فاذا وجد الملك أن حاكمه تبغضه الاخيار وتحبه الاشرار ، فيعلم أنه غير ذى استقامة ، وأنه آخذ للرشا على انطلاقه ، قال : « وعلامة ذلك أن بغض الاخيار له انما هو لما أحدثه من المظالم ، وفعله من اباحة المحارم ، وما أتى به من الحوادث الفاسدة ، والمناكير البادية بالمشاهدة ، فهو يكرههم لعثورهم على منكره وهم يكرهونه على ما رأوا من مخبره · وأما محبة الاشرار له ومحبته اليهم فان فائدته منهم تحمله على المساواة عليهم ، فهم يحبونه لمساواته عليهم فى المفاسد ، ويحبهم لما ينال منهم من الفوائد ، فان الناس لا يؤلفون الا من وافق طباعهم وينافرون من نافرهم وطلب اقماعهم (ص : 152) ·

6) وبعد فالملك يستطيع ان يصل الى حقائق الناس عن طريق **نصب الاشراك** لهم اختبارا ، وذلك أمر يجب أن يفعله لاوجه عديدة فيرسل بالرشا الى من يجب الا يرتشوا من عماله ، فاذا ارتشوا لرسوله فهم يرتشون من غيره (مثل القواد ص : 149 ـ 150) ، أو يطلب رخصة لا تجوز ممن بيده الحكم كالقاضى ، فاذا سلم له وتساهل معه ، فهذا يعنى انه يتساهل مع غيره (ص : 148 ـ 149) ، وهذه الوسيلة هى أنجح وسيلة اذا شاء الملك أن يختبره مدى كتمان كاتب سره لاسراره ، وقد وصف أبو حمو هذه الطريقة بتطويل ، ونصح الملك أن يسير بها هكذا : يتحدث مع كاتب سره فيما يسر أهل بلده الشرفاء والفقهاء والقضاة والاشياخ والوجوه، كل واحد منهم بما يخصه ويسره من احسان أو لاية أو ما أشبه ذلك ، فاذا كان كاتب السر مذيعا للاسرار ، فان الشراهية بالاستبشار تدعوه الى اذاعة السر ، فيبادر أهل البلد بالتبشير ، واذا كان كاتما للاسرار أبقاها عنده فى كتمان وبعد ذلك يرسل الملك من يسئل فى بلده على ما أودعه من ذلك ، فاذا وجده قد ظهر يعرف أن الكاتب لم يكتم السر ، والا عرف انه شخص مؤتمن ·

هذه هى الطريق التى يمكن للملك أن يستدل بها على خفايا أهل دولته وجيشه، وعلى الملك أن يطبقها كل على عدوه وارسال عدوه ، فيعلن بذلك نواياهم بشانه ولا يغتر بما

يظهرونه نحوه من المصانعة وسواها ، وقد عنى أبو حمو فى هذا المجال بكثير من التفصيل ، وسوف نعرض ما قاله فى هذا الشأن متخذينه مثلا على فئة من الفئات التى يطبق عليها الملك فراسته ·

وقد تعرض أبو حمو لذكر السفراء الذين يردون على الملك من الخارج ، فنصح الملك ـ بعد الاحسان اليهم ـ بالفرس فيهم لاستطلاع باطنهم واكتشاف نوايا صاحبهم ، وذلك بخاصة اذا كانوا اتين من قبل عدو الملك وليس من قبل وليه (ص : 157) · اذ ذاك يجب على الملك أن يسايسهم أحسن مسايسة ، ويخذعهم بألطف المخادعات ويصانعهم بوجوه مصانعات ، حتى يظهر له الحبيب والنصيح والباطل والصحيح ، فيعامل كل واحد بحسب ما يليق به ويتفق مع مذهبه (ص : 160) ، وينزله لدى مثيله فى المنصب فى دولته (ص : 160) ·

أما كيف يكتشف الملك حقيقة نوايا عدوه عن طريق ارساله ·

فذلك ما يشرحه أبو حمو للملك بقدر غير قليل من التفصيل · فاذا أقبل رسول عدوه اليه **طلق الوجه** ، مسرعا فى مشيه ، مظهرا للمسرة ، ثم تحدث أمام الملك وأظهر الادب بين يديه فى كلامه ، مقدما اياه فى الشكر على سلطانه ، فذلك يعنى أحد أمرين لا ثالث لهما : اما أن سلطانه ضعيف الملك أو انه ضعيف العقل ، فان كان ضعيف الملك ، فعلى الملك أن يتفرس فى الرسول بأحد وجهين : اما أن الرسول يطمع فيما يناله من الملك ، وذلك من خذلانه ، واما أنه يطمع فيما يدفع به المضرة عن سلطانه · فاذا كان الامر كذلك ، فعلى الملك أن يأذن له فى الجلوس فى مجلسه ، والاختلاط مع جلسائه ، فيستأنس بهم ، ويصبح ـ مع الزمن ـ مستعدا لان يفضى الى الملك بما أضمره من سره ، وبما جاء به من غير الامور وشره · اذ ذاك على الملك أن يعده بالفوائد الكبيرة ويمنيه الوعود الكبيرة · فاذا كتم ـ مع ذلك ـ أمر سلطانه ولم يطلع الملك على أحواله ، علم الملك أنه رسول ناصح لمولاه ، وانما أسرف فى الثناء على الملك لضعف سلطانه وقلة ذات يده وامكانه ، ودفعا لمضرة من جانب الملك يتقيها ومحافظة على محاسنة يبقيها · عند ذلك يطيع الملك الرسول على ما يريد من الشروط على سلطانه ، فاذا قبلها عن أول وهلة ، علم الملك أن عدوه شديد الضعف ، وأنه يمكنه اما أن يصالحه أو يسير اليه بجيشه ويحاربه حسب رغبته (ص : 157 ـ 158) · فاذا كان سلطان الرسول قويا

بالجيش والمال ، مع ما صدر من الرسول من البشاشة ، فيعلم الملك أن سلطانه **ضعيف العقل** ، وعلامة ذلك أن الرسول استباح لنفسه تأخيره فى الذكر وقدم الملك فى الثناء عليه • وهذا الرسول طامع بالمنافع التى هى عائدة على سلطانه بالمضار والبوار (ص : 158) • فاذا دخل رسول العدو الى الملك وهو **منقبض الوجه** ، بطىء المشى ، مظهرا الكراهية فى الزى والوجه ، فعلى الملك أن يتفرس فيه بأحد وجهين : اما أن يكون ذلك من قبل الرسول نفسه لخبث طباعه وسوء اصطناعه ، وعند ذلك ينزله الملك لدى قرينه فى المنصب فى دولته لاختيار حاله بعد أن يأخذ كتب عدوه منه ، ويدرسها درسا جيدا • فاذا كان فيها ما لا يرضى الملك ، فيعرف الملك أن الرسول من طبع المرسل والكتاب ، فيحضره بين يديه ويخلى له مجلسه حتى لا يطلع أحد عليه ، ولا يخفى كتابه ، ويعطيه الرد عليه • أما اذا كان فى الكتاب ما يسر ويرضى ، فتعلم أن الخباثة من طبع الرسول ، اذ لم يكن فى الكتاب الا الامن فينعم الملك عليه بالاحسان ويستميل قلبه بالامتنان نظرا لان حركاته كلها كانت من أجل الطمع المتوكد فى نفسه ، فاذا نال الاعطيات من الملك أفشى سر سلطانه اليه فيكون احسان الملك قد حمل الرسول على خيانة مولاه (ص : 160 ـ 161) •

والفراسة تطبق أيضا على الكتب الواردة الى الملك فى عدوه • وفى هذا المجال ، عليه أن يراعى نسبة قوة عدوه بالنسبة لقوته • فاذا **كان عدوه اقوى منه** وقدر أن يصده عنه ، ثم وردت منه كتب فيها ما يرضى الملك من الموالاة فذلك دليل انه ينصب للملك مكيدة • حتى لا يتحرز منه ، ولا يأخذ حذره فيما يصدر عنه ، فيأتيه على حين غفلة ، ويختله عندما يكون على غير أهبة (ص : 161) • أما اذا كان العدو **مساويا للملك** فى الجيش والمال والكفاية والدهاء والاحتيال ، فعلى الملك أن ينظر فى كتبه • فاذا كانت متفاوتة فيما يرضى وما يغيظ ، فهذا دليل على النقص فى عقله ، وللملك اذ ذاك الخيار فى استغلال الفرص تجاهه بالحرب أو بالمصانعة وأما اذا كانت ذات حظ مستو من الاتزان ، فهذا دليل على الوفور فى العقل ، وهذا يجب أن يخادعه الملك بضروب المخادعات ويصانعه بوجوه المصانعات (ص : 161 ـ 162) • واذا كان العدو **أضعف من الملك** فلينظر الملك فى كتبه ، فاذا كانت مليئة بما يرضى الملك ويسره ، فهذا دليل على حسن

عقله ، ويجب على الملك مداراته ، أما اذا وجده مع ضعفه يكتب للملك بما لا يرضيه ، فهذه اشارة الى ضعف عقله ، وعلى الملك أن ينتهز الفرصة المناسبة ليحاربه فيقضي عليه لا محالة (ص : 162) ·

هكذا كان تعليم أبي حمو بشأن الفراسة ، ولا شك أن ما فيه من نفاذ سيكولوجي في النفس الانسانية يثير الاعجاب في أبي حمو ، كما يدل على رغبة أبي حمو في استكمال جميع الوسائل الضرورية لسلامة الملك واستدامة سلطانه ·

والحقيقية أن الحديث عن السلامة ودوام السلطان يوصلنا في نهاية المطاف الى الحديث عن الناحية العمرانية المفقودة تقريبا في كتاب أبي حمو النظري · فان الناظر في هذا الكتاب لا يجد فيه سوى اشارة الى وجوب الاحتفال بالمولد النبوي (ص : 167) ووجوب نظم الشعر في التشوق الى الرسول والى الحرم الشريف اذا أوتي الملك « الغريزة الشعرية » ، واعطاء الشعراء المال في المناسبات الدينية (ص : 167) · وكل هذه مما كان أبو حمو يفعله (178) ، فذكرها في النظرية ليس أكثر من صدى لحدوثها في واقع الحال · أما فيما عدا ذلك ، فانه ليس للعمران ذكر في كتاب « الواسطة » · وقد يستغرب الدارس هذه الظاهرة للوهلة الاولى ، وخاصة لان اسهام أبي حمو في الناحية العمرانية في الواقع العملي كان أوسع مما ذكره في كتابه النظري · ولكن اذا تذكرنا أن هذا العمران لدى أبي حمو لم يخرج عن نطاق العمران الديني الا الى النطاق الحربي (دار الصناعة السعيدة (179) أدركنا أن فهم أبي حمو للعمران كان محدودا بمدى امكانات هذا العمران في المحافظة على سلامة الملك ودوام ملكه في الدنيا ، وعلى نجاته في الآخرة · ويبدو أنه في حدود هذا الفهم لدور العمران فات أبو حمو أن العمران قد يكون وسيلة لتنمية المال في الدولة ومن ثم وسيلة لاثراء ناحية من نواحي المحافظة على الملك · فصحيح أن بناء المدارس والزوايا والانشاءات والقصور قد لا يؤدي الى زيادة مالية الدولة ، الا أن تنمية الزراعة وا لصناعة والتجارة ـ وكلها من وسائل العمران ـ ينعش الدولة اقتصاديا ، وذلك أمر لم يكن داخلا في اعتبار أبي حمو الضيق

178) انظر ما سبق ، ص : 24 ـ 28 ·
179) انظر ما سبق ، ص : 23 ·

للعمران ، بل ظل المال بالنسبة له من الاشياء « الجاهزة التى تأتى الى حاضرة الملك من الايالات والاقاليم فيستعملها ويكتفى بها اذا وجدها وافية بأغراضه ·

* * *

تلك كانت المعاليم الكبرى فى نظرية أبى حمو السياسية : نظرية تقوم على قاعدة أساسية مؤداها أن الملك ما دام قد وصل الى الملك فان الهدف الاسمى من أى سياسة ينتهجها هو توجيه الاشياء حوله الى حفظ سلامته ودوام سلطانه ، من هنا كانت الاشياء بحسب هذه القاعدة تتفاوت بين فئة تؤثر على سلامة الملك وادامة سلطانه وفئة لا تؤثر على سلامة الملك وادامة سلطانه · أما العمران فان يقع ـ بحسب مفهوم أبى حمو الضيق ـ فى الفئة الثانية ولذلك لم يكن من المهم ذكره أو الاهتمام به الا فى الحقلين الحربى والدينى ، بينما يقع فى الفئة الاولى خلق الملك الذى يحفظ له آخرته مع ربه ودنياه مع رعيته ، ورجال دولة الملك (من دون سائر أفراد الرعية) الذين يسيرون له امور دولته فى السلم بخاصة وفى الحرب فى بعض الاحيان ، ثم المال ، الذى يحفظ للملك اتزانه الاقتصادى ورخاءه المادى ، ثم الجيش الذى يكفل له النصر على أعدائه على المستوى العسكرى ، ثم الفراسة التى تضمن له الفهم السيكولوجى فلا ينخدع بظواهر الناس وانما ينفذ الى بواطنهم · وهذه الامور كلها كانت قد مرت بأبى حمو فى تجربته السياسية الطويلة ، فترك آثارها الايجابية على نظريته بما لا يحتمل الشك قط ·

وقد كان لانطلاق أبى حمو من تجربته الذاتية فى نظريته السياسية أثر سلبى على تلك النظرية ، كما قد كان لها أثر ايجابى عليها ، وأعنى بالاثر السلبى اصابتها بقدر غير قليل من المحدودية · فهى نظرية باهرة مليئة بالنظرات الصائبة الثاقبة معا ، الا أن مجال الافادة منها كلا مجموعا ليس مفتوحا أمام كل ملك ـ مطلقا ـ وانما أكثر ملك يستطيع أن يفيد منها هو الملك الذى يعيش فى ظروف أبى حمو نفسها أو فى ظروف تشابهها ، وبكلمات أخرى : ان هذه النظرية اذا طبقت تطبيقا جيدا تكون أصلح نظرية لملك يعيش فى المغرب فى القرن الثامن للهجرة ، واذا كان زيانيا فان أحكامها تنطبق عليه أكثر · غير أن هذا يجب ألا يعتبر مأخذا على أبى حمو فانه هو نفسه كتب نظريته لابنه وولى عهده أبى تاشفين من دون سائر الملوك وكان يتوقع ـ بحق ـ أن يعيش

ابنه فى ظروف مشابهة لظروفه ، فتكون الوصايا التى أوصاه بها مفيدة له ، وهذا ما كان يمكن أن يحدث فى واقع الحال ، لولا ن ابنه ألم يرد أن يفيد من هذه الوصايا، وقد ظهرت علامات ذلك منذ بداية حكمه ، عندما قتل والده ، وقبل أن يكون عاملا وحسب لمن كان أبو حمو يرى نفسه له ملكا ندا ·

(3)

واذا شاء الدارس أن يحكم على مدى الشمول فى نظرية أبى حمو خارج اطار تجربة أبى حمو ولكن ضمن نطاق التجربة السياسية فى المغرب فى القرن الثامن الهجرى ، عليه أن يقارن نظرية أبى حمو بالنظريات السياسية لثلاثة من معاصريه الذين لعبوا أدوارا سياسية مختلفة فى تلك الفترة ، وهم لسان الدين بن الخطيب (ص ـ 776) ووزير بنى نصر بالاندلس وأبو القاسم ابن رضوان النجارى الخزرجى (ـ 782) وزير سلاطين بنى مرين منذ السلطان .بى عنان المرينى (ـ 759) حتى السلطان أبى العباس أحمد بن سالم (ـ 786) ثم المؤرخ عبد الرحمن بن خلدوه (ـ 808) ·

أما ابن الخطيب ، فقد كتب رسالة صغيرة فى السياسة (نصها فى نفح الطيب 6 : 431 ـ 445) وضعها فى اطار « مسرحى» فقدم لها بصورة مجلس من مجالس الرشيد ، وقد تقدم الليل واستبد بالرشيد السهر ، فطلب من أحد جلسائه أن يخرج الى الطريق ويأتى بأى رجل يجده هناك ، فوجد رجلا « أعجمى الجنس عربى الفصل » (ص : 432) رحلته الاعتبار ونحلته الامر الكبار ، وفنه الحكمة (ص : 432) فسر الرشيد به ، وطلب منه أن يخبره بما عنده فى شأن الخلافة ، ذات الاعباء الثقيلة ، فقام الرجل بنصيحته ، نصيحة استغرقت الرسالة كلها باستثناء الخاتمة ، اذ جاءت لتكمل الوضع المسرحى المبدوء به : فالرجل يلاحظ أن الليل قد كاد ينتصف ، فيعتذر للرشيد بأن بحر السياسة زاخر ، ومجال الوصاية أكثر مما يصف ، ويستأذنه بأن يؤنسه بفن آلخر من الأنس ، فيقبل الرشيد اقتراحه ، فيدعو بعود ويغنى أغنية شجية ، ينام عليها جميع الحاضرين ، فينصرف هو من بينهم دون أن يعى عليه أحد ، وعندما يستيقظ الرشيد فى اليوم التالى يطلبه فلا يجده (ص : 444 ـ 445) ·

ورغما عن أن ابن الخطيب جعل نصحيته فى السياسة داخل اطار حادثة جرت للرشيد ، فانه جعل مخاطبه فيها يعرف بـ «الملك» (ص : 432) ، مما يعنى أنه ظل يفكر

فى نطاق البنية السياسية للبلاد الاسلامية فى عصره من دون عصور الخلفاء السابقين ، وفى هذا كان يتفق مع أبى حمو ، كما يتفق معه فى أن صيغة الرسالة كانت صيغة الخطاب المباشر من الكاتب الى الملك المراد نصحه ٠

ولعل اكثر ما يلفت نظر القارىء لرسالة ابن الخطيب حسن بنائها ووضوح أقسامها ، اذ هى تتألف من قسمين رئيسيين : الاول : أصناف الرعية ، ويدخل فيهم الرعية عامة (ص : 433 ـ 434) فالوزير (ص : 434 ـ 435) فالجند (ص : 435 ـ 436) فالعمال (ص : 436 ـ 437) فالولد (ص : 437 ـ 438) فالخدم (ص : 438 ـ 439) فالحرم (ص : 439 ـ 440) والثانى : نصائح مختلفة بشأن السيرة فى الرعية مثل العدل والروية وواجبات الملك تجاه الدولة التى بين يديه مثل المال والعمران (ص : 440 ـ 444) والقسمان مفصولان فى النص بعبارة مشيرة الى انتهاء الحديث الاول وابتداء الحديث الثانى هى « ثم لما بلغ الى هذا الحد حمى وطيس سحنفاره ، وختم حزبه باستغفاره ، ثم صمت مليا ، واستعاد كلامه أوليا (ص : 440) وهذا المبنى هو دون شك أشد وضوحا وأبسط من بناء أبى حمو لكتابه وربما ساعد قصر الرسالة ابن الخطيب على المزيد من الوضوح هنا ٠

والناظر فى الموضوعات التى عالجها ابن الخطيب يلاحظ أنها فى احيان كثيرة تتفق مع الموضوعات التى عالجها أبو حمو ٠ فالوزير والجند والعمال يحتلون فقرات خاصة بهم لدى كل من ابى حمو وابن الخطيب ، وكذلك عن كيفية السيرة بالرعية لدى ابن الخطيب فانها تقابل حديث أبى حمو عن الصفات التى يجب ان تتوفر فى الملك تجاه رعيته واساسها ثلاث : العدل والسياسة والفراسة ثم الكرم والحلم والعفو ٠ وعندما يحاول الدارس أن يقارن بين جزئيات الموضوع الواحد لدى كل من ابى حمو وابن الخطيب فانه سيجد تشابها غير قليل : فالوزير لدى الرجلين شخص هام من اشخاص الدولة وعلاقته مباشرة بالرعية على عكس الملك ، ويشترط فيه أن يكون مخلصا للملك ، ناصحا له ، مؤثرا لمصلحته ، رفيع القدر ، كامل الآلة ، من بيت سرى وعلى الملك أن يكرمه ولكن لا يعفيه من الامتحان ٠ والجند يجب أن يكونوا شجعان مقدامين ، ترتيبهم فى طبقات متدرجة فى الارتفاع بحسب شجاعتهم وكفايتهم ، وقوادهم يكونون أشدهم نكالا

على الاعداء ، وأكثرهم محبة للملك ، وعلى الملك أن يحسن اليهم ويعطيهم أرزاقهم فى أوقاتها . أما العمال فيجب أن يكونوا من أهل العدل والانصاف ، مرتبين أيضا فى طبقات بحسب منزلتهم من الكفاية والامانة ، وعلى الملك أن يتالفهم بالاحسان اليهم . كذلك عندما يتعرض ابن الخطيب للمال (ص : 440 ـ 441) يتفق مر أبى حمو على أهميته للملك ، ويشدد على الدور الذى يمكن أن يقوم به فى تسيير مقادير دولته ، ويذكر أهميته بالنسبة لاقامة الجند ، وينصح الملك بعدم الحرص عليه ، وعدم انفاقه فى الشهوات ، وعلى العكس من ذلك وجوب انفاقه فى الامور الشرعية . وحينما يجيء دور الصفات المطلوب توفرها فى الملك (ص : 440 ـ 444) يذكر كل من ابن الخطيب وأبي حمو صفات العدل والاناة والروية والحزم والمشورة وتغليب العقل على الهوى والغضب والتوكل على الله ، بأشكال مختلفة ، الا أن المنطلق هنا واحد وهو المنطلق الاخلاقى وكل هذا مما يدل على التشابه بين رسالتى ابن الخطيب وكتاب أبى حمو ، حتى أنه يبدو فى بعض الاحيان أن نص ابن الخطيب يستوحى نص أبى حمو عندما يصوغ عباراته بشكل شبيه جدا بشكل عبارات أبى حمو ، وذلك مثل قوله عن الوزير : « وليكن ... بعيد الهمة ، راعيا للازمة ، كامل الآلة ، محيطا بالايالة ، رحيب الصدر ، رفيع القدر ، معروف البيت ، نبيه الحى والميت ... » (ص : 434) ، فانه يمكن أن يقارن ـ من حيث صياغته ـ بقول أبى حمو فى الوزير ... أن يكون من خيار قومه وعترته ، وكبير عشيرته وبيته ، وأن يكون وافر العقل ، عاريا من الجهل ، حاضر الذهن، سريع الفهم ، راجح الرأى ، محمود السعى ، محبا ناصحا ، شجاعا فى المهمات ، وعند نزول الملمات ... (الواسطة : 32) . وقد يكون بعض التشابه ناتجا عن استعمال الترادف والسجع فى كلا الكتابين ، وبعضه قد يعود الى التشبع لمصدر واحد هو كتاب « سراج الملوك » للطرطوشى أبى بكر (180) اذ يقول فى وصف الوزير فيه : ... أن يكون الوزير صدوقا فى لسانه ، عادلا فى دينه ، مأمونا في اخلاقه ، بصيرا بأمر الرعية ... (181)

180) انظر مثلا الفصل عن الوزير والوزراء : 118 .

181) سراج الملوك ، 120 .

غير أن المشابه ما بين رسالة ابن الخطيب وكتاب أبى حمو تصبح هامشية عارضة اذا ما قوبلت بالفروق التى بينهما • فالدارس يلاحظ ـ حتى لدى النظرة العجلى ـ أن أبن الخطيب عالج موضوعات لم يعالجها أبو حمو ، مثل موضوع الولد ، والخدم ، والحرم، والعمران فضلا عن موضوع الرعية ذى الاطار المحدد فى رسالة ابن الخطيب ، ولا يلبث عندما يدق فى نص الرسالة أكثر أن يعثر على أفكار كثيرة لم ترد لدى أبى حمو • وقد يبدو ـ للوهلة الاولى ـ أن هذه الفروق ـ الزيادات جانبية ، ثانوية الدلالة ، وأنها مجرد عنصر مقابل لعنصر المشابه بين رسالة ابن الخطيب وكتاب أبى حمو • الا أنه عندما يمعن النظر فى رسالة ابن الخطيب يجد أن الامر أخطر بكثير من ذلك ، اذ النظرة الاساسية الى الملك مختلفة لديه عما هى عليه لدى أبى حمو ، وبالتالى واجبه تجاه الملك الذى ينصحه أشمل بكثير مما لدى أبى حمو •

ذلك أن ابن الخطيب لا يرى الملك فى ناحية والرعية فى ناحية أخرى ، بل يرى الرعية والملك عاملين متعاونين لاجل مصلحة مشتركة ، يقود السير اليها الملك نفسه بحق ، ولكن الرعية تقوم بدور فعال فى طريق السير هذا اليها نفسه • كذلك لا تشكل سلامة الملك وحفظ دولته هاجسا دائم الحضور مروع الالحاح لدى ابن الخطيب ، كما هو الحال لدى أبى حمو ، ولذلك لا يغفل عن العوامل والظواهر التى تتعلق تعلقا شديدا بالملك دون أن تؤثر على سلامته وحفظ دولته تأثيرا مباشرا ، فيما تزل هذه العوامل والظواهر عن ذهن أبى حمو لاشتغاله بموضوعى السلامة والاستقرار فى الملك اشتغالا شبه تام • من هنا صورنا فيما مضى من هذا البحث (182) الملك بشكل القطب ، المدار الذى يدور حوله كل شىء يؤثر فى مقدراته (سلامته وحظه فى البقاء فى ملكه) ، وصورنا المؤثرات التى تؤثر عليه بشكل الافلاك حول الملك ، والتى يملك مفاتيحها لوضعها فى مدارها السنيم الملك نفسه ، واذا حاولنا أن نصور نظرية ابن الخطيب الاساسية ، فاننا نصورها بشكل هرم ، قمته الملك وجسمه الرعية ، والملك هو الذى يملك مفتاح الرعية ويقودها كما يشاء • غير أن أى اخلال فى الرعية يشكل اختلالا فى الجسم فيسقط الجسم ومعه القمة ـ الملك ـ •

182) انظر ما سبق ، ص : 44 — 45 •

من هنا تحدث ابن الخطيب مطولا عن عدد من الفئات هى الولد والخدم والحرم ، رغم أنها لا تؤثر تأثيرا سياسيا مصيريا مباشرا على الملك ، فيما أهمل أبو حمو الحديث عنهم اهمالا تاما ، كذلك افرد ابن الخطيب الرعية بأكبر فقرة فى رسالته ، وخصها فى اماكن متفرقة من الرسالة بأكبر قدر من اهتمامه ، وأشار فى مواطن عديدة الى ما يمكن أن تقوم به من أعمال يمكن أن تؤثر على مقدرات الملك نفسه : فالرعية يمكن أن « تتعدى طورها ، أو تخالف دورها ، أو تجاوز بأمر طاعتك فورها » (ص : 433) ويثور جرادها ويختلف فى طاعة الملك مرادها (ص : 434) ، وقد يكون فى الوزراء « من يرى فى نفسه الى الملك سبيلا ، أو يقوده عصيه للاستظهار عليك قبيلا » (ص : 434) كما قد يكون بين الجند والقواد « من كان عند نفسه أكبر من موقعه فى الانتفاع ، ولم يستحى من التزيد بإضعاف ما بذله من الدفاع ، وشكا البخس فيما تعذر عليه من فوائدك ، وقاس بين عوائد عدوك وعوائدك ، وتوعد بانتقاله عنك وارتحاله ، وأظهر الكراهية لحاله (ص : 436) • فهذه أشياء ربما كانت فى حساب أبى حمو الا أنه لم يصرح بها ، ولا يتوقع أن يصرح بها ، الا بشكل عابر ، فالملك هو الذى يحرك مقادير الرعية ، أما أن يحدث العكس فأمر وان ورد فى خاطر أبى حمو فانه لا يراه أهلا للتوقف عنده •

وبما أن الرعية على هذا القدر من الامكانات فقد شدد ابن الخطيب على صعوبة دور الملك فى قيادتها ، ولذلك وجد نفسه يلح على استعانة الملك بعناصر مساعدة له فى سياستها ، وأهم هذه العناصر اثنين أولهما : التوكل على الله والثقة به وطلب المعونة منه ، ولذلك قال فى مطلع حديثه عن الرعية : « رعيتك ودائع الله تعالى قبلك ••• ولن تصل الى ضبطهم الا باعانة الله تعالى التى وهب لك » (ص : 433) ، ثم نصح الملك بذكر الله فى الصباح وفى المساء ، فى الترفع وفى الابتذال (ص : 442) وتقديم الثقة بالله على كل قواه ، قال : « ولتكن ثقتك بالله أكبر من ثقتك بقوة تجدها ، وكتيبة تجندها ، فان الاخلاص يمنحك قوى لا تكتسب ، ويمهد لك مع الاوقات نصرا لا يحتسب » (ص : 442) ، وثانيهما : الاستفادة من المجالس والمجالسين ، بحيث لا يمر على الملك مجلس الا وقد أحرز منه فضيلة زائدة (ص : 440) ، وخص ابن الخطيب من بين المجالسين العلماء بالاهتمام ، وبين انه يمكنهم أن يلعبوا دورا عظيما فى هداية

الملك وارشاده ، اذا تعدهم بالعناية : « واعلم أن مواقع العلماء من ملكك مواقع المشاعل المتألقة ، والمصابيح المتعلقة ، وعلى قدر تعاهدها تبذل من الضياء ، وتجلو بنورها صور الاشياء ، وفرغها (اقرأ : ففرغها) لتجبير ما يزين مدتك ، ويحسن من بعد البلاء جدتك وبعناية الاواخر ذكرت الاول ، واذا محيت المفاخر خربت الدول (ص : 441) .

ولقد فرضت مكانة الرعية العظيمة لدى ابن الخطيب أن تكون معاملة الملك لها على غير الاساس الذى أقام عليه أبو حمو معاملته لها . صحيح أن الاثنين يتفقان على صفات الملك العامة (من العدل والاحسان ... الخ) تجاه الرعية الا ان ابن الخطيب يزيد الى ذلك أشياء كثيرة لا ترد لدى أبى حمو قطب . من ذلك مثلاتطلب ابن‌الخطيب من الملك أن يمنر أغنياء الرعية من « البطر والبطالة والنظر فى شبهات الدين بالتمشدق والاطالة » (ص : 433) وأن يمنعهم من فحش الحرص والشرة ويتعاهدهم بالمواعظ ويحملهم على الاجتهاد فى العمارة على أحسن المذاهب ، وينهاهم عن التحاسد (ص : 433) ، كذلك يجب أن يحض ذوى اليسار منهم على السخاء على الضعفاء وعلى اجتناب البخل (ص : 433) . أما الشريعة فعليه أن يأخذهم بظاهرها ، ويمنعهم من تأويلها منعا قاهرا (ص : 433) كما يمنع المدرسين والمتعلمين والعلماء والمتكلمين بالابتعاد عن الشكوك فى الدين « فانه يفسر طباعهم ، ويغرى سباعهم ، ويمد فى مخالفة الملة باعهم » (ص : 442) . ومن باب قريب من هذا على الملك ألا يسمح باطلاق ألسنة الكاهنة والارجاف ، ومطاردة الآمال والخيالات فى دولته ، لانه يبعث على سوء القول (ص : 442) ، فهذه النصائح للملك يسديها ابن الخطيب اليه لان الرعية عنصر متعاون معه ، مصلحته من مصلحتها ، وكما يجب على الملك أن ينمى الصفات الحميدة فى نفسه كذلك عليه أن يراعى الصفات الحميدة فى رعيته . وفى هذا المقام لابد من أن نذكر أن حضوره « الصورة الشرعية » فى الملك وفى رعيته كان واضحا لدى ابن الخطيب بينما كاد يكون مختفيا لدى أبى حمو – وهذا أمر كان ابن الخطيب مهد له فى الفرشة المسرحية لرسالته (ص : 432) .

بل ان ابن الخطيب يذهب الى أبعد من هذا حين يعتبر الملك شبه خادم للرعية فى مصالحها بحيث يرضى « بالسهر لتنويمهم ، وحراسة كهلهم ورضيعهم ، والترفع عن تضييعهم » (ص : 433) ، وهذا ما جعل جانب « الرفق » بالرعية والاحسان اليها وتوفير

وسائل العيش المريح لها أبرز بكثير من جانب « العدل » فيها « سياستها » ، وشواهد هذه الناحية كثيرة فى رسالة ابن الخطيب لكن أبرزها الفقرة عن أقوات الرعية ، قال : « وجمل المملكة بتأمين الفلوات ، وتسهيل الاقوات ، وتجديد ما يتعامل من الصرف فى البياعات ، واجراء العوائد مع الايام والساعات ، ولا تبخس عيار قيم البضاعات ، ولتكن يدك عن أموال الناس محجوزة ··· (ص : 443) .

غير أن هذا لا يعنى أن ابن الخطيب نسى أن يتحدث عن الدور الاساسى الذى يقوم به الملك فى دولته ، وهو دوره السياسى ، بل انه أعطاه قسطا عظيما من اهتمامه ، ووجه للملك نصائح عديدة بشأنه ، بعضها تقليدى ، كأن يقول ان على الملك أن يحصن بلاده ويختبر أعوانه ويتشاغل أيام الهدنات (ص : 442) ، وهذه أمور يجد الدارس مقابلا لها لدى أبى حمو ، وبعضها ابتداعى دقيق يدل على وعى شديد وفطنة عظيمة من جانب ابن الخطيب ، فهو ينصح الملك بأن يصرف الجند عن الافتتان بأهليهم وديارهم (ص : 435) ، وأن يحول بين عماله وبين تضمنهم أموال أعمالهم ، وألا يجمع للعامل الواحد بين الاعمال ، ويحرص على أن يكون العامل غريبا فى ولايته ، منتقله من الملك قريب (ص : 437) · كذلك على الملك أن يحذر من خدامه من قويت شهواته ، لان الشهوات تنازع الملك فى استرقاقه (ص : 438) ، وأن يشرب قلوبهم أن الحق فى كل ما حاوله ، والباطل فى كل ما اعتزله (ص : 438) ، ويجب على الملك أن يبقى العمال بين الخوف والرجاء (ص : 436) وأن يدرك أن حالهم فى الغالب شديد الشبه بحاله هو (ص : 436) .

ومن مهام الملك أن يكفيهم من رزقهم فلا يتصدون لدنىء المواقف ، ويجتنب منهم كل من كان الغالب عليه التخرق فى الانفاق وعدم الاشفاق والتنافس فى الاكتساب (ص : 436) ، كما يجتنب الوزير الذى تتطاول همته الى الملك (ص : 434) ، والعامل الذى يظل ابدا ساخطا من قدره من العطاء (ص : 436) على ان الاهتمام بالدور السياسى الذى يلعبه الملك لا يجعل ابن الخطيب غافلا عن دوره العمرانى ، رغم ان هذا الدور لا يؤثر تاثيرا مباشرا عليه وفى نظر ابن الخطيب ان الغرض من العمران بقى الذكر وتخليد الآثار (ص : 141) وهذان مما يطلبهما الملك ·

يستنتج من هذا كله ان اتساع المنطلق الاساسى للنظرية السياسية لابن الخطيب قد وسع مفهوماته من المطلوب من الملك ، فيما حدث العكس لدى أبا حمو ، لذلك جاءت رسالة ابن الخطيب اشمل بكثير ، وأوعى لموضوعات متنوعة اكثر من كتاب أبى حمو ، رغم أنها ـ من حيث الحجم ـ كانت لا تتجاوز الخمس عشرة مقابل كتاب أبى حمو الواقع فى 174 صفحة ٠ ولا شك أن القدر الاكبر من محدودية نظرية أبى حمو يعود الى انه هو نفسه كان ملكا ، فكان الملك بطبيعة الحال مدار اهتمامه الاكبر ، وكـان أيضا فى تجربته السياسية ـ ملكا يتهدد ملكه كل دقيقة اعداء اقوى منه ، فيخرجونه من ملكه ويضطرونه الى « المخاطرة فى سبيل السلطان » مرة اثر أخرى ، وهذا جعـل قضية « سلامة الملك واستمراره فى ملكه » امرا غالبا عزيزا لو وجه كل شىء فى سبيل الابقاء عليه لما كان هذا بكثير ، وكل هذا اثر فى نظريته وجعل شمولها ـ فى بعض الاحيان ـ شمولا خاصا باوضاع أبى حمو نفسه ٠ اما ابن الخطيب فلم يكـن ملكا ولذلك لم ير الامور من وجهة نظر الملك وحسب ، وان كان كبيرا فى الرعية ، ولذلك احتلت الرعية عنده مكانا عاليا مقاربا من مكان الملك فى الفعالة السياسية والعمرانية وعندما جـاء ليكتب رسالة فى السياسة يشرح فيها القواعد العامة التى يجب ان تحكم تصرف الملك ، كان لديه تجربة عريضة وثقافة سياسية واسعة وتفكير مرتب واضح ، فاجتمعت كل هذه وانصهرت معا لتاتى برسالة صغيرة فى الحجم، كبيرة بما فيها من قضايا وتوجيهات ٠ ولو أتبع ابن الخطيب طريقة أبى حمو بالرجوع الى المصادر ونقل الامثلة والحكم وغير ذلك منها لجاء كتابه على أضعاف حجم كتاب أبى حمو ٠

ويمثل ابن رضوان النجارى الخزرجى ثانى كتاب السياسة فى عصر أبى حمو وقد كانت السياسة موضوع كتابه « الشهب اللامعة فى السياسة النافعة » ٠ وقد كتبـه بطلب من السلطان أبى سالم المرينى الذى تولى سلطان المغرب بين سنتى 760 و 762 ، ولذلك فالكتاب لابد أن يكون قد كتب فى تلك الفترة ٠ وقد درس هذا الكتاب مـن قبل الدكتور احسان عباس (183) ، فتحدث عن مصادره المتنوعة من كتب التاريخ مثل

---

183) انظر « ابن رضوان وكتابه فى السياسة » فى كتاب العيد ، الجامعة الاميركيـة فى بيروت ، 1967 ، ص : 99 — 154 ٠

تواريخ الهمذاني والصابي والمأموني ، الى كتب الاخلاق مثل سلوان المطاع لابن ظفر ، الى المصادر العامة المعنية بالاخلاق والسياسة مثل عيون الاخبار والعقد ، فكتب الطوائف مثل الهفوات النادرة للصابي ، وكتب السياسة مثل سراج الملوك للطرطوشي ، وسياسة ابن حزم ، ثم بعض المصادر الثانوية (184) وخرج الى القول ان ابن رضوان اعتمد في كتابه اعتمادا أساسيا « على الجمع » لا على التأليف أو القيام بابتداع نظرية سياسية خاصة به : فكأن ابن رضوان حين كلف بتأليف هذا الكتاب عاد الى مكتبته واختار منها المصادر التي رآها تعينه على تحقيق غايته ، ثم أفرغ ما فيها في جذاذات ، ثم رسم لنفسه عدد الفصول وموضوعاتها ، وقسم جذاذاتها بحسبها ، وأدرج كل فئة منها تحت الفصل الملائم ، ولم يتدخل في ما وراء ترتيب الفصول الا قليلا (185) . ولا يمكن أن يعزى اليه الا النزر اليسير من الافكار في كتابه (186) . ولقد كان لهذا اثره الكبير في كتاب ابن رضوان اذ افتقدت فيه « الصورة الموحدة لكل موضوع من موضوعات كتابه ، وجعلت من غير الممكن ايجاد نظرية متماسكة واضحة المعالم له . ومن ثم كانت مقارنته بكتاب أبي حمو غير جائزة . لقد كان أبو حمو يعرف العديد من المصادر التي استعملها ابن رضوان ـ وفي مقدمتها العقد لابن عبد ربه وسراج الملوك للطرطوشي وسلوان المطاع لابن ظفر ـ ولكن نظريته الخاصة كانت تحد من امكانات نقله عن المصادر وتوجهها توجيها خاصا ، ولما كان ذلك الامر مفتقدا عند ابن رضوان ، فقد جاء كتابه أشمل واوعى من كتاب أبي حمو ، وانما افتقدت فيه الروح المحركة التي كانت تسير أبا حمو .

وفيما كان أبو حمو معجبا بالمصادر السياسية ، مقيد الحركة في الاخذ منها ، كان عبد الرحمن ابن خلدون رافضا لها ولاقرانها من الكتب التاريخية من الاساس ، راغبا في معالجة موضوعها معالجة جديدة جذرية الاختلاف عن سابقاتها (187) . ولذلك فانه

---

184) ابن رضوان : 132 — 134 .
185) « ابن رضوان » : 132 .
186) انظر تفصيلها في « ابن رضوان » : 136 .
187) المقدمة 4 — 6 . وانظر : « ابن رضوان » 149 — 150 .

عندما جاء ليكتب مقدمته على تاريخه الكبير ، لم يصور ما يجب ان يكون عليه الملك المثالى ، وانما حاول أن يكشف العلة الفلسفية وراء **ما جرى عليه** الملوك فى تاريخهم البعيد والقريب والعلل الثانوية التى كانت تنتج عن هذه العلة فتحرك أقدار الدول والمماليك بالشكل الذى تحركت فيه • وقد تعرض ابن خلدون فى مقدمته لمختلف الموضوعات المتعلقة بالملك والدولة والادارة من ناحية تاريخية استعراضية أو من ناحية تفسيرية فلسفية ، ومن هذه الناحية كانت مقدمته على قدر كبير من الاختلاف عن كتاب أبى حمو ، بحيث أن اقامة المقارنة بينهما أمر لا يجوز • فاذا تذكرنا أن أبا حمو كان يمثل «تكريس الانقسام» فى المغرب ، وأن كتابه يرسخ فكريا ما رسخه أبو حمو نفسه فعليا بوصفه ملكا على تلمسان ، أدركنا مدى ابتعاده من حيث ما يمثله عن ابن خلدون المفكر ، المتطلع الى وحدة المغرب لا الى انقسامه (188) ، غير أن الحديث عن ابن خلدون ونظريته فى السياسة يتطلب تفصيلا منفردا ليس هذا موضعه •

مصادر البحث ومراجعه

ابن رضوان وكتابه فى السياسة لاحسان عباس فى « كتاب العيد » ، الجامعة الامريكية فى بيروت ، بيروت 1967 ، ص : 99 ـ 154 •

الاحاطة بالتعريف بعلماء غرناطة للسان الدين ابن الخطيب (ج 15) مخطوط الرباط ، رقم : ك 2704 •

أزهار الرياض فى أخبار عياض للمقرى التلمسانى شهاب الدين أحمد بن محمد (ج 1 ـ 2) • تحقيق السقا والابيارى وشلبى • القاهرة ، مطبعة لجنة التاليف والترجمة والنشر ، 1939 ـ 1940 •

---

188) انظر « ابن رضوان » 144 ـ 145 و 154 •

الاستقصا لاخبار دول المغرب الاقصى لابى العباس أحمد بن خالد الناصرى (ج 4) · تحقيق جعفر الناصرى ومحمد الناصرى الدار البيضاء : دار الكتاب ، 1955 ·

البستان فى ذكر الاولياء والعلماء بتلمسان لابن مريم التلمسانى · تحقيق محمد ابن أبى شنب ، الجزائر : المطبعة الثعالبية ، 1908 ·

بغية الرواد فى ذكر الملوك من بنى عبد الواد لابى زكريا يحيى بن أبى بكر بن خلدون (ج 1 ـ 2) · الجزائر : مطبعة فونطانة ، 1904 ـ 1910 ·

تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية للزركشى أبى عبد الله محمد بن ابراهيم · تحقيق محمد ماضور · تونس : المكتبة العتيقة ، الطبعة الثانية ، 1966 ·

التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا لعبد الرحمن بن خلدون · تحقيق محمد ابن تاويت الطنجى · القاهرة : لجنة التاليف والترجمة والنشر ، 1951 ·

تهذيب الاخلاق لابى على أحمد بن محمد بن مسكويه ، تحقيق قسطنطين زريق · بيروت : الجامعة الامريكية فى بيروت ، 1966 ·

روضة النسرين فى دولة بنى مرين لاسماعيل بن الاحمر الرباط : المطبعة الملكية ، 1962 ·

سراج الملوك للطرطوشى أبى بكر محمد بن الوليد · الاسكندرية : المطبعة الوطنية ، 1289 ·

سلوان المطاع فى عدوان الاتباع لمحمد بن ظفر الصقلى · طبع حجر ، مصر ، 1278 ·
كتاب السياسة فى تدبير الرياسة المعروف بسر الاسرار (ضمن كتاب الاصول اليونانية للنظريات السياسية فى الاسلام ، الجزء الاول) · تحقيق عبد الرحمن بدوى · القاهرة مطبعة دار الكتب المصرية ، 1954 ·

كتاب العبر فى خبر من عبر لعبد الرحمان بن خلدون 4 ـ 1 · 6 · 7 بولاق 1284
كتاب العقد (الفريد) لابن عبد ربه (ج 1) تحقيق أحمد أمين وأحمد الزين وابراهيم الابيارى · القاهرة : لجنة التاليف والترجمة والنشر ، 1965 ·

العقد الفريد للملك السعيد لابى سالم محمد بن طلحة القرشى • القاهرة : مطبعة الوطن ، 1311 •

عهد أردشير ، تحقيق احسان عباس • بيروت : دار صادر ، 1967 •

الفارسية فى مبادىء الدولة الحفصية لابى العباس ابن القنفذ القسطنطينى • تحقيق محمد الشاذلى النفير وعبد المجيد تركى • تونس : الدار التونسية للنشر ، 1968 •

اللمحة البدرية فى الدولة النصرية للسان الدين ابن الخطيب • تحقيق محب الدين الخطيب • القاهرة : المطبعة السلفية ، 1347 •

المنهج المسلوك فى سياسة الملوك لعبد الرحمن بن عبد الله • القاهرة : مطبعة الظاهر ، 1326 •

نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب للمقرى شهاب الدين أحمد بن محمد (ج 6 و 7) • تحقيق احسان عباس • بيروت : دار صادر ، 1968 •

نقد الشعر لقدامة بن جعفر • تحقيق بونيباكر • ليدن : بريل ، 1956 •

واسطة السلوك فى سياسة الملوك لابى حمو موسى بن يوسف الزبانى • تونس : مطبعة الدولة التونسية ، 1279 •

موقف القسطنطينية وباقي العالم الإسلامي من
سقوط الأندلس وآخر مسلميها
وأمام الغزو الأوربي للعالم الإسلامي عمومًا

محمد عبد الله عنـان
مؤرخ ـ مصر



ان اخطر على مصير الاندلس والامة الاندلسية ، كان علة كامنة ، تجثم بين جوانبها ، وقد ظهرت طوالعه فى عصر مبكر من حياتها ، فانه ما كاد صرح الخلافة الاموية الشامخ يتحطم فى أواخر القرن الرابع الهجرى ، ويختتم ثبت الزعماء الاقوياء بوفاة الحاجـب المنصور ، وتنتشر الاندلس منذ أوائل القرن الخامس الى دول الطوائف العديدة، الضعيفة المتنافسة المتخاصمة، حتى لاحت لاسبانيا النصرانية فرصة العمل الجاد المثمر للقضاء على

هذه الدويلات المتنابذة ، التى يترامى ملوكها ، الواحد تلو الآخر على أعتاب بلاط قشتالة ويؤدى معظمهم له الجزية صاغرين ، وكان سقوط طليطلة عاصمة مملكة بنى ذى النون فى سنة 478 هـ ـ 1085 م ، وأول حاضرة أندلسية كبرى تسقط فى أيدى النصارى ، نذير الخطر الداهم على سائر ممالك الطوائف فكانت استغاثة الطوائف باخوانهم المسلمين وراء البحر ، بعاهل المغرب وزعيم المرابطين يوسف بن تاشفين ، وكان انسياب الجيوش المرابطية الى شبه الجزيرة ، وكانت موقعة الزلاقة التى سحقت فيها جيـــوش اسبانيا النصرانية فى رجب سنة 479 هـ ـ 1086 م ، وكان انقشاع خطر الفناء عن الاندلس ، لتعود اليها الحياة قرونا أخرى ٠

ثم كان استيلاء المرابطين على دول الطوائف ، وبسط سيادتهم على الاندلس لتغدو ايالة فى الامبراطورية المغربية الكبرى ، وليعقبهم بعد ذلك فى حكمها خصومهم الموحدون المتغلبون على ملكهم بالمغرب ٠ وهكذا استمرت الاندلس الكبرى زهاء قرن ونصف تحت حكم الدولتين المغربيتين العظيمتين ٠

ووقعت خلال هذه الفترة الطويلة فى شبه الجزيرة عقب الزلاقة عـدة مواقع حاسمة بين الجيوش المرابطية ثم الموحدية وبين الجيوش النصرانية ، كان منها موقعة افليش التى وقعت فى شوال سنة 501 هـ ـ مايو 1108 م ، وموقعة افراغة التى وقعت فى رمضان سنة 528 هـ ـ يوليو 1134 م ، وموقعة الارك العظيمة التى وقعت فى شعبان سنة 591 هـ يوليو سنة 1194 م ، والتى سحقت فيها الجيوش الموحدية بقيادة الخليفة يعقوب المنصور ، جيوش اسبانيا النصرانية على مثل ما حدث من قبل فى موقعة الزلاقة على يد الجيـــوش المرابطية ٠ ثم كانت الحادثة العظمى بعد قليل فى موقعة العقاب المشؤومة التى سحقت فيها الجيوش الموحدية على يـــد الجيوش النصرانية المتحدة ، وذلك فى شهر صـــــفر سنة 609 هـ الموافق يوليو سنة 1212 م ، والتى تعرف فى التاواريخ الاسبانية بموقعة :
، وانهار على أثرها سلطان الموحدين بالاندلس ، وغدت الخلافة الموحدية مثار الجذب والتنافس بين بنى عبد المؤمن ٠ واضطرمت الاندلس ذاتها بالفتن ، ونشبت الثورات فى مختلف القواعد الاندلسية ضد الموحدين ، وأسفرت هذه الفتـن الغامرة عن تمزق الاندلس وعزلة قواعدها وتركها لمصيرها ، وانتهزت اسبانيا النصرانية

الفرصة السانحة ، فاستجمعت قواها ، وأخذت تنتزع القواعد الاندلسية الكبرى واحدة بعد الاخرى : قرطبة ـ بلنسية ـ شاطبة مرسية ـ جنان ـ اشبيلية ـ بطليوس وغيرها وغيرها • ولم يأت منتصف القرن السابع الهجرى (الثالث عشر الميلادى) حتى كانت ولايات الاندلس الشرقية والوسطى قد سقطت كلها فى يد اسبانيا النصرانية ، ولم يبق من تراث الدولة الاسلامية بالاندلس سوى بضع ولايات صغيرة فى طرف اسبانيا الجنوبى وأخذت الامة الاندلسية تواجه شبح الفناء النهائى مرة أخرى •

ولكن شاء القدر أن تخرج من هذه الاشلاء المتناثرة ، اشلاء الاندلس الكبرى مملكة غرناطة الصغيرة ، التى شاءت العناية الالهية أن تحمل تراث الاسلام وتراث الامة الاندلسية فى شبه الجزيرة قرنين آخرين • وكانت الحوادث قد تمخضت فى نفس الوقت فى الضفة الاخرى من البحر ، فى المغرب ، عن انهيار الدولة الموحدية ، وقيام دولة بنى مرين القوية • فالى تلك الدولة الجديدة الفتية ، كانت تتجه انظار تلك الاندلس الصغيرة ، كلما لاح لها شبح الخطر الداهم من عدوان اسبانيا النصرانية • وقد شاء القدر أن تلعب دولة بنى مرين ، وارثة المرابطين والموحدين فى حوادث الاندلس نفس الدور الذى لعبته الدولتان المغربيتان الكبيرتان ، مع فرق واحد فى منتهى الاهمية ، وهو أنه بينما كان انجاد المرابطين والموحدين للاندلس يتخذ صفة السيطرة والحكم المباشر ، اذا بانجاد دولة بنى مرين لمملكة غرناطة ، يقف عند الانجاد والتحالف الاخوى ، والرغبة الخالصة فى الجهاد الاسلامى • وقد عبرت الجيوش المرينية الى شبه الجزيرة غير مرة تحمل شعار الجهاد وقبل كل شيء ، واستطاع عاهلهم الكبير السلطان أبو يوسف يعقوب الملقب بالمنصوران يوقع الجيوش القشتالية هزيمة ساحقة فى موقعة استجة فى شهر ربيع الاول سنة 674 هـ (سبتمبر سنة 1275 م) وكان نصرا عظيما أعاد الى الاذهان ذكريات الزلاقة والارك • وبالرغم مما كان يعتور علائق بنى نصر ملوك غرناطة ، وبنى مرين ، فى بعض الاحيان من القطيعة وسوء التفاهم ، فان هذه العلائق استقرت فى النهاية على قاعدة من التحالف الوثيق والاخوة الاسلامية ، واتخذ هذا التحالف أروع مثله فى جهاد السلطان الكبير أبى الحسن المرينى ، وعبوره الى الاندلس بجيوشه وحشده لاساطيله ، ومقاتلته للقشتاليين الى جانب القوات الاندلسية بقيادة السلطان يوسف ابى الحجاج فى معركة طريف

الشهيرة . وبالرغم مما لحق المسلمين فى هذه المعركة من هزيمة مؤلمة ، كاد أن يهلك فيها السلطان أبو الحسن ، فانه عاد وبعث جيوشه لانقاذ جبل طارق ، واستطاع المسلمون فى النهاية انقاذه ورد عدوان القشتاليين عنه . وقد أنتهى الامر بأن نزل ملوك غرناطة عن جبل طارق ورنده لبنى مرين لتكونا قاعدتين لنزول جيوشهما المنجدة .

وهنا نقف قليلا لنلقى بعض الضوء على موقف المغرب ودوله الكبرى تجاه الاندلس ، وما كان يحيط بهذا الموقف من العوامل المثالية ، والواقعية . ان الرواية التاريخية تحدثنا عن عبور الجيوش المغربية الى شبه الجزيرة للجهاد فى سبيل الله ، ولانقاذ الامة الاندلسية من خطر العدوان النصرانى الداهم . وهذا صحيح لا ريب فيه ، وقد كان الصراع المستمر الذى يضطرم بين المسلمين والنصارى فى شبه الجزيرة يتخذ فى معظم الاحيان الحرب الصليبية . بيد أنه كانت تجثم وراء هذه البواعث المعنوية والدينية عوامل مادية وسياسية فى منتهى الخطورة . ذلك أنه منذ عبور المرابطين الاول الى شبه الجزيرة لانجاد دول الطوائف ، أدرك الجندى الشيخ العبقرى يوسف ابن تاشفين ، بعد أن رأى تخاذل ملوك الطوائف ، وانهيار مثلهم الدينية والاخلاقية انه لو تركت مصاير الاندلس لمثل أولئك الزعماء الاصاغر المتهافتين على استجلاب مودة ملك قشتالة ورضائه ، لانتهت الى الفناء العاجل بلا ريب . وأدرك فى نفس الوقت أن الاندلس ، وهى تحتل الحيز الجنوبى من شبه الجزيرة تمثل حاجزا هاما ، يحول دون انسياب القوات القشتالية الى البحر ، وتهديد أمن المغرب وسلامته . واذن فقد كانت الاندلس ، من الناحية العسكرية ، هى جناح المغرب الدفاعى من الشمال الغربى ، ومهما كانت البواعث والمغانم الدنيوية التى دفعت بالمرابطين الى افتتاح الاندلس وامتلاكها ، بعد أن قدموا اليها اخوانا فى الدين مجاهدين ومجندين ، فأنه لم يكن ثمة شك فى أن هذه الحقيقة العسكرية ، كانت وراء هذه البواعث الدنيوية . ولم يكن عبد المؤمن وخلفاؤه الموحدون أقل أيمانا بهذه الحقيقة ، فكان جهاد الجيوش الموحدية واشتباكها المستمر مع الجيوش النصرانية فى شبه الجزيرة فى معارك طاحنة يستهدف وقف زحف الجيوش النصرانية فى شبه الجزيرة نحو الجنوب .

ولما انهارت قوى الموحدين العسكرية ، وانهار سلطانهم فى الاندلس ، وسقطت

القواعد الاندلسية الثالدة ، وقامت مملكة غرناطة الصغيرة فى الجنوب لم ينس بنو مرين منذ البداية، أن يعملوا على تدعيم هذا الحاجز الاخير القائم بينهم وبين اسبانيا النصرانية، فعبرت جيوشهم الى شبه الجزيرة مرارا ، واتخذوا أخيرا جبل طارق ورنده ، بموافقة غرناطة ، قواعد للعبور والمراقبة • وكانت غرناطة شعورا منها بهذه الحقيقة ، تتجه دائما ببصرها الى الضفة الاخرى من البحر كلما شعرت بخطر النصرانية الداهم على حياتها • وانا لتجد صدى هذا الصريخ يتردد بكثرة فى رسائل وزير الاندلس الكبير ابن الخطيب ، حيث يصف هذه الامة الاندلسية الصغيرة دائما بالامة الغريبة المنقطعة وراء البحر ، ويستشف ببصره البعيد ، ما يهددها من خطر الفناء المحتوم •

تلك هى البواعث القومية والدفاعية التى حملت الدول المغربية ، منذ عهد المرابطين ، أن تقف دائما بجيوشها وعتادها وأموالها وراء الاندلس والامة الاندلسية ، وهل أدل على صحة هذه النظرية الدفاعية مما حدث عقب سقوط غرناطة فى أيدى القشتاليين ، وانتهاء دولة الاسلام فى الاندلس ، من انسياب جيوش اسبانيا النصرانية وأساطيلها على الاثر ، الى الضفة الاخرى من البحر ، وغزو الشواطىء المغربية الشمالية ، والاستيلاء على معظم ثغورها فى حملات برية وبحرية صليبية متعددة •

على أنه لم تأت أواخر القرن الثامن الهجرى ، حتى أنهارت تلك الخطة الدفاعية القديمة ، القائمة على تحالف المغرب والاندلس ، وكانت دولة بنى مرين القوية قد دخلت يومئذ فى دور انحلالها ولم تلبث أن أنهارت وثبات المتغلبين ، وغاضت عندئذ كل فكرة فى العبور الى شبه الجزيرة • ومن جهة أخرى فقد كانت مملكة غرناطة الصغيرة فريسة لفتن ، ومنازعات داخلية مستمرة ، بيد أنها مع هذه المحن الداخلية لم تنس أن تبحث وراء العون الخارجى من اخوانها المسلمين • ولما كان سندها القديم ـ المغرب ، فى شغل شاغل يومئذ بفتنه وانقلاباته الداخلية ، فقد اتجهت لاول مرة الى الشرق الاسلامى ، وبعثت بصريخها الى مصر على يد سفارة أرسلها السلطان الايسر أبو عبد الله محمد بن يوسف الى سلطان مصر الظاهر حقمق فى سنة 844 هـ (1440 م) وقد اعتذر السلطان يومئذ بأنه عاجز عن تقديم أية معونة عسكرية الى الاندلس لبعد الشقة ، واقترح على سفراء غرناطة أن يتوجهوا بصريخهم الى ابن عثمان ، أعنى الى سلطان قسنطينية • وهكذا لم تسفر هذه المحاولة الاولى عن أية نتائج عملية •

ولما انتهت مملكة غرناطة الى التمزق الاخير ، وغزتهـــا جيوش فرناندو وايسابيلا لتضربها الضربة الحاسمة ، بعث مولاى الزغل ملك المنطقة الشرقيـــة ، حينما حـــاصر القشتاليون مالقة عاصمة مملكة بصريخه الى قسطنطينية والى سلطان مصر الملك الاشرف، على يد سفارة وصلت الى القاهرة فى أواخر سنة 892 هـ (1487 م) ، وكانت مصر ، فضلا عن الاخوة الاسلامية ، ترتبط منذ عصور مع ثغور الاندلس بعلائق تجارية وثيقة ، وكانت تتبع محنة الاندلس وحوادثها الاليمة بأسف بالغ ، وقد رأى البـــلاط المصرى يومئذ أن يقوم لانجاد الاندلس بمحاولة دبلوماسية فطنة ، وقد كانت مصر تسيطر على بيت المقدس وما بها من البقاع النصرانية المقدسة ، وبين رعاياها ملايين من النصارى ٠ وبعث سلطان مصر على يدى راهبين من رعاياه ، من بيت المقدس رســـائـــل الى الملكـــين الكاثوليكيين والى البابا والى ملك نابل ، ينذر فيها بانه اذا لم يقف فرناندو وايسابيلا عدوانهما ضد مسلمى غرناطة ، فانه سوف يهدم القبر المقدس ، ويبطش بأكابر الاحبار النصارى ، ويمنع دخول النصارى الى بيت المقدس ٠ ولكن هذه المحاولة الدبلوماسيـــة الفطنة لم تحدث أثرها ، واستمر القشتاليون فى غزو مملكة غرناطة ، وانتزاع قواعدها ، حتى أنتهت بتسليم غرناطة ، وانقضاء دولة الاسلام فى الاندلس ، وذلك فى الثانى من ربيع الاول سنة 897هـ (2 يناير سنة 1492 م) ٠

ولسنا بحاجة لان نتحدث هنا عن العهود الوثيقة التى قطعها الملكان الكاثوليكيان للمسلمين بالمحافظة على امنهم وسلامتهم وعقائدهم وشرائعهم وتقاليدهم وأملاكهم وأموالهم ــ ولا عما حدث بعد ذلك من نقض صارخ لتلك العهود واكراه المسلمين على التنصير بأشنـــع الوسائل وأفظعها ، وحرمانهم من التخاطب بالعربية ، والتسمى بالاسماء العربية ، ولبس الثياب العربية ، ومن سائر تقاليدهم القديمة ، ولا عما أصابهم من التعذيب والتحـــريق ، ومختلف العقوبات المروعة على يد محاكم التحقيق الشهيرة ، التى انشئت للعمل عـــلى ابادة بقايا الامة الاندلسية لا حاجة بنا الى الافاضة فى شىء من ذلك ، ويكفى أن نقول بايجاز أنه لم يمض على سقوط غرناطة زهاء خمسين عاما حتى استحالت بقايا الامـــة الاندلسية الى طائفة الموريسكيين المتنصرة ، تشهد القداس فى الكنـــائس وتتحـــدث بالقشتالية ، وتعيش فى صفة رذلة رقابة الكنيسة الصارمة ، بيد أنه كانت تختفى تحت

هذه الظاهرة المحزنة ، لمحة من الدين القديم ، تتأجج بين الجوانح ، وشغف يضطـــرم بتقاليد الآباء والاجداد ، واستمساك حتى الموت بهذه الارومة القديمة ، وكــل ما كان لها من طهارة العقيدة ، ومن ثم فقد اضطرم الموريسكيون بالثورة غير مرة ، يحاولـــون تحطيم هذا النير البغيض ، ولكن ثوراتهم أخمدت تباعا ، ولم يبق لهم الا الاستســـلام والسكـــون ٠

ولكن الموريسكيين لم يستكينوا ولم ييأسوا ، فقد كانت تساورهم آمال غامضـــة ، وكانوا يبحثون عن العون فى ظلمات المجهول ٠ وكانت تلوح لهم عن بعد تلك القـــوة الاسلامية الجديدة ، قوة الترك العثمانيين ، وقد سبق ان اشرنا الى ما حاوله مولاى الزغل سلطان مالقة من الاتجاه بصريخه الى قسطنطينية ، قبيل سقوط غرناطة بقليل ، ولكن لم يكن لصريخه أى صدى ٠ ولما حلت النكبة وأكره المسلمون على التنصير ، وبالغت الكنيسة الاسبانية ومحاكم التحقيق فى اضطهادهم وتعذيبهم ، رأى الموريسكيون أن يتجهـــوا بصريخهم الى تلك القوة الاسلامية العظمى ٠ وبدأوا بذلك فى عصر مبكر ، عقب التنصير بأعوام قلائل ، حيث بعثوا بصريخهم الى السلطان بايزيد الثانى (1482 ـ 1512 م) ، فى رسالة محزنة يصف فيها كاتبها فى شعر ركيك ولكن مؤثر قوى التعبير ما تتركه اسبانيا النصرانية برعاياها الجدد ، وما يصيب المتنصرين من عسف ديوان التحقيـــق وروائـــع مطارداته وعقوباته ، واليك بعض أبيات هذه القصيدة ، بعد ما ورد فيها من ديباجـــة شعرية طويلة فى تحية السلطان بايزيد :

فلما دخلنـــا تحت عقـد ذمامهـــم ... بدأ غدرهـم فينـا بنقض العزيمـة

وخان عهـــودا كان قـــد غرنا بهـا ... ونصرنـا كـرها بعنف وســـطرة

وكل كتـاب كان فى أمر ديننـــا ... ففى النـار ألقوه بهـزء وحقـــرة

ولم يتركـــوا فيهـا كتابا لمسلـــم ... ولا مصـــحفا يخـــلى به للقـــراءة

ومن صـــام أو صـــلى ويعلـم حاله ... ففى النـار يلقـــوه عـــلى كل حالة

وقد بدلت أسمـــاءنا وتحـــولت ... بغـير رضـــا منـا وغـــير ارادة

فآها عـلى بتبديـــل ديـن محمـــد ... بدين كــــلاب الروم شر البـــرية

وآها على تلك الصوامع علقت — نواقيسهم بها نظير الشهادة
وآها على تلك البلاد وحسنها — لقد أظلمت بالكفر أعظم ظلمة
فلو أبصرت عيناك ما صار حالنا — اليه لجادت بالدموع الغزيرة

ومن المرجح أن هذه الرسالة وجهت الى السلطان بايزيد الثانى عقب ثورة البشرات وما تلاها من اجراءات القمع الذريع ضد الموريسكيين ، وذلك حوالى سنة 1505 م • ويبدو مما ورد من أبيات القصيدة بعد ذلك أن السلطان بايزيد كان قد بعث الى فرناندو الكاثوليكى رسالة بالكف عن مطاردة الموريسكيين ، كما يبدو أن الموريسكيين توجهوا فى نفس الوقت بصريخهم الى مصر ، وأن مصر بعثت برسالة مماثلة ، ولكن الملك النصرانى لم يقم أى وزن لهذه المساعى ، وهذا ما جاء فى القصيدة موضحا لذلك :

وقد بلغ المكتوب منكم اليهم — فلم يعملوا منه جميعا بكلمة
وما زادهم اعتداء وجرأة — علينا واقداما بكل مساءة
وقد بلغت ارسال مصر اليهم — وما نالهم غدر وهتك حرمة
وقالوا لتلك الرسل عنا بأننا — رضينا بدين الكفر من غير قهرة

ومضت فترة أخرى ، ظهر فيها فى غربى البحر الابيض المتوسط عنصر جديد فى تطور الحوادث ، هو ظهور البحارة الترك ، وعلى رأسهم الاخوة الشهيران أوروج (عروج) وخير الدين • واستطاع أن يستولى على الجزائر فى سنة 1517 م • ولما قتل فى العام التالى ، فى معركة نشبت بينه وبين الاسبان استولى اخوه خير الدين على الجزائر ، ثم أستولى على عدة ثغور أخرى ، وعينه السلطان سليم حاكما على تلك الانحاء ، وأمده بالسفن والجند • ثم تألق نجم خير الدين من ذلك الحين ، وأصبح اسمه يقرن بذكر أعظم أمراء البحر فى هذا العصر • والذى يهمنا من أعمال خير الدين ، هو غاراته الجريئة المتكررة على شواطىء اسبانيا الشرقية ، واتصاله بالموريسكيين فى بلنسية وغيرها ، واستطاعته أن ينقل منهم اعدادا كبيرة الى الثغور المغربية ، تقدر بنحو سبعين ألفا ، ولم تكن هذه الغارات محض جهاد فى سبيل الله ، ولكنها كانت تنظم فى نفس الوقت لتحقيق الربح والمغانم • وكان الموريسكيون من أغنى الطوائف فى أسبانيا • وفى تلك الآونة

التى لاح فيها للموريسكيين شط من الامل ، عادوا فبعثوا بصريخهم الى قسطنطينية فى رسالة موجهة الى السلطان سليم فى 948هـ ـ 1541م • وفيها يبثون الى السلطان آلامهم وما يلقون من الاضطهاد والتعذيب آناء الليل وأطراف النهار ويشيرون فيها الى خـير الدين وعمله بأحوالهم لما كان بالجزائر ، وقيامه بنقل الكثير منهم الى أرض الاســلام ، ويلتمسون من السلطان أن يستجيب الى ندائهم بارساله لغوثهم ولا سيما بعد أن خذلهم جيرانهم واخوانهم فى المغرب •

وليس لدينا ما يدل على أن السلطان سليمان قام بأية اجراءات عمليـة لاغاثـة الموريسكيين • وكل ما هنالك هو أن البحارة الترك استأنفوا غاراتهم عـلى الشواطىء الاسبانية الشرقية بقيادة أمير البحر طرغود الذى خلف خير الدين فى الرياسة ، يحملون فيها اعدادا من الموريسكيين الى شواطىء المغرب •

وانه ليبدو أن سلاطين آل عثمان ـ وأمتهم ليست من الامم المنشئة للحضارة ـ لم تكن لديهم فكرة واضحة عن مدى العظمة القومية والحضارية التى كانت للامة الاندلسية ، ولامجادها الجهادية ، ولا مكانتها الرفيعة فى التاريخ بين الامم الاسلامية ، ولم يذكـروا أنها هى الامة التى أخرجت عبد الرحمن الناصر والمنصور ، وأخرجت ابن حزم والزهراوى وابن باجة وابن زهر وابن رشد ، وابن الطفيل ، وبثت اشعاعها العلمى قويا الى نهضـة أوروبا العلمية • أجل ، لم تكن لديهم أية فكرة واضحة عن ذلك كله ، ولم تكن لديهم للتأثر بصريخ الموريسكيين سوى الاخوة الاسلامية ، ولو أن بلاط قسطنطينية استجاب الى صريخ ملوك غرناطة الاواخر ، وحاول أن يمارس نوعا من الضغط على ملكى قشتالـة فرناندو وايسابيلا ، وقد كان بوسعه أن يمارس هذا الضغط قـويا ، لان القـوات العثمانية البرية والبحرية كانت منذ أواخر عهد محمد الفاتح تحتل مقاطعة اترانتو جنوبى ايطاليا ، وعلى مقربة من جزيرة صقلية التى كانت يومئذ أملاك اسبانيا ـ لو أنه حـاول شيئا من ذلك ، لكان من المرجح أن تتطور الحوادث فى الاندلس ، وأن تبقى مملكة غرناطة فى الوجود حقبة أخرى • ثم أنه فى الوقت الذى بلغ فيه اضطهاد الموريسكيين ذروتـه ، وبغلت بهم التعاسة والمحن اقصاها ، كانت الدولة العثمانية فى أوج قوتها ، وأوج مجدها العسكرى البرى والبحرى، ولو شاءت قسطنطينية أن تمد يدها لانجاد الموريسكيين لكانت

لديها الوسيلة الناجعة ، سيما وقد كانت قواها البحرية تسيطر يومئذ على مياه غربى البحر المتوسط كله ، ولو أبدت يومئذ ضد اسبانيا أية حركة جادة ، لتحقق للموريسكيين ما كانوا يرومونه من الخلاص والخروج من اسبانيا بأولادهم وأموالهم قبل مأساة النفى بزمن طويـــل ٠

ولكن سلاطين آل عثمان شغلوا عن بذل أية حركة نبيلة فى هذا السبيل ، بامجادهم العسكرية الجديدة المتواصلة ، وبفتوحاتهم المخربة لمصر وبلاد المشرق العربى ، والسيطرة على أقدارها ، والقضاء على مقوماتها وتراثها الحضارى ، واستصفاء أموالها وثرواتها ، كما شغلوا بفتوحاتهم العقيمة فى أوروبا ، فى بودوليا واليوكرين ، وفى المجر وغيرها ، وهى الفتوح التى أثارت أوروبا النصرانية كلها على الاسلام ، ودفعتها الى التكتيل لمناوأتـه وكفاحه فى حملات صليبية جديدة ٠

والخلاصة أن موقف قسطنطينية ازاء مسلمى الاندلس أولا ، قبل سقوط غرناطـة ، ثم بعد سقوطها ، ازاء الامة الاندلسية الموريسكية ، لم يكن متسما بأية بادرة مشكورة أو موقف مشرف ، يستحق تسجيل التاريخ وتقديره ٠

ولنحاول الآن أن نلقى بعض الضياء على موقف الامم الاسلامية من الامة الموريسكية ومصايرها عقب النفى وخروجها النهائى من اسبانيا ٠

لقد اصدرت اسبانيا قرارها الشهير بنفى الموريسكيين من سائر الاراضى الاسبانية فى شهر سبتمبر سنة 1609 ، الموافق شهر رجب سنة 1018 هـ ، فخرجت جموع غفيرة منهم ، من ثغور بلنسية ودانية وثغور اسبانيا الجنوبية ٠ وسافرت جموع كبيرة منهـم على السفن الحكومية فى مناظر مبكية من البؤس والجوع والمهانة ٠ وسافر منهم ألوف من الاغنياء والموسرين على نفقتهم الخاصة ، وألقت السفن بمعظم المنفيين الى ثغور المغــرب ومدنه المختلفة ، وهلكت منهم ألوف كثيرة خلال السفر من الجوع والمرض والاعتـداء ٠ وبالرغم مما اقترن بالنفى من المحن والآلام والمناظر المبكية ، فقد اعتبره معظم الموريسكيين نذير الخلاص،وتحقيقا لما كانوا يسعون اليه منذ بعيد،من مغادرة جحيم الكنيسة الاسبانية وديوان التحقيق الاسبانى ، وتقدر معظم الروايات الوثيقة عدد الموريسكيين المنفيين بنحو ستمائة ألف ، ويقدرهم دون لورنتى مؤرخ ديوان التحقيق بمليون نسمة ، وقد عـــاد

سائر المنفيين الذين نزلوا بالبلاد الاسلامية الى الاسلام ، ودين الآباء والاجداد ولم تخمد مائة عام من التنصير المغصوب والاضطهاد المروع فى نفوسهم جذوة الاسلام ٠

ولقد كان لهذه الخاتمة المؤسية لبقايا الامة الاندلسية المجيدة ، أعمق وقع فى سائر أنحاء العالم الاسلامى ، ولا سيما أقطار المغرب القريبة من مسرح المأساة ، وأبدت كلها مزيد الترحيب والعطف لاستقبالهم ، وتضميد جراحهم ، ويقول لنا المقرى وهو معاصر للمأساة فى وصفها ما يلى :

« الى أن كان اخراج النصارى أياهم (أى الموريسكيين أو العرب المتنصرين) بهذا العصر القريب أعوام سبعة عشرة وألف ٠ فخرجت ألوف بفاس ، وألوف أخرى بتلمسان من وهران ، وجمهورهم خرج بتونس ، فتسلط عليهم الاعراب ومن لا يخشى الله فى الطرقات ونهبوا أموالهم ٠ وأما الذين خرجوا بنواحى تونس فسلم أكثرهم وهم لهذا العهد عمروا قراها الخالية وبلادها ، وكذلك بتطاون وسلا وفيجة الجزائر ٠ ولما استخدم سلطان المغرب الاقصى منهم عسكرا جرارا ، وسكنوا سلا ، كان منهم من الجهاد فى البحر ما هو مشهور الآن ، وحصنوا سلا ، وبنوا بها القصور والحمامات والدور٠ وهم الآن بهذه الحال ٠ ووصل جماعة منهم الى القسطنطينية العظمى والى مصر والشام ، وغيرها من بلاد الاسلام ، وهم لهذا العهد على ما وصفت » ٠

هذا ، ولقد كان لتونس فيما يبدو ، أعظم الفضل فى استقبال الموريسكيين المنفيين ، واحاطتهم بعطفها ورعايتها ، ويقدر من نزل منهم بالاراضى التونسية وحدها بنحو ثمانين ألفا ٠ واليك ما يقوله ابن دينار المؤرخ التونسى عن مقدمهم الى البلاد التونسية ، وقد كتب رواية بعد مأساة النفى بنحو سبعين عاما، وذلك فى حوادث سنة 1017هـ(1018هـ) :

« وفى هذه السنة والتى تليها جاءت جالية الاندلس من بلاد النصارى ، نفاهم صاحب اسبانيا ، وكونوا خلقا كثيرا ، فأوسع لهم عثمان داى البلاد ، وفرق ضعفاءهم على الناس، وأذن لهم أن يعمروا حيث شاءوا ، فاشتروا الهناشير وبنوا فيها ، واتسعوا فى البلاد ، وعمرت بهم ، واستوطنوا عدة أماكن ٠

« ومن بلدانهم المشهورة سليمان وبلى ونبالو وقرنالية وتركى والجديدة وزغوان ، وقريش الواد ، وطبرية ، ومجاز الباب والصلوقية ، وتستور وهى من أعظم بلدانهم

وأحضرها ، وغير ذلك بحيث تكون عدتها أزيد من عشرين بلدا ، فصار لهم مدن عظيمة ، وغرسوا الكروم والزيتون والبساتين ، ومهدوا الطرق بالكراريط ، وصاروا يعدون من أهل البلاد .

ويقول صاحب « الخلاصة النقية » ، وهو من الكتاب المتأخرين « وفي سنة ستة وعشرة وألف قدمت الامم الجالية من جزيرة الاندلس ، فأوسع لهم صاحب تونس عثمان داي كنفه ، وأباح لهم بناء القرى في مملكته ، فبنوا منها نحو العشرين قرية ، واغتبط بهم أهل الحضرة ، وتعلموا حرفهم ، وقلدوا ترفهم » .

ولقد حظيت خلال زياراتي لتونس بالتجوال في هذه المنطقة الموريسكية ، ولا سيما حاضرتها الزاهرة « تتور » التي تشبه بخططها ، ودورها البيضاء ذات الافنية الاندلسية التي تضم أشجار النارنج مدينة استجة الاندلسية ، والتي ما زال كثير من أهلها يحتفظون بالقابهم الموريسكية القديمة ، مثل برفينو ، ومرتيلة ، وبلنسين ، وبلانكو ، وبومست ، وكامش ، ومركيكو ، ومدينة ، والكوندي ، فليبو وغيرها .

وكذلك لقي الموريسكيون في ثغور المغرب ومدنه الاخرى أعظم ترحيب وعون ، ولا سيما في تطوان وفاس وتلمسان والرباط وسلا ، وغيرها وما زالت الاسر التي نزلت بها وتنتمي الى أصول موريسكية تحتفظ بأسمائها القديمة ، ولا تبغي بها بديلا ، اعتزازا بأرومتها الاندلسية النبيلة ، فنرى بها أسماء بركاش ، ونكيطو ، وملاط ، وبرميخو ، ومرشينة ، ومورينو ، وفرتون ، وقديرة ، وفلوريش ، وملينة ، ومدينة ، ومورارش وغيرها .

ونزلت طوائف قليلة من الموريسكيين بمصر ، ولكن آثارهم قد غاضت منذ بعيد ومن الصعب أن نتتبع أصولها اليوم .

ونزلت طوائف منهم كذلك بقسطنطينية . هذا ولدينا ما يدل على أن الموريسكيين حاولوا بعد قرار النفي وخروجهم من اسبانيا ن يحصلوا على معاونة السلطان لاخوانهم الذين لجأوا الى فرنسا عن طريق البرقية وأن أحد زعمائهم واسمه الاندلسي محمد أبو العباس الحنفي ، وكان قد وصل الى مدينة بلغراد ، وهنالك لقي مراد باشا وزير السلطان أحمد الاول بن محمد الثالث (1603 ـ 1617) فقص على الوزير ما حل بالموريسكيين في جنوب

فرنسا من المحن • فكتب السلطان أحمد الى ملكة فرنسا يومئذ مارى دى مديتشى الوصية على ولدها لويس الثالث عشر ، أن يخرج من كان بفرنسا من الموريسكيين ، ويوجهون اليه فى سفن من عندها ، وقد استجابت ملكة فرنسا الى رسالة السلطان ، وأمرت باخراج المسلمين ، وأن يركبوا من سواحلها فى السفن الفرنسية الى حيث شاءوا مـــن بـلاد المسلمـــين •

تلك هى قصة الاندلسيين الموريسكيين ، أو العرب المتنصرين ، بقايا الامة الاندلسية المجيدة • قصة مؤسية تفيض بألوان الاستشهاد المحزن ، ولكن تفيض فى نفس الوقت بصحف من الاباء والجلد ، تخلق بأعظم وأنبل الشعوب •

وقد لبثت السياسة البربرية التى أتبعتها اسبانيا النصرانية ، وأتبعها ديوان التحقيق الاسبانى ، ازاء العرب المتنصرين ، على كر العصور متار الانكار والسخط يدفعها ا لمفكرون الغربيون وكثير من مفكرى الاسبان أنفسهم ، حتى يومنا ، بأقسى النعوت والاحكام •

ويرى النقد الحديث أن العمل على ا بادة الموريسكيين كان ضربة شديدة لعظمة اسبانيا ورخائها ، ولم تنهض اسبانيا من عواقب هذه السياسة الغاشمة ، بل انحدرت منـــذ نفى الموريسكيين وقد كانوا من أنشط وأذكى وأقدر عناصر سكانها ، وحرمت من الثروات العقلية والفنية والصناعية والزراعية ، التى كانت تتمتع بها بقايا الامـة الاندلسيـة ، نقول أن اسبانيا انحدرت من جراء نفى هذا العنصر القدير العامل الذكى من أوج عظمتها فى عصر شارلكان وفيليب الثانى الى عصر التدهور والانحلال التى مازالت تلازمها حتى عصرنـــا •

وبالعكس فان سائر الدول الاسلامية التى استقبلت طوائف الاندلسيين المنفيـين ، قد استفادت أعظم الفوائد من تقدمهم ، وحلولهم بين سكانها ، واقتبس أهلها الكثـــير من براعتهم فى الصناعة والزراعة ومختلف الفنون • وقد كان الاندلسيون أبرع أهـــل الارض فى الزراعة وغرس الحدائق ، واقامة المنشآت العمرانية ، كما اقتبسوا الكثـــير من مواهبهم الحضارية ، وعوايدهم المترفة ، وشمائلهم الرقيقة •

وقد وقعت مأساة الموريسكيين فى ظروف أخذت فيها الروح الصليبية الاوروبيـــة القديمة تقوى وتشتد ازاء الاسلام • وكان سقوط قسطنطينية ، وانتهاء الدولة الرومانية

الشرقية على يد الترك العثمانيين فى سنة 1453 (857هـ) ، حادثا جللا اهتزت له أوروبا من أقصاها الى اقصاها ، وكان عاملا جديدا فى اذكاء هذه الروح · بالرغم من أن افتتاح الترك لقسطنطينية كان يتسم بثوب المجد الحربى أكثر من أى لون آخر ، فانه اعتبر ضربة شديدة للكنيسة وللنصرانية · فلما استولى القشتاليون على مملكة غرناطة ، وانتهت بذلك دولة الاسلام فى الاندلس ، اعتبر ذلك تعويضا فى معنى من المعانى عن سقوط قسطنطينية فى يد الاسلام · ثم كانت الفورة الصليبية التى جاشت بها اسبانيا عقب سقوط الاندلس ، والتى اتخذت سبيلها فى افتتاح عدد من قواعد المغرب وثغوره · وكان على رأس هذه الحملات الصليبية الجديدة رجلان يضطرم كلاهما بأشنع ضروب التعصب والبغض للاسلام ، هما فرناندو الكاثوليكى فاتح الاندلس ، والكردينال خمنيس سسنيروس، المسؤول عن تنصير بقايا الامة الاندلسية المغلوبة · ونحن نعرف أن الذى قاد الحملة البرية والبحرية الكبيرة التى قامت بافتتاح وهران سنة 1509م ، انما هو الكردينال خمنيس نفسه ، وأن هذا الفتح قد تم فى مناظر مروعة من السفك والتقتيل لاهلها المسلمين ·

ثم أن فتح قسطنطينية كان فاتحة لسلسلة طويلة من الفتوح والانتصارات العثمانية فى البر والبحر · ولم تات أواسط القرن السادس عشر ، حتى استطاع الترك أن يبسطوا سلطانهم على مناطق شاسعة فى أوروبا الوسطى مثل المجر وجنوبى بولونيا وأجزاء من شرقى النمسا ، وزحف الترك على مدينة فينا وحاصروها لاول مرة فى سنة 1529 ، ثم حاصروها للمرة الثانية فى سنة 1683 ، وبالرغم من فشل الترك فى هذين الحصارين الشهيرين ، فان مجرد وصول الفتوح العثمانية الى قلب أوروبا النصرانية على هذا النحو ، كان مثار الروع فى سائر الامم الاوروبية ، وكان فى أحيان كثيرة عاملا فى جمع كلمة العروش النصرانية واتحادها على مقاومة خطر الاسلام المشترك ، ورد الغزاة الى الجنوب والشرق · وكان ملوك أوروبا النصرانية يشعرون بأن الغزو التركى يهدد أوطانهم ودينهم ، وينسون خصوماتهم كلما تجدد الخطر ، وكانت تحدوهم فى الاجتماع على مقاومة نزعة صليبية لاشك فيها · وكان يهدىء من اضطرام هذه النزعة نوعا ما تميزت به

الفتوحات التركية من الصفة العابرة المؤقتة ، وعدم الاستقرار فى معظم الاقطار المفتوحة شمالى نهر الدانوب ٠

ومن المحقق أن هذا التكتل الصليبى ضد الجبهة الاسلامية التى كانت الدولة العثمانية تحمل لواءها ، قد استمر حتى أواخر القرن الثامن عشر ، حينما دخلت الدولة العثمانية فى دور انحلالها ، وانهارت قوى الانكشارية الغارية ، وأضحت بفتنتها المتوالية ، خطرا على الدولة العثمانية ذاتها ، وعندئذ تطور هذا التكتل الاوروبى الى تكتـــل سيـاسى استعمارى ، وأخذ سبيله الى تقسيم افريقية وأممها الاسلامية بين الدول العظمى ، كما أخذ سبيله الى تحقيق مثل هذه الغاية بالنسبة لعدد من الدول الآسيوية الاسلاميـة ، اما ببسط السيطرة الكاملة ، أو التقسيم الى مناطق النفوذ ٠ وكان القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين أشد الاحقاب الزمنية وطأة على الاسلام والامم الاسلامية ٠

ولكن قوى الاسلام الكامنة فى صدور أبنائه لبثت تعمل عملها ، الى جانب القـــوى القومية والوطنية فى صبر وجلد ٠ ولم تلبث الامم الاسلامية المهضومة الحق أن أبـدت بجهادها الباسل، واضطرام روحها القوى الكامن، فى سبيل استرداد حرياتها وكرامتها، ما لم يكن يتصوره المستعمر المعتدى ٠ وهى اليوم تتمتع بسيادتها وحرياتها الكاملـة ، وترفع راية الاسلام خفاقة عالية ٠

ثورة مسلمى غرناطة
عام 976 هـ أو آخر عام 1568م
والدولة العثمانية

د . ليلى الصباغ
استاذة التاريخ بجامعة دمشق



كلما مرت الايام بطيئة ومتثاقلة على القضية الفلسطينية ، وكلما انطلقت جموع النازحين من مواطنيها على الارض الفلسطينية الشامية ، وكلما تفجرت أزمة بين هؤلاء النازحين وحكومات الارض العربية التى استقروا عليها بعد خروجهم من ديارهم ، تلح على ذهنى وذهنك على ما أعتقد ، قضية مسلمى اسبانيا بعد احتلال الاسبان النصارى لمدنهم • وسقوط آخر معاقلهم (غرناطة) عام 897 هـ ـ 1492 م ، على الرغم من كثير من نقاط التباين بين اصالة القضيتين • وما أخال طرحها فى جدول أعمال الملتقى ، الى جانب الهدف الاكبر له ، وهو العمل الحثيث للبحث عن الحقيقة التاريخية فى تاريخ الاسلام ، واستكمال صورته السليمة ، سوى تذكير بما مضى ، وعكس اضواء

الدرس المستفاد على واقع عالمنا العربي والاسلامي ، والتبصير بمواقع القدم في الحاضر والمستقبـــل ·

قد يعيب على المؤرخ العلمي الموضوعي المدقق استعمال كلمة « مسلمين » في ثـورة غرناطة عام 976 هـ ـ 1568 م ، وذلك لامرين على ما أظن :

اولهما : أنه لم يكن هناك بالعرف الرسمي لدولة اسبانيا الحديثة مسلمون فيها بعد عام 1526 م ـ 933 هـ ·

ثانيهما : تبدو التسمية وكأنها اقرار مباشر بان الاسباب التي دفعت للثورة هو عامل الدين فحسب · ·

أما حول النقطة الاولى ، فأنا أقر معه العيب ، ولكن مبدئيا فقط · فالذين قامـــوا بالثورة في المدينة التعسة (غرناطة) عام 976 هـ ـ 1568 م ، أي بعد ثلاثة أرباع القرن من وقوعها بيد الاسبان النصارى ، لم يكونوا مسلمين رسميا · فالذين أشعلوا لهيبهـا هم من أطلق عليهم الاسبان اسم (الموريسكوس) ـ أي صغار المسلمين ـ · وهي التسمية التي أعطيت للمسلمين المنصرين الذين بقوا في الديار الاندلسية بعد سقوط غرناطة ، ومنذ 1501 في قشتالة ، ومنذ 1526 في البلدان التابعة لتاج الارغوان (1) · فثـوار غرناطة عام 976 هـ ، 1568 م ، هم اذن احفاد أولئك المسلمين الذين بقوا على أرض غرناطة بعد سقوطها ، والذين كان الملكان الكاثوليكيان فرديناند وايزابيلا ، قد تعهدا عند استسلام المدينة لهما بأن يحافظا في (56) بندا على أرواحهم ومعتقداتهم ، وأملاكهـــم فيها ، وان يطلقا لهم ، بالذات حرية ممارسة دينهم الاسلام ·

الا أن الكنيسة الكاثوليكية الاسبانية ممثلة بالكاردينـــال (خمنيس تسيزنروس CISNEROS XIMENES) ألحت على ضرورة وحدة الدين لاسبانيا بعـــد وحـدة الارض ، واستصدرت أمرا حكوميا عام 905 هـ ـ 1499 م ، بتنصير المسلمين ، مخالفة بذلـــك رأي السلطات المحلية ، وخائنة لعهد الملكين ·

---

1) أنظر في محمد عبد الله عنان : نهاية الاندلس وتاريخ العرب المتنصرين · الطبعة الثانية 1378هـ/1958م · ص 230 ـ 235 ·

وقد سبق هذا القرار ، ورافقه ، وتلاه ، تظاهرات نصرانية عدة ، مسيئة لهؤلاء المسلمين ومضطهدة لهم ، بل ومسيئة للانسانية برمتها · كتحويل المساجد الى كنائس ، وحرق العديد من كتب القرآن الكريم ، والوفير من المخطوطات العربية الثمينة ، وقتل كثير من المسلمين الصامدين والتنكيل بهم ، ضربا وحرقا · ومهما وصف المؤرخون المعاصرون أو القدامى مظاهر الاضطهاد التى طبقت بحق هؤلاء المسلمين ، معتمدين على مختلف الوثائق الاسبانية والعربية ، فان هذا الوصف يبقى ذابلا أمام الصورة التى قدمها هؤلاء المضطهدون عن أحوالهم ، فى نداء الاستغاثة الشعرى الذى وجهوه الى الدولة العثمانية فى شخص سلطانها بيازيد الثانى (886 ــ 918 هـ / 1481 ــ 1512 م) حوالى 1505 م ، والذى طلبوا فيه عونه على مصابهم ليكف الاسبان النصارى عن آذاهم ، ومحاربتهم فى دينهم · وقد حفظه لنا (المقرى) ــ الذى كان من أحفادهم ــ فى كتابه (أزهار الرياض فى أخبار عياض) · (2) وقد ورد فيه ما يلى :

فلما دخلنا تحت عقد ذمامهم ... بدأ غدرهم فينا بنقض العزيمة
وخان عهودا كان قد غرنا بها ... ونصرنا كرها بعنف وسطوة
وأحرق ما كانت لنا من مصاحف ... وخلطها بالزبل أو بالنجاسة
وكل كتاب كان فى أمر ديننا ... ففى النار ألقوه بهزء وحقرة
ولم يتركوا فيها كتابا لمسلم ... ولا مصحفا يخلى به للقراءة
ومن صام أو صلى ويعلم حاله ... ففى النار يلقوه على كل حالة
ومن لم يجى منا لموضع كفرهم ... يعاقبه اللباط شر العقوبة
ويلطم خديه ويأخذ ماله ... ويجعله فى السجن فى سوء حالة
وفى رمضان يفسدون صيامنا ... بأكل وشرب مرة بعد مرة
وقد أمرونا أن نسب نبينا ... ولا نذكرنه فى رخاء وشدة
وقد سمعوا قوما يغنون باسمه ... فأدركهم منهم أليم المضرة
وعاقبهم حكامهم وولاتهم ... بضرب ، وتغريم ، وسجن ، وذلة
ومن جاءه الموت ولم يحضر الذى ... يذكرهم ، لم يدفنوه بحيلة

2) ازهار الرياض فى اخبار عياض ، القاهرة 1358 هـ ، 1939 م · ج 1 ·

ويترك فى زبـــل طريحـا مجدلا　　كمثـــل حمـــار ميت أو بهيمـــة

وقد بـدلت اسمـــاؤنا وتحـولت　　بغـير رضـا منـــا وغـــير ارادة

وكانت نتيجة عملية التنصير القسرى هـذه أن اندلعت ثورة فى حى (البيازين) ـ المدينة الاصيلة فى غرناطة حيث يقـــيم المسلمون ـ وفى (سيرا فرمجة) (الجبـال الحمراء قرب رنده) • وبعد اخماد هذه الشعل الثورية بصعوبة فى عام 1502 ، كان على المسلمين أن يتنصروا أو يغادروا البلاد • فبدأت موجة هجرة كبيرة من أرض غرناطة الى بلاد المغرب ، وقلة منهم الى بلاد الشرق •

ومما لا شك فيه بان الملكين الكاثوليكيين كانا على اتفاق مع رئيس أساقفة طليطلة (شيزنروس) للقيام بمثل هذا الاجراء ، على الرغم من الادعاءات بأنهما قد فوجئا بعملية التنصير القسرى • (3)

فقد كان فردناندو يؤمن هو الآخر بأن وحدة العقيدة والروح هى الاساس الاول الذى يمكنه من توحيد اسبانيا المجزاة • كما أنه كان يخشى بأس المسلمين ، ويرى مع الكنيسة أن احتفاظهم بدينهم يقوى أواصر الصلة بينهم وبين اخوانهم فى شبه الجزيرة الافريقيـــة المجاورة ، وفى العالم الاسلامى ، ولا سيما مع الاتراك العثمانيين • ومن ثم فان تنصير المسلمين أو اخراجهم من البلاد هو الضمان الوحيد لسلامة اسبانيا وسلامها ، ووحدتها • فمهما قيل اذن حول الخلاف بين الكنيسة وفردناندو ، فان عمل (خمنيس تسيزنروس) يبقى من عمل الملكين الكاثوليكيين ، ومسؤولية من مسؤوليتهما •

ولقد كانت فى الواقع مسؤولية خطيرة وثقيلة : فاخراج المسلمين عن اسلامهم غدا قسريا ، لا فى غرناطة وحدها ، وانما فى جميع أنحاء اسبانيا • فما اتخذ فى غرناطـــة الحديثة السقوط من اجراءات عمم على قشتالة كلها • وكانت مدنها قد استردت من المسلمين منذ زمن بعيد ، وكان مسلموها يعيشون بأمان وسلام ، متمتعين بحريتهم الدينية ، وسط مواطنيهم النصارى ، وعاملين بالعقود المعقودة بينهم وبين السلطات الحاكمة • وامتـــدت عملية (التنصير القسرى) الى الاراغون أيضا ، وكتالونيا ، وبلنسية • ولم تكن هنا فى بادىء

3) BRAUDEL (F) : La Méditerranée et le monde méditerranéen à l'époque de Philippe II. p. 577. Paris 1949.

الامر بأمر الدولة ، وانما بجهود فئة من ا لاسبان « المسيحيين القدماء Cristianos Viejos المتزمتين الذين عملوا ما بين 1524 ـ 1526 على تعميد مواطنيهم المسلمين بالجملة ، حتى أن التعميدات الارغامية هذه أثارت في الفكر المسيحي تساؤلات حقة عن مدى صحتها • ولقد نوقش الامر طويلا، وفي روما نفسها، وكان لمبدأ التعايش السلمي واحلال التفاهم، أنصار في عاصمة المسيحية أكثر مما كان له في اسبانيا المتزمتة • وقد ثبت عمل « المسيحيين القدماء » هذا بمرسوم حكومي صدر في (12 مارس) 1524 م ، يحتم تنصير كل مسلم بقي على دينه أو يخرج من البلاد • وكل من يأبى التنصير ، أو مغادرة البلاد في المهلة الممنوحة يسترق مدى الحياة • ودعمت مرسومات التنصير واجراءاته بأعمال (ديوان التحقيق) ونشاطه • فقد كان أعضاؤه يتجسسون على هؤلاء المسلمين، ويلاحقونهم بشكوكهم وتحقيقاتهم العنيفة ، ومحاكماتهم الصورية ، وتعذيبهم ، وأخيرا بمواكب اعدامهم • وعندما تظلم المسلمون المنصرون إلى الامبراطور شارلكان ، الذى تلا فرديناندو وايزابيلا على عرش اسبانيا ـ وقد بدا لهم أكثر لينا وتسامحا من سابقيه ـ فانه لم يفعل سوى أنه أقر قرار الارغام على التنصير « ليكون سائرا على نهج ماتم في غرناطة من ناحية وليكون عمله تعبيرا حقا عن شكره لله الذى نصره في بافيا » (4) على الملك الفرنسي « فرانسوا الاول » • وانفجرت الثورة المسلمة عام 1526م ، أحواز سرقسطة ، ومنطقة بلنسية ، ولا سيما في ضاحية بني وزير غربها ، في جبال سبيدانا الموحشة • الا أن الحكومة ضربت الثوار بالمدفعية ، فاضطروا للتسليم والخضوع • وعاد التنصير بالاكراه الى خط سيره المتصاعد •

ولكن هل هذا التنصير الارغامي قد حول ا لمسلمين عن دينهم الاصلي ، ومع مرور الزمن ؟ ان « التاميرا » المؤرخ الاسباني (5) يعتقد بأن أغلبية منهم قد اعتنقت النصرانية نهائيا، وذابت في الوسط المسيحي، ولكن (لابير) يجيبه بأن « فرضية التنصير الصامت، الناجم عن اليأس والتعب من المقاومة ، وضغط الوسط ، ومجيء أجيال جديدة ، لا تستبعد • • • ولا سيما أن الدراسات الحديثة في علم الاجتماعي الديني (6) قد دلت على

4) BRAUDEL. op. cit. p. 578.
5) Altamira y Crevea (Raphaël), Historia de Espana y la Civilizacion espanole. p. 360. Barcelone 1900-1911. Cité par Lapeyre, Géographie de l'Espagne Morisque p. 120.
6) G. LE BRAS. Etudes de Sociologie religieuse. t. 1. p. 222-223. Paris 1955.

أن الممارسة الفردية للدين ترتبط كثيرا بالمحيط الاجتماعي ·· الا أن هذا التنصير لم يتم الا بالنسبة لبعض العناصر المتعزلة ، لان قوة مقاومة الجماعات الكبيرة لا تحتاج الى برهان ، ولا سيما بالنسبة لدين عنيد كالاسلام ·

» (7) وفى الحقيقة أن العديد من الوثائق الاسبانية والعربية تثبت هذا القول : فالموريسكوس » مسلمون ، ولكنهم فى ظاهر عباداتهم فى المجتمع الخارجى ليسوا كالمسلمين · فهم اذن طائفة اسلامية جديدة ـ اذا صح لنا هذا التعبير ـ كانت تعيش أزمة ضمير عنيفة ، وحياة صعبة ، بين معتقدات اسلامية سليمة راسخة فى صدورها ، وحريصة عليها ، وبين مظاهر عبادة نصرانية فرضت عليها ، فيها طقوس وعادات مغايرة للدين الاسلامى ، بل ومعتقدات · وقد حاولت هذه الجماعة أن تخرج من أزمة الفكر والضمير هذه · فاستفتت فقهاءها المسلمين ليفتوها فى أمرها ، وفى مكانها من دينها الاسلام ، وهى فى أوضاعها تلك · فأفتوا لها بصحة اسلامها ، مع بيان ما يجب أن تفعل عند ممارسة كل طقس من الطقوس المرغمة عليها · وان الفتوى التى وجهها اليها الفقيه (أبو جمعة الوهرانى ذى الاصل المغراوى (من المغره فى الاندلس) ، من الوثائع (8)

7) LAPEYRE (Henri). Géographie de l'Espagne Morisque. p. 120. S.E.V.P.E.N. 1959.

8) أنظر هذه الفتوى فى عنان ـ المصدر السابق · ص 325 ـ 327 ·

وقد عثر عليها المؤلفبالعربية خلال بحوثه فى مكتبة الفاتيكان الوسولية بروما · وكانت ضمن مجموعة من المخطوطات البورجيانية · وقد وصف المخطوط الذى تضمنها فى فهرس المكتبة (فهرس ديلا فيدا) بأنه المقدمة القرطبية ، وفى صفحة عنوانه بأنه كتاب « نزهة المستمعين » · وقد وجد المؤلف للفتوى المذكورة ترجمة قشتالية فى كتاب (لونغاس)

Longas (P.). La Vida Religiosa de los Moriscos. p. 305-307. Madrid 1915.

وترجع الفتوى الى عام 910هـ/1504م · وكذلك وجد (كانتينو) لتلك الفتوى ترجمة مورينسكية (الخميادو) فى مكتبة (ميجان MEJANES) فى (ايكس آن بروفنس) فى فرنسا ضمن مخطوط يحمل الرقم 1223 · وقد كتب عليه « كتاب الصلوات الاسلامية » · ويتضمن مقتطفات من القرآن ، وصلوات وادعية بالعربية · وقد نشرها مع تعليق فى « المجلة الآسيوية » فى عدد جانفى ـ مارس 1927 · واستخرجت فى نشرة خاصة تحت عنوان :

Cantineau (J.) Lettre du Moufti d'Oran aux Musulmans d'Andalousie. Paris 1927.

كما ورد النص كذلك فى كتاب :

L.P. Harvez, Crypto-Islam in sixteenth Centery Spain. (Primer Congreso de Estudios Arabes e Islamicos) Madrid 1964. p. 163-178.

التى تعطينا صورة صادقة عن أوضاع هؤلاء المسلمين المعذبين · ويخاطب المغراوى هؤلاء ويصفهم وصفا جميلا بقوله « اخواننا القابضين على دينهم كالقابض على الجمر وقد أوصاهم بالبقاء ملازمين لدينهم ، آمرين به من بلغ من أولادهم، وأن يحافظوا على معتقدهم فى عبادة الله الواحد بعيدين عن الصور والتشخيص ، وأن يقوموا بشعائرهم خفية ، وأن يتظاهروا بالنصرانية مع بقاء القلب مسلما الى الله · أى أنه أوصاهم بالتقية · ومع أن « التقيــة » مبدأ شيعى ، ولم يكن منتشرا فى الاندلس السنية المالكية ، الا انه لم يكن مجهولا تماما · كما انهم بتقيتهم هذه ما كانوا ليخالفوا الدين الحق ، بحسب عقيدة « المرجئة القائلة بان الايمان هو أيمان القلب ، ولا يضير المؤمن أن يتظاهر بأى معتقد آخر · فالمؤمن لا يفقـد تلك المنحة المقدسة التى وهبه أياها الله ، وهى الايمان القلبى ، مهما أظهر من أمـور مخالفة « فالله ـ كما قال المغراوى ـ لا ينظر الى صوركم ولكن الى قلوبكم » ·

وبقى هذا « الاسلام الخفى » قائما على الارض الاسبانية ، يحمله جيل الى جيل ، عـلى الرغم من جميع وسائل الملاحقة ، والارهاب ، حتى عام 1609م ، وهو تاريخ طرد أحفاد المسلمين المنصرين من اسبانيا نهائيا (ظلت قرارات الطرد تصدر تباعا حتى 1611م) · وهذا يعنى أن التنصير القسرى قد أخفق ، وبقيت النصرانية قشرة ظاهرية ، ولم تستطع أن تتغلغل الى الاعماق وتجتث الجذور الاسلامية · هذا علما أن الاجيال قـــد تتالـت ، وعاشت عصرها ، ولم تتح لها الاجواء الاسلامية الصافية لتتغذى الغذاء الاصيل ·

ومن الوثائق العربية الاولى التى تؤكد لنا تشبث الاندلسيين بدينهم ، نداء الاستغاثة الموجه الى السلطان بيازيد الثانى العثمانى ـ المشار اليه سابقا ـ حيث يقول أصحابه :

وقالوا(9)لتلك الرسل(10)عنا بأننا   رضينـا بدين الكفر من غـير قهـرة

---

9) وقالوا ، أى فرديناند وايزابيلا ·

10) الرسل : قد يكونون رسل السلطان (قانصوه الغورى) سلطان مصر الذى بعـث بهم الى البابا والبندقية لوضع حد لتعديات البرتغاليين على المسلمين فى المحيط الهندى ، فبعث البابا بدوره هذه الرسل أو بالاحرى الرسول (فرامورو دوسان برناردينو) الى ملك قشتالة والبرتغال محملا برسائل من قبله · وقد تكون المهمة التى كلف بها هذا الراهب من ديرسان كاترينا في سيناء مضاعفة أى لصالح مسلمى غرناطة وضد تعديات البرتغال ·

وساقوا عقود الزور ممــن أطاعهــم ... ووالله ما نرضى بتلـك الشهـــادة
لقد كذبـوا فى قولهـــم وكلامهـم ... علينـا بهـــذا القول أكبـــر فرية
ولكن خوف القتــل والحـرق ردنـا ... نقـــول ما قالـــوه بغـير نيـــة
ودين رســـــول الله ما زال عندنـا ... وتوحيدنا للـه فى كـــل لحظـــة
ووالله ما نــرضى بتبديـــل ديننا ... ولا بالــذى قالوا من أمـــر ثلاثة
وان زعموا انا رضينـــا بدينهـــم ... بغـير أذى منهـــم لنـا ومســـاءة
فسل «وحرا» عن أهلها كيف أصبحوا ... أسارى وقتـلى تحـت ذل ومهنـــة
وسل «بلفيقا» عــن قضية أمرهـا ... كذا فعلوا أيضا بأهـــل «البشرة»
واندرش « بالنار » أحرق أهلهـا ... بجامعهم صــاروا جميعـــا كفحمـة

وقد يقال أن ما كتب هنا كان بداية المأساة ، والتنصر لم يبلغ مداه ، والضغط لم يقض بعد على قوى المقاومة الروحية • الا ان وثيقة الاستغاثة الثانية الموجهة الى السلطان سليمان القانونى عام 1541م ، أى بعد أربعين عاما تؤكد هى الاخرى ذاك الثبات الدينى • فقد ورد فيها : فلما سمع الكافر اللعين بذلك ، ولم يقدر على منعنا بالسياسة والاهانة ، والحرق بالنيران ، علم انا اخترنا المصيبة فى الاموال والابدان ، وآثرنا ديننا على سائـر الاديـــان » • (11)

وكانت هذه السفارة عام 1504 ــ 1505 • أنظر
KAMMERER. La Mer Rouge, l'Abyssinie, Le Caire 1920. t. II. p. 142-144.
وقد يكون الرسل هم رسل فرديناند وايزابيلا نفسيهما ، اذ ارسل الملكان الى بلاط القاهرة وفدا برئاسة « بترومارتيرى دى انكلريا » فى أوت 1501 ، ليقنعوا سلطان مصر بما يلقاه مسلمو الاندلس من الرعاية والرفق • وقد قدمت السفارة للسلطان شهادات من بعض المتصرين تثبت أن التنصر لم يكن قهريا •
أنظر عنان ــ المصدر السابق • ص 208 •

11) عبد الجليل التميمى : « من مسلمى غرناطة الى سليمان القانونى عام 1541 » • مجلة الاصالة (الجزائرية) • العدد 23 (جانفى ــ فيفرى ــ السنة الرابعة • محرم صفر 1395 هـ . » وقد عثر المؤرخ على تلك الوثيقة فى أرشيـــف (طوبى كابى) فى استانبول تحت رقم 3154 .T. K. A

اما الوثيقة العربية الثالثة التى تثبت اسلامية المنصرين قهرا ، فقد كتبها مسلم منصر هو (محمد بن عبد الرفيع الاندلسى) المتوفى عام 1052هـ ـ 1652م • وقــد عاش فى جيان قبل النفى الاكبر فى 1609 م ، ثم هاجر الى تونس ، وكتب هذه الرسالة (12) دفاعا عن بنى وطنه (الاندلس) المهاجرين ضد من يتهمهم بدينهم مــن المسلمين ، ويتهمهـم بأيمانهم فى دار الهجرة • وفيها يؤكد حسن معتقدهم ، وتمسكهم بأهداب الاســلام • ويستشهد بقرار النفى ذاته الذى أصدره (فيليب الثالث) ، والذى بين فيه « عــدم رجوع المسلمين رجوعا صالحا من قلوبهم لدين النصرانية ••• واستمرارهم على ديـن المسلمين وعيشهم فيه خفية » • ثم يروى قصته هو مع الاسلام فى ذلك الوسط المقهور على النصرانية • وقد تكون قصته هذه هى قصة كل واحد من أولئك الذيــن يسمونهم بالموريسك • فقد قال :

« لقد أطلعنى الله تعالى على دين الاسلام بواسطة والدى رحمة الله عليه وأنا ابن ستة أعوام وأقل ، مع أننى كنت اذ ذاك أروح الى مكتب النصارى لاقراء دينهم ، ثم أرجــع الى بيتى فيعلمنى والدى دين الاسلام • فكنت أتعلم فيهما معا ••• وسنى حين حملت الى مكتبهم أربعة أعوام ••• فاخذ والدى لوحا من عود الجوز فكتب لى فيه حروف الهجـاء ، وهو يسألنى حرفا حرفا عن حروف النصارى تدريبا وتقريبا ، فاذا سميت له حرفا اعجميا كتب لى حرفا عربيا ، فيقول حينئذ هكذا كانت حروفنا ، حتى أستوفى جميع حروف الهجاء فى كرتين ••• وأمرنى أن لا أخبر أحدا من الخلق ••• وكان يلقننى حينئذ ما كنـت أقوله حين رؤيتى للأصنام ••• وكان أصدقاؤه يأتون الى بيتنا فيتحدثون فى أمور الدين وأنا أسمع ، ثم عرفنى بأصدقائه وأحبائه فاجتمعت بهم ••• وسافرت الاسفار لاجتمع بالمسلمين الاخيار من جيان الى غرناطة ، الى قرطبة ، الى اشبيلية وطليطلة » •

12) أنظر عنان ـ المصدر السابق • ص 386 ـ 390 •

وقد وردت هذه الرسالة فى خاتمة كتاب للمهاجر الاندلسى يسمى (الانوار النبويــة فى أنباء خير البرية) • ونقل الرسالة من مخطوط الشاعر « أبو عبد الله محمد بوجندار » فى كتابه « مقدمة الفتح فى تاريخ رباط الفتح » الرباط 1345 هـ •

ويأتى المؤرخ الاسبانى المعاصر لتلك الحقبة (مارمول دو كارفاجال ((1520 _ 1600) ليدعم هذا القول أيضا . فقد أورد فى كتابه « ثورة موريسكى غرناطة » أن « المسلمين المنصرين كانوا يشعرون دائما بالحرج من الدين الجديد . فاذا ذهبوا الى القداس أيام الآحاد فذلك فقط من با بمراعاة العرف والنظام ، وهم لم يقولوا الحقائق قط خلال الاعتراف . وفى يوم الجمعة يحتجبون ويعملون . واذا عمد أطفالهم عادوا فغسلوهم سرا بالماء الحار . ويسمون أولادهم أسماء عربية . وفى حفلات الزواج متى عادت العروس من الكنيسة بعد تلقى البركة ، تنزع ثيابها النصرانية وترتدى الثياب العربية . ويقيمون حفلاتهم وفقا للتقاليد العربية . (13)

فعلى الرغم اذن مما أورده صاحب كتاب « أخبار العصر فى انقضاء دولة بنى نصر » المجهول الاسم ، بعد خمسين عاما تقريبا من سقوط غرناطة من « أنه قد انطفأ من الاندلس الاسلام والايمان فعلى هذا فليبك الباكون ولينتحب المنتحبون » (14) ، فان المسلمين فى غرناطة وفى معظم أنحاء الاندلس قاوموا الغرق ، وظلت رؤوسهم فوق الماء ... فهم اذن ليسوا موريسكوس أى « أصاغر المسلمين » كما أطلق عليهم الاسبان احتقارا أو استخفافا (15) ، وانما كانوا من كبارهم .

فهم البقايا العنيدة الحية المجسدة لشخصية الحضارة العربية الاسلامية على الارض الاندلسية ، تلك الحضارة التى نمت عليها ايمانا اسلاميا « مخضوضرا » ، وابداعا انسانيا معطاء لثمانية قرون كاملة . فجذور الاسلام الحضارى كانت ممتدة بعيدا ، وعميقا فى الارض والنفس ومن العسير تقطيعها فما بالك باجتثاثها ؟؟ فالصراع بين المسلمين المنصرين والاسبان النصارى كان صراع حضارات _ كما قال بروديل _ ، ولذا استطال هذا الصراع . أو ليست عملية الطرد الاخيرة التى قام بها فيليب الثالث للمسلمين المنصرين دليلا على اخفاق الحضارة المسيحية الاوروبية آنذاك فى تمثل المسلمين وتنصيرهم ؟؟

13) Luis del Marmol Carvajel, Historia del Rebeliony Castigo de los Moriscos de Granada II Cop I.

تصدير . عنان _ المصدر السابق . ص 325 .

14) ص 56 . تصدير . عنان _ المصدر السابق . ص 304

15) عنان _ المصدر السابق . ص 206 . هامش (3) .

ونعود فنقول للمؤرخ العلمى المدقق بالاغبار البتة على ما ورد فى عنوان البحث ، اذ لابد من تسمية الامور باصالتها وهويتها العميقة ·

ولابد من التنويه هنا أن هؤلاء المسلمين قد أطلقوا على أنفسهم اسم « الغرباء » وقد وردت هذه التسمية فى فتوى (أبى جمعة الوهرانى المغراوى) ، وكذلك فى نداءالاستغاثة الموجه الى سليمان القانونى عام 1541م · وفى الواقع ليس لدينا تعليل جازم لهذه التسمية · فالغرباء بالعربية (16) تعنى « الاباعد » وتعنى « المنفيين » ، وتعنى « الذين يشعرون بالغربة وسط محيط مغاير لهم » · وكل هذه المعانى تنطبق على المسلمين المنصرين فى الاندلس بعد سقوط غرناطة · فهم « غرباء دينا وحضارة عن المجموع المسيحى الاغلب (17) ، وهم بحكم المنفيين لانهم غدوا محكومين باهل دار الحرب ، أما شعورهم بالوحشة والغربة فقد أفصحوا عنه فىمطلع شكواهم الى السلطان بيازيد الثانى حين قالوا :

سلام عليكم من عبيد تخلفوا   بأندلس بالغرب فى أرض غربة

الا أننى أرى أن تسميتهم لانفسهم بالغرباء ، هو تمثل منهم لحديث رسول الله (صلعم) ، عندما سئل عن الغرباء فقال : « الذين يحيون ما أمات الناس من سنتى » · وفى حديث آخر : « ان الاسلام بدأ غريبا وسيعود غريبا كما بدأ ، فطوبى للغرباء » أى أنه كان فى ول أمره كالغريب الوحيد الذى لا أهل له عنده لقلة المسلمين يومئذ ، وسيعود غريبا كما كان ، أى يقل المسلمون فيصيرون كالغرباء ··· فطوبى للغرباء أى الجنة لاولئك المسلمين الذين كانوا فى أول الاسلام ويكونون فى آخره ، وانما خصهم بها لصبرهم على اذى الكفار أولا وآخرا ، ولزومهم دين الاسلام (18) ويظهر

---

16) أنظر · لفظة (غرب) فى ابن منظور ـ لسان العرب ·

17) DOMINIQUE Urvoy, Sur l'évolution de la notion de Gihad dans l'Espagne musulmane (Extrait de Mélanges de la Casa de Velasquez. Pablie avec le concours de C.N.R.S.T. IX 1973) p. 364.

18) ابن منظور ـ لسان العرب · دار بيروت · لفظة (غرب) ·

هذا المعنى جليا فى فتـــوى أبى جمعة المغراوى ، عندما يقول « فطوبى للغـرباء الذين يصلحون اذا فسد الناس ٠٠٠» و «وارثوا سبيل السلف الصالح فى تحمل المشاق»(19)

أما حول **أسباب ثورة (الغرباء)** فى غرناطة عام 976 هـ / 1568 م بعد استكانـة نسبية وسلام لا تقلقه سوى بعض الخلافات المعتادة ، وذلك لمدة خمسة وستين عاما فان مما لاشك فيه أن عامل الصراع الدينى ، لا بمفهومه العقائدى فحسب وانمـا بمفهومه الحضارى ، كان هو المفجر الاكبر للثورة ٠ ولكن هذا لا يعنى أغفال العوامل الاخـــرى أو اهمالها ، وان كان بعضها يستوعبه مضمون الصراع الحضارى ٠

وأول هذه العوامل ، ازدياد شعور مسلمى غرناطة بالظلم الاسبانى لهم أو بنتائـج الاستعمار الاسبانى (20) ، لمملكتهم التى لم تعد مملكتهم ٠ فقد ضمت اسبانيا غرناطة الى قشتالة ، وأعطتها صوتا واحدا فى (الكورتيز) ، وجعلتها جزءا منها ، أى لم تتبـع حيالها ما أتبعته حيال (نافارا الاسبانية) عندما ضمتها اليها عام 1512 م ، أو حيـال البرتغال عندما الحقتها بها عام 1580 م (اذ تركتهما يتمتعان باستقلالهما الذاتى) ٠ لانها كانت حريصة على الاسراع فى دمج هذا المجتمع الاسلامى المتحضر فى كيانها ، واذابته الكاملة فى مجتمعها المسيحى المتخلف عنه آنذاك ٠ وكانت ترى أن بقاءه يتمتع بمظاهر حضارته بين ظهرانيها مشكلة خطيرة تنافى مفهومها القومى ، المتجسد فى وحدة الدين واللغة والحضارة ٠ ومن ثم فانها عملت قبل التنصير القسرى للمسلمين ، على تنصـــير اليهود بالاكراه ، أو مغادرة البلاد ٠ الا أن نقمتها على المسلمين كانت أشد وأنكى ، لان بقاء هؤلاء بمظاهر حضارتهم فيها ، يذكرها دائما وأبدا بعهود الحكم العربى الاســلامى السابق لها ، وقد يستطيعون على الرغم من قلـــة عددهم النسبية ، أن يديروا رؤوس مواطنيها الاسبان النصارى أنفسهم ، فيدفعونهم الى تغيير دينهم وتحويل لغتهم وعاداتهم كما فعلوه فى الماضى ، حين تحول نصاراها أنفسهم ، أى الذين بقوا على دينهم تحـت الحكم العربى الاسلامى ، دون ضغط أو اكراه أو ملاحقة « مستعربين » ٠ أو ليس العديد

---

19) تصدير عنان ـ المصدر السابق ٠ ص 326 ٠

20) BRAUDEL, op. cit. p. 580.

من الاسر المسلمة فى غرناطة كانت فى ماضيها البعيد من نصارى البلاد الاصليين ؟؟ (21) ولا سيما أن هذا المجتمع الصغير كان مجتمعا حيا ، ونشيطا ، وعاملا ، أو بتعبير آخر متفوقا حضاريا ، ويقبض على خيوط الصناعة والتجارة : فقد قال عنه المؤرخ « مود يستولا فوينت» (22) «لقد عمل الموريسك بالزراعة وزراعة قصب السكر والقطن والحبوب التى كان لهم فى انتاجها التفوق الجم ، وذلك لنظامهم المدهش فى الرى بواسطة السواقى والقنوات وتوزيع المياه عبر هذه الشرايين توزيعا مناسبا كان له أثره في الانتاج العظيم الذى امتازت به حقول بلنسية وغرناطة • ثم تابعوا نسج الصوف والحرير ، وصنع الورق والجلود المدبوغة ، وهى صناعات برع فيها الموريسكيون أيما براعة ، وانتهوا بمزاولة الحرف الميكانيكية ، وهى حرف كان الاسبان لكسلهم وتكبرهم يحتقرونها ، ومن ثم فقد أحتكرها الموريسكيون واختصوا بها ••• لقد استطاع هذا الجنس من البشر بعبقريته ومركزه الخاص فى البلاد ، ووفرة براعته وجلده أن يحقق ما يشبه قهر الطبيعة واستغلالها لسائر مبتكراته » •

وهكذا استطاعت الفئة المزارعة من مسلمى غرناطة أن تزرع أرض الاقليم حتى أعلى سفوح جباله ، وأن تحول أراضيه الى ما يشبه الواحات المدارية وسط أراضى نصف صحراوية • وقد جاء الاسبانى ليستولى على بعض هذه الاراضى ، وتوضع أسياد مسيحيون جدد فى الاراضى السهلية الغنية ، وبخاصة تلك التى هاجر أهلها أو طردوا منها أو انتزعت منهم • وقد تم انتزاع كثير من الاراضى الواسعة من أصحابها فى عام 1559 (23) • ويمكن القول أن فلاحى معظم أرض المملكة السابقة كانوا من المسلمين المتنصرين ويكونون بروليتاريا فقيرة بمجموعها ، ولا تنال الا ما يكفى أودها ومع ذلك فقد كانت تخدم أرضها بصبر واندفاع (24) ، ولذا دافع أسيادها النبلاء عنها لانها

---

21) «ويبدو ان الموريسك كلهم تقريبا أحفاد سكان البلاد الاصليين المسلمين » •
D. Urvoy. op. cit. p. 364

22) Modesto Lafuente, Historia General de Espagna. p. 211-214. Madrid 1862. t. VIII.
تصدير عنان ـ ص 402 •

23) BRAUDEL. op. cit. p. 588.

24) HAUSER (H.). La Prépondérance Espagnole (1559-1560). Paris 1940. p. 12.

تحقق مصلحتهم • من أمثال النبيل (هنريكس) ذى الاملاك الواسعة فى سهل غرناطة، الذى وقف مدافعا عن المسلمين قبيل ثورة 1568 وأثناءها •

أما الفئة الثانية من المجتمع الغرناطى المسلم فكانت تلك العاملة فى الصناعة والتجارة وتكون بورجوازية غنية وخبيرة فى آن واحد بأمور مهنها ، وقد أجبرت منذ عام 1500 على الاقامة فى حيين خاصين MOREIRA أحدهما (حى البيازين) (25) ، ووضعت قريبا منها الحاميات الاسبانية وانتصبت الكنائس لتراقب الاولى حركاتها ، ولتسهر الثانية على أيمانها وضمائر أفرادها • وقد حملت هذه الفئة أكبر قسط من الضرائب ، ويذكر (محمد بن داوود) وهو أحد زعماء ثورة 1568 ، فى القصيدة التى ضبطت معه وتصف حال مواطنيه (26) • ما يفرض على أبناء دينه من الضرائب الفادحة ، وكيف كانت تؤدى على الحى والميت والكبير والصغير ، والغنى والفقير (27) •

وقد وضع الاسبان بعد الاحتلال موظفين ورجال دين فى كل مكان من مملكة غرناطة السابقة • وقد كان هؤلاء غير مخلصين على الاغلب لعملهم ، فقد عملوا على التمتع بخيرات البلاد دون وازع أو ضمير وعلى حساب المسلمين فيها بخاصة • أما الكنيسة ورجال الدين وديوان التحقيق ، فحدث على اساءاتهم وقهرهم ولا حرج • ويلخص « بروديل » ما قام به الحكم الاسبانى فى غرناطة بقوله : ان كل ما يمكن أن يقال عن الاستعمار (الكولونياليسم) فى أى بلد وفى أى عصر كان صحيحا بالنسبة لتصرف الاسبان فى مملكة غرناطة (28) المحتلة • وحول هذا الموضوع تتحدث وثائقهم الرسمية ذاتها حديثا

25) LEA (Henry-Charles) The Moriscos of Spain, their conversion and expulsion-Philadelphia 1901. p. 151-152.

26) يبدو ان (محمد بن محمد بن داود) هو من أسرة بنى داود التى اشار (المقرى) فى (أزهار الرياض ••) (ج 1 ص • 71) أنها خرجت قبل سقوط غرناطة ، ونزلت بتلمسان • وقصيدته أرسلت الى البلاط الاسبانى بعد ترجمتها الى القشتالية • وقد أوردها (مارمول) فى كتابه السالف الذكر (III, Cap IX) وقدم (عنان) خلاصة لها ، وبعض فقرات منها مترجمة الى العربية (المصدر السالف • ص 345 – 346) •

27) عنان – ص 346 • نقلا عن (مارمول) • Op. cit. III. Cap IX

28) BRAUDEL. op. cit. p. 580.

واضحا · فقد قال المحـــقق (هورتادوا) وكان يحـــقق فى « البشرات ALPUJARRA فى ربيع عام 1561 بأن الموريسكيين GENTA MORISCA هادئون ومسالمون ، هذا بينما لم يكن فى البلاد أية عدالة حقيقية منذ عشرين عاما ، وانما ابتزاز ورشوة وسوء استعمال السلطة، وسرقات لا حصر لها، وكلها على حساب هؤلاء الناس · ويضيف المحقق الى ذلك قوله بأنه « اذا كان المجرمون الحقيقيون الذين يجب الاخذ بخناقهم يرددون دائما حسدا بأن الموريسكيين خطرون ، أو أنهم يجمعون المواد الغذائية ، والطحين والقمح والاسلحة بهدف الانتفاض يوما ، فان هذا محاولة منهم فقط لتسويغ سلوكهم الذى لا عذر لهـــم فيه » (29) ·

وأدلى سفير فيليب الثانى فى فرنسا ، وهو فرانسيس دى آلاف بتصريحات مماثلة فى رسالة مطولة بعث بها الى سكرتير الدولة « زياس CAYAS (30) ، وقد مضى على اندلاع ثورة مسلمى غرناطة ما يقرب العام · وفيها يبين أنه أقام خلال السنوات الاثنتى عشر الاخيرة سبع مرات أو ثمان فى مدينة غرناطة ، وقد عرف فيها السلطات المسؤولة المدنية والعسكرية والدينية ، وأنه يـــــرى « أن الموريسكيين اليوم فى ثورة ، الا أن المسيحيين القدماء هم الذين دفعوهم اليها بعنجهيتهم ، وسرقاتهم والوقاحة التى كانوا يسطون بها على نسائهم ·· ولم تـــكن معاملة رجـال الدين أفضـــل ، فقـد اشتكت قرية موريسكية برمتها الى رئاسة الاساقفة ضد راعيها الدينى · وعندما حقق فى سبب الشكوى انفجر الاهالى قائلين : ليعزل عنا ، أو ليزوجوه ، لان جميع أولادنا يلدون بعين زرقاء كعيونه » · « ويتابع السفير حججه ذاكرا بأنه قام بنفسه بالتحقق من بعض الامور فلاحظ سرقات جميع الموظفين الصغار ، وحتى أولئك الذين هم من أصل موريسكى لم يكونوا أقل من غيرهم استثمارا لمن يديرونهم ··· ودخل فى يوم العيد الى الكنيسة ليرى كم كان رجال الدين لا يهتمون باحترام هيبة الكنيسة ·· فقد رأى أثناء التكريس قسا يلتفت يمنة ويسرة ليراقب فيما اذا كانت رعيته كلها رجالا ونساء راكعة كما يجب ، وكان يدمدم بالسباب تجاههم » · « وهذا شيء مناقض لما تتطلبه خدمة الله » حتى أن

29) Le licencié Hurtado à S.M. las Alpujarras, 29 juin 1561, Sim E° 328 orig. (d'après Braudel, ibid).

30) F. de ALAVA à Çayas, Tours, 29 oct. 1569 A.N.K. 1512 (Çayas B 24, n° 138 b orig. dup. 138 a).

جسمه اقشعر كله . ويصف « محمد بن محمد بن داود » معاملة الاسبان المتسلطين لابناء طائفته بقوله « كل يوم نسام سوء العذاب ، ولا حيلة لنا سوى المصانعة حتى ينقذنا الموت مما هو شر وأدهى .. وقد حكموا فينا اليهود الذين لا عهد لهم ولا ذمام .. وفي كل يوم يبحثون عن ضلالات وأكاذيب وخدع ، وانتقامات جديدة .. ونرغم على مزاولة الشعائر النصرانية ، وعبادة الصور وهي مسخ للواحد القهار ... ومن عبد الله بلغته قضى عليه بالهلاك ... ويظلمنا القضاة ، وتهشم أوصال الفرائس ، ثم تحمل الى الميدان لتحرق . ويتلذذون جماعات بمشاهدتها (31) .

فيمكن اذا « اقامة دعوى اتهام على اسبانيا المسيحية ـ كما يقول بروديل ـ بسرقات ومظالم ، واغتيالات ، واعدامات جماعية » (32) . لقد كان كل هذا يجرى فى هذه البقعة الطافحة بالخيرات ، والمكتظة بالسكان . وقد كانت مفتوحة لكل باحث عن ربح أو كسب أو أرض أو عمل .. فحتى الفرنسيين والفلامانيين وفدوا اليها ، وعـــمل بعضهم فيها حرفيين (33) انها سنة التاريخ ـ كما يضيف بروديل ـ انها سنة الاقوى : الى جانب المدينة الاصلية نمت مدينة رسمية فى الحمراء حيث أقام القائد العام ، وفى المستشارية ، وفى الجامعة التى أسست عام 1537 ... فالاسبانى وجد نفسه فى غرناطة كما وجد الافرنسى نفسه فى العصر الحاضر فى الجزائر ، والهولاندى فى باتافيا ، والانكليزى فى كلكوتا ، أى فى قلب مغامرة استعمارية ، أو فى قلب عاصفـــة دوامة من الحضارات المتعارضة تأبى مياهها الهائجة أن تتمازج (34) .

وتجاه هذا « الاستعمار الاسبانى » وقف المجتمع الاصيل المسلم فى غرناطة ، قويا ومتحدا : على رأسه طبقة من القادة من « بورجوازية البيازين » الغنية ، الرافلة بالملابس الحريرية ، والحذرة والمتكتمة ، وفى قاعدته تقوم بروليتارية الفلاحين من زراعى الاشجار المثمرة ، ومربى دود القز ، ومن الخبراء فى فن توزيع قنوات الماء واحياء الارض ، وكلهم

31) Marmol. op. cit. III, cap. IX

تصدير عنان ـ المصدر السالف . ص 346 .

32) BRAUDEL. op. cit. p. 581.

33) A.H.N. Inquisition de Grenade, 2602, 20 mars, 28 mai, 17 juillet 1572. (cité par Braudel. p. 581).

34) BRAUDEL. p. 581.

فقراء يتجولون بثيابهم القطنية • لم يشغلهم صراع طبقى أمام المحنة المشتركة الهاصرة لوجودهم ، ولذا انضمت طبقة الفلاحين العاملة على الارض الى طبقة البورجوازية المتنعمة ، كما حدث فى معظم حركات التحرير الكبرى ، القومى والدستورى فى التاريخ المعاصر ، بل أنضم اليهم فى نقمتهم بعض الاسياد النبلاء المسيحيين المستوردين حديثا والذين توضعوا على الارض الخصبة التى كانت تخدمها سواعد هؤلاء الفلاحين الاصليين • وقد كان هؤلاء السادة أشبه بحكام مستقلين فى دولة صغيرة ، وقد أعطتهم السلطات حق الجاء الفارين من الاراضى الاقطاعية الاخرى وغيرها • ولكن الحكومة القشتالية لما رأت تعاضدهم مع الموريسكيين فانها ألغت هذا الحق ، وحددت حق اللجوء الى الكنائس ببضعة أيام فقط ، وذلك حتى تقطع دابر تنقل المسلمين المنصرين من أرض الى أخرى ، ومن مدينة الى ثانية ، وتقف فى وجه اتصال بعضهم ببعض وفى وجه تكتلهم • وأمام هذه الاجراءات اندفع كثير من الناقمين ، والملاحقين من السلطات الحاكمة وديوان التحقيق نحو الجبال القريبة لاجئين • وهنا لم يكن أمامهم من سبل للعيش سوى قطع الطرقات ، والاغارة على السهل ، وتنظيم حركات مقاومة مزعجة للسلطات • ومن هؤلاء تكونت احدى النوى فى ثورة غرناطة • ومن هذا يتبين ان السياسة الاسبانية الاستعمارية الفظة لمسلمى غرناطة ، فى الميدان الادارى ، والاقتصادى والاجتماعى والسياسى والعقائدى ، هى العامل الفعال فى تفجير ثورة 1568 ، ولا سيما أنها فى جزئياتها المسيئة والمثيرة قد تراكمت وتضخم حجمها يوما بعد يوم ، وسنة بعد أخرى حتى غدت النفوس أشبه ببرميل من البارود ينتظر شرارة صغيرة لينفجر ويدمر •

ولكن هذا العامل الجوهرى البين قد يكون غطى أو حجب عوامل أخرى ، يلاحظ ان معظم المؤرخين لا يلتفتون اليها كثيرا ، وهى التطورات الاقتصادية والاجتماعية والفكرية الجديدة التى كانت تعيشها اوربا فى القرن السادس عشر • وكأن المجتمع الغرناطى المسلم مجتمع مغلق على نفسه ، لا يدرى بما يجرى فى العالم الخارجى ولا يتحسس به • ففى الميدان الاقتصادى كانت اوربا تعيش ثورة ضخمة • فقد تغيرت طرق التجارة واكتشفت عوالم جديدة غدت مسرحا لنشاطها البشرى والاقتصادى • وشرع الذهب والفضة يتدفقان عليها ، وعلى اسبانيا بالذات ، صاحبة امبراطورية ما وراء البحار ومناجم

الفضة والذهب • وقد زاد هذا التطور الاقتصادى بالطبع من نماء الطبقة البورجوازية وغناها ، وفى اسبانيا البورجوازية المسلمة والنصرانية على السـواء • فالبورجوازية المسيحية كانت قليلة العدد نسبيا فى مطلع القرن السادس عشر • اذ من المعروف بعامة ان الاسبان كانوا يتطلعون الى نمط حياة النبيل كمثل اعلى ، اى انهم كانوا يفضـلون الجندية والحرب على التجارة والصناعة (35) ، ومن ثم لم يكن لمفهوم العمل الحرفى والتجارى لديهم ــ وبخاصة فى قشتالة ــ قيمة رفيعة (36) •

الا ان التطور الاقتصادى الثورى فى اوربا منذ مطلع القرن السادس عشر قد غير هذا الاتجاه فانصرف كثير منهم الى التجارة والحرف ، وبذلك أزدادت البورجوازية المسيحية عددا وتحسسا بذاتها • وتصاعدت مع هذا النمو كراهيتها للبورجوازية المسلمة التى تقبض على العديد من الحرف الصناعية ، وتنافسها عملا وثراء ، كما اشتد صراعها مع طبقة النبلاء التى تقبض على الارض ، وعلى أمور الدولة • وأدى صراعها هذا بالتالى ــ الى جانب العامل الدينى والحضارى ــ الى تفاقم نقمتها على الفلاحين المسلمين لان هؤلاء عون كبير فى دعم القوة الاقتصادية لاولئك النبلاء • وانضم الى الطبقة البورجوازية النامية هذه فى حقدها على المسلمين المزارعون والرعاة ، الذين كانوا يشعرون بتفوق المسلمين

---

35) لقد ذكر « غيشاردان » المؤرخ الفلورنسى الذى زار اسبانيا فى عام 1513 م ، سفيرا لبلاده ، ان جميع صناع البلاط من الفرنسيين أو من أمة أخرى ••• والاسبان لا يعملون بالتجارة لانهم ينظرون اليها محطة لشأنهم ، ولانهم جميعا يتطلعون الى ما يتطلع اليـه (الهيد الغو) (النبيل) فهم يفضلون أن يعملوا جندا مقابل أجر صغير ، أو فى خدمـة نبيل ، مع ما تتطلبه هذه الخدمة من تعب وشقاء ، أو فى قطع الطرقات بدلا من العمـل فى التجارة أو ممارسة مهنة • على الرغم أنهم اليوم شرعوا فى بعض المدن يتلفتون الى الحرف كما فى بلنسية وطليطلة واشبيلية ، فهم يعملون فى نسج الاقمشة والاصواف ••• ان الامة بصورة عامة خصم لهم • أما العمال فيعملون عندما تضطرهم الحاجة ، ثم يدورون عاطلين حتى ينفقوا ما كسبوا • ولذا كانت المواد المصنوعة مرتفعة الاسعار • وكذلـك يفعل مزارعو الارض لانهم لا يريدون أن يصرفوا جهدا الا عند الحاجة القصوى • ولـذا فهم يزرعون الارض أقل مما يمكنهم أن يفعلوا ، وتلك التى يزرعونها سيئة الزراعة » •

M. Gletea, François Guichardin (Paris 1926) p. 61

36) LAPEYRE (H.). op. cit. p. 132.

عليهم فى مضمار أعمالهم • وهذا ما دعا المؤرخ (هـــوزر) الى القول : « ان الطبقات الوسطى الاسبانية من حرفيين فى المدن وزراع ورعاة هى التى كانت ضــد المسلمين ، ولاسباب اقتصادية أكثر منها دينية (37) •

هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فان تدفق الذهب والفضة على اسبانيا أوجـــد اضطرابا فى الاسعار وارتفاعا كبيرا فيها (38) • وهذا الارتفاع فى الاسعار ـ ونحـــن نعانى منه اليوم ونتحسس نتائجه يؤثر بخاصة على طبقة الفقراء وعلى الفلاحين منـــهم فيزداد ضيقهم بالحياة ، وكذلك يؤثر على الحرفيين والتجار لضرورة رفع أجور العاملين لديهم من جهة،ولزيادة الضرائب المفروضة عليهم من جهة أخرى•فقد ارتفعت بعض الضرائب في قشتالة بين عامى 1561 و 1574 بنسبة 14 ٪ (39) ، بل ان مدينة (قادس) اشتكت عام 1563 بأن الضرائب التى وضعت على تجارتها منذ 1560 كانت سببا فى تحطيم حركة النقل التجارى فيها (40) • ولقد كانت الشكاوى عامة حتى أن الكورتيزات ذكرت فى عام 1571 (41) « أن الضرائب كهـــذه ••• وارتفاعا كبيرا فى أسعار جمـــيع الاشياء الضرورية لحياة الانسان جعل قلة من الناس قادرة على الحياة دون صعوبات » • فلا غرو اذن ، والاوضاع الاقتصادية على ما ذكر أن تتأثر حياة قشتالة ، وتتعرقل صناعتها ، ويرتفع مستوى الحياة فيها (42) ، وبالتالى لابد أن بورجوازية غرناطة وفلاحيها قـــد تحسسوا هم الآخرون بهذه التطورات : فالبورجوازية المسلمة غدت بحاجة الى مجـال حيوى أوسع من النطاق الذى حددت فيه حركاتها وسكناتها ، والفلاحون ازداد شعورهم بسوء أوضاعهم • فالتطورات الاقتصادية الجديدة اذن زادت من حــدة الصراع بـين المسلمين ومواطنيهم النصارى ، وقوت من احساس المسلمين بالاضطهاد والظلم : فهم عنصر فعال وأساسى فى النشاط الاقتصادى الا أنهم لا يملكون أية سلطة ، بل انهم يسامون سوء العذاب • وجاء ضعف مواسم الزراعة فى الحوض الغربى للبحر المتوسط

37) Renaudet P. Hauser (H.) ; Les Débuts de l'Age Moderne. Paris 1946. p. 23.
38) Earl J. Hamilton, The Decline of Spain. p. 42. The Economie History review VIII, 2 mai 1938.
39) Braudel. op. cit. p. 410.
40) La contaduria à Philippe II. Madrid, 13 Sept. 1563 Sim E° 143 f°• 59 et 60 (cité par Braudel. Ibiol.
41) Braudel. Ibiol.
42) Ibiol.

فى عامى 1567 ـ 1568 ، وحدوث مجاعة فى كاتالونيا (43) ، وفى الاراغون (44) • ليكون ضغثا على ابالة ، وليضخم جو التوتر السائد •

ويضاف الى تلك التطورات الاقتصادية ، التطور الديموغرافى • فمن الثابت الآن من الدراسات التى أجريت ، أن سكان اسبانيا قد تزايدوا خلال القرن السادس عشر ، على الرغم من هجرة عديد من المسلمين الى الشرق والى المغرب العربى • وعلى الرغم من هجرة الاسبان أنفسهم الى أمريكا بعد كشفها واستعمارها • وقد حاول بعض البحاثة أن يعطى أرقاما عالية جـــدا عن هذه الزيادة من أمثال (كونراد هابلر C. HABLER و (البير جيرار A. GIRARD وغيرهما ، الا أن « توماس غونزاليز » كان أكثرهم اعتدالا • وبالنسبة لمدينة غرناطة فقد قدر الزيادة فيها بين 1541 و 1594 بـ (30،000) نسمة (من 41،800 الى 71،904) (45) • الا أن هذا الرقم لا يعطى فكرة عن مدى التزايد السكانى بين المسلمين والنصارى ، ولا سيما ان غرناطة مدينة ومملكة قد أخليت من سكانها المسلمين فى 1569 و 1570 • ويذكر (ايرل ج• هاملتون) ان الزيادة فى عدد سكان المدن القشتالية كانت بين 1530 ـ 1594 بمعدل الضعف ، بينما التصاعد العام فى عدد سكان اسبانيا وصل الى 15 ٪ فقط (46) ومن المؤكد ان لتوزيع سكان غرناطة فى قشتالة دوره الكبير فى ذلك الارتفاع • وقد أجمع المؤرخون أن الزيادة السكانية بين المسلمين كانت أعلى مما هى عليه بين الاسبان النصارى • وليس هناك دراسة خاصة بغرناطة توضح هذا الامر ، الا أن الدراسة التى أجراها (لابير) بالنسبة لبلنسية تبين أن عـــدد السكان المسلمين المنصرين فيها قد ارتفع من (18،683) نسمة فى 1563 الى 31،715 فى مطلع القرن السابع عشر ، أى بزيادة 69/7 ٪ بينما بقية عدد السكان ارتفع من (44،894) الى (65،016) ، أى بزيادة 44/7 ٪ فقط (47) • ويعلل ذلك بأن التوالد بين المسلمين كبير ، لتبكيرهم فى الزواج ، ولانهم كلهم يتزوجون ، ولا ينصرفون الى الحياة الكهنوتية العازبة كما كان الحال لدى الاسبان المسيحيين ، هذا بالاضافة الى أنهم

43) 3 mai 1566 Sim E° 336, (cité par Braudel. p. 879).
44) Fourquevaux, 13 février 1567, t. III. p. 36.
45) D'après Braudel. op. cit. p. 355.
46) Earl J. Hamilton. op. cit. p. 169.
47) Lapeyre (H.). op. cir. p. 30.

لا يذهبون الى الجيش والحرب · فهذه الزيادة السكانية للمسلمين كانت تثير حنق الاسبان المسيحيين حتى أنها كانت سببا من أسباب خرابهم (48) ونكبتهم فى عام 1609 · اذ رأى فيها الاسبان خطرا على أمن البلاد ، وتهديدا للدين المسيحى ، وما كانت لترضى سوى النبلاء لانها تعنى زيادة دخولهم (49) · كما أن الزيادة السكانية العامة ضاعفت من التوترات الاقتصادية فى البلاد ، حتى أن بروديل يتساءل فيما اذا كان طرد اليهود من البرتغال واسبانيا ، ثم طرد العرب ، لا يرجع الى التخمة السكانية النسبية التى كانت تعيشها شبه الجزيرة فى القرن السادس عشر ؟؟ (50) ·

وفى خضم العوامل الاقتصادية والديموغرافية التى زادت من حـــدة الصراع بين الاسبان النصارى والمجتمع الغرناطى المسلم ، يجب الا ننسى الحركة الدينية البروتستنتية بكل أيديولوجيتها المتقشفة وبالانشقاق الدينى الذى أوجدته · فلا بد أنها كانت لمسلمى غرناطة بخاصة ، واسبانيا بعامة ، دعما وحفزا للثبات على العقيدة والمذهب ، ومشجعا للثورة · وبالمقابل كانت تصعيدا لتعصب المسيحيين القدماء وتزمتهم ·

وأخيرا هل تكفى كل هذه العوامل لرفع تيار التوتر عاليا ، واحداث شرارة الثـــورة اللاهبة والعنيفة التى عاشها مسلمو غرناطة لعامين ونيف ؟ يعتقد المؤرخ (بروديل) أن حدة « المسألة الموريسكية الغرناطية » المفاجئة لا تعود الى ارادة القشتاليين فى تمثـــل سريع للموريسك وبأى ثمن بخس، ولا لسوء معاملة هؤلاء الموريسك ، أو لتزايد السكان، وانما قبل كل شيء الى تصاعد آمال مسلمى غرناطة نتيجة لتصاعد القوة الاسلامية فى العالم المتوسطى آنذاك · فقد رأى هؤلاء المسلمون ، أن المغـــرب العربى الاسلامى الذى سيطر الايبريون على بعض المراكز على شواطئه ، قد نظم نفسه تنظيما قـــويا وفعالا : فالشرفاء السعديون فى المغرب الاقصى شرعوا بطرد البرتغاليين من شواطئهم ، والاتراك العثمانيون مدوا ظلهم فى المغرب الاوسط والادنى · ناهيك عن القوة الاسلامية العثمانية العملاقة فى المشرق التى كانت تقفز من نصر الى نصر على المسيحية الاوربية ، وتزحف تدريجيا اليهم حتى أنها لامست شواطئهم بأسطولها ، ومدت لهم يد العون ·

48) Ibiol. p. 32.
49) Ibiol. p. 32.
50) Braudel. op. cit. p. 357.

وفى الحقيقة ان المتتبع لتحرك الدولة العثمانية منذ سقوط القسطنطينية بيد محمد الثانى عام 1453 م / 858 هـ ، يلاحظ وكان هذه الدولة تسعى عبر خط هجومى ، سريع تارة ، ومتلكىء أخرى ، للوصول الى أقصى البحر المتوسط ، أو بتعبير آخر الى اسبانيا ذاتها • وكانى بها تريد اعادة تكوين الدولة العربية الاسلامية فى أوج توسعها فى القرن الرابع الهجرى العاشر الميلادى ، انما موحدة تحت سلطة اسلامية واحدة هى سلطتها • أو على الاصح تريد ان تجمع تحت سلطتها عالم الامبراطورية الرومانية القديمة وعالم الامبراطورية الفارسية الساسانية • ولقد اتخذت فى خط هجومها هذا اربع طرق رئيسية : احدها شمالى غربى وبرى ، يخترق أوربا من شرقها ، وثانيهما بحرى وسيط يجتاز البحر المتوسط من شرقه الى غربه ، ويمسح جزره وأشباه جزره ، وثالثهما جنوبى وجنوبى غربى يجتاح بلاد الشام شرقى البحر المتوسط وشبه الجزيرة العربية كلها ، وينعطف فرع منه نحو الغرب يستوعب مصر وبلاد المغرب ، وتتعاون فى العمل فيه القوى البرية والبحرية • أما طريق الهجوم الرابع فيتجه شرقا الى بلاد ما وراء الفرات فى العراق وايران • وكانت هذه الطرق الاربع تعمل احيانا معا ، وأحيانا يتفوق عمل واحدها على الآخر • وقد عمل محمد الفاتح على وضع دعامة الخط البحرى باحتلاله الجزر الايونية عام 1479 ، واوترانت فى ايطاليا عام 1480 • وتبعه بيازيد الثانى ، الذى سقطت ايام حكمه غرناطة فى يد الاسبان النصارى ـ بتدعيم الاسطول فى البحر المتوسط • ذلك الاسطول الذى قام قبطانه « كمال ريس » بغزوات على شاطىء اسبانيا فى عام 896 هـ / 1490 م (51) أى قبل سقوط غرناطة ، نجدة لها • وهو نفسه الذى هزم البندقية عام 1499 وانتزع منها كورون ومودون على شاطىء المورة ، والاخيرة هى المفتاح الاول لتجارتها فى الشرق (52) • بل ان الفرسان العثمانيين وصلوا حتى الارض البندقية ذاتها • وجاء عهد السلطان سليم الاول لتتحرك القوة التركية على الخط الثالث فتضم فى عامى 1516 و 1517 بلاد الشام فمصر ، فالحجاز فاليمن مبدئيا • وفى عام 1519 الجزائر عبر خير الدين بربروس • وجاء عهد (سليمان القانونى) (1521 ـ 1566)

51) Encyclopédie de l'Islam, 1[re] édition, Art. (Kemal Reis)

وقد اشار حاجى خليفة الى هذه الغزوة فى كتابه (تقويم التواريخ) الا انه لا ينوه عنها فى كتابه (تحفة البحار) •

52) Fisher, The Foreign Relations of Turkey (1481-1512) p. 75. Urbana 1948.

لتعمل خطوط الهجوم الاربعة معا ، وخاصة الغربى والبحرى ، ولتحقق الدولة العثمانية أقصى امتداد لها ، ولتقلق أوروبا المسيحية على مصيرها ·

فضمت فى 1523 جزيرة رودس ، بقايا حصون الصليبية المشرقية والمهددة لسوريا ومصر وخط اتصال الدولة البحرى بها ، وتم فى العام قبله (1521) فتح بلغراد ، وفى 1526 كانت معركة موهاغز واحتلال هنغارية ، وفى عام 1529 ضربت القوات العثمانية الحصار على فينا · وفى العام نفسه تم استلاء خير الدين بربروس على بينون الجـــزائر وطرده اسبانيا منه · وضم فى عام 1534 مدينة تونس وقوض الحكم الاسلامى الموالى فيها لاسبانيا ، وهدد منها مالطة وصقلية وجنوبى ايطاليا ، كما فعل الاغالبة فى القرن التاسع للميلاد · وفى عام 1535 ـ 1536 تم تحالف الدولة العثمانية مع فرنسا · وقد تكون هادفة من ورائه تطـــويق المسيحية ، والوصول الى اسبانيا فى أقصى البـــحر المتوسط ، اذ أن فرنسا قادرة على تقديم القواعد البحرية اللازمة لمثل هذه العملية ، وتلاقى بالفعل أسطولها والاسطول الفرنسى فى عـــام 1536 فى هجوم على البالیئار وشواطىء اسبانيا · وفى 1538 أنتصر أسطولها انتصاره الساحق على البندقية سيدة البحر المتوسط الشرقى آنذاك فى معركة (بريفيزا) · وفى عام 1541 أحبطت الهجوم الاسبانى على الجزائر · وفى شتاء 1543 ـ 1544 استولى أسطولها مع الاسطول الفرنسى على نيس ، واستقر لعدة شهور فى (طولون) المينـــاء الفرنسى ضيفا · وبين عـامى 1543 ـ 1558 سيطرت على غرب الجزائر وسادت تلمسان ومستغانم ، وشرعت تتدخل فى شؤون المغرب الاقصى · واذا لم تنجح في تثبيت قدمها فى فاس الا أنها تمكنت بواسطة بيكلر باياتها فى الجـــزائر وأعمالهم البحرية أن تسيطر على بينون الفيليز (باديس) عام 1554 · وبذلك أصبحت قاب قوسين أو أدنى من اسبانيا · وفى عام 1553 اشترك أسطولها مع الاسطول الفرنسى فى الهجوم على كورسيكا وأســـهم فى انتزاعها من يد جنوه · وكان قد تم ضمه لطرابلس الغرب فى عام 1551 · وفى 1565 وصل التفوق البحرى العثمانى الى الاوج بحصار مالطة ، فى الوقت الذى أخذ يعمـــل فيه الاسطول فى المحيط الهندى كذلك ، بعد ضمه عدن والبصرة وشرع يقارع البرتغال ·

ان هذا التفوق التركى الاسلامى فى البحر المتوسط ، وتحالفه مع فرنسا الدولة الخصم لاسبانيا ، واقتراب الاسطول العثمانى وربيبه اسطول الجزائر من شواطئها ، وغزوه الدائب لارض المسيحية الاوروبية ، أقلق اسبانيا • اذ هددها أولا فى مملكاتها فى صقلية والبوى ونابولى ، وهى مناطق تموينها الكبرى بالقمح ، وهى أشد ما تكون حاجة اليه والتزايد السكانى عندها آخـــذ فى التصاعد • هذا بالاضافة الى أنها اذا افتقدتها فانها تفتقد معها تجارة اعادة توزيع المنتجات الامريكية فى ايطاليا ، وكذلك ضرائب تلك الممتلكات والضمانات التى قدمتها لها للممولين الالمان والجنوبيين ، وهى دعامة مالية شارلكان وفيليب الثانى (53) • بل لو أن الاتراك ، بعد استيلائهم علـى نيس وتوضعهم فى طولون ، قاموا بهجوم مركز وكاسح لمسينا ونابولى ، واحتلوا هذه القواعد ، لقطعوا جميع الشرايين الحيوية لامبراطورية آل هابسبورغ ، كطريق القمح ، وطريق توزيع الفضة ، ونقل الجنود الاسبان ولتقوضت امبراطورية شارلكان (54) •

ولم يقتصر الامر على تهديدها فى ممتلكاتها فى صقلية وايطاليا ، بل تجاوزه الى تهديدها فى عقر دارها • فكانت فى خوف دائم من ثورة اسلامية على أرضها الخاصة ، تدعم بهجوم عسكرى تركى لا يكتفى بغزو بحرى مؤقت ، وانما يعمل على انزال جنده فى أرضها ويعيد قصة الفتح الاسلامى العربى معها • ولا سيما أنها لا تملك من الرجال المسلحين ما يكفى بعد ان عمل كثير من جندها مرتزقة فى دول أوروبا المختلفة ، وازداد الطلب عليهم محاربين وموظفين فى امبراطوريتها الجديدة أمريكا (55) • ناهيك عن أن شعبها قد مل الحرب بعد حرب الاسترداد الطويلة • ولذلك سعت لانشاء ميليشيا خاصة لرد ما قد يأتيها من هجمات الاتراك والمغاربة ، كما شددت حراســة الموانىء (56) • وأخلت الشاطىء الجنوبى من جبل طارق الى المرية لمـدى فرسخين الى الداخل (57) حتى تمنع اتصال المسلمين بتلك الغزوات •

53) R. Mousnier, Les XVIe et XVIIe siècles. p. 494-495. Paris 1961 (collection Histoire des Civilisations).
54) Ibiol. p. 496.
55) Watt (M.), A History of Islamic Spain. p. 153 (Edinbaryh 1965).
56) Chaunu (P.), L'Espagne de Çharles Quint. p. 37. (Paris 1973).
57) عنان ــ ص • 268 ــ 269 •

وفى الواقع كانت اسبانيا محقة فى تخوفها ، اذ أن آمال المسلمين فى غرناطة كانت تتألق وتزدهى مع أنباء النصر العثمانى ، فيزداد صبرهم على الاذى ، منتظرين ساعة الفرج ـ كما مناهم بذلك أبو جمعة الوهرانى ـ على يد هذه القوة الاسلامية ، ولم تكن أمانيهم مبنية فى الحقيقة على هواء من أنباء النصر ، وانما كان هناك اتصال فعلى وتجاوب منذ عهد السلطان محمد الفاتح • فقد تلقى هذا الاخير سفارة منهم فى استانبول فى عام 1477 م ، تطلب النجدة (58) • وتتالت نداءات الاستغاثة فى عهد بيازيد الثانى وسليمان القانونى وسليم الثانى ، التى لا بد أنها قد حملت هى الاخرى عن طريق سفارات •

وظهر تجاوب الدولة العثمانية مع هذه النداءات بأمرين واضحين :

أولهما : فتح أبواب بلادها لايواء المهاجرين من الاندلسيين الذين لم يطيقوا احتمال أزمة الضمير المفروضة والتعذيب والتنكيل • وازدادت هجرتهم اليها فى المشرق ، عندما منعتهم اسبانيا من الخروج من موانئها الشرقية والجنوبية ، وحولت طريق هجرتهم الى الشمال ، كى لا ينضموا الى صفوف المغاربة القريبين فيكونون قوة حاقدة على مشارفها ، وهكذا اتجهت جموعهم الى ممرات البيرنه وموانىء الشمال تنفذ منها الى فرنسا ، ومرسيليا ، وايطاليا ، فالبندقية ، وما وراءها الى الشرق ، وممتلكات الدولة العثمانية • ان هذه الطريق الطويلة ، والصعبة والشاقة ، كانت من أكبر طرق الهجرة الاندلسية • وهناك عديد من الوثائق حول هذا الموضوع ، أهمها ما بعث به السفير الاسبانى فى البندقية (غارسى هرنانديز) الى ملكه فيليب الثانى يعلمه فيها عن العدد الكبير من الموريسك الفارين الذين نجحوا فى عام 1560 بخاصة فى الوصول الى القسطنطينية عبر البندقية ، وقد استخدمتهم تركيا جنودا ومترجمين وجواسيس ويبدو أنهم فى هجرتهم كانوا يكونون أحيانا جماعات تنتظم تحت رئاسة واحد منهم • وعندما استجوب بعضهم حول علاقتهم مع الاتراك العثمانيين فانهم أجابوا « ليس هناك

58) Aziz Samih Ilter, Simali Afrikada Türkler. t. I. p. 52. (Istamboul 1937).

من موريسكى واحد لا يقدم نفسه طواعية للاتراك فى ظروف المعاملة السيئة التى تلاحق بها اسبانيا الموريسكيين » · (59)

الا أن هذا لا يعنى أبدا انقطاع دابر الهجرة الى المغرب · فطريق البحر من غرناطة وبلنسية ظلت عاملة سرا ، اذ لم تكن السفن الاسبانية قادرة على البقاء باستمرار قرب السواحل لمراقبتها · ومن ثم قامت (صناعة) خاصة على شواطىء المغرب لتسهيل سبل الهجرة لمن يريدها من الاندلسيين ، وكان أحد المراكز الكبرى لصناعة العبور هذه مدينة (شرشال) على الساحل الجزائرى ، التى ضمت العديد من النازحين · وكانوا هم أنفسهم يقومون بها ليحملوا ما تبقى من أهلهم وأصدقائهم (60) · وقد قدم خير الدين بربروسا مساعدات جمة للاندلسيين المهاجرين · فقد ذكر عنه أنه استطاع عبر سبع رحلات قام بها الى السواحل الاسبانية عام 1529 ، أن ينقل (70000) لاجىء الى الشواطىء المغربية · (61)

والمجال الثانى الذى أظهرت فيه الدولة العثمانية تجاوبها مع صرخات المسلمين المضطهدين هو الغزوات البحرية التى كان يقوم بها الاسطول العثمانى والجزائرى التابع له على السواحل الاسبانية نفسها · فبالاضافة الى غزوات بربروسا العديدة ، فان أحد قادته (غاكشيان الشيطان) ـ كما لقبوه ـ استطاع أن يظهر أمام بلنسية أثناء ثورتها، وأن يحطم أمام (فور منتيره) الاسطول الذى بعث به الامبراطور شارلكان بسرعه من

59) Garci Hernandez à S.M. Venise, 21 décembre 1559, Sim, E° 1323 f° 246.
du même au même, 26 décembre 1560, Sim, E° 1324 f° 50.
» » 2 février 1561, Sim, E° 1325 f° 85.
» » 7 janvier 1566, Sim, E° 1325. (d'après Braudel, p. 582, note 3).

60) لقد قام كثير من النازحين من غرناطة وبلنسية والاراغون فى « شرشال » · وقد كانوا يستخدمون الغابات خلفهم لبناء مراكب صغيرة تتسع لعشرة أشخاص ، ويبحرون فيها الى اسبانيا ، وهناك يخفونها عن الاعين فى خلجانها الصغيرة أو يدفنونها أحيانا فى رمال الشاطىء · ويحثون الخطى نحو الداخل ليخلصوا أهلهم ويأسروا بعض النصارى ، الذين يقومون ببيعهم فى الجزائر · وكان العبور يجرى عادة فى الربيع ·

61) حاجى خليفة ـ تحفة الكبار فى أسفار البحار · ص 40 · استامبول 1911

جنوه (62) • وفى عام 1540 قام الاسطول الجزائرى بغزو جبل طارق (63) • وبين (1558 ـ 1562) استطاع (يحيى ريس) (64) و (طرغد) (65) أن يمزقا سواحل شبه الجزيرة الايبرية عدة مرات ، وذلك على اثر احتلال المسلمين حصن (الفيليز) عام 1554 • وقد تم خلالها اسر (4000) نصرانى اسبانى ، ونقل ما يزيد على (2500) مهاجر• لقد كانت هذه الغزوات نوعا من الجهاد المقدس ، وكان هدفها اضعاف القوة الاسبانية ، والحصول على الغنائم ولا سيما الاسرى ، وتفريج كربة المسلمين وتخليص من يريد منهم الهجرة من عذاب البقاء ، والتعرف على مدى القوى الدفاعية الاسبانية ، وعلى أخبار المسلمين (66) • وكانت هذه الغزوات تتوغل أحيانا بعيدا فى البر الاسبانى حتى أن احدى هذه الغزوات الجزائرية تسللت حتى (أورجيبا) مفتاح غرناطة ، أى الى بعد خمسة أميال داخل الارض الاسبانية فى عام 1565 • (67)

وعلى هذا يمكن القول أن الدولة العثمانية كانت على اتصال دائم مع مسلمى الاندلس عبر سلسلة من المحطات فى أوروبا وفى المغرب ، وعبر أولئك النازحين المشاة المتنقلين عن طريق أوروبا ، والذين لم يكن ليضنيهم السير الطويل على الاقدام ، وكذلك عبر عملاء اتصال خاصين ، وهكذا كان لمسلمى اسبانيا مراسلوهم والمدافعون عنهم فى المغرب والقسطنطينية (68) • على السواء • ومما لا شك فيه أن هذه الصلة وتلك الغزوات ، كانت دعما قويا للمسلمين الغرباء المضطهدين ، وتفتيحا لآمالهم • الا أنها بالمقابل كانت مثيرا ملحا لقلق اسبانيا حكومة ، وشعبا ، وكنيسة • وكان هذا القلق وتلك المخاوف تزيدهم نقمة على المسلمين المقيمين بينهم، فيعكسونها اضطهادا، وانتقاما وتشفيا • فبعد كل نصر عثمانى كبير على المسيحية الاوروبية ، كانت اسبانيا تلتفت الى داخلها فترى فى المسلمين أعوانا سريين لهذا النصر ، ولا سيما عندما كانت تعلم

62) Hauser et Renaudet, Les Débuts de l'Âge Moderne, p. 409-410.
63) Braudel, p. 634.
64) Julien (Ch. André), Histoire de l'Afrique du Nord, t. II, p. 268.
65) عنان المصدر السابق ـ ص 372 •
66) المصدر السابق ـ ص 369 •
67) Le Président de Grenade à Philippe II, Grenade, 28 août 1565, Sim, E° 145 (Braudel p. 583).
68) Braudel, op. cit. p. 893-94.

بنداءات الاستغاثة الموجهة ٠ فتشتد اعتقادا بضرورة صيانة جبهتها الداخلية ، والقضاء على تلك العناصر الغريبة التى لا تظهر ارادة طيبة للانتماء الكامل لمجتمعها المسيحى ٠ ومن ثم يلاحظ توافق واضح بين عمليات جورها على المسلمين وبين معارك النصر العثمانى : فبعد نصر العثمانيين البحرى الكاسح على البندقية عام 1499 قامت بالضغط التنصيرى الاول فى غرناطة ٠ وكان تعميمها الارغام على التنصير وتشديدها فيه بين عامى 1521 ـ 1526 ، متمشيا مع فترات الانتصار التركى الاسلامى فى رودس وبلغراد والمجر ٠ وفى عام 1541 وهو عام اخفاق الحملة الاسبانية على الجزائر ونجاح السعديين فى مهاجمة المراكز البرتغالية على شاطىء المحيط الاطلسى ، أصدرت قرارها بتحريم هجرة المسلمين المنصرين من الثغور الاسبانية ، وحظرت عليهم تغيير مساكنهم (69) ٠ وبعد النجاح الاولى للاتراك العثمانيين فى حصار مالطة عام 1565 ، شرعت تعد مع كنيستها القلقة مشروع الاضطهاد الجديد الذى سيفجر ثورة 1568 ٠ وكما كان هناك شبه توافق زمنى بين النصر العثمانى وتصاعد الاضطهاد الاسبانى، فقد كان هناك توافق مماثل بين ذلك الاضطهاد والتحركات الثورية المسلمة ، وبين غزوات الاسطول الجزائرى ٠ ولا بد فى الواقع من القيام بمجموعة من التحريات فى مخازن الارشيف فى الاندلس والباليئار وبلنسية اذ أن معلوماتنا بهذا الشأن تشكو قصورا ٠

والسؤال الآن الذى يطرح نفسه بعد كل هذا ، هل الامانى المحتضنة من قبل المسلمين فى غرناطة بمساعدة الدولة العثمانية لهم فى ثورتهم اذا قاموا بها هى التى شجعتهم على الاندفاع فى أواخرعام 1568 ؟ أم أنهم وعدوا فعلا بتأييد مادى قوى يكونون هم فيه طليعة فتح اسلامى جديد لاسبانيا وتكون الدولة العثمانية بطلته ؟؟ وفى الحقيقة منذ أن استطاع الاسطول العثمانى أن يكون قوة فعالة فى البحر المتوسط ، ومنذ أن اتخذ الجزائر مركزا رئيسيا للعمل فى غربى هذا البحر وأظهر تفوقه ، ومنذ أن دعم موقفه بتحالفه مع فرنسا ، فان الاشاعات كانت تترى بأن الدولة العثمانية متآمرة مع المسلمين فى اسبانيا لغزو شبه الجزيرة ٠ ولا سيما بعد أن تنامت غزوات الاسطول الجزائرى على سواحل اسبانيا عام 1558م ٠ وقد تناقل سيرة هذه المؤامرات كثير من

69) عنان ـ المصدر السابق ـ ص 338 ٠

المؤرخين (70) · فهناك مؤامـــرة أنبىء بها فيليب الثانى من قـــبل سفـير فـــرنسا حوالى 1559 ، ومؤامرة فى الاراغون عام 1560 (71) ، وهناك آمال فرنسية بتحركات منتظرة للمسلمين عام 1561 (72) ، بل ان السفير الفرنسى فى اسبانيا (فوركفو) ذكر فى مراسلاته « أن أحد الموريسكيين قد أعترف بوجود اتفاقات بين اخوانه فى الدين ، وبين الاتراك » · (73)

واذا كان من المستحسن الا تؤخذ هذه المؤامرات على حقيقتها اذ مـــن الطبيعى أن يخلقها خيال الاسبانى المتخوف أكان دولة أو كنيسة، أو أصحاب المآرب السياسيـــة المختلفة ، كما أنه من الطبيعى أن يعترف كثير من المحقق معهم من المسلمين ، تحـــت التعذيب والضغط بما كان يريح أولئك الاسبان المحققين ويصوره لهم خيالهم ، ليتخذوا من تلك الاعترافات ذرائع الاضطهادات وملاحقات جديدة لا تنتهى ، فانه من المؤكد أن الدولة العثمانية تلقت فى عام 1567 م ، سفارة فى استانبول من مسلمى الاندلس ، بعد تسلم السلطان سليم الثالث السلطة ، واستقبل علماء العاصمة العثمانيـــة أولئـك المبعوثين ، مما جعل المراقبين الدوليين يتكهنون بحرب جهادية جديدة لا بد للسلطـان العثمانى أن يشنها على النصرانية الاوربية (74) · ولعله كان لهذه السفارة أثـرها فى البلاط العثمانى ، ولا سيما بعد الحملة الاضطهادية الجديدة التى قادتها الكنيسة الاسبانية بقيادة (ديســا) ، وبدفع من (بيدرو.غيريرو) رئيس أساقفة غرناطة ، و (دييغـــود وسبينوزا) أحد الاساقفة ، وابتداءتها بالفعل منذ عام 1565 بنزع أطفال المسلمين من أهليهم ووضعهم بالقوة فى مدارس مسيحية (75) والتى وصلت الى ذروتها بالمرســوم الملكى الذى صدر فى يناير عام 1567 · اذ يذكر ان مشروعا تركيا للتدخل فى أقصى البحر المتوسط قد نوقش فى القسطنطينية ودرسته مدريد (76) · ولكن ليس لـدينا ما يثبت أن الدولة العثمانية قد طلبت الى مسلمى غرناطة تفجير ثورتهم ، كما أنـــه

70) Lea, The Moriscos... p. 279-285.
71) Philippe II au duc de Segorde, 12 mai 1560, Sim, 327 (Braudel, p. 587).
72) 16 octobre 1561 A.N.K. 1495 N° 84.
73) Fourquevaux, 5 novembre 1565, t. I, p. 7, 8, 13.
74) Hauser, La Prépondérance Espagnole... p. 88.
75) Ibiol. .p. 12-13.
76) Braudel, op. cit. p. 587.

ليس هناك ما ينفي عدم تدخلها البتة • فكما انه في حزيران عام 1568 جاء قائد يوناني يعرض على دون خوان في برشلونة اثارة الثورة (77) فأنه يمكن تصور لقاء كهذا قد تم بين الجزائر والمسلمين ، أو بين المبعوثين المسلمين والقسطنطينية •

ومهما يكون موقف الدولة العثمانية في فترة ما قبل الثورة ، فان جوا من الكره والشك والتحدى كان سائدا فى اسبانيا وفى غرناطة بالذات عام 1565 • وقد نسجت لحمته من تصاعد آمال المسلمين اثر حصار مالطة ، وسداه من مخاوف النصارى والكنيسة وشكوكهم • فقد عاد المسيحيون المتزمتون يشتكون بان المنصرين الجدد هم نصارى بالفم والمظهر فحسب ، أما قلوبهم فمع الاسلام • وقد وضع هؤلاء الاقفال على بيوتهم وحماماتهم ، وهى ملاذات كافية للقيام بطقوس عباداتهم سرا • ولم يكونوا فى الواقع مخطئين كما أظهرنا ذلك ، وكما أكد المحققون مرة بعد مرة • ولذا كان لابد من متابعة هؤلاء (المنافقين) ـ بحسب رأى الكنيسة الكاثوليكية الاسبانية •

وفى مطلع عام 1567 ، وفى الذكرى الخامسة والسبعين لسقوط غرناطة ، وفى هذا المناخ المفعم بالتوتر النفسى العالى من الطرفين ، أصدرت الحكومة الاسبانية قرارها الذى أعدته من نوفمبر عام 1566 • وينص على منع الموريسكيين من التكلم والقراءة باللغة العربية ، ويفرض تعلم اللغة القشتالية ويحظر على النساء والرجال استخدام عاداتهم وملابسهم ولا سيما الحجاب بالنسبة للمرأة ، ويحرم اغلاق المنازل واستخدام الحمامات العامة ، بل يوجب هدمها (78) وبتعبير آخر هو جملة اعتداءات صريحة على الحرية الشخصية للمسلم ، وعلى شخصيته الحضارية ، يراد بها تصفية تلك الشخصية •

وقد فرضت اسبانيا على المخالفين عقوبات صارمة تتراوح بين السجن والنفى والاعدام • وأحاطت تنفيذه بالشدة والصرامة • ويتساءل المرء لماذا اختارت اسبانيا هذا الوقت بالذات لاعلان قرارها ؟ الانقضاء المهلة التى كانت وعدت بها سابقا ومدتها أربعون عاما ؟ أم لوفاة السلطان سليمان القانونى ومعرفتها ان ابنه سليم الثالث لن يكون فى مستواه أو فى مستوى المهمة الجهادية التى كانت لابيه ؟ أم لشعورها ان الوقت

77) Ibiol. p. 895.

78) انظر تفصيل أوسع • عنان ـ 342 ـ 343 •

ملائم ، لانشغال الدولة العثمانية آنذاك بقضايا الشرق ومن ثم كان صمت قعقعة السلاح في البحر المتوسط ؟ أم لخوفها من اتساع رقعة التهديد للدين المسيحي الكاثوليكي بعد ازدياد قوة البروتستان في أوروبا ، وثورتهم في الاراضي المنخفضة التابعة لها ، وامكان تعاونهم مع مسلمي اسبانيا ، أو تعاون هؤلاء مع فرنسا والدولة العثمانية ضدها ؟ أليس للموضوع علاقة بمؤتمر ترانت الكاثوليكي الذي كان دعما للكاثوليكية ؟ ألم يكن القرار يا ترى ـ الى جانب عوامل أخرى ـ اثباتا لجمعية اليسوعيين التي كان فيليب الثاني وكنيسته يغاران على سلطتهما منها ، بأنهما قادران بالقوة على اجتثاث النفاق والمروق عن الدين ، والحفاظ على الكاثوليكية في اسبانيا دون دعاية وتعليم (79) . قد تكون جميع هذه العوامل متظافرة قد عملت على دفع اسبانيا لاصدار قرارها ضد المسلمين في غرناطة في هذا الوقت .

ويبدو أنها عندما أصدرته لم تكن تقدر أنه سيكون عاملا في اشعال لهيب الثورة . فمنذ عام 1502 في غرناطة ، ومنذ عام 1526 في الاراغون جرت أحداث كثيرة واضطرابات بين المسلمين المنصرين والاسبان الا أنها لم تكن ذات أهمية . ففي كل مرة كان الرجال المكلفون بالادارة والقضاء يحاولون حلها بمرونة وتكيف نسبيين . فحتى حادث الاستلاء على الاراضي عام 1559 ، وتجريد مسلمي بلنسية من أسلحتهم ، مرا بسلام (80) . وظن أعيان البيازين كذلك أنه يمكن تدبير الامر مع السلطات ـ كما جرت العادة ـ بشراء ايقاف تنفيذ هذا المرسوم أو تأجيله . ودخل أحد النبلاء الاسبان وهو (هنريكس) بمفاوضات طويلة مع السلطة لصالح المسلمين ـ وكان يعطف على قضيتهم ـ . وأسهم معه في هذه المفاوضات التي دامت سنة أحد أعيان المسلمين ، وهو (الحبقي) الذي

79) Robert Ricard, Etudes et documents pour l'histoire missionnaire de l'Espagne et de Portugal. 3e partie, p. 209-232. 1930.

لقد ذكر أسقف مالاقا عام 1559 بأن « جولة من جولات التحقيق هي أفضل من أشهر بل سنين الدعوة والتعليم » وكأنه يرد على اليسوعية التي تنادي بضرورة الدعوة الفكرية والتعليم .

80) Braudel, op. cit. p. 588.

سينخرط فى الثورة فيما بعد ويكون أحد قادتها ٠ الا أن المفاوضات لم تسفر عن أية نتيجة ، بل اشتطت اسبانيا فى تنفيذ مرسومها ٠

ويقول المؤرخ (ستانلى لين بول) ـ « ان اجراءات التجريد الكامل من القومية كانت أقسى من أن يتحملها شعب ما ، فكيف بأحفاد المنصور ، وعبيد الرحمن الثلاثة ، وبنى سراج ؟؟ » ٠ (81)

ويعلق بروديل على الوضع فيقول : « كيف يمكن للموريسكى ان يتحمل كونه مواطنا قاصرا ، بل ومسحوقا تحت ضغط التنصير ؟ ؟ » ونضيف ، كيف يمكنه ان يعيش صامتا ساكنا ، وهو يرى أن كل فرد من مواطنيه الاسبان كان يلاحقه ببغضاء لاهبة ؟؟ فكلهم كان ضد هذا الشعب العامل والصانع ، والمقتصد ، والذى يتوالد بكثرة ، ولم تستطع الحرب ولا الاضطهادات الدينية أن تقضى عليه ٠ لقد كان بغضا دينيا اقتصاديا حاقدا على الصانع الماهر منه ، وصاحب الدكان الثرى ، بل وعلى بائع (الزنكل) (وهو عجين يقلى بالزيت ويغمس فى العسل أومعقود السكر) الذى يبدو أنه يحقق بعض الكسب ، وأخيرا على الفلاح المنتج للبيض والخضروات ٠ (82)

الثـــــورة

وهكذا أطلق « غرباء غرناطة » اشارة الثورة ٠٠٠ ولابد أنهم كانوا يعلمـــون أن اسبانيا منشغلة فى اخماد ثورة الاراضى المنخفضة ، وانها قد جندت العديد مـــن سكانها لهذا الغرض ٠ بل ان السواحل شبه مقفرة بسبب الحرب من جهة وبسبب الخوف من الغارات الاسلامية البحرية ٠ أما الدولة العثمانية البعيدة فكانت هى الاخرى منصرفة الى حملتها ضد الروس لاسترداد قازان واسترخان منهم ، ناهيك عن ثـورة اليـمن ، وتهديد البرتغاليين لسواحل العالم العربى الاسلامى ٠ وفرنسا الدولة الحليفة للدولة العثمانية كانت تخوض حربها الاهلية الدينية الثالثة ٠ فثورة مسلمى غرناطة انفجرت اذن فى أواخر عام 1568 ٠ فى عالم من العلاقات المتوترة وكان ايقاع الحرب والسـلاح

81) Stanley Lane Pool, The Moors in Spain, p. 273. Beirut 1967.
82) Braudel, p. 587.

فيه يتسارع • وقد انفجرت بعنف ، وكان لها صدى مجلجل فى الخارج حيث أثارت العديد من الحسابات والآمال ، كما صعدت داخل اسبانيا أجيج الاهواء •

وكان زعيم الثورة وموقد نارها (صباغ) من غرناطة يدعى (فرج بن فرج) وكان ينتمى الى بنى سراج • وكان ثائر النفس ، وناقما على الاوضاع التى يعيشها بنو قومه • ويبدو أن الثورة لم تكن بنت يومها ، بل أعد لها ، وخطط ضمن تنظيمات سرية لا نعرف عنها شيئا • ويبدو أن تلك التنظيمات قد احتوت مسلمين منصرين فى أنحاء المملكة الغرناطية، بدليل الكتب التى وجهت الى الانحاء المختلفة تطلب الاستعداد والتأهب • كما أعلم بها أمراء المغرب وطلب الى الاخوان فيها اعلام استامبول وقد كان معدا لها يوما سابقا ليوم انفجارها ، الا أن السلطات الاسبانية اكتشفت بعض خيوطها ، وقضت على بعض أفرادها ومنهم (ابن داود) الذى أشرنا اليه سابقا ، وشددت من قوة حامياتها • الا أن الثوار عادوا فلملموا صفوفهم وأطلقوا الشرارة ثانية • ويظهر أن نواة ا لثورة كانت ممركزة فى ضاحية البشرات حيث المنطقة مرتفعة وتصلح وكرا للثورة • وتضم الجبال القريبة منها كثيرا من الثائرين والعاملين فى قطع الطرقات على الاسبان النصارى كعمليات جهاد محدودة •

وقد ابتدأت الحركة بمهاجمة بعض المسلمين بعض جباة الضرائب الساعين لنهبهم (83) ثم قتل بعض ا لفلاحين من المسلمين أيضا لجنود كانوا مقيمين فى أكواخهم • فجمع ابن فرج هؤلاء الناقمين وهبط فى الليلة التالية لليلة عيد الميلاد من عام 1568 الى المدينة ، حيث رفعوا أصواتهم متظاهرين ، ومنادين بأن على أولئك الذين يريدون الدفاع عن دين محمد أن يتبعوهم (84) • لقد دخلوا وهم ستون فردا ، وخرجوا من غرناطة الى الجبال وهم ألف (85) • ولم تبد الهيئات الدبلوماسية تخوفا كبيرا من الحادث فى بادىء الامر حتى أن سفير البابا أكد « أن الحادث لا أهمية كبيرة له كما قد سيقال » • وفى الواقع أن حى البيازين فى المدينة لم يحرك ساكنا ، فأبناؤه البرجوازيون الاغنياء الحريصون على مصالحهم الاقتصادية ، رأوا فى انضمامهم للحركة

أنظر عنان ــ المصدر السابق ــ ص 347 •

83) Stanley Lane Poole, op. cit. p. 273
84) L. Serrano, Correspondia diplomatica entre Espana y la Santa Sede, III, p. 23-24 (Braudel, p. 893).
85) Sauli à la Seigneurie de Génes, 5 janvier 1569, A.D.S. Génes, lettere Ministri Spagna 4 2413 (Braudel, p. 893).

مغامرة خطيرة على وجودهم ، ولا سيما أنهم كانوا يعيشون وسط الاسبان الحاقدين وعلى مقربة من الحامية • ولكن هذا لا يعنى أنهم لم يكونوا فى باطنهم مؤيدين للثورة ، بل يمكن القول أن قلة عدد الثائرين جعلتهم ينكمشون ويخشون المخاطرة • « فلو لم يكن الثلج قد سد منافذ ا لجبل ، ولو تدفق على المدينة عدد أكبر ، فلا أحد يمكنه عندها التكهن بما ستكون عليه أبعاد تلك الحركة ، وقد تحرق المدينة برمتها » • (86)

ولم تمض بضعة أيام حتى انضم الى ابن فرج مسلمون آخرون من البشرات ، ومن جميع أنحاء مملكة غرناطة • وقد قدر عدد الثوار فى مطلع الثورة بـ (4000) ثائر • ويذكر (صولى) ـ وهو عميل جنوه السياسى فى اسبانيا ـ لحكومته « أن بعض الناس يقول أنهم أكثر من ذلك بينما يؤكد آخرون أنهم أقل ••وأن بينهم بعض الاتراك •• كما أنهم يحكمون ان (الحركة) أشبه بنار القش لانها أتت فى غير موسمها ، والاستعدادات ضدها كبيرة • وقد خرج عدد وفير من الفرسان والمشاة من قرطبة وغيرها من الاماكن •• » (87) واذا كان صولى لا يظهر قلقه من الحركة فان (فوركفو) سفير فرنسا كان أكثر تشاؤما • وكان محقا فى تشاؤمه هذا ، بحسب بروديل ، لان الثورة كانت حرب حضارات متعادية ، وحرب الحضارات المتصارعة تنتشر عادة من نفسها ، ولا سيما اذا كانت الارض مهيأة مقدما لها ، والعالم الذى انفجرت فيه قد طغى على انسانه البغض والبؤس • (88)

ويبدو أن الثورة لم تكن لمطلب آنى ، كرجوع الحكومة الاسبانية عن قرارها السابق، أو السعى لرفع ضروب الظلمات والتعسف عن مسلمى غرناطة ، أو الالحاح على معاملتهم مواطنين كاملى الحقوق كغيرهم ، وانما كانت ذات هدف ثورى ايجابى عميق وهو اعادة تكوين مملكة غرناطة دولة مستقلة • وهكذا أعلنوا استقلالهم (89) ، والتفوا حول شاب من حى البيازين فى العشرين من عمره ، ينتسب الى سلالة بنى أمية التليدة يدعى (الدون فرناند ودو كوردو وفالور) • وكان من أعيان غرناطة ، ومستشارا فى بلديتها •

86) Braudel, p. 893.
87) Sauli à la Seigneurie de Génes, 5 janvier 1569, A.D.S. Génes, lettere Ministri Spagna 4, 2413 (d'après Braudel, p. 893).
88) Braudel, op. cit. p. 894.
89) عنان ـ ص 348 • استنادا الى Marmol, op. cit. IV, cap. VII

وقد يكون لاختياره دلالات بعيدة المدى ، كاعادة الحكم فى اسبانيا كلها للمسلمين كما كان الامر فى عهد الخلافة الاموية الاندلسية واحتفل المسلمون بتتويجه ملكا عليهم فى احتفال دينى مهيب ، فى التاسع من رجب عام 976 هـ / 29 ديسمبر 1568 م ٠ وأعطى الاسم العربى (محمد بن أمية) ٠ وفرشت فى ذلك اليوم على أرض البشرات أعلام اسلامية ذات أهلة ، ووقف الثائرون صفوفا مصلين مع مليكهم ومتجهين نحو الكعبة ، والجبال ترجع صدى تكبيراتهم ٠ وأقسم الامير أن يجاهد حتى الموت فى سبيل عقيدته الاسلامية وأمته (90) ٠ وبعد تتويجه وضع نواة دولته ، فعين عمه قائدا عاما لجيشه ، وابن فرج كبيرا لوزرائه ، وكلفه بجمع المال للثورة ، من الكنائس ، ومن النصارى ، وغنائم غارات الغزو ٠ ويشير المؤرخ (ج ٠ كاروباجورا) الى أن ثورة غرناطة قد تميزت منذ بدايتها بمظهرها الدينى ، وبنزعة كبيرة لاستعادة جميع قيم الثقافة الاسلامية (91) ٠ فهناك العودة الى ممارسة الشعائر الدينية الممنوعة ، وهجوم على التماثيل والصور ، والعودة الى الملابس المحرمة من السلطات ٠ (92)

واتخذ (محمد بن أمية) مقرا له آكام بوكيرا الوعرة ، وبعث رسله الى جميع الانحاء يدعو المسلمين المنصرين الى خلع طاعة النصارى ، والعودة الى دينهم القديم (93) ٠ ومنذ بداية الثورة حاصر الثوار (المرية) ، (94) وكانوا قد حصنوا (أورجيبا) ، مدينة الدوق دوسيسا الملاك الكبير فى غرناطة ، (95) وقد قدر هذا الاخير عدد الثوار فى فبراير 1569 بـ (150٫000) ثائر ، منهم (45٫000) قادران على حمل السلاح ٠ (96) وفى مارس فاضت الثورة من الجبل على السهل (97) ٠ ويبدو أن نجدات من المتطوعة الجزائريين قد أخذت تصل اليهم ٠ (98)

90) المصدر السابق ٠ الصفحة نفسها ٠

91) Caro Bajora, Les Moriscos del reino de Granada, p. 175-178. Ensayo de Historia social. Madrid 1957. Cité par D. Urvoy, op. cit. p. 365-366.

92) Ibid, p. 366.

93) عنان ـ المصدر السابق ـ ص 348 ٠ (مع تصدير مارمول) ٠

94) Fourquevaux, 13 janvier 1569, t. II, p. 56.

95) Braudel, p. 893.

96) Fourquevaux, 28 février 1569, t. II, p. 56.

97) Ibiol. Avis d'Espagne, 20 mars 1569, t. II, p. 62.

98) Sauli à la Seigneurie de Génes, 14 avril 1569 A.D.S. Génes. Lettere Ministri, Spagna I 2413 (cité par Braudel, p. 894).

واذا كانت الهيئات الدبلوماسية لم تبد فى بادىء الامر ذعرها من هذا التحـــرك الثورى الا ان الحكومة الاسبانية نظرت اليه مباشرة على أنه تحرك خطير · ربما لانهـا كانت فى حرج من أمرها ، بسبب ثورة الاراضى المنخفضة ، وافتقادها الى الجند الكافين، وملل الاسبان من الحرب ، وأخيرا لانها لم تكن قد اتخذت أية احتياطات عسكرية سابقة ، اذ لم تحسب حساب اندلاع هذه الثورة · وقد كان أول اجراء قامت به هو ارسال المال الى القائد العام لغرناطة (المركيز دو مونديخار) للعمل على تجنيد الجنـد ، وكذلــك للمركيز (لوس فيليز) حاكم مرسي · وفى الوقت ذاته أخطرت السفن الاسبانيـــة لتحرس الشواطىء الاسبانية وتعزل الثوار عن شمال افريقيا ، وتمنع ما يمكن ان يأتيهم من نجدات منها (99) · وثالث الامور التى أبدت اهتماما بها هو العمل على ابقاء الثورة سرا (100) · الا ان النبأ كان قد وصل منذ مطلع ففريه الى جنوه وروما ، ومن المؤكد الى بلدان أخرى ، بل انه وصل الى القسطنطينية ، حيث أرسل الثوار يطلبون النجـــدة وارسال الاسطول اذ أن مناطق جبل طارق غـــير محروسة حراسة حسنة ، ومـــن السهـــل فتحهـــا » · (101)

وفى الحقيقة ، لقد سرى نبأ الثورة فى أوروبا كلها ، وفى أنحاء البحر المتوســـط كله ، مسرى النار فى الهشيم · ومنذ ذلك الوقت كان هناك حربان مختلفان جـــــدا : الحرب الفعلية الواقعية التى كانت تجرى فى جبال شلير (سيرا نيفادا) ، وهى حـــرب جبال صعبة ، ومملوءة بالمفاجاءت ، وبمظاهر القسوة الرهيبة والمروعة من الطرفـــين ، وحرب أخرى وهى المسماة بـ (حرب غرناطة) وهى الحرب الدبلوماسية التى كانــت ترسمها الآراء المتناقضة ، هادفة من ذلك تحريك جميع الاهواء ، أهواء أوروبا وأهواء الشرق ، وكان يغذيها شبكة من العملاء والجاسوسية ·

ومهما كان الحجم الحقيقى لثورة غرناطة فى الخارج ، واستغلالاتها على المستـــوى الدولى ، فانها فى اسبانيا قد هزتها هزا عنيفا · فقد اثبتت لها مرة أخرى ان مراس المسلمين لا يزال شديدا ، وان قواهم الجهادية كانت ولا تزال فى عنفوانها · وفى الواقع ان اجراءات الرد العسكرى الاسبانى المجدى على هذه الثورة الرائعة واللاهبة تطلب وقتا،

99) Philippe II à Requesens, 15 janvier 1569, Sim. E° 910 (Ibiol. p. 895).
100) De Philippe II au vice-roi à Naples, Madrid, 20 janvier 1569, Sim. E° 1057, f° 105.
101) Ba Ferriro à la Sie de Génes, Constantinopli, 23 juillet 1569 A.D.S. Génes Constantinopli 2 -2-70.

ولم تكن حاسمة بين يوم وليلة · فالعمل السريع فى نطاق هذه الجبال القاسية والوعرة عسير ومنهك للقوى النظامية · وكانت فرق الجند معرضة للموت جوعا ، وكانت تموت فعلا لصعوبات التموين · ناهيك عن استخدام المسلمين فى حربهم طريقة «حرب الربط» و « الثغور » ، أى الكر والفر ، وكانوا يحيون بذلك مفهوم الجهاد الاسلامى القديم(102) · ومن ثم كانوا يثخنون بالاسبان ثم يفرون « كالوعول أمام البنادق الاسبانية دون أن يصابوا بأذى » · وبالاضافة الى حرب الجبال المحطمة لقوى الاسبان ، فان السفن الجزائرية لم تنفك عن تزويد الثوار بالرجال والذخائر والاسلحة والمواد الغذائية كالرز والقمح والطحين ، وكانوا يبادلون كل بندقية بأسير مسيحى (103) · ولم تكن اسبانيا قادرة ـ كما أشرنا سابقا ـ على مراقبة الشاطىء الطويل للبلاد الثائرة الذى كان البحارة الجزائريون ـ وبعضهم من أهل الاندلس المهاجرين ـ يعرفون خفاياه وخلجانه ومخابئه · هذا الى ان هذه الشواطىء كانت ملكا للنبلاء لا للملك ، وكانت عصابات اللصوص والتهريب والقرصنة قد وجدت مكانا لها فيها · فالثورة اذن استطاعت ان تثبت أقدامها ، وان تحرز نصرا أوليا على الرغم من أن الحرب كانت سجالا · ولم تتمكن اسبانيا ان تسيطر عليها على الرغم من أن (دو مونديخار) كان قائدا محنكا وبارزا · وقد رأى أخيرا ان مسالمة الثوار أفضل من الصدام المسلح واهراق الدماء ، فسعى الى مفاوضتهم ، وقبل (محمد بن أمية) الصلح الا ان المتطوعة المغاربة رفضوه · (104)

ومن الطبيعى ان الاخفاق فى اخماد الحريق يزيده اشتعالا · لقد كانت الثورة المنيرة والمحرقة تتسع يوما بعد يوم وتتقدم من نفسها ، وتشتد تماسكا ، ولا سيما بعد ان دفع لها بوقود جديد · والوقود هذه المرة هو ما قام به المركيز (لوس فيليز) عندما صد المسلمين عن (المريه) ، وقتل العديد من نساء المسلمين واسراهم وطفالهم · وما قام به كذلك المسؤولون فى مدينة غرناطة عندما ذبحوا (150) مسلما من أعيانها وهم فى

102) D. Urvoy, Sur l'évolution de la notion de Gihad... p. 365.
103) Braudel, op. cit. p. 896.
104) عنان ـ المصدر السابق ـ ص 350 ·

السجن ، وكانوا قد أخذوا رهينة ، بحجة أن الثوار سيهاجمون غرناطة بمساعدة حى البيازين فيها • فذكت نار الثورة ، وزخرت قلوب المسلمين بالايمان والنضال والثورة•

ومع كل العنف والسعة اللذين اتصفت بهما هذه الثورة ، ومـع أنبـاء الاخفاق الاسبانى فى اخمادها ، فان فيليب الثانى لم يظهر تشاؤمه • أو بتعبير أوضح « لـم يرد ان يجعل من هذه الثورة قضية » (105) فقد ادعى ان الاتراك لديهم مشاغل أخرى غير هذه الثورة ، وأن النجدة الجزائرية غير ممكنة لان حراسة السفن عـلى الشواطىء الاسبانية شديدة ، وأنه يكفى لاعادة الامور الى نصابها ، ميليشيا الاندلس وحـدها • الا ان عملاءه السياسيين فى الخارج لم يكونوا يشاطرونه هذا الرأى ، لان أخبـار حربه مع ثوار غرناطة واخفاقها كانت مدوية فى الخارج ، وقد ضخمتهـا الاشاعـات المختلفة • حتى ان عميله فى لندن أعلمه بان الامر سيصل بالناس الى الاشاعة بان ممالك اسبانية أخرى قد ثارت ضد الملك (106) • وهذا بحسب رأيه انتقاص من هيبته •

وفى الواقع لقد أقلقت هذه الثورة الاسبـان والعروش الكاثوليكية فى أوروبا ، لانها جاءت وسط تحركات دينية ثورية بروتستنتية كانت تمزق أوروبا ، وهذا ما عبر عنه سفير فرنسا فى اسبانيا (فوركفو) عندما قال : « انها دليل آخر على ان هذه الازمنة هى أزمنة ثورات الرعايا ضد أمرائهم الشرعيين • فالبارحة كانت ضد شارل التاسع فى فرنسا ، وضد مارى ستيوارت فى اسكتلندا ، وضد الملك الكاثوليكى فى الفلاندر • فالعالم اليوم نازع الى الثورة ، والرعايا متجهون نحو التمرد فى المناطق المختلفة»(107)• وقد رد الملك شارل التاسع على سفيره قائلا : « اننى آمل ان يعاقب هـؤلاء الثوار ، وكل أولئك الذين حملوا السلاح مثلهم بهدف بلبلة دولة ملكهم وسيدهم » • (108)

لم تستطع اسبانيا أن تهدىء الخواطر المضطربة ، والاشاعات المستفحلة ، بخبـر نصر واحد تحدد فيه ميدان المعركة ، وعدد القتلى والاسرى كما جرت العادة • فالحرب حرب كر وفر • والعمليات العسكرية غير مترابطة ، والنتائج غير ملموسة ، وحـرب

105) Fourquevaux, t. II, p. 56.
106) Guerau de Spes au Roi, Londres, 2 avril 1569, Codoin xc. p. 213 (Braudel p. 896).
107) Fourquevaux, t. II, p. 45.
108) Charles IX à Fourquevaux, Metz, 14 mars, t. II, p. 206.

الجبال هذه لم تصنع للبلاغات الرسمية • لقد استطال أمد الثورة ، وهى فى كل يوم تدخل أرضا جديدة ويزداد العاملون فيها عددا وتراصا ، وتكلف الدولة الاسبانية غاليا • ولذا رأى فيليب الثانى أن يضع على رأس القيادة العامة أخاه غير الشرعى وهو (دون خوان) وذلك فى شهر أبريل عام 1569م ، الا أن هذا لم يغير من الامر شيئا فى الاشهر الاولى • فقد كان عليه أن يعيد دراسة الاوضاع ، ويرتب الامور • وقد ثبت لدون خوان عدم امكانية الاعتماد على ميليشيا الاندلس وحدها ، ولابد من استدعاء جنود من ايطاليا ومن كاتالونيا • كما اتضح له أن الآمال التى عقدت على انتشار المجاعة بين الثوار واسكاتهم كانت خائبة •

وجاء الصيف الحار على ثورة المسلمين بعد الشتاء القارص وثلوجه ، وارتفعت مع حرارته مخاوف اسبانيا وفيليب الثانى من تدخل عثمانى • فقد قال (فرانسيس دو آلافا) ــ سفير اسبانيا فى باريس ــ لسكرتير الدولة (زياس) فى رسالة متبادلة : « كل ما أرجوه أن يعاقب الله ثوار البشرات قبل أن يستطيع هذا الكلب ــ كذا ــ (أى السلطان العثمانى الذى علموا باستعداداته العسكرية) ــ أن يعبى قواته » (109) • بل خشيت اسبانيا كذلك أن تمتد الثورة الى خارج مملكة غرناطة وأن « يكشر مسلموا الاراغون المنصرون عن أنيابهم كما فعل الغرناطيون » (110) وفى هذه الحالة لن يكون عدد الثوار الذين يجب مجابهتهم (30ر000) ثائر انما (100ر000) ثائر • (110)

وجاء الخريف والوضع لصالح الثوار المسلمين : فالارض المنخفضة والمدن بيد الاسبان النصارى ، والجبال بكل تلافيفها وشعابها المعقدة ، وحصونها الطبيعية بيد الثوار (112) • وكان المسلمون المقيمون فى السهل ، والذين يبدو مسالمين وهادئين يمدون يد العون سرا لاخوانهم فى الجبال ، ويقدمون لهم ما يحتاجون من غذاء وسلاح ، بل يبدو أن المدينة ذاتها كانت تقوم بهذا العمل ، بدليل اصدار الملك أمرا بتخليتها من

109) A. Çayas, 2 août 1569, A.N.K. 1511, 424. N° 35 (Braudel, p. 897).
110) Fourquevaux, M. 6 août 1569, II, p. 101-102.
111) Fourquevaux, 19 août 1569, t. II, p. 109.
112) Ibiol. 17 septembre 1569, p. 117-118.

سكانها الموريسكيين (113) • وعلى الرغم من ان المسلمين كانوا قد افتقدوا مليكهم (محمد بن أمية) نتيجة حادث اغتيال دبره أحد قادته لاهواء شخصية ، واسهمت فيه فرقة الاتراك المرتزقة التى كانت تعمل مع الثوار (114) ، فانهم تداركوا الامر بسرعة ، وأحلوا محله قريبه (دييغولوبيث) الذى تلقب بمولاى (عبد الله محمد ابن عبو) وكان شجاعا ، وخبيرا بشؤون القتال ، وفطنا • فنظم المجاهدين عسكريا ، واستقدم السلاح والذخيرة من ثغور المغرب • واستطاع بحزمه وكفايته ان ينال اعجاب الثائرين وتقديرهم ، فازدادوا تحلقا حوله • وابتدأ عمله باستيلائه على (أورجيبا) مفتاح غرناطة ، فانتشرت انباء شجاعته وبطولته فى كل مكان حتى مالقة • وأخذ الثوار بهذا الزخم الجديد يشددون غاراتهم على نقاط عديدة من المملكة الغرناطية ، حتى ان الناس فى غرناطة واشبيلية (لم يكونوا يجرؤون على اخراج أنوفهم خارج دورهم) (115) • كما وصلت الانباء الى الاراضى المنخفضة •

أما اسبانيا فقد ازداد وضعها حرجا : اذ تفاقمت حدة التهديد العثمانى ، مع تصاعد عمليات التعبئة البرية والبحرية التى كانت تقوم بها الدولة العثمانية آنذاك ومجابهة هذا التهديد يتطلب من فيليب الثانى ان يكون قد انتهى من ثورة غرناطة • الا ان العثمانيين لا يهددون الارض الاسبانية فقط ، وانما ايطاليا كذلك • فمنذ ان علم نائب الملك الاسبانى فى نابولى بخبر الاستعدادات العسكرية العثمانية ، فانه طالب الملك بدعم الجيش الاسبانى فى ايطاليا (116) • هذا علما ان ايطاليا كانت قد أخليت من الجند لصالح الاراضى المنخفضة وثورة غرناطة نفسها ، فكان لا بد من اعادة الجند اليها •

113) Braudel, op. cit. p. 899. Lapeyre, op. cit. p. 122.

ويذكر (بروديل) ان طرد المسلمين من المدينة كان فى ديسمبر ، بينما يشير (لابير) الى ان الملك أمر فى (23 يونيو 1569) بطرد موريسك المدينة الذين تتراوح أعمارهم بين 10 ــ 60 عاما • ويضيف ان عدد المطرودين لم يتجاوز (35000) وهو رقم ضعيف • وقد يكون الباقى قد التحق بالثوار •

114) انظر عنان ــ ص 352 •

115) Ferral à Charles IX, Bruxelles, 29 décembre 1569. B.N. Paris FR 16123 (cité par Braudel, p. 899).

116) Au Roi, Rome, 14 octobre 1569, Serrano III, p. 163.

كما أنه كان من الضرورى الحصول على المال ، وكانت حرب الفلاندر تمتص الكثير منه • وفى أكتوبر 1569 أعلم الملك سفير البابا بأنه اذا استمرت الثورة الموريسكية أثناء الشتاء أيضا ، واجتاحت بقية أقاليم الموريسكيين ، واذا ما تدخل الاتراك العثمانيون ، فان اسبانيا تكون مهددة مرة أخرى بالسقوط فى يد المسلمين • وقد كان سفير البابا يظن ان الملك يريد من وراء هذا الاعلام الحصول على مساعدة البابا ، كاعلان الحرب الصليبية وتوفير بعض المال • ومع هذا الظن ، فان مراسلة السفير مع سيده لم تكن لتخلو من قلق عظيم (117) • فقد كان معروفا تماما فى مدريد وروما مدى روابط المسلمين المنصرين مع العالم الاسلامى • وازداد تأكدهم من ذلك خلال الخريف ، اذ علموا ان سفراء هؤلاء المسلمين الى القسطنطينية قد استقبلوا فى الجزائر اثناء عودتهم منها استقبالا حافلا ، ووعدوا بالآف البنادق (118) • حتى ان علج على قدر عدد الثوار بـ(600٫000 ـ 800٫000) ثائر (119) • وبالاضافة الى ذلك فان الاشاعات تتالت بان الانكليز سيساعدون الثوار (120) • واعلم الملك ان ثلاثة من اليهود الذين وفدوا من القسطنطينية الى البلاط الفرنسى لحل قضية الدين الفرنسى لليهودى الشهير (ميكاس) ، ممول السلطان العثمانى سليم الثانى ، قد صرحوا بأن الاسطول العثمانى قادم فى عام 1570 لمساعدة الثوار (121) • وان رسلا من الموريسك قد تقدمت بطلبات للنجدة هذه الى الاتراك ، كما تقدم بها كذلك ملوك مراكش وفاس وأمراء ثلاثة أو أربعة آخرون من شمال افريقيا (122) • وجاءت هذه الانباء منسجمة مع أنباء استعدادات عسكرية يقوم بها الشريف فى المغرب الاقصى للتخلص من المراكز الاسبانية على سواحله• فكل هذه الاخبار كانت تنذر بغزو اسلامى قريب لاسبانية • (123)

117) Madrid, 26 octobre 1569, Serrano, p. 180.
118) Fourquevaux, 31 octobre 1569, II, p. 128-129.
119) Relacion de Loque Yo Fco Gasparo Corso, Sim, E° 333 (1569) (cité par Braudel, p. 587).
120) Pereyra, Imperio espanol, p. 168 (d'après Braudel, p. 898).
121) F. de Alava au Roi, 9 décembre 1569 A.N.K. 1513, B 25, N° 138 (Braudel, p. 899).
122) Ibiol.
123) Avis d'Espagne, 19 décembre 1569, Fourquevaux. II, p. 165.

ففى شهر ديسمبر 1569 اذن ، أى بعد سنة من بدء الثورة ، كان كل واحـــد فى اسبانيا يعرف ان الامور تسير سيرا سيئا بالنسبة اليها • ولذا قرر الملك فيليب الثانى ان يعمل بسرعة ، وانتقل الى (قرطبة) ليكون أكثر قربا من الاحداث والثـورة ، وفى الوقت ذاته ليسهل مهمة البريد ومراسلاته مع قادته ، وليدفع وجوده القريب العاملين فى اخماد نيران الثورة ، على مضاعفة نشاطهم • ووضع تحت تصرف أخيه (دون خوان) جميع الوسائل التى يمكن ان تساعده على النصر • ومع ان اسبانيا تلقت سقوط تونس بيد (علج على) بكلر باى الجزائر ، بوجوم وخوف ، اذ كان قد اغتنم فرصة انشغالهـا بالثورة ليضرب ضربته الصائبة ـ فانها تمالكت ذاتها ، وتابعت تنظيم أمورها الداخلية بهدوء نسبى • واستطاع (دون خوان) ـ وهو لا يتجاوز الثالثة والعشرين من عمره ، ان يحول الامور لصالح اسبانيا شيئا فشيئا •

وكان أول اشتباك كبير له مع الثوار المسلمين فى مدينة (غليرا GALERA) حصن المسلمين الحصين • فقد كانت تقف منتصبة فى المرتفع كعش العقاب ، وكانت تصـب حممها على كل من يقترب منها من الجند • الا ان دون خوان ضرب عليها الحصار ، وكان يدافع عنها زهاء (3000) مسلم ومعهم فرقة تركية (124) • وقد ناضلت الحاميـــة الاسلامية نضالا يفوق طاقة البشر (125) بنسائها ورجالها • وكان على المهاجم العـدو بالمقابل ـ كما قال بروديل ـ ان يفتق هو الآخر طاقات تفوق طاقة البشر ليحتل المكان • وقد نجح أخيرا بعد مذبحة بشعة ومروعة ، فى ففريه عام 1570 • وبسقوط هـــذه المدينة ، فتح طريق الجبل أمام القوات الاسبانية ، ودخلت فيه الفرق المنتصرة • الا أنها ما لبثت أن وجدت نفسها تحت سيل منهمر من المسلمين ، تدفق شلالا هائجا ومزبدا ، من كل ركن من أركان مرتفعات (سيرا دون سيرون) ، وكان على رأسهم المجاهـــد (الحبقى) • واذا بقاهرى الامس يتراجعون مذعورين وتتمزق صفوفهـم ويتبعثـرون شذرا مذرا • (126)

---

124) عنان ـ 354 •

125) Braudel, op. cit. p. 902.

126) Sauli à la Sie de Génes, Cordoue, 26 février 1570. A.D.S. Génes, L.M. Spana 4 2413 (cité par Braudel, p. 902).

وتحولت الحرب بعد هاتين المعركتين الى « حرب كمائن » • واتعب هذا النمط الجند الاسبان ، ففقدوا نظامهم ، وتشتتوا ، وساءت أخلاقهم ، وهرب بعضهم ، وأصيبـــوا بالخور واليأس ، والتفتوا الى النهب والسلب (127) ، واتخذت الحرب طابعا فرديا أو بتعبير آخر حرب مطاردة انسان لانسان ، وآزداد عدد الاسرى من الطرفين ، وعملـت اسبانيا على ترحيل المسلمين منهم الى ايطاليا لتبيعهم فيها • وتطاولت الثـورة ، فالجبال لا تزال تحتوى فى أواخر مارس 1570 (25ر000) من الثوار منهم (4000) تركى أو مغربى (128) • ــ بتقدير الاسبان ــ ولديهم مؤن غذائية كافية ، والقمح يرسل اليهـم من الجزائر (129) ، ويحتفظون بكميات وافية من العنب والتين المجفف • ووعـــــد بيلرباى الجزائر بارسال المزيد من السفن الشراعية التموينية (130) • وكانت انبـاء التدخل التركى المحتمل والقريب تدعمهم وتقوى معنوياتهم (131) وتضاعف من شدة مراسهم وعنادهم •

وفى الحقيقة أن ايمان الثوار النضالى المتوهج من ناحية ، والمرتفعات التى ضمتهـم حناياها كانا العاملين الاساسيين فى الابقاء على هذه الثورة ملتهبة، أمام التفوق العسكرى الذى كانت ترميهم به القيادة الاسبانية • وكانت الفرقتان الاسبانيتان اللتان توزعتا العمل وهما فرقة دون خوان وفرقة (دويســا VSSƎS)يتقدمان ببطء كبير • ان تتبع تفصيل العمليات العسكرية كما كان يفعل المبعوثون الدبلوماسيون فى مدريد وقرطبة عمل غير مجد ، لان أخبار النصر والهزيمة للطرفين كانت تختلط وتتتالى بشكل غريب ، حتى قال (نوبيلى) ــ ممثل طوسكانا لاميره ــ بما معناه : ان حرب المسلمين اشبـــه بنظام الدوش المتناوب الحار والبارد • (132)

127) Codoin, XXVIII, p. 49, 79, 83, 89

أنظر مراسلات (دوّن خوان) مع الملك فيليب الثانى

128) Braudel, op. cit. p. 903.

129) Avis d'Alger, 1er et 6 avril 1570, Sim. E° 487.

130) Dietrichstein à Maximilien II, Séville, 17 mai 1570, Herre ; (Weltgeschicht am Mittelmer, Leipzig 1930) p. 113, Note I (cité par Braudel, p. 903).

131) Nobili au Prince, Cordoue, 27 mars 1570. A.D.S. Florence, Mediceo 4899 f° S 59.

132) Ibiol. 16 mai 1570... f° 94 vo.

وفى أيار عام 1570 بالذات • والثورة لا تزال قوية وعنيدة فى المرتفعات ، والانباء بدأت تترى بتهديد الدولة العثمانية للبندقية فى قبرص ، اذا بنارها تندلع فى مناطق جديدة • فقد اندفع نحو (10ر000) من المسلمين المنصرين قرب اشبيلية ثائرين ، وكانوا من موالى دوق (ميدينا سيدوفيا) ودوق (اركوس) • اذ استغل الاسبان المسيحيون قرب مسرح الحرب منهم ، فانطلقوا نحوهم يريدون القبض عليهم وبيعهم رهائن ، والسطو على ممتلكاتهم ونسائهم • الا ان الملك كان حكيما هذه المرة اذ فوض الامر الى اسيادهم لتهدئتهم ، واستطاع هؤلاء أن يعيدوهم الى مساكنهم • (133)

وحادث مماثل ، كان قد جرى فى شهر مارس فى احدى قرى بلنسية اذ ثارت هى الاخرى ، الا أن الحركة أخمدت • وبقيت الثورة الكبرى فى البشرات « تحرق اسبانيا حرقا بطيئا » وتستنفذ قواها • (134)

وهنا رأى دون خوان أن يلجأ الى الدبلوماسية والمفاوضة كما فعل مونديخار فى السابق • وبدأت المفاوضات بينه وبين (الحبقى) قائد قوات الثوار • ويبدو أن الثورة قد انتظرت النجدة العثمانية طويلا ولما تصل • واتفق الطرفان ، وصدر أمـــر ملكى بالوعد بعفو تام عن جميع المسلمين الثائرين شريطة ان يقدموا أسلحتهم وخضوعهم فى ظرف عشرين يوما • وصرح لهم بارتداء ملابسهم الوطنية ، واتفق كذلك على السماح للمتطوعة من المغاربة والاتراك بالعودة دون ازعاج الى بلادهـم (135) • لقـــد كانت اسبانيا فى صلحها هذا راغبة فى التخلص من الثورة الخطرة بأى ثمن •

وبالفعل فان ثلاثين ألفا من الثوار وضعـــوا أسلحتهم فى (15 يونيـو 1570) ، وهيئت بعض السفن لنقل المغاربة الى مواطنهم (136) • ولكن هل الثورة انتهت ؟ بعد يومين فقط من تسليم بعض الثوار أسلحتهم أخذ المحققون يشتكون : فغرناطة عجت بالمسلمين التائبين ، الذين كانوا يتجولون بأسلحتهم وسط الجمهور ، ويقصون عـــلى

133) Ibiol. f° 95 vo.

134) Fourquevaux au Roi, Séville, 22 mai 1570, II, p. 222.

135) Nobili au Prince, Cordoue, 25 mai 1570. A.D.S. Florence 4899, f° 166 vo (Braudel p. 904. Note 2).

أنظر كذلك عنان ـ ص 356 •

136) Avis de Grenade, 16 juin 1570, Fourquevaux, II, p. 227.

الملأ ، وبحرية اقاصيص بطولاتهم ، ويتفاخرون بعدد القتلى من النصارى الذين جندوا لهم ، وبما فعلوه لاهانة الدين المسيحى ـ هـذا ما ورد فى كتابات المحققين ـ (137) ويضيف هؤلاء قائلين بأن عددهم كان كبيرا ، ولم يأت واحد منهم ليعترف (138) • وأخذ الاسبان يتساءلون أليس استسلام المسلمين خدعة ، أو مجرد خطة ستراتيجية لكسب الوقت ؟ ان الزوارق التموينية الصغيرة لا تزال تأتى الى سواحل اسبانيا سرا ومحملة بالاسلحة وأحيانا بالرز والقمح والطحين ، كتلك التى قبضت عليها السفـن الاسبانية ؟؟ (139) وكل هذا كان يجرى ورحيل المغاربة عن البلاد يتأخـر (140) ، والجنود الاسبان الذين لم تدفع لهم أجورهم يتفرقون ويتشتتون ، ويضعفون هيبـة القوة الاسبانية العسكرية فى نفوس المسلمين • ومولاى عبد الله فى الجبال يعلن أنه يترك للمسلمين الثوار حرية التصرف ، « الا أنه يأبى الخضوع ما بقى فيه عرق ينبض ، وانه يؤثر الموت مسلما مخلصا لدينه ووطنه على أن يحصل عـلى ملـك اسبانيـا بأسرها » • (141) وشرع يشن غزواته المتفرقة فى كل مكان • وعادت الثورة مضطرمة حول (رنده) ، وفى البشرات •

وسير دون خوان ثلاث فرق من الجند، الى وادى آش، ورنده • والبشرات • واجتاحت فى طريقها كل شىء الارض ، والقرى ، والديار والبشر • وأحرقت المحاصيل وأتلفت الكروم والاشجار المثمرة ، (142) وعض الجوع بنابه القاسية الثـوار فاستسلـم بعضهم (143) وفر آخرون الى المغرب (144) الا أن الثورة ظلت عنيدة ، وكالنار المحرقة

137) Les inquisiteurs de Grenade au Conseil suprême de l'inquisition, 17 juin 1570. A.H.N. 1° 2604.

138) Ibiol. 9 juillet 1570 (Braudel, p. 904. Note 67).

139) Fourquevaux M. 29 juin 1570, II, p. 241, ibiol. 11 juillet.

140) Don J. d'Autriche à Philippe II. 2 juillet 1570, Codoin XXVIII, p. 110-111.

141) عنان ـ ص 356 • ويشير بروديل Braudel, op. cit. p. 905 الى انه اعلن عدم استعداده للخضوع الا بشرط التصريح له ولجماعته من الثوار بالبقاء فى البشرات . وهذا ما لم توافق عليه الحكومة الاسبانية •

142) عنان ـ ص 356 ـ 357 و Fourquevaux, M. 20 septembre 1570, II, p. 268.

143) Ibiol. p. 331.

144) عنان ـ المصدر السابق ـ ص 357 •

التى لا يتوصل أبدا الى اطفائها · ولم يعد الملك الصغير يجابه فى معارك حاسمة ، بـل أخذ يتنقل من صخرة الى صخرة ، ويغزو · وعلى الرغم من جميع الحصون التى أقامها الاسبان فى الجبال ، والحاميات التى غصت بها ، فان الثوار المناضلين كانوا ينسلـون كالارواح من خلال جميع الحواجز ونقاط المراقبة ، وينقضون على الاسبان النصارى (145)

وكان الخريف قد قدم ثانية والدولة العثمانية بدأت هجومها على قبرص ، وشرعت الكنيسة الكاثوليكية بزعامة البابا تسعى لحلف مقدس مع اسبانيا والبندقية ضد الخطر الاسلامى التركى · وشعرت الحكومة الاسبانية بضرورة وضع حد للخطـر المسلم الذى يأتكل داخلها ، فقررت أخيرا ان تأخذ برأى دون خوان بالاسلام فى « مملكة غرناطة » الا بطرد المسلمين منها ، وتشتيتهم فى بقاع مختلفة من اسبانيا · وكانت قد أجـــرت عملية الاستئصال هذه فى العام الذى سلف بالنسبة لمدينة « غرناطة » · أو لم يكـن القرار يا ترى مدفوعا بالرغبة فى أمتلاك العقار والارض الغنية أكثر مما هو مدفـــوع بالرغبة فى التخلص من التكتل ، وامكانات العودة الى الثورة فى تلـك المنطقة المنيعة ، والابعاد عن الشواطىء الجنوبية المعروضة لاحتمالات الهجوم التركى والمغربى ؟ ؟ ؟ · وفى 28 أكتوبر عام 1570 ، وبعد مرور عامين تقريبا على الثورة ، صدر القرار بنـــفى المسلمين من مملكة غرناطة الى داخل البلاد ومصادرة أملاكهم العقارية ، مع السماح لهم بحمل الاموال المنقولة فحسب (146) · وعين دون خوان أول نوفمبر مـــوعدا للتجمع فالتوزيع (147) · ونفذ القرار بشدة وصرامة بل بقسوة ووحشية · وكتب سفـــراء الدول الى حكوماتهم ان « حرب غرناطة قد انتهت » · وبالفعل فقد أعلن دون خـــوان استكانة مالقة ، وسيرا رنده (148) ·

وجرت عملية الترحيل · ويقدر (توماس غونزاليز) عدد المهجرين بمائة وخمسين ألفا (149) ، وان كان غيره ينقصه الى خمسين ألفـا فقط (150) ، وهكذا كانت مأساة

145) Fourquevaux, II, p. 277.

146) عنان ـ المصدر نفسه والصفحة السابقة ذاتها ·

147) Lapeyre, op. cit. p. 122.

148) A Philippe II, 9 novembre 1570, Codoin XXVIII, p. 140 (Braudel, p. 906. Note 2).

149) T. Gonzalez, p. 88-90, 369. D'après Lapeyre, op. cit. p. 122.

150) Braudel, op. cit. p. 906.

(النفى الاصغر) لمسلمى غرناطة قبل مأساة النفى الاكبر لجميع مسلمى الاندلس بين عامى (1609 ـ 1611) • وأخرج المسلمون من أرضهم الخصيبة التى جبلت كل ذريرة من ترابها ، ولثمانية قرون ونصف على الاقل بعرقهم ، وجهودهم ، وابتكارات فكرهم ، وحياتهم كلها ، بل وبرفاتهم • أخليت الارض ليتسلمها من ثبت فى ذلك الوقت أنهم غير قادرين على استثمارها (151) •

لقد كانت عملية التهجير القسرى الى قشتالة وجليقية(152)، بعد عملية «التنصيرالقسرى» السابقة ، لا تدل فى الواقع على نتاج صراع حضارتين ، وانما نتاج صراع التخلف والهمجية مع الحضارة العربية الاسلامية الرفيعة • فهل كما قيل كانت أوربا ، واسبانيا منها تعيش آنذاك ثورة فكرية انسانية ردت الى الانسان قيمته ؟ ؟ لقد كانت عملية التهجير بالاكراه وانتزاع الجذور من الارض مأساة مفزعة، حتى أن دون خوان نفسه الذى أشار بها ليمنع المناطق السهلية من مديد العون الى الجبل الثائر ، كتب الى صديق له يقول « انه أكبر حزن فى العالم ان تشاهد عملية ترحيل أناس عن أرضهم ••• لقد كانت الامطار والثلوج تتساقط بغزارة ، والرياح تعصف فى كل مكان ••• وهؤلاء التعساء يجرون أذيالهم ، وقد تعلق بعضهم ببعض ، وهم يئنون ويتاوهون لا يسع الانسان الانكار ان مشهد تهجير مملكة يثير فى النفوس أعظم شفقة يمكن تخيلها •• » (153) ، وقد مات كثير من المهجرين وهم فى طريقهم الى مناطقهم الجديدة ويقدر (لابير) نسبتهم الى المجموع بـ 20/7 ٪ (154) ، وذلك نتيجة الجوع والبرد ، والمرض ، وفتك مواطنيهم النصارى بهم •

ومع كل عملية التهجير القسرى هذه ، فان الستار لم يسدل على ثورة المدينة الباسلة • فالملك عبد الله بقى مع (2500) من اتباعه فى أعماق جبال البشرات ، يقومون بغزوات متفرقة حتى مارس 1571 • وكان حصاد موسم 1570 سيئا ، ونقص المواد الغذائية فى جنوب اسبانيا كبيرا ، وتفشت المجاعة بين الثوار ، واضطر بعضهم للاستسلام • الا أن

151) Lapeyre, op. cit. p. 122.

أنظر توزيعهم فى عنان ـ ص 358 وفى

152) Lapeyre, Géographie de l'Espagne Morisque, p. 122.
153) Don Juan à Ruy Gomez, 5 novembre 1570. Cité par Braudel p. 906.
154) Lapeyre, op. cit. p. 125.

الملك بقى صامدا فى موقفه ، ولم يجد الاسبان وسيلة للقضاء عليه سوى التآمر مع بعض جنده الناقمين ، لاغتياله • ورميت جثته من فوق الصخور ليراها الجميع ، ثم حملت الى غرناطة حيث عرضت بموكب رسمى ، وبملابسها الكاملة على الملأ وكأنها انسان حى • وسار من ورائها أفواج من المسلمين الذين سلموا أنفسهم بعد مصرع زعيمهم • وبعد انتهاء الطواف بها فى أنحاء المدينة ، حملت الى النطع حيث نفذ فيها حكم الاعدام ، وجزت الرأس ، ووضعت فى قفص من الحديد رفع فوق سارية فى ضاحية المدينة تجاه البشرات (155) وبقى هناك لثلاثين عاما (156) •

وكان دون خوان قد غادر غرناطة فى 30 من نوفمبر ليتسلم حربا صليبية كبرى ضد مسلمى الشرق العثمانيين ، بعد أن نجح فى قيادة صليبية صغيرة نسبيا ضد مسلمى اسبانيا ، وانما لا على حساب شرف اسبانيا المسيحية وضياع مستقبلها « كما قال المؤرخ ستانلى لين بول » (157) •

موقف الدولة العثمانية من الثورة

ويتساءل المرء ، وأحداث الثورة تترى ، مشتعلة لاهبة ، ومأساوية دامية لعامين كاملين ، ما كان موقف الدولة العثمانية منها فى الطرف الثانى من البحر المتوسط ؟ ؟ وهى العملاق الاسلامى فى القرن السادس عشر / العاشر الهجرى ، والامل الاكبر فى نفوس مسلمى اسبانيا ، والغول الكبير الذى لا يخيف اسبانيا وحدها وانما أوربا المسيحية كلها ؟ ؟

لقد أشير أثناء بحث اسباب الثورة ومجرى أحداثها ، وفى عدة مناسبات ، الى السفارات التى أرسلها الثوار الى القسطنطينية يطلبون فيها النجدة ، كما أشير الى فرقة من الاتراك (158) ، كانت مع الثوار ، وان هذه الفرقة التركية كانت مسؤولة

155) Marmol, op. cit. cap, VIII (تصدير عنان ـ ص 359)
156) Stanley Lane Pool, op. cit. p. 278.
157) Ibiol. p. 278.

158) ان المصادر العربية والتركية تعوزنا لتؤكد وجود هذه الفرقة أو عدمه • فالمصادر الاجنبية فى القرن السادس عشر تخلط بين (تركى) و (مسلم) أو بالاحرى لا تميز بينهما • ولذا يخشى ان تكون هذه الفرقة من المغاربة ، لا من الاتراك الانكشارية • وان كان فى بعض المواضع من كتاب (عنان) ، يشار الى (الاتراك المرتزقة) والى (المغاربة) كل على حده •

بشكل مباشر عن مقتل الملك الاول (محمد بن أمية) (159) • هذا بالاضافة الى التأكيد على ان الدولة العثمانية كانت تغذى بتفوقها العسكرى ، وحربها مع المسيحية الاوربية ، وبالنجدات التى يمكن ان تقدمها الثورة المستعرة • كما أشير الى ان استعدادات عسكرية كبيرة كانت تجرى فى استامبول ، والثورة قائمة ، وان اسبانيا كانت تخشى ان تكون موجهة ضدها ، ولدعم الثورة على أرضها • وكذلك تبين خلال العرض السابق ان الثورة كانت تمون من الجزائر بالرجال والسلاح والغذاء ، والجـزائر تحت التبعية العثمانية • ومع ان بعض المؤرخين يشيرون الى ان موقف بيكلرباى الجزائر (علج على) من الثورة كان فاترا (160) وأنه أظهر اهتماما بتحصين مدينته أكثر من اهتمامه بمساعدة ثـــوار غرناطة (161) ، وأنه أستغل الثورة ليحقق مطامح شخصية فى توسيع ولايته بفتـــح تونس (162) ، فانه لا ينكر أبدا بأن الجزائر قد قدمت عونا كبيرا لثوار غرناطة ان على المستوى الرسمى أو الشعبى • وقد يكون العون الرسمى غير كاف ، أو ليس كما هـو منتظر • أى ان « علج على » لم يتحمل مخاطرات كبيرة كالقيام بهجوم واسع على السواحل الاسبانية ، أو القيام بعملية انزال كبيرة • ولكن اذا ما أرد القيام بمثل هذه العمليات الضخمة ما الهدف الذى يريد أن يحققه ؟ ؟ هل هو احتلال اسبانيا واعادتها للمسلمين بمساعدة الثوار ؟ أم الضغط على الحكومة الاسبانية لتخفف من غلوائها وتسعى لمصالحة رعاياها ومعاملتهم المعاملة الانسانية اللائقة ؟ فاذا كان الهدف الاول هو المـــلاحق فان « علج على » ، بقواته البرية والبحرية غير قادر عليه وحده • ولا سيما ان عليه اختراق سور السفن الكبير الذى احاطت اسبانيا شواطئها به ، وهذا ما سيكلفه غاليا ، فلا بد له من استشارة القسطنطينية اذن فيه ، لا ليأخذ أمـــرا بذلك فحسب ، وانما لتحمى مؤخرته وتدعمه بالقوى اللازمة ، وتحمى الجزائر ذاتها اذا ما خلفها وراءه ، وتقوم بالمساعى الدبلوماسية الضرورية لتهيئة الجو السياسى العام لمثل هذا العمل الخطير • أما اذا كان الهدف مجرد الضغط على اسبانيا فان التموين المتواصل للثورة ، ورفدها بالمؤن والسلاح

159) انظر التفصيل فى عنان ــ ص 352 •

160) عنان ــ ص 351 •

161) Braudel, op. cit. p. 900.

162) Ibiol. p. 900.

واستطالة تلك الثورة قد يكون بحسب ظنه كافيا لمثل هذا الضغط ، ولا سيما أن الثورة قد أثمرت مرحلتين رئيسيتين من المفاوضات • ولكن كان لابد من دعم أقوى للمرحلة الثانية من المفاوضات وما بعدها • وفي الحقيقة لا يمكن في نطاق معطياتنا الوثائقية الحالية الحكم على موقف (علج علي) ، ولا سيما انه ليس حرا تماما في تحركاته لانه مرتبط بالقسطنطينية • فتفسير (بروديل) تقصير (علج علي) في دعم الثورة بأنه كان نتيجة تحرك العملاء الاسبان في الجزائر (163) أو رغبة منه في فك الحصار التجاري عن الجزائر ، اذ كانت اسبانيا قد منعت التجارة معها ، فامر مستبعد ، لان الجزائر قد تغنم من غزواتها على الشاطىء الاسباني أكثر مما تربحه من التجارة معها ، ويمكن تعليل عدم غزو علج علي للسواحل الاسبانية بأنه لم يكن قادرا على تحقيق أهداف بعيدة المرمى والاسطول الاسباني مرابط الى شرقه في مسينا ، والى غربه وشماله الغربي على طول الشواطىء الاسبانية ، أو بتعبير آخر والاسطول الاسباني مستعد لكل الطوارىء • كما ان مغامرة كبيرة مثل هذه لا يمكنه تحقيقها دون توجيه من استامبول • بل انه عندما احتل تونس ـ وقد يكون احتلاله لها ضمن خطة عامة مع الدولة العثمانية ـ فانه لم يستخدم أسطوله في عملية الاحتلال هذه •

ولكن هل اقتصر موقف الدولة العثمانية على هذا التأييد الجزائري المحدود ؟ من الصعب جدا رسم خط واضح وجلي لسياسة الدولة العثمانية من ثورة مسلمي غرناطة ، بل ومن مجموع قضية المسلمين المنصرين في اسبانيا ، من بدايتها الى نهايتها • فالدراسات حولها قليلة ، ولا بد من نبش الارشيفات للتعرف على جميع المراسلات الدبلوماسية لجميع الدول في المنطقة ، والرجوع الدقيق والمحص للارشيف التركي ، والاطلاع بخاصة على خفايا مفاوضاتها مع الدول الاوربية ، وموقع القضية الاسلامية الاندلسية منها ، اذا كان هناك لها موقع ••• ولا بد لهذا العمل ان يجرى ، للحقيقة التاريخية ولتقويم الاحداث • وانني لارى ان ملتقانا هذا قد فتح الكوة للدخول •• ومن اللازم متابعة الامر لاستكمال الصورة الحقيقية •

---

163) هناك وثيقة تتضمن تعليمات معطاة الى عميل اسباني للقيام بالاتصال مع (علج علي) •
163) J.B. Gonguzza della castelle. Sim. E° 487. Cité (Braudel. p. 900).

ان كل ما يمكننا الجزم به بالنسبة لموقفها من ثورة غرناطة ، وكما هو واضح للجميع ان الدولة العثمانية لم تقدم مساعدة فعلية ما للثورة ، مع أنها استمرت عامين كاملين . فلم تحرك خلال عام 1569 أسطولها فى البحر المتوسط ، ولم يقتـــرب من الشواطىء الاسبانية كما فعل عدة مرات فى عهد سليمان القانونى . بل ان الهدوء كان مخيما على هذا البحر منذ عام 1567 . وقد عزا المؤرخون هذا الجـــمود الى عوامل عديدة منها ان السلطان الجديد (سليم الثانى) ـ وهو أول الملوك الكسالى العثمانيين ـ كما أطلق عليه المؤرخ الالمانى رانكه ـ لم يكن جديرا بابيه سليمان الفاخر ، صاحب الفتوحات الضخمة . فهو مسالم لا يريد الحرب ، ولا يبغى سوى العيش فى قصره بين حريمه وخمرته ، التى كان اليهودى (جوزيف ناسى) يقدم له اللذيذ منها ، ويمنيه ان فى جزيرة قبرص ما هو أشهى منها وأطيب (164) . الا ان الواقع التاريخى يظهر ان الصدر الاعظم (محمد الصقلى) وهو من أبرز الشخصيات فى تاريخ الدولة العثمانية ومن أفاضلها ، كان هو المسيطر على الحكم فى عهـد السلطان سلـــيم الثانى حتى سمى « بالبادشاه المعنوى » (165) ، فضعف شخصية السلطان يبقى ذا أثر ضئيل فى مجريات الامور طالما ان المحرك للدولة عرف بصلاحه ، وحنكته ، ولا سيما أنه تدرب على يد السلطان السابق سليمان القانونى . ولذا لابد من البحث عن عوامل أخرى شلت تحرك الدولة العثمانية فى البحر المتوسط . وفى الواقع لقد كانت استامبول منشغلة فى هذا الوقت بقضايا كبيرة وملحة : أولهـــا حربها ضد روسيا لاستخلاص مدينتى قازان واسترخان منها . وكانت ترمى من وراء ذلك الى ربط البحر الاسود ببحر قزوين عبر قناة تصل الدون بالفولغا ، فتتوصل بذلك الى طرق آسيا الوسطى التجارية ، وتطوق بلاد فارس ، خصمها الاسلامى اللدود (166) . كما أنها كانت منشغلة باخماد ثورة اليمن ، وبمقارعة البرتغاليين فى المحيط الهنـدى وصدهم عن العالم الاسلامى العربى والهندى على السواء ، وبالسعى لفتح قناة تصـــل بين البحر المتوسط والبحر الاحمر .

164) De La Janquière, Histoire de l'Empire Ottoman, T. I, p. 209, Paris 1914.

165) Encyclopédie de l'Islam. 1ʳᵉ édition, art. Sokolli Muhammad.

166) Cambridge Islamie History. Vol. I, pp. 335-36. Cambridge 1970, Braudel, op. cit. p. 891-892.

الا ان هذا الجمود فى البحر المتوسط الذى لوحظ اثنـاء عامى 1567 ـ 1568 شرع يـــذوب فى أواخـــر عـــام 1569 ، أى بعـــد مـــرور عـــام على ثورة غرناطة ، فقد تناقل سفراء الدول فى استامبول ان دار الصناعة البحرية فيها قد استيقظت مـن خمولها فجأة ، وان الدولة العثمانية تقـــوم باستعدادات عسكرية واسعة ، ولكنـهم لا يعرفون بالضبط هدفها ، فقد امرت ببناء (20) ماعونا (سفينة كبيرة) فى نيكوميديا ، وبصب (25) مدفعا ، واستدعاء (10،000) مجدف من الاناضول ، واعداد (250) سفينة حربية وأشيع أن هدف الحملة سيكون مالطة (167) أو حلق الوادى (168) (الغوليت) أو قبرص (169) • كما أشارت بعض الرسائل الى ان وجهة الاسطول التركى ستكون المياه الاسبانية نفسها (170) •

وفى الوقت ذاته ، تحركت على الصعيد الدبلوماسى • فعادت الى تدعيم تحالفها مع فرنسا ، وكان قد فتر نتيجة التقارب الفرنسى ـ الاسبانى عام 1567 ـ 1568 • وطلبت بشكل صريح وعلنى ميناء (طولون) ليكون مشتى لاسطولها (171) • وعندما عـــاد مبعوث فرنسا (كلود دو بورغ) من العاصمة العثمانية حاملا تجديدا للامتيازات ، فانه كان يرافقه سفير تركى فوق العادة • وقد علم أنه جاء ليطلب من ملك فرنسا تهيئه مؤن على سواحل البروفنس واللانغدوق للاسطول التركى (172) • بل كانت هناك عروض لتوثيق عرى التحالف كأن يكون تاج بولونيا لدوق انجو وان يزوج امير ترانسلفانيا من مرغريت دوفالوا (173) •

وفى هذه الاثناء كان علج على يحتل تونس برا ، ويهدد المركز الاسبانى فى حـــلق الوادى من الداخل •

فهل هذه الاستعدادات الحربية والسياسية كانت خطوات تمهيدية لهجوم مركز على اسبانيا ، لا لدعم ثورة المسلمين فيها فحسب ، وانما لتحقيق مطامح عديدة أخرى ؟ ان

167) Avis de Corfou arrivé le 10 janvier 1570. Sim. E° 1058. f° 13 (Braudel, p. 911. Note 3).
168) L'Evéque de Mans à Charles IX, Rome, février 1570, B.N. Paris FR/7989, f° 5, 145 vo. Braudel, p. 911. Note 3.
169) Thomas de Carnoça au Roi. Venise, 25 février 1570, Sim. E° 1327 (Ibiol.).
170) Castagna à Llessandrino, Cordoue, 11-12 mars 1570 (Ibiol.).
171) Granchamp de Grantrye à Catherine de Médicis, C. 16 octobre 1569, Charrière III, p. 94.
172) Fourquevaux. M. 10 mars 1570, II, p. 202.
173) Braudel, op. cit. p. 910.

المؤرخ (بول هير) (174) عند كلامه فى كتابه عن حرب قبرص ، وبعض المؤرخين الآخرين يعتقدون أن الدولة العثمانية كانت جادة فى مساعدة ثوار غرناطة ، وان الاستعدادات كانت من أجلهم · فقد عرف ان (محمد الصقلى) الصدر الاعظم كان يعمل حثيثا لهـذا الهدف · فقد اشتهر بايمانه الاسلامى العميق ، وبتأييده لسياسة التضامن الاسلامى فى كل البقاع · ولذا فانه سعى للابقاء على السلام مع فارس ، واستقبل سفارات أمراء الهند المسلمين بالترحاب عندما أتوا يطلبون العون ضد البرتغاليين المستعمرين ، وكذلك فعل مع سفـــارة ثوار غرناطة · لقد كان يعمل ما وسعه ذلك ، لمصلحة الدين وهيبة الاسلام · وقد أظهر اهتماما كبيرا بنشاط البرتغاليين قرب سواحل العالم الاسلامى · وقرر العمل على تحرير سفن الحجيج الآتية من الهند الى مكة من شرورهم ، وكذلك السفن المحملة بالتوابل والخزف الصينى المنطلقة من المحيط الهندى الى جدة (175) · ولـــذا فلا يستغرب البتة ان يفكر جديا بمديد العون الى مسلمى غرناطة على الرغم من بعد الشقة· وهذا العون قد يكون فتحا اسلاميا جديدا لاسبانيا ، بما حمله هذا الفتح من جهاد ومغنم اقتصادى واستراتيجىومعنوى· ولم لا ؟ · وخط الهجوم العثمانى العام الذى أشرنا اليه سالفا هو بهذا الاتجاه ؟ أو ليس خط الدفاع الذى حاولت اسبانيا ان تنشئه على سواحل المغرب المتوسطية منذ سقوط غرناطة بيدها ، هو دليل على ترقبها مثل هـــذه الخطوة العثمانية ؟ بل انها ازدادت اقتناعا بهذا ، أثناء ثورة غرناطة واستعدادات الدولـــة العثمانية · حتى أنها سعت عبر دائرة من العملاء ، من بينهم (خوان باريلى) أحد فرسان مالطة ، لتفجير دار الصناعة البحرية فى القسطنطينية ، فى أواخر عام 1569 (176) ، أى فى الفترة التى عاودت نشاطها فيها استعدادا لحرب كبيرة قادمة ، أشير انها قد تكون السواحل الاسبانية · ويذكر (هير) ان العديد من الوثائق تثبت استعداد الدولـــة العثمانية لخوض هذه المغامرة الصعبة · ويقصد بها رسائل بيل البندقية فى القسطنطينية الى حكومته ، التى يذكر فيها محادثاته مع الصدر الاعظم محمد الصقلى بهذا الشـــان ، وتصريحات هذا الاخير له بمشروعه الضخم ــ وقد كان الاثنان صديقين ــ · واذا صـــح

174) Paul Herre, Weltgeschichte am Mittelmeer. Leipzig, 1930 (cité par Braudel, p. 908).
175) Encyclopédie de l'Islam. Art. Sokolli Muhammad.
176) Braudel, op. cit. 985-986.

هذا ، ما الذى جعل الدولة العثمانية اذن تغير رأيها ، وتحول استعداداتها الكبيرة ، لحرب قريبة منها وهى حرب قبرص ؟؟

يفسر (هير) ، و (دولا جونكيير) قبله ، ومؤرخون آخرون ، ان تنازل (محمد الصقلي) عن مشروعه ، كان بسبب الصراع الذى كان قائما بينه من ناحية ، وبين السلطان سليم الثانى وبطانته من ناحية أخرى من أمثال « مصطفى لالا باشا » مربيه ومعلمه ، و « بيالة باشا » أمير الاسطول الذى كان قد فقد حظوته عند السلطان وأخيرا اليهودى (جوزيف ناسى) · وكل هؤلاء كانوا يدعمون بكل قواهم ونفوذهم عند السلطان ، حرب قبرص ضد البندقية ، لاستخلاص هذه الجزيرة منها ، بدلا من مساعدة ثوار غرناطة ومهاجمة اسبانيا · فالنصر بالنسبة اليهم هو مؤكد هنا لقرب قبرص،وضعف تحصيناتها، وهم يرغبون فى نصر سريع ، يعيد الى بيالة باشا حظوة السلطان ويدعم مركزه أميرا للاسطول ، ويزيد من نفوذ مصطفى باشا الذى أعطى فعلا قيادة الحملة (177) ، ويحقق لليهودى الماكر ما يبغيه · ان شخصية هذا اليهودى شخصية تثير الاهتمام : فهو من أصل برتغالى هاجر الى القسطنطينية بعد طرد البرتغال لليهود من أراضيها ، وقد عمل فيها بالتجارة ، وربح أرباحا طائلة ، وتقرب من السلطان ، وكان يلقب باسم (دون ميغيز) · وكان له نفوذ عجيب على السلطان « سليم الثانى » حتى أنه منحه فى عام 1566 لقب (دوق ناكسوس) · وكان مموله الاكبر ، ويمده بالمال على نمط كان يفعله آل فوغر المولين ، مع آل هابسبورغ فى القرن السادس عشر · وقد عمل جاسوسا ، ويقول عنه (بروديل) « أنه قد ولد جاسوسا » (178) ، فقد كان لـ (ميكاس) هذا أو لـ (ناسى) كما سمى كذلك صلات مع غراند وقية طوسكانا ، وجنوه ، واسبانيا ، وربما البرتغال نفسها · وفى الحقيقة كان يعمل فى كل المجالات ليحقق مصلحته الخاصة وربما كذلك مصلحة بنى قومه اليهود المطرودين من اسبانيا والبرتغال · ان فكرة وطن قومى لليهود كانت فى ذهنه منذ تلك الفترة ، ولذا كان يضغط بكل ثقله المادى ، وحيله النفسية واغراءاته على السلطان (السكير) لينفذ مشروع احتلال جزيرة قبرص ، وانتزع منه وعدا

177) Edward S. Crusy, History of the Ottoman Empire Beirut 1968, p. 217.

178) Braudel, op. cit. p. 909 (l'espionné).

بأن يكون ملكا عليها ، وتكون ملاذا لبنى قومه (179) · وقد عمل على ادانـة التجـــار الفرنسيين العاملين فى الشرق بفوائد كبيرة ، وقد تراكمت هذه الديون حتى غدت شبه قضية سياسية وترت العلاقات الفرنسية فترة محدودة مع الدولة العثمانية (180) · ولكن هل كان ميكاس يلح على قبرص لتلك الاهداف المذكورة فحسب ، وهى بحد ذاتها ربح ضخم ؟؟ أم كان يعمل فى الوقت ذاته لصالح اسبانيا ؟ وقد تنـاول ثمـن ذلك ؟ ويقول (هير) ان أقل ما يقال عن شخصية ميكاس انها (شخصية غير نظيفـة) (181) وانها الى جانب الدوافع السابقة لتحركها ، كان هناك حقدها على البندقية التى صادرت قسما من أموال زوجته (182) · وبالفعل فان ناسى بدأ منذ 1569 يضع شعارات المملكة القبرصية فى رنوكه الخاصة · وقد نسب اليه حريق ترسانة البندقية فى (13 سبتمبر 1569) (183) الذى تسبب بخسائر ضخمة · وكان هدفه بالطبع اضعاف قواهـــا البحرية لتنهار مقاومتها فى قبرص بسرعة ·

وعلى الرغم من أنه من الخطر علميا النفاذ الى صفحة كبيرة من التاريخ العثمانى عبر سيرة الاشخاص ، وما حيك حولهم من القصص ، الا أنه يمكن التأكيد أنه كان لناسى دور خطير فى تحويل العملية العسكرية الى قبرص ، لتأثر السلطان الكبير به ، ولسيطرته على الناحية المالية فى الدولة ، ولدعم لالا مصطفى باشا وبياله باشا له · فصراع السلطة والحظوة والمصالح اليهودية كانت عاملا هاما فى الانحراف نحو قبرص ، والابتعاد عـن مساعدة ثوار غرناطة ·

ولكن يجب ألا ننسى كذلك تجاوب فرنسا الضعيف مع طلبات السلطان أو بالاحرى مع طلبات محمد الصقلى · ففرنسا كانت قد مزقتها الحرب الاهلية الدينية الثالثة · وكان الملك شارل التاسع متأثرا جدا بفكرة التنكر للتحالف مع الاتراك اذ راح بعض رجال الدين الكاثوليك يعلنون ان ذاك التحالف كفر والحاد · واذا كان قد بعث بكلود دو بورغ لاعادة

179) Lettre de M. de Gantrie de Granchamp à Charles IX, Constantinople, 9 octobre 1569 Charrière. Les Négociations de la France au Levant, t. III, p. 87-88 et 90.

180) Charrière, op. cit. 67. Note p. 90.

181) Herre, op. cit. p. 13, cité par Braudel, op. cit. p. 909.

182) Charrière, op. cit. p. 87-88.

183) Julien Lopez au Roi. Venise, 15 septembre 1969. Sim. E° 1326, cité par Herre, p. 15 (Braudel, p. 909).

العلاقات نشيطة بين الطرفين ، فلانه أحس بضرورة هذا التحالف مع تكاثر أعدائـــه ، ومع رغبته فى تنشيط تجارة بلده فى الشرق (184) الا أنه مع ذلك كان من العسير عليه أن يقوم بعمل عسكرى واضح لصالح الاتراك ومسلمى غرناطـــة أمـام الرأى العـــام الكاثوليكى • ولذا فانه وافق على القبض على سفيره (كلود دو بورغ) فى البندقيـة ، أثناء عودته من القسطنطينية وعلى مرافقه التركى • وعندما سمح لهما بمغادرة البندقية فلكى يقبض عليهما ثانية فى (الميراندول) (185) • ومع ان فرنسا كانت قـــد هدأت أحوالها ودخلت فى سياسة عداء صريحة ضد اسبانيا ، فانها لم تكن مستعدة للوقوف مع الاتراك ، فهى تريد ، كغيرها من الدول الاوروبية أن تكون فائدة التحالف لطـرف واحد هو فرنسا • ولذا فانها لم تظهر أى تجاوب لتعيد ما فعلـه فرانســـوا الاول عام 1543 عندما استضاف الاسطول العثمانى فى طولون • والدولة العثمانية بـدورها لا يمكنها دون تحالف قوى مع فرنسا القريبة من اسبانيا ، أن تغامر بالانتقال مـــن أقصى الشرق الى أقصى الغرب • ولا سيما القواعد الاسبانية على سواحل المغرب تهـدد قواعدها • هذا بالاضافة الى أن تدخلاتها فى المغرب الاقصى قد أخفقت ، ووقف هـــذا المغرب ــ وهو الخطوة القريبة من اسبانيا، والمعبر لها أثناء الفتح العربى الاسلامى الاول ــ موقفا معاديا ومتقاربا مع اسبانيا فى عهد خليفته (مولاى عبد الله بن الغالب بالله) (1557 ــ 1578) (186) •

وقد يكون كذلك من ضمن المثبطات لعزيمة الدولة العثمانية عن خوض غمار الحـرب البعيدة مع اسبانيا فى شتاء عام 1570م ، ان الاجواء فى البحر المتوسط فى ذلك العـام كانت من أسوء ما مر على هذا البحر من أجواء من سنين عدة ومن أقساها (187) • ولو أن هذا العامل ليس عاملا حاسما ، لان التحرك البحرى فى البحر المتوسط القريب والبعيد كان لا يجرى عادة قبل الربيع ، وكانت الثورة لا تزال قائمة •

184) اميل خورى ــ عادل اسماعيل : السياسة الدولية فى الشرق العربى •
ج 1 بيروت 1959 • ص 16 ــ 17 •

184) Charrière, p. cit. t. II, p. 744-745. Note
185) Fourquevaux, M. 10 mars 1570, II, p. 202. Braudel, op. cit. p. 910.
186) Ch-André Julien, op. cit. p. 209.
187) V-Roi de Naples au Roi, N., 11 mars 1570, Sim. E° 1058, f° 34.

ويضيف (بروديل) الى تلك العوامل بعد المسافة ، حتى أنه ينفى تماما تفكير الدولة العثمانية بغزو اسبانيا ، ومساعدة ثوار غرناطة • ويتعلل بأن الامر كان غير ممكن تقنيا عبر تلك المسافة الطويلة ، ودون مكان قريب أمين يقضى الاسطول فيه شتاءه • بل انه يطعن فى امكانية كون رسائل بيل البندقية عن المشروع دليلا على رغبة محمد الصقلى فى انجاد تلك الثورة •• لانه قد تكون محادثات محمد الصقلى مع ذلك البيل ذرا للرماد فى العيون ، وتحقيقا لسياسة السلطان سليم الثانى والدولة العثمانية نفسها فى احتلال قبرص • ذلك المشروع الذى كان السلاطين قبل سليم الثانى يتوقون اليه لاسباب استراتيجية ودينية واقتصادية • فهو بحديثه مع البيل عن مساعدة ثوار غرناطة يصرف ذهن البندقية عن الخطر الذى يهددها عبر الاستعدادات العسكرية التى تهيأ ، ولا سيما ان محمد الصقلى قد ربى فى بلاط السلطان سليمان الفاخر على ضبط النفس والكتمان والتظاهر • وما اخفاؤه وفاه السلطان سليمان لاكثر من سبعة أسابيع (188) ريثما يصل ابنه ويتسلم العرش والحرب القائمة مع المجر آنذاك ، الا دليلا على ارادته تلك • فكيف يتحدث بهذا الانفتاح مع بيل البندقية ؟ بل كيف يتقدم بذلك الطلب الصريح الى فرنسا حول ميناء طولون ؟ ألم يكن بعمله هذا يحاول أن يبدد كل شك في ذهن البندقية بأن الاستعداد العسكرى موجه ضدها ؟ ويضغط فى الوقت ذاته على اسبانيا بطريق غير مباشر ؟ ثم هل كان قادرا بالفعل على مقاومة السلطان وحاشيته فى اطار مشروع قبرص دون أن يتعرض لنقمة السلطان عليه ؟ قد يكون كثيرا من تساؤلات (بوردیل) المطروحة صحيحة ومنطقية ، وقد يكون محمد الصقلى قد اضطر أن يميل مع الكفة الراجحة فى الصراع ، أو قد يكون متبنيا مشروع مهاجمة قبرص منذ البدء ، ولكن لم لا تكون اسبانيا وغرناطة بعد قبرص ؟؟ وبذلك يرضى أهواء حاشية السلطان ، ويحقق للدولة العثمانية مشروعا عزيزا على نفسها منذ وقت طويل ، وفى الوقت ذاته يقدم العون الكبير لثوار غرناطة المسلمين ويصل الى مكاسب عديدة أخرى • ؟ ان قبرص فى الواقع ذات مركز ستراتيجى هام بالنسبة للامبراطورية العثمانية واحتلالها خطوة رئيسية هامة فى أى تحرك كبير تبغيه الدولة فى البحر المتوسط • ومن ثم فهو ضمان أساسى لمؤخرة الدولة اذا ما انتقلت قواتها من أقصى الشرق الى الغرب • ألم تفعل الدولة العربية

188) Creasy, op. cit. p. 196.

الاسلامية ذلك قبل انتقالها الواسع غربا ؟ فالدولة العثمانية ، على الرغم من سلامها مع البندقية لمدة ثلاثين عاما تقريبا ، وتمسح هذه الاخيرة الاقتصادى الدائم بها ، لصيانة مصالحها التجارية فى امبراطوريتها ، كانت تشك باحتمالات عودتها الى الحرب ومهاجمة المراكز التى انتزعتها الدولة العثمانية منها ، وباستنجادها بالقوى المسيحية وتحالفها معها كما حدث عام 1537 · واذا ما فعلت ذلك فانها تشغل القوى العثمانية فى الشرق ، فى وقت تكون فيه معظم هذه القوى بعيدة عن مسرح الاحداث ·

وفى الواقع هاجم العثمانيون قبرص فى يوليو 1570 ، بعد أن حاولت الدولة العثمانية الحصول عليها سلما (189) ، ولم تنجح ، منذ شهر ففريه · وكانت ثورة مسلمى غرناطة لا تزال فى أوجها ، ولا تنفع فيها قوى دون خوان ، ولا مفاوضات صلحه · وفى سبتمبر سقطت (نيقوسيا) ، وتبعتها بقية الجزيرة ، ولم يبق بيد البندقية سوى فماغوستا ·

ويبدو أن المسيحية الاوروبية كانت أكثر ادراكا منا الآن لابعاد المخطط التركى الاسلامى وبخطر احتلال الدولة العثمانية لقبرص ، الذى اختير له هذا الوقت بالذات الذى كان فيه فيليب الثانى منشغلا ، وبعنف بثورة المسلمين الكاسحة فى غرناطة من ناحية ، وثورة البروتستان الخطيرة فى الاراضى المنخفضة · أو بتعبير آخر ، فى وقت كان فيه الانقسام المسيحى الاوروبى والتهديد الاسلامى لاوروبا من الشرق والغرب والجنوب والتعاون البروتستنتى التركى الاسلامى ، تفاعل كلها لتنذر الكنيسة الكاثوليكية بخطر قد يكون ماحقا لوجودها · وجاءت البندقية تستجدى من البابوية عونها ، فهى تريد أن تحول حربها من حرب محلية محدودة الى حرب عامة · وقامت البابوية بدورها بالاتصال بفيليب الثانى ملك اسبانيا · وكان اللقاء مع مبعوث البابا فى قرطبة ، وثورة المسلمين تلعلع أصداؤها بالقرب منها ، والجو مشحون بالمخاطر المرتقبة ، وبحماسة دينية فائضة · وفى هذا الجو المتفجر بالروح الصليبية ، وضعت نواة صليبية جديدة ضد الاتراك العثمانيين المسلمين ، أى نواة التحالف الثلاثى بين البندقية، واسبانيا ، والبابا ، فاذا كانت ثورة غرناطة عاملا فى تحقيق احتلال قبرص ، فان موافقة فيليب الثانى على الانضمام الى الصليبية الجديدة كان تحت تأثير ثورة غرناطة المسلمة وضغط ما أثارته من مخاوف ماض قد يعود · أو ليس هدفه من الصليبية الجديدة

189) Granchamp au Roi de Constantinople, le 9 février 1570, Charrière III, pp. 101-104.

القضاء على كل ما يمكن أن تؤدى اليه ثورة المسلمين فى غرناطة من امتدادات وتشعبات ؟ ثم الانطلاق فى خط هجومى يستوعب العالم العربى الاسلامى فى المغرب على الاقل ؟ لقد حاول التجمع الاسبانى البابوى البندقى أن ينجد قبرص بأسطول مشترك بقيـــادة (دوريا) ، وشروط تكوين الحلف لما توقع بعد • الا أن الجزيرة كانت قد سقطت عنـــد اقترابه من سواحل آسيا الصغرى ، ولكن التجمع لم يتفرق • أو ليس هذا دليلا عـــلى ادراك المسيحية الاوروبية آنذاك أن قبرص لن تكون نهاية المطاف فى المخطط العثمـانى التركى ؟ ودعم ذاك التجمع بالتوقيع عليه فى 20 أيار 1571 • وكانت (العصبة) المكونة دفاعية ـ هجومية ، وموجهة ضد الاتراك ، والدول التابعة لهم فى المغـرب (طرابلس ، وتونس ، والجزائر) (190) وأعطيت قيادة الاسطول المشترك الى (دون خوان) قاهـر ثورة مسلمى غرناطـــة •

وتواعد الحلفاء الثلاثة على التلاقى فى (أوترانتو) لانقاذ قبرص واسترجاعها • وفى هذه الاثناء كانت الدولة ا لعثمانية تضاعف من قوة أسطولها (191) وتعد قواتها ا لبرية باتجاه البانيا ودالماشيا ، بل ان الاسطول خرج بقيادة قبطانه وتوزع (نيغربـــون) وهى القاعدة التموينية ا لكبرى وبين قبرص ، وكانت جميع المراكز البحرية على شاطىء المورة تعد المؤن الغذائية • وهذا كله دليل على عمليات عسكرية مرتقبة فى الغرب (192) ومنذ شهر يونيو 1571 ، اتجه معظم الاسطول التركى مدعما بسفن علج على نحو جزيرة كريت ، وهاجم بعض موانئها الا أنه لم يبق فيها بل اتجه نحو الغرب ، واجتاح الجـــزر الدالماشية وشاطىء بحر الادرياتيك حتى وصل خليج البندقية • وسقطت (كورفـــو) ما عدا قلعتها • وامتد الاسطول من كورفو الى مودون • وفى الواقع لقد استنفذ الاسطول العثمانى قواه فى عمليات جانبية غير مثمرة • وفى السابع من أكتوبر عام 1571 لاقاه الاسطول الحليف فى مدخل خليج ليبانتو على ساحل المورة • ووجد الاسطولان نفسيهما وجها لوجه (230 سفينة تركية مقابل 208 مسيحية) ، ونجح الاسطول المسيحى فى تطويق الاسطول التركى وضربه بشدة • وكان النصر الاوروبى كاسحا ، اذ لم ينجـح من الاسطول العثمانى سوى (30) سفينة فقط بقيادة علج على •

190) Braudel, p. 931.
191) Corfou, 3 février 1571. Sim. E° 1059, f° 62 (Braudel, p. 935, note 1).
192) Braudel, p. 935.

واذا كانت (ليبانتو) هى نهاية مركب النقص الذى كانت تحسه أوروبا أمام القوة العثمانية العملاقة ، ونهاية للتفوق التركى البحرى ، وفتحا لباب المشروعات الاوروبية النصرانية الواسعة لابتلاع العالم العربى الاسلامى فى المشرق والمغرب ، من أمثال مشروعات التبشير للفرق المسيحية المختلفة ، ومشروعات اقتسام الامبراطورية العثمانية (193) ، فان هذه المعركة فى واقعها لم تكن سوى حاجز أوقف سير أوروبا نحو مستقبل كان يبدو مظلما ، وبدد المخاوف الاسبانية القاتلة من غزو تركى اسلامى لارضها ، يبتلعها ، ويعيدها سيرتها السابقة • لقد كانت « معركة ليبانتو » فى الواقع انتقاما مسيحيا واسبانيا حارا من ثورة مسلمى غرناطة ••• فهذه المعركة هى التى أسدلت الستار فى الواقع على هذه الثورة وانهتها • وقد يقول قائل وكيف ؟ وقد انتهت الثورة بمقتل مليكها مولاى عبد الله فى مارس 1571 ومعركة ليبانتو جرت فى السابع من أكتوبر من العام نفسه أى بعد خمسة أشهر تقريبا من انطفاء شعلة الثورة ؟ صحيح ان الثورة أخمدت فى غرناطة بعملية الرحيل القسرى ، الا أن المسلمين الذين حملوا تحت العذاب الى قشتالة، وزرعوا فيها، ألم يكونوا يحملون جرثومة تلك الثورة حية كامنة فى ذواتهم ؟ فلو نجح الاتراك العثمانيون فى معركة ليبانتو ، وتقدموا منتصرين نحو نابولى وصقلية ألم يكن سهلا اعادة اشغال الثورة ؟ وعلى نطاق أوسع ؟ أفلم ينتشر المسلمون المهجرون فى مدن قشتالة ، ويدعموا المسلمين السابقين فيها ؟ بل ألم يحملوا اليهم معهم تلك النطفة الحياتية الثورية ، وقد ازدادت نماء وانتعاشا بنقمة الترحيل والمنفى ؟ •

لقد أسدلت ليبانتو الستار على ثورة مسلمى غرناطة ، الا أنها مع عملية التهجير القسرى لم تسدل الستار على قضية المسلمين المنصرين فى اسبانيا • اذ ستعاود هذه القضية اقلاقها اسبانيا ، وبشكل أكثر حدة فى أواخر القرن السادس عشر وحتى عملية النفى الاكبر ، واذا كان النفى الاكبر لمسلمى اسبانيا قد أغلق بابها قضية ، الا أن « الحضارة العربية الاسلامية » التى حوربت فى أشخاص ممثليها المسلمين على أرض اسبانيا ، « ما نفكت تلعب دورها وتؤثر فى حضارة شبه الجزيرة الايبرية » • (194)

193) أنظر Djuvara, Cent projets de partage de la Turquie, Paris 1914
Braudel, p. 940.

194) Braudel, op. cit. p. 594.

انهيار بلاد الاندلس
وموقف دول الاسلام
واسطنبول من ذلك

أحمد توفيق المدني
مؤرخ ووزير سابق ـ الجزائر ـ

بسم الله الرحمن الرحيم

رفقائى الكرام • ابنائى الميامين •

اعترف لكم قبل كل شيء بكل تواضع وبكل اخلاص، اننى أكاد أعترف بعجزى عن السباحة فى هذا البحر الخضم ، المتلاطم الامواج ، لجر المأساة الاندلسية الرهيبة، التى لا يزال المسلمون ، ولا يزال العرب منهم خاصة ، يذرفون حولها من الدموع ، ما لو بذلوا على مقداره من الدم ، لكانت حضارتنا العربية الاسلامية لا تزال الى يوم الناس هذا ، زاهية ، زاهرة ، بفردوس كان جنة من جنان الخلد ، وكان روضة فيحاء للادب ، وكان مصنعا ضخما ، يخرج جلة العلماء ، وكبار الفلاسفة ، وعباقرة الفن ، ذلك ما سلمه اجدادنا ، جهلا منهم وغرورا ، وانصياعا لعصبية جاهلية هوجاء ، لاعدائهم واعداء الانسانية والمدنية والنور • انى اصرخ بها كلمة حق وصدق ، تصدر بعد دراسة وامعان : ما أخذ أعداؤنا بلاد الاندلس قوة واقتدارا ؛ بل نحن سلمناها لهم ، بتفرق عصبتنا ، وبحروبنا الاهلية الاجرامية ،

وبدسائسنا الخسيسة ، وبمؤامراتنا الدنيئة ، وبارتكابنا كل ما نهى الله عنه من اثم ومن عدوان ٠

ان هذا الموضوع الثرى ، العميق ، لحرى بدراسة جدية مركزة ، مدققة ، تقتضى سنوات من العمل ، وتسويد عدد من المجلدات الضخمة ، فكيف بنا ونحن ضمن اطار جد ضيق ، وليس لنا من الوقت الا ثلاثة أرباع الساعة ، علينا ان نستوعب خلالها الحوادث واسبابها ، وان نطوف أثناءها بميادين الدسائس والفتن ، والقتال المرير ضد العدو وضد الشقيق فى نفس الوقت ، وان نلقى نظرة فاحصة علـى مختلف ارجاء العـالم الاسلامى الفسيح ، لنرى كيف كان يحيا ، وكيف كان يجاهد ، وكيف كان يحتضر ، وكيف كان يستسلم لموت بشع ، وهو يخال انه ينعم باطايب الحياة ، وانه يتقلب فوق بساط النعيم ٠

فلنقدم اذن على محاولة هى من الصعوبة بمكان ، ولندخل الموضوع من أوسع أبوابه، فنقول أول ما نقول : ان المأساة الجارحة التى تشغلنا اليوم ، ليست هى مأساة سقوط بلاد الاندلس ، بل ان حقيقة المأساة ، انما هى تلك العوامل التى أدت الى سقوط بـلاد الاندلس ، وانهيار مدينة شامخة الذرى ، كانت ساطعة النور ، فخلفت بعدها الظلام الدامس ، والفراغ الرهيب ٠

اننى أحصر هذه العوامل الاساسية ، مع محاولة الايجاز والاختصار فى أربـع نقط ، ودون اضاعة لوقت هو حقا نفيس ، الج صميم الموضوع ، فأقول :

ان العامل الاول من عوامل انهيار بلاد الاندلس ، كان سلوك الاندلسيين انفسهم ٠ فالدولة الاسلامية الاخيرة ، وهى مملكة بنى الاحمر بغرناطة ، كانت ، حسبما يرويـه كل رجال التاريخ من عرب ومن أجانب ، قوية برجالها ، قوية بسلاحها ، زاخرة بمقاتلين من ابطال صناديد ، فيها من المدافع الضخمة ، ومن البارود ، ما كان يكفى لا للدفـاع فقط عن حدود البلاد وقلاعها ؛ بل كان يكفى لاسترجاع الكثير مما أخذه العدو منها ٠ لكن الله قد اصابها مع تلك القوة ، ومع ذلك الحول ، فى بصيرتها ، فانهـا لا تعـمى الابصار ، ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور ٠

يقول احد كرام الباحثين من المغرب الاقصى ، هو الاستاذ عبد الكريم التواتى ، ما نصه : (فى الوقت الذى كانت فيه الارادة الاسبانية تتجـــه نحو الوحـــدة ، وتناسى الخلافات ، كانت الارادة العربية على العكس من ذلك ، وحتى فى هذه الاوقات الحاسمة ، لم يستطع اصحابها ان يتوحدوا ، ويجمعوا صفوفهم ، وتلك كانت عادتهم منذ العهود الاولى التى كان الدين الاسلامى صاحب الكلمة النافذة فى هذه البلاد • وانما صاحبتهم عنصريتهم القبلية ، وما يتبع هذه العنصرية من تضارب فى المصالح الشخصية التى لم يستطع العرب ان ينسوها حتى فى احلك الظروف • وقد رأينا ان العرب لم يتورعوا ، بعد ان قسموا الاندلس العربية الى امارات وممالك متناحرة متخاذلة ، تولى أمورهـــا ملوك اقزام ، ان يثيروها حروبا شعواء ضد بعضهم البعض ، وان يستعينوا فى هـــذه الحروب باعدائهم • الى ان يقول : واستمرت هذه الحروب الاهلية التى كانت تصيـــب الوحدة العربية الاسلامية فى الصميم ، مخلفة جروحا عميقة ، وندوبا فظيعة فى كـــل القلوب والنفوس ، حتى اصبحت مع مرور الايام حروبا انتقامية ، تدور رحاها سجالا بين مختلف الامراء والقادة ، والاسبان فى كل ذلك ، يذكون نار هذه الحروب ، ويؤججون لهيبها ، باغراء زعيم على زعيم ، ونصر فريق على فريق ، حتى اذا حفرت أخاديد سحيقة بين الاخوة والاشقاء ، أخذوا ينزلون ضرباتهم المدمرة على الكل ، وينالون من الجميع) •

هذا ما رأيت الادلاء به من كلام باحث خبير ، عن أولئك الذين كانوا من صناديد الابطال فآل بهم الخلاف والتطاحن الدموى الاخوى ، الى تسلم سيفهم لعدوهم ، بكف جبان رعديد • لا والله لن يغفر لهم التاريخ ذنوبهم ، ولا يجد أى باحث منصف سبيلا للدفاع عن ذلك السلوك المعوج الاهوج ، الذى ادى الى ارتكاب تلك الجرائم المنكرة •

أنظروا وتأملوا ، رفقائى وابنائى :

بينما يوحد الاسبان صفوفهم ، ويجهزون جيوشهم ، وبينما يعلن الملك فرنانـــد والملكة ايزابيلا ، عزمهما على محق آخر دولة اسلامية ببلاد الاندلس ، وبينما يعلن البابا فى رومة ان هذه الحرب ضد المسلمين انما هى حرب مقدسة ، وان من قتل فى معامعها مات شهيدا ؛ وبينما يفرض البابا على المسيحيين كافة ضريبة « الصليبية » من أجـــل تحطيم المسلمين لا فى بلاد الاندلس فحسب • بل فى عقر ديارهم بالمغرب العـــربى ،

نرى العلامة المقرى الجزائرى يقول عن الاندلس يومئذ : (وكان السلطان ابو الحسن ، قد استرسل فى الملذات ، وركن الى الراحات ، واضاع الاجناد ، واسند الامـر الى بعض وزرائه ، واحتجب عن الناس ، ورفض الجهاد ، والنظر فى الملك ، وكثرت المظالـم والمغارم ، فانكر الخاصة والعامة منه ذلك ، وكان أيضا قد قتل كبار القواد) ٠

نعم ٠ قد ثار عليه اخوه محمد بن سعد ؛ الملقب بالزغل ، أى الفتى النبيل المقدام، وانتصب ملكا بمالقه ، وهكذا انقسمت مملكة غرناطة الى قسمين ، امام العدو ؛ وكانت تشمل يومئذ ثلاثين مصرا ، وثمانين مدينةصغيرة ، وعددا لا يحصى من الابراج والحصون والدساكر ، وكان عدد سكانها يقدر بأربعة ملايين نسمة ٠

لكن اقتسام ملكـين ، لمملكة صغيرة ، أمام عدو عظيم ؛ لم يكن كافيا ٠ فازدادت المصيبة هو لا يتدخل عنصر جديد فى الموضوع ، واقتسم ملوك ثلاثة ، يحـارب بعضهم بعضا ، تلك الرقعة التى كانت آخر أمل للمسلمين بديار الاندلس ٠

كان الملك أبو الحسن قد اصطفى لنفسه حظية اسبانية ، ورزق منها بأولاد ، الى جانب ولديه من زوجه الكريمة ، عائشة الحرة ، وهى ابنت عمه ٠ فكان كبير أولاده من زوجه « عائشة » هو أبو عبد الله محمد ٠ وكان كبير أولاده من الحظية الاسبانيـة « ثريا » ، هو يحيى ٠ وتعلقت همة هذا السليطن باسناد ولاية العهد ، ليحيى ابـن الاسبانية ، فانقسمت نفس مدينة غرناطة ، وهى تحت الخطر الشديد الى قسمـين متعاديـين ، كل قسم منهما يؤيد أحـد الولدين ، وتفاقم الامر ، وادلهم الخطـب ٠ اذ بينما أبو الحسن والزغل يتقاتلان وهما اخوان ، تقع الفتنة الدهماء بين ابنتى الملـك الحسن ، وتنقسم نفس المدينة العاصمة الى شقين متعاديين ، متقاتلين ٠

كان هناك بطل يسجل التاريخ اسمه فى كتاب الخالدين ، هو القائد « على العطار » لم تاخذه العزة بالاثم ، وكان يجمع بين المسلمين فى حروبهم ضد النصارى ، فيقذف فى قلوب هؤلاء الرعب ، ويثخن فيهم ، ويسمو على أن يجعل بطولته تحت امرة مـلك خاص ، أو أمير خاص ، فهو قائد أندلسى مسلم يقاتل دفاعا عن وطنه ، ويستعـد كل يوم للموت فداء دينه ٠ ولعلكم تعجبون اذا ما قلت لكم ان ذلك البطل ، الذى تقدسه مدينة غرناطة المسيحية الى اليوم ، وتنشىء المنشآت العامة باسمه ؛ ويحفظ سيفه ضمن

اطار من البلور فى المتحف الكبير ؛ كان قد ناهز التسعين من عمره ، وهو يصول فى ميادين القتال ويجول على رأس كماة المجاهدين ، الى أن استشهد ، والسيف بيمينه يقطر دما ، فى معركة حامية الاوار • كان يدعو الناس للجهاد ، ومصادمة العدو متحدين متضامنين • وكان له أقيال من أمثاله ، يعملون على شاكلته فمملكة غرناطة كانت مليئة بصناديد لا يهابون الموت ، الرجل منهم كمثل عشرة من أعدائه • لكن ماذا يكون مآل الجسم الصحيح ، اذا كانت تعلوه هامة قد سكنها الداء العياء ؟

تفاقم أمر الخلاف ، فاذا بغرناطة الابية تخلع سلطان الملك « أبى الحسن » وتبايع ابنه أبا عبد الله محمد ملكا • يفر الملك من وجه ابنه الى احدى المدن الساحلية ، فيعلن ان ابنه قد شق عصا الطاعة ، وانه هو ، هو الملك الشرعى ، الواجب الطاعة • ثم ما لبث أن عاد على رأس جيش ، فانتصب ملكا بقسم من مدينة غرناطة ؛ بينما كان قسمها الآخر ، قسم العمال والطبقة الوسطى ، وهو البيازين ، محافظا على ولائه لابنه الذى بايعه • فأصبحت مملكة الاندلس الصغيرة ، وهى أمام خطر السقوط والتلاشى ، ذات ثلاثة ملوك ـ : الملك أبى الحسن ؛ وشقيقه الملك الزغل ، وابنه الملك أبى عبد الله محمد •

يقول شكيب ارسلان ، فى كتابه عن تاريخ الاندلس : « ولما وصل أبو عبد الله الى الحاضرة ، أى ـ غرناطة ـ ثاربه والده وأصحاب والده من جهة ؛ انتصرت له أمه ومن اليها من جهة أخرى ، فكان هنالك فى ذلك الوقت الضيق ، مشهد الحماقة الاعظم ، وجرى من الامور المنكرة ما ليس فى كتاب ، وامتلات الاسواق بالمتقاتلين بعضهم ينادى باسم أبى عبد الله ، وبعضهم ينادى باسم والده أبى الحسن ، وكان أكثر ميل العامة الى أبى عبد الله ، فسالت الدماء ، وأصبحت حمراء غرناطة اسما على مسمى » •

وصل الحال بهؤلاء المناكيد ، ان أبا عبد الله الزغل ، أصاب النصارى فى احدى غزواته بكارثة مؤلمة ، فى ناحية مما يليه من البلاد ، واثخن فيهم ، فاذا بالملك المشؤوم ، أبى عبد الله محمد يبعث برسالة الى ملك الاسبان • يعتذر فيها عما فعل عمه ، ويقول ما معناه : لا تؤاخذنا بما فعل السفهاء منا ! فى هاتيك الاثناء ، تالبت المسيحية كلها ضد المسلمين ، وهم كما رأينا ؛ وجند فرديناند وايزابيلا جيشا من اثنى عشر ألف فارس

وأربعين ألفا من المشاة ، وستة آلاف من ممهدى الطرق امام الجيش ، وكان على رأس المتطوعين الفرنسيين الذين معه القائد « كاسطون اليونى » وكان على رأس المتطوعين الانكليز « اللرود سكالس » وكان المتطوعون الالمانيون ، يشتغلون بالمدافع ويحسنون توجيه ضرباتها ·

لقد كان الاندلسيون بما لديهم من سلاح وعتاد ، ومدافع ، ورجال ، يستطيعون الثبات ، لا النصر ، وكانت فيهم روح قتالية ، سجلها لهم التاريخ ، ربما لم تكن موجودة يومئذ فى غيرهم ، انما هم كانوا ، ولسوء الحظ ، يتقاتلون داخليا فيما بينهم ، أكثر مما كانوا يوجهون الضربات للعدو المهدد المشترك · وكنت استطيع لولا ضيق الوقت ، ومرارة الحديث ، ان استمر الساعات الطويلة على ذكر هذه المأساة العنيفة الفظيعة · افتعجبون ، سادتى ، وابنائى ، كيف سقطت مملكة غرناطة شهيدة بين أيدى جلاديها ، على ملك شقى مأفون ، بلغت به الخسة والنذالة انه بعث يهنىء الملك « فردناند » لاحتلال مدينة مالقة ، وتحويل مسجدها الاعظم الى كنيسة ؛ وما ذلك الا لان مدينة مالقة كانت معقلا لعمه وعدوه ابى عبد الله الزغل ·

تالله لو وجد الاندلسيون رجلا قائدا ، من ذوى العزائم الصادقة ، يجمع كلمتهم ، ويلم شعثهم ، ويبعد عنهم ملوك السوء ، وما حولهم من بطانة موبوءة ، لما كان لهم ذلك المآل الحزين ·

كان لها رجل واحد ؛ كان لها يوسف بن تاشفين ، لكنه كان رجلا قد جاء قبل زمانه، فلما جاء زمانه ، لم يجد برجل مثله ·

هكذا سقطت مملكة غرناطة ، لانها كانت تحفر بيدها قبرها ، وتهيىء بنفسها أسباب سقوطها واذا كان بها جماعة غفيرة من المغاوير ، فقد كان بها أيضا جماعة اشربوا فى قلوبهم دعوة الهزيمة ونخرسوسهم عظامهم · ألم يكن من الاندلسيين من يقول ، منذ الوهلة الاولى :

حثوا رواحلكم يا أهل اندلس ... فما المقام بها الا من الغلط
العقد ينثر من اطرافه وارى ... عقد الجزيرة منثورا من الوسط
من جاور الشر لا يأمن عواقبه ... كيف الحياة مع الحيات فى سفط ؟

أو لم يقل فيها لسان الدين بن الخطيب ، على علمه وادبه وفضله ، فى وصيته المحفوظة لابنائه : « ومن رزق منكم مالا بهذا الوطن القلق المهاد ؛ الذى لا يصلح لغير الجهاد ، فلا يستهلكه اجمع فى العقار ، فيصبح بذلك عرضة للمذلة والاحتقار ، وساعيا لنفسه ، ان تغلب العدو على بلده فى الافتضاح والافتقار . ومعوقا عن الانتقال ، امام النوب الثقال » .

العامل الثانى من عوامل انهيار الاندلس ، ومأساة أهلها ، هو العامل المغربى ؛ هو سلوك أهل الشمال الافريقى نحو ذلك القطر العربى الاسلامى ، المنكوب بأهله ، قبل ان يكون منكوبا باعدائه . فالذى نعلمه ، مما سجله التاريخ ، هو ان المغرب العربى ، والمغرب الاقصى بالذات ، كانت له اليد الطولى والقدح المعلى فى ادخال الاسلام وجيوش المسلمين الى الاندلس . فمنه اجتاز طارق بن زياد وموسى بن نصير المضيق ، الى جبل طارق ، تلبية لدعوة الانقاذ التى تلقاها من الاسبانيين المستضعفين فى الارض ؛ والجند الاسلامى المغربى هو الجند الذى وطد مملكة الاسلام هنالك ، وجعلها تسود وتمتد طيلة ثمانمائة سنة ولقد كانت مملكة الاندلس تزداد قوة ، أو تزداد ضعفا ، على مقدار ما كانت عليه ممالك المسلمين ببلاد المغرب العربى من قوة ومنعة ؛ أو من ضعف وانهيار .

وشاء الله ان تمتد يد الخراب شيئا فشيئا الى بلاد الاندلس ، رغما عن علو كعبها فى العلوم ؛ ورقة شعرها ، وسمو فلسفتها ، بواسطة ما اخترعته ، ومنذ نشأتها تقريبا ، من شقاق قبلى ، وتناحر سياسى ، وحروب وفتن أهلية فتاكة ، حول عروش واهية ، ودول هزيلة ؛ وكنا نرى القوم ـ على صفحات التاريخ ـ يبذلون فيها نفوسهم ويجودون فيها بنفيسهم ، ويزدادون فيما بينهم قسوة وشراسة ، حتى انه ليصدق عليهم قول شاعر صقلية الشهيدة ، الفحل ، عبد الجبار بن حمديس :

احين تغانى أهلها طوع فتنة ... يضرم فيها ناره كل حاطب

ولم ترحم الارحام منهم أقارب ... تروى سيوفا من دماء الاقارب

عندئذ كان الاسبان يغتنمون الفرص ، وهم أهل حزم ، وفطنة ، وصلابة ، وينهالون على البلاد يأكلونها من وسطها ومن اطرافها ، فتعلو أصوات الاستصراخ والدعوة للجهاد ،

من العدوة القصوى ، وما كان اسرع بلاد المغرب العربى ، والمغرب الاقصى بالذات ، بالنجدة الفعالة ، فى حماس واندفاع جرىء ، ومن ذا الذى ينسى جهاد أمير المرابطين « يوسف بن تاشفين » وجهاد تلك الجموع الفائرة الدافقة ، وكيف تمكنوا من اصابة الاعداء فى الصميم ·

وكسروهم شر كسرة فى واقعة الزلاقة الشهيرة ، سنة 481 هـ (1088 م) · ثم توالت امواج الجهاد منطلقة من المغرب نحو الاندلس ، فى ثلاث دفعات ، قضت فى نفس الوقت على آمال الاعداء ، وعلى ملوك طوائف تربعوا فوق العروش باسم الاسلام : فاذا بهـــم ، وبواسطة تلك العروش ، يحاربون الله ورسوله ، عندما يحـــزون رقاب المسلمين ، ويهرقون دماء عزيزة ، اشتراها الله من المسلمين لتكون وقاية لبلاد الاسلام ·

ثم من ذا الذى ينسى اسراع أمير المؤمنين ، الموحد ، عبد المؤمن بن عـــلى ، ببسط سلطانه الرحيم العادل ، على بلاد الاندلس ، منذ سنة 551هـ ، الموافق 1156م، فكانت أيام الموحدين بتلك الاصقاع ، غررا فى جبين الدهر ، توجتها معركة الارك سنة 591هـ الموافق 1194 م، وما زالوا يوحدون ويجمعون الكلمة ، الى أن انحلت عصبيتهم ، وذاقوا مرارة الهزيمة سنة 609 هـ الموافق 1212 م ، فى موقعة العقاب الشهيرة التى هلك فيها معظم الجيش الاسلامى : ولم يقم للمسلمين بعدها أمر يذكر · وانهارت دولة الموحدين الضخمة ، الجامعة ، فخلفتها بتونس « دولـــة بنى حفص » ؛ وخلفتها بالمغرب الاوسط دولة بنى زيان ؛ وخلفتها بالمغرب الاقصى دولة بنى مرين ·

ثم أخذ منذ تلك الواقعة ، شأن الاسبان فى النمو ، والقـــوة ، والاتحاد · وشـــأن الاندلسيين فى الانهيار ، والضعف ، والخلاف النريع ، وذلك رغما عن وقائع باهرة ، وبعض انتصارات مشهودة ، واشتغلت دولة بنى مرين ـ على الاغلب ـ بمحاربة الجار المسلم ، فى مملكة بنى زيان ، عن امداد اخوانهم بالاندلس الا بالشىء اليســير ، فى مناسبات عـــدة ·

أما مملكة بنى حفص التونسية ، فقد أمدت أيضا بلاد الاندلس فى أول الامر ، انما دخلها داء الشقاق والانحلال هى أيضا ؛ فضعف الطالب والمطلوب · فنحن نرى مـــن هذا ان الامور فى بلاد الاندلس قد انقلبت ظهرا على عقب ، بانحلال الدول فى المغـــرب

العربى ، وباشتغال عروشها بمحاربات آثمة ، بل اجرامية ، فيما بينها ، واشتد بأس الاسبان خلال ذلك ، الى أن طغا ، ومحا ·

العامل الثالث ، فى انهيار دولة الاسلام بالاندلس ، الى جانب ما سلف ، هو ما يمكن أن نسميه بانهيار العالم الاسلامى ، فى ذلك الوقت بالذات فكيف كانت حالة العالم الاسلامى حول البحر المتوسط خلال تلك الايام الحالكة السواد ؟

لم يكن للعرب يومئذ حكم ، ولا دولة ، الا حكم تلك الدول الواهية بالمغرب العربى · كانت مصر ، وكانت الشام ، هما قلب العروبة النابض الخفاق ، كانتا خاضعتين لحكم دولة المماليك الاتراك الذين اشترى منهم صلاح الدين الايوبى فيما مضى ، أثنى عشر ألفا ، من أجل مقارعة الحملة الصليبية الطاغية ، فأسسوا بعد الايوبيين ملكا قويا وذاع صيتهم الى أن بلغت دولتهم الهرم ، فلم تستطع المحافظة على أقطارها ، فضلا عن امداد أقطار أخرى ، مهددة بالزوال والانقراض · اننى لا أنكر فضل وحزم وشهامة السلاطين المماليك ، الذين أطنب ابن خلدون فى ذكر محاسنهم ، ولا ما كان لهم من القدح المعلى فى انقاذ الاسلام وبلاد الاسلام بالشرق · كلنا يذكر باجلال واكبار الظاهر بيبرس ، وهو يفتت بين يديه الجبارتين معاقل الصليبيين على سواحل الشام · والسلطان قطز ، وهو يقهر الموجة المغولية المخربة سنة 658 هـ الموافق 1260 م ، بعين جالوت ، تحت صرخة : وا اسلاماه ! والسلطانة شجرة الدر ، وهى تقهر الصليبية الفرنسية على شاطىء النيل ، وتضع ملك فرنسا « سان لوى » أسيرا بدار ابن لقمان بمدينة المنصورة · الى أن تلك المملكة قد آلت فى آخر أمرها للسلطان قانصوه الغورى ، الذى كان يقاوم ويقارع عوامل الانحلال والتفكك ، ويمد يد الاعانة لملوك الهند المسلمين الذين كان الاستعمار البرتغالى يرديهم ، بواسطة أسطوله بالبحر الاحمر ، الى أن مات مقاتلا ، والدم يقطر من سيفه ، وهو فى الثمانين من عمره · فدولة المماليك كانت أعجز من أن تمد يد الاعانة الى مسلمى الاندلس ·

أما العراق ، فكان متغيبا عن الركب · كان محكوما بغير أهله منذ أمد بعيد · كان تحت حكم الفرس الذين يرون ان محاربة أهل السنة من المسلمين ، أوجب عليهم ، وهم شيعة متغالون ، من الاشتراك فى معركة اسلامية عامة ، وانقاذ بلاد الاسلام ، حيث

كان الاسلام ، فالعالم الاسلامى لم يكن يومئذ بصفة قتالية ، نضالية ، هو عالم الاسلام كما أراده الله، حين يقول للمسلمين : **وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل** • أو حين يقول : **واقتلوهم حيث ثقفتموهم ، وأخرجوهم من حيث أخرجوكم** •

أما العامل الرابع ، سادتى وأبنائى ، فهو بعد الدولة العثمانية يومئذ عن مواطن الكفاح فى بلاد الاندلس • فقد كانت الدولة العثمانية الناشئة سنة 1093م ، قد أخذت فى النمو والارتفاع ، وكانت تتجه فى فتوحاتها صوب الغرب الاروبى حتى تجعل من البحر المتوسط بحيرة اسلامية • انما هى كانت ذلك الوقت ، تحارب ، من الشرق ، الى الغرب : شاه ايران الشيعى ؛ وروسيا ، ودول البلقان ، والمجر والنمسا ؛ ولو انها غفلت طرفة عين من ثغرة واحدة من تلك الثغرات الممتدة على مسافة تزيد عن العشرين ألف كيلو متر لنفذ الاعداء من قبلها ، ولحطموها ؛ خاصة انها كانت تحاصر من قبلها مدينة القسطنطينية التى تهفو اليها قلوب النصرانية جمعاء •

على ان الدولة العثمانية ، وهى فى حالتها تلك ، قد بلغها صراخ واستنجاد أهل الاندلس ، وكانت على خلاف كبير مع دولة المماليك بمصر والشام ، الذين تعصبوا لايران • خوفا على ملكهم من ان ينهار ، تفاهمت مع السلطان فانصوه الغورى ، وعقدت معه هدنة ، كما يؤكد المؤرخ التركى الكبير ، الوزير ضيا باشا ، فى تاريخه عن بلاد الاندلس ، واستعدت تجهز جيشا واسطولا ، لامداد المسلمين • والعثمانيون كانوا ، حسب كلمة اخى وصديقى الكبير عثمان الكعاك ، جند رمة الاسلام ، لكن الاسبان ، وكانت المسيحية كلها الى جانبهم ، قد أخذوا حذرهم ، وتلافوا الامر قبل وقوعه ، فجهزوا اسطولا ضخما يعترضون به الاسطول العثمانى من جهة ، وبادروا باحتلال المدن الساحلية الاندلسية التى يمكن ان يصلها المدد العثمانى ، من جهة أخرى •

يومئذ عزم العثمانيون على سلوك خطة جديدة ذات شقين ، لانقاذ مسلمى الاندلس، ولارجاع مملكتهم لهم • وكان العثمانيون الذين تمكنوا من الاستقرار فى مدينة « استامبول » يقفون على سواحل بحر الادرياتيك الشرقية ، فالشق الاول من خطتهم ، كانت تقتضى الوصول باقرب سرعة الى حدود اسبانيا الشمالية ، وليس بينها وبينهم

من حائل الا البلاد الطليانية ، ومحاربة الاسبان فى الشمال ، قصد تخفيف الضغط على المسلمين فى الجنوب • وكانت فرنسا التى اردتها اسبانيا ، واذلتها ، واسرت ملكها تسهل على العثمانيين بلوغ ذلك الهدف ، وذلك بمهاجمة ايطاليا من ناحية الغرب ، بينما يهاجمها العثمانيون من الجنوب الشرقى • وفعــلا قد انزل خير الدين باشا جــنده بميناء أوترنتة الايطالى ، وأخذ ينتظر الهجوم الفرنسى ، لكى يخضع ايطاليا ويصــل الى الحدود الاسبانية ، فيتغير وجه التاريخ • لكن فرنسا احجمت عن ذلك العمــل فى آخر ساعة ، خوفا من ثورة الرأى العام المسيحى •

اما الشق الثانى من الخطة العثمانية ، فهو اختراق كامل البلاد العربية ، والوصول جنوبا الى ميادين المعركة ضد الاسبان • وهكذا تمكن السلطان سليم القاطع ، من دحر المماليك ، والاستقرار ببلاد الشام وبمصر ، اجتاز طرابلس ، وبعث بأسطول من بحارته الاشداء ، تحت قيادة البطلين «عروج ، وخير الدين» لانقاذ مسلمى الاندلس ، والاتجاه بهم الى أرض المغرب العربى ، لا بصفتهم لاجئين ، انما ليكونوا هنالك مستعدين لخــوض معركة الانقاذ •

وتطورت الحوادث بسرعة • وكان ما كان مما نعرفه جميعا ، من احتلال الاسبان لكامل الساحل الجزائرى ، من عنابة لمرسى هنين ، وكان استنجاد الجزائريــين بالاسطــول العثمانى ، ثم تحرير المدن الساحلية الجزائرية ، ثم اقامة دعائم الدولــة العثمانيــة الجزائرية ، وهكذا أصبحت دولة الخلافة تقف امام الاسبانيين وجها لوجه ، لا امــام قلعة وهران العظيمة فحسب ، بل امام الساحل الاسبانى الجنوبى ، بــلاد الاندلس ، حيث كان نحو المليونين من المسلمين ، يحتلون المعاقل والسهول بين جبال البشرات ، وينتظرون الانقاذ ، واستعادة الدولة والامجاد •

تأسست الدولة الجزائرية واكتمل بناؤها وتم توحيدها بعد خمسين سنة ، ودمرت شر مدمر كل هجوم اسبانى عليها ، مما اكسبها سمعة عالية ومكانة رفيعة فى كــل بلاد العالم الاسلامى • وتولى امرها البطل المغوار « قلبش على » فأخذ يأمر من السلطان ، كما يؤكد ضيا باشا الآنف الذكر ، يدبر طريقة لاغاثة ثــورة المسلمين بالبشرات ، واعادة ملكهم لهم •

عين الاندلسيون ، باتفاق سرى مع قلش على باشا يوم غرة نوفمبر 1568 ، لاعـلان لثورة العارمة • وجهز الباشا الجزائرى جيشا ضخما ، قوامه 14000 من رماة البنادق يشد ازرهم ستون ألفا من المجاهدين الجزائريين ، مهمته استرجاع وهران ، والاندفاع بكل قواهم نحو الساحل الاسبانى • هذا فضلا عن أربعين سفينة جـزائرية عثمانية ، كانت تحمل الرجال والسلاح ، وقفت فى اليوم المعين ، يوم غرة نوفمبر ، أمام مرسى المرية ، حيث كانت تستعد لانزال ما فى جوفها من رجال واثقال • لكن ارادة الله حالت دون ذلك • فان احد رجال الثورة الاندلسية قد انكشف امره ، فعلم الاسبان سـر المؤآمرة ، واستعدوا لها ، ولم يجد الاسطول الجزائرى ، كما كان يرجو ، رجالا يتسلمون السلاح ، ويتقبلون القاتلين وهكذا خسر الجزائريون فرصة المبادأة • وفى شهر يناير من السنة الموالية 1569 ، اعلنت الثورة العامة ، فشملت كل جبال البشرات وكان اسطول جزائرى عثمانى ، يشمل ثمان وثلاثين سفينة حربية معمرة رجـالا وسلاحا ، يحـاول انزال قوته فى اماكن متفق عليها من قبل ، لكن الاسبانيين كانوا مستعدين فى كـل مكان على الساحل لصد تلك المحاولة الجريئة ، فاصبح الاسطول الضخم يتجول حول الساحل ، بغية ايجاد مكان صالح لانزال الرجال والسلاح • وفاجأته زوابع واعاصير فصل الشتاء الشهيرة ، فاهلكت منه ثلاثين سفينة ، ذهبت لقاع البحر بما عليها مـن رجال واثقال ، وما تمكنت من انزال ما عليها ، الا السفن الست الباقية ••

لكن عزيمة الجزائريين العثمانيين لم تهن امام هذه الكارثة ، ففى السنة الموالية وخلال شهر اكتوبر ، تمكن قلش على من انزال اربعة آلاف رجل من رماة البنادق المركزة من نوع : Arquibudes على الساحل الاندلسى ، مع عدد من ابطال الحرب المجربين لكى يتولوا القيادة • واستمرت الحرب قاسية شديدة بين الثائرين الاندلسيين والجزائريين من جهة ، وبين الجند المسيحى الاسبانى من جهة أخرى • وبعث قلش باشا فى العـام الموالى عددا آخر للثائرين ، واعلن عزمه على السفر بنفسه لتولى قيادة المعركة الاسلامية فى اسبانيا ، لكن اساطيل المسيحية كلها قد تجمعت فى البحر المتوسط يومئذ ، لمهاجمة الاسطول العثمانى ، وتدميره ، فاضطر قلش باشا ، تحت الحاح سلطان استامبول ، الى البقاء على رأس ولايته المجاهدة ، ليشارك فى المعمعة العظمى ! واستمرت المعارك قاسية ،

رهيبة ، تولى كبر المآسى فيها الدون يوحنا الاستيرى ، الابن الغير الشرعى للملك ، فكان سفاحا فظيعا ، يلتذ بذبح النساء والاطفال بين يديه ، ويحرق المزروعات ، ويهدم القرى حتى اصبحت البلاد خرابا وحطاما ، ثم قاد هذا السفاح نفسه ، سنة 1571 ، الاسطول المسيحى الصليبى ، الذى تمكنت اسبانيا والباباوية من جمعـــه ، وكان يشمل 300 سفينة ، يعلوها ثمانون ألفا من الرجال المقاتلين ، فالتقوا مع الاسطول العثمانى فى مياه ليبانت ، على سواحل اليونان ، وكان مؤلفا من 250 سفينة ، وبعد اعمال بطولية غريبة ، شارك فيها قلش على بنفسه ، على رأس عمارة جزائرية ، دارت الـــدائرة على العثمانيين ، فغرقت من سفنهم (94) سفينة ، من بينها 30 سفينة جزائرية ، وكانت خسائر المسلمين فادحة ، ومن جملة اسباب هذه المعركة البحرية الرهيبة ، اقـــدام العثمانيين على اعانة اهل الاندلس ، كما رأينا ٠

اخفقت الثورة فى الاندلس ، ومات زعيمها البطل محمد بن ابوه ، وتلاشت آمـــال المسلمين ، وضاعت ويا للاسف بلاد الاندلس نهائيا ، كما انتهت ، ويا للاسف أيضا ثلاثة أرباع الساعة المخصصة لكل حديث ٠ بعد ان أوجزنا ، واختصرنا ، فان لم يكن وابـــل فطـــل ٠

وشكـــرا على حسن الانتبـــاه ٠

والسلا معليكم ورحمة الله ٠

هل كان الشعر في الأندلس سَبَبًا في انحلال أخلاقها ثم سُقوطها أو كان لها مجرد مرآة وانعكاس ؟

د • احسـان عبـاس
أستاذ فى الجامعة الامريكية
ـ بيروت ـ



منذ افلاطون ـ وربما قبله ـ حتى تولستوى ومن بعده الى اليوم ظـل أصحاب الموقف الاخلاقى من المفكرين والنقاد ـ ازاء الفن ـ يوجهون الى الفن عامة والى الادب بخاصة تهمة خطيرة ، مفادها انه من خلال تأثيره فى النفس الانسانية قادر ، اذا هـو

خرج عن محوره الطبيعي ، ان يفسد الاذواق ، ويحطم القيم ، ويكون اداة تخريب في بنية المجتمع الصالح ؛ ومن ثم أن يكون مسؤولا ـ ضمنيا ـ عن انحطاط الحضارة وانهيارها • وفي وصف الزبير بن بكار للشعر بأنه « يحل عقدة اللسان ، ويشجع قلب الجبان ، ويطلق يد البخيل ، ويحض على الخلق الجميل » (1) ، تصريح بقدرة الشعر على احداث التأثير الاخلاقي من الناحية الايجابية ؛ وفي قول معاوية لعبد الرحمن بن الحكم ـ وكان شاعرا ـ « اياك والتشبيب بالنساء ، فانك تعر الشريفة في قومها والعفيفة في نفسها ؛ والهجاء فانك لا تعدو أن تعادي به كريما أو تستثير به لئيما ، ولكن افخر بمآثر قومك ، وقل من الامثال ما توقر به نفسك وتؤدب به غيرك » (2) ، في هذا القول اشارة الى الدورين اللذين يستطيع الادب أن يؤديهما سلبا وايجابا •

حتى الذين أرادوا الفصل بين الادب والاخلاق منحوا الادب قدرة فذة من حيث تأثيره في النفس الانسانية ، فذهب ارسطوطاليس الى أن المأساة والملهاة ينقيان النفس عن طريق التطهير وبذلك يعملان بعمق في تكييف الذات وتوجيهها • ومع التقدم الذي أحرزته الدراسات النفسية في العصر الحديث ، لا نزال بحاجة الى اختيارات دقيقة حول حقيقة تأثير الفن في نفس الانسان ، ومدى ذلك التأثير في سلوكه وتصرفاته ، اذ ما يزال جانب كبير من العلاقة بين الفن من حيث هو مؤثر وبين النفس الانسانية من حيث هي متأثرة خاضعا لقواعد تربوية عامة مستمدة في أغلب الاحيان من التصور المحض أكثر من أن تكون مستمدة من التجربة :

هل حقيقة ان التوفر الكلي على الموسيقى ينزع بالنفس الى الليونة ، كما يقول افلاطون ؟ هل صحيح ان الشعر الذي يدور حول التبذل يفسد الذوق ويصبح بذلك أداة لافساد الطبع السليم ومن ثم عاملا تخريبيا في بناء الحضارة الرصينة ؟ وهل صحيح ان غياب الفن الصحيح المثري للنفس يجعل الناس ـ كما يقول تولستوي ـ ميالين الى أن يزدادوا وحشية وخشونة وأن يصبحوا أكثر جورا ؟ (3)

من دون الوقوف عند هذه الاوليات يستطيع الدارس أن يتقدم للحكم على الادب الاندلسي من زاوية العلاقة بين ذلك الادب والمسؤولية الكبرى في افساد الاخلاق ثم في انهيار الحضارة الاندلسية ، على أن يتذكر الدارس أن الادب الاندلسي لم يكن بدعا في

الآداب ، لانه جزء من الادب العربى العام من جهة ، متأثر بالادب المشرقى تأثرا عميقا ، فما يقال عنه لا يعنى افراده بالمسؤولية ـ ان كان ثمة مسؤولية ـ اذ يمكن أن يقال ذلك عن الادب العربى كله ، دون تمييز كبير ؛ ولكن الاستقلال الجغرافى والسياسى ، وبعض الاستقلال الحضارى ، ومكانة الحضارة الاندلسية بخاصة ، هى الامور التى تجعلنا نفرده بالنظر ٠

2 ـ الادب الاندلسي يعيش ضمن ضوابط أخلاقية :

وأحب أن أسارع الى القول ـ رغم أن ذلك قد يبدو مناقضا للصورة المألوفة عن الادب الاندلسى ـ ان ذلك الادب لم يكن يعيش فى جو من الانطلاق اللا محدود ، وانما كان خاضعا لضروب مختلفة من الرقابة ، وفى هذه الرقابة كان للنظم والمواضعات والاخلاق والمقاييس النقدية الاخلاقية دور غير قليل فى توجيهه ، ومعنى ذلك أننى أقرر منذ البدء أنه لم يفقد صلته بالتوجيه الاخلاقى ، فى أية خطوة أو مرحلة ٠

أ ـ وأول ضروب هذه الرقابة ما يمكن أن نسميه : **الرقابة الذاتية** ، وهذه لا تتوقف عند حدود « الممحصات » عند شاعر مثل ابن عبد ربه ، نقض كل ما قاله فى فترة الصبا من قصائد بقصائد أخرى فى الزهد والتوبة والتقوى محص بها الموقف الاول بموقف جديد مشمول بروح التدين ، ولا نقف عند حدود « الموشح المكفر » الذى ينظم للتفكير عن موشح آخر يتحدث فيه صاحبه عن مغامراته العاطفية على نحو ماجن ، وانما تمتد هذه الرقابة الى ايمان الشاعر نفسه بموقف أخلاقى أخلص له منذ البداية ، ولو قرأنا ديوان ابن دراج القسطلى وابن زيدون وابن حمديس وابن خفاجة والاعمى التطيلى والرصافى البلنسى وابن الزقاق وحازم القرطاجنى وابن الخطيب وآخرين غيرهم لم نجد فى دواوينهم هجاء ، أو وجدنا قسطا يسيرا منه ، وأنا أستبعد أن يكون ذلك ناشئا عن قصور فى الطبيعة او الملكة الفنية ، وارى فى هذه الظاهرة دلالة على رقابة اخلاقية ذاتية كانت ترى فى هذا اللون من الادب شيئا منافيا للقيم الخلقية ٠ ويتصل هذا التعفف عن هجر القول بقوة الوازع الدينى ايضا ، اذ لا مجال للشك فى ان الادب الاندلسى كان يتنفس فى جو مشبع بالثقافة الدينية التى لا يتمثل تاثيرها فى هذا الموقف من فن الهجاء وحسب ، بل هى تبدو فى كل مظاهرها ـ على نحو تطبيقى ـ فى اشعار الزهاد

الاتقياء امثال ابن ابى زمنين وابى اسحاق الالبيرى وابى عمر الالبيرى وابن العسال وعلى بن اسماعيل القرشى الملقب بطيطل وعشرات غيرهم ، كما تتجلى فى مواكبة الشعر لحركة الجهاد والتحريض على اليقظة ورد كيد العدو والقضاء على اسباب الفرقة والنزاع ، وهى رقابة شديدة الوضوح ايضا فى الاشعار التى تتحدث عن مشاعر الحنين الى الحجاز وفى المدائح النبوية وفى ادب الحكمة والادب المرصد للهجوم على التنجيم وعلى الفلسفة ، ومن امثلة هذه الاخيرة اشعار أبى الحسين بن جبير فى الغض من الفلسفة عامة وفى مهاجمة ابن رشد بخاصة • ففى هذه الفنون الشعرية جميعا كان الشعراء ينطلقون من مفهومات اخلاقية دينية •

2 ـ وثانى ضروب هذه الرقابة : **الرقابة النقدية** ، وذلك أن النقاد البارزين فى الاندلس ـ باستثناء أمثال ابن شهيد وابن سعيد ممن كان يحتكم الى بعض المبادىء الجمالية فى النقد ـ كانوا أخلاقيين فى نظرتهم الى الشعر ، وفى مقدمتهم ابن حزم ، فقد منح ابن حزم الشعر أقوى ما يمكن أن يمنحه مفكر من تأثير وقدرة فى الميدان الاخلاقى وعين لكل فن من فنونه أثره الخاص به ، فالاغزال والرقيق تدعو الى الفتنة وتحض على الفتوة وتصرف النفس الى الخلاعة واللذات وتسهل الانهماك فى الشطارة والفسق ؛ واشعار الحرب وذكر التصعلك تهيج الطبيعة وتسهل على المرء موارد التلف فى غير حق وربما أدت بالمرء الى هلاك نفسه بعد أن تهون عليه الجنايات والشرة الى الظلم وسفك الدماء ؛ واشعار التغرب وصفات المغاوز تسهل التحول والتغرب ، وشعر الهجاء أشد ضروب الشعر افسادا لانه يهون على المرء كونه فى حالة أهل السفه المتكسبين بالخماسة وتمزيق الاعراض وانتهاك الحرمات وفى هذا حلول الدمار فى الدنيا والآخرة ؛ والمدح والرثاء مباحان مكروهان : مباحان اذا ذكرت فيهما الفضائل ، مكروهان اذا أسسا على الكذب ، ولا يتبقى من الشعر بعد ذلك مما يمكن أن يثير النفس الى الخير الا الشعر القائم على الحكمة الداعى الى الفضيلة (4) •

ومع أن ابن حيان مؤرخ لا ناقد أدبى ، فان بعض تعليقاته العابرة تدل على أنه كان ينظر الى الشعر بنفس الروح الاخلاقية الصارمة التى كان ينقد بها مجتمعه حينئذ ، ويقيس بها تصرفات الافراد ، من ذلك أنه أورد قصيدة لابن شهيد حض فيها المعتد

المروانى على التنكيل ببعض أهل بلده ، فقال ابن حيان فى التعليق عليها : « وهى قصيدة ذميمة المعانى استهدف بها الى سفك دماء المسلمين ··· ما أحسن فيها ولا أغرب ، بل أعرب عن سقم يقينه ورقة دينه (5) » ، وكأن ابن حيان فى تصريحه هذا يرى أن الذى حط من قيمة القصيدة هو مضمونها اللاأخلاقى مهما يكن حظها من جمال الشكل ·

وقد كان هذا المقياس الاخلاقى فى أساس نظرة ابن بسام الى الشعر ، فانه عندما كتب كتابه « الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة » قرر أن يبرىء الكتاب من ايراد شعر الهجاء القائم على الهجر والسباب المقذع ، وكلما مر بشعر يستشف منه مس النواحى الخلقية والدينية ـ اضطرته ضرورة المثيل لايراده ـ علق عليه بشدة ، كذلك فانه وقف موقف الكاره لطغيان الافكار الفلسفية على بعض ضروب الشعر ، رغم اعجابه بالمتنبى والمعرى (6) ·

ولا يختلف موقف الفيلسوف ابن رشد عن موقف هؤلاء النقاد من حيث نظرته الاخلاقية الى الشعر ، وهو فى ذلك متأثر على نحو مباشر بافلاطون ، فاذا تحدث عن كيان الجمهورية الفاضلة رأى أن تستبعد أشياء كثيرة من الشعر العربى وخاصة الشعر الذى يمجد أعمال الطغاة قال : « وقد رأيت كثيرا من الشعراء ممن نشأوا فى تلك الدول يؤثرون هذا النوع من الحكم (يعنى حكم الطغاة) يظنونه الهدف الاسمى ، وأن فى روح الطغيان تفوقا ، وهم ينصاعون لذلك الحكم » · (7)

وحين يهاجم ابن خيرة المواعينى فى كتابه « الريحان والريعان » الفنون الزجلية ، يصدر فى ذلك عن موقف أخلاقى ، فهو يصف الزجل بالغثاثة وانه انما يعتمده « البطليون » بالفاظ عامية لافهام الجهال · (8)

ومع أن الادب الاندلسى ـ كما هو متعارف ـ أسرف كما وكيفا فى التوجه الى الجانب الجمالى ، مما يعد ردا عمليا قويا على هذا الموقف النقدى الاخلاقى ، أقول : مع ذلك كله فقد كانت لهذا التيار النقدى آثار يجب ألا نغفلها ، منها : تعميق الاتجاه الى أدب الزهد والحكمة والادب التعليمى والدينى والمدائح النبوية ، وربما ساعد على تمهيد الجو للتصوف ورفض العلاقات الانسانية · ولعله ـ مع عوامل أخرى ـ مسؤول عن خلق احساس مقاوم للشعر ، يبدو ذلك فى قول ابن بسام فى مقدمة كتاب الذخيرة ، وانما أكثره (أى

الشعر) خــدعة مختال ، جــده تمويه وتخبــيل ، وهزله تدليــه وتضليــل ، وحقائق العلوم ، أولى بنا من أباطيل المنثور والمنظوم (9) ، كما يتضح فى قول القائل : « الشعر خطة خسف » (10) ورغم أن ابن خفاجة يقدر الشعر ويعده « من خلال الجلة ، وحلية النبلاء العلية » الا أن اليقظة الاخلاقية هى التى جعلته يهجره : « فأضربت عنـه برهة من الزمان طويلة اضراب راغب عنه زاهد فيه » (11) ويقول الرصافى ، رغــم أنه من ابرز شعراء عصره (12) :

على أننى لا أرتضى الشعــر خطــة ولــو صيرت خضرا مسارحى الغبرا
كفى صنعة بالشعر أن لست جاليا الى بــه نفعـا ولا نافعــا ضــرا

ثم ان هذا التحرج الاخلاقى هو الذى حدا بعدد من المؤلفين الى اسقاط نماذج كثـيرة من الشعر الاندلسى وعدم ادراجها فى مؤلفاتهم ، لانها تنافى المقاييس الاخلاقية المعتمدة، وليس ابن بسام فى استبعاده شعر الهجاء المقذع الا مثلا واحدا من عدة أمثلة ، فقـد لاحظ الاستاذ محمد الفاسى أن ابن عبد الملك المراكشى صان كتابه « الذيل والتكملة » عن شعر المدح للملوك والامراء وأعتنى بقصائد الرثاء لانه يرى أنها تعبر عن عواطف صادقة (13) ، والامثلة على ذلك كثيرة • غير أننا يجب أن نذكر أن الرقابة النقديــة ليست سلطوية ، أعنى أنها ليست لديها القدرة على أن تفرض ما تريـد أو ما تختص بالايثار ، وذلك لان فى النقد الجمالى بالاضافة الى العوامل الاخـرى قوة مضادة تضعف من تأثير التيار الاخلاقى أو تحد منه ؛ وحين نتذكر المدرسة الاخلاقية علينا أن نتذكـر ازاءها النقاد الجماليين أمثال ابن شهيد والشقندى وابن سعيد ، وأن نتذكر التيــار الجمالى المتمثل فى مؤلفات كثيرة مثل كتب التشبيهات و « حديقة الارتياح الى وصــف الراح » لابى عامر ابن مسلمة و « الحدائق » لابن فرج الجيانى و « البديع فى وصــف الربيع » لابى الوليد اسماعيل بن عامر الحميرى ، وغيرها مما يجرى مجراها ؛ غير أن هذا لا يمنعنا من أن نقول : ان الرقابة النقدية حين تتضافر مع غيرها من أنواع الرقابة ، لا بد أن يكون لها أثرها فى توجيه الشعر •

3 ــ وثالث ضروب هذه الرقابة : **الرقابة الرسمية** ، وتختلف درجاتها ــ قــوة وضعفا ــ بين عصر وآخر ، وتتدخل فى ابرازها أسباب مختلفة كذلك ، من أهمها العنصر

الاقتصادى · واذا نحن استثنينا الادباء الذين ذهبوا ضحية الصراع السياسى ـ وقد تلبس كثير من أدباء الاندلس بالطموح الى المناصب والتنافس الحاد من أجلها ، مثل المصحفى وأبى مروان الجزيرى وابن عمار وأبى جعفر ابن سعيد وكثيرين غيرهم ـ اذا نحن استثنينا هؤلاء وأمثالهم وجدنا أن طبيعة الاوضاع فى الاندلس لم تكن ترحب بالدور الانتقادى الذى يستطيع أن يقوم به الشعر لسببين متداخلين : أولهما اعتبار النظام أيا كان لونه مصدر حماية للاندلسى الواقف على حافة الخطر ، فالانتقاد فى مثل هذه الحال من وجهة النظر الرسمية ـ مهما يكن بناء ـ يعد تنكرا للمؤسسة القائمة بالحماية ؛ وثانيهما : خشية المؤسسات من صوت النقد لانه يفتح عليها بابا من القلق الداخلى فيما هى مشغولة (حقا أو باطلا) بالاخطار الخارجية ؛ وهكذا بدلا من أن يصبح الادب أو الشعر مصدر توعية وكشف للاخطاء ومصارحة ونقد للفساد الاجتماعى والسياسى ، نجم عن هذه الرقابة الرسمية أمران خطيران أولهما : خفوت صوت النقد لنظام الدولة وسياستها ، وزاد من ذلك ارتباط الشاعر ـ من جراء الحاجة الاقتصادية بالفرد المتسلط أو بالنظام المهيمن ، وثانيهما : اندفاع الشعر بقوة أشد نحو منطقة المتعة والارتياح الى اللهو ، لان هذه المنطقة لا تبلغها ـ فى الغالب ـ سياط الحاكمين ، بل لعل كثيرين منهم يشجعون عليها ، لانها تريحهم من سماع صوت النقد ·

وحين فقد الشاعر دوره فى التمرس بالمشكلات السياسية والاجتماعية ووجد أن رزقه متصل برضى أصحاب السلطان والنفوذ سلك بشعره مسالك تؤمن له شيئا من الرزق وتبعده عن نقمة السلطة فاتجه وجهة التسويغ « والتبرير » لكل ما يصدر عن أولئك السادة ، وحسبنا أن نذكر كيف أن المعتضد العبادى غرس من رؤوس أعدائه حديقة « جمة عدد الصفوف المسطورة » فما كان من صاعد البغدادى ، وهو مشرقى هاجر الى الاندلس ، الا أن يقول فى تصوير جمالها · (14) :

جلاء العين مبهجة النفوس　　　حدائق أطلعت ثمر الرؤوس

ولم يكتف الشاعر بأن يكذب من الزاوية الجمالية ، بل أخذ يكذب على الواقع والتاريخ ، فيصور الضعف بصورة قوة ، ويجعل من الهزيمة انتصارا ؛ وتعرض هنا أبيات قالها أبو بكر الدانى يسوغ فيها ما كان يدفعه المعتمد من ضريبة للاذفونش ، فيقول (15) :

فى نصرة الدين لا أعدمت نصرته — تلقى النصارى بما تلقى فتنخدع
تنيلهم نعما فى طيها نقم — سيستضر بها من كان ينتفع
لا تخبط الناس عشوا عند مشكلة — فانت أدرى بما تاتى وما تدع

مما أثار ابن بسام وجعله يعلق على هذه الابيات بقوله : « وهذا مدح غرور ، وشاهد زور ، وملق معتف سائل ، وخديعة طالب نائل ، وهيهات ! بل حلت الفاترة بعد بجماعتهم ، حين ايقن النصارى بضعف المتن ، وقويت أطماعهم فى افتتاح المدن ، واضطرمت فى كل جهة نارهم ، ورويت من دماء المسلمين أسنتهم وشفارهم ، ومن أخطأه القتل منهم فانما هو بأيديهم سبايا ، يمتحنونهم بأنواع المحن والبلايا ... » (16)
وبفقدان هذا الدور الهام انبهمت الرؤية الصحيحة أمام عينى الشاعر ، فاصبح فى حقيقة الامر ـ وخاصة فى عصر ملوك الطوائف « يكرس » الانقسامات بدلا من أن يدعو الى وحدة . حتى غدا تامين مورد الرزق هو الغاية الكبرى لديه ، ولذا لا نعثر فى ذلك الشعر على أى حنين لعهد « الجماعة » الا ما يقع من ذلك فى تاريخ ابن حيان .

وعلى كل ذلك ، فان هذا الضرب من الرقابة الذى كانت آثاره السلبية أشمل بكثير من آثاره الايجابية ، فقد استطاع (بطريق رد الفعل) أن يلد موقفا أخلاقيا ثائرا ، ففى وسط ذلك الظلام نستطيع أن نرى أضواء متناثرة هنا وهناك ، تدل على أن الادب الاندلسى لم يفقد دوره الالتزامى فقدانا كليا ، لا نزال نسمع ابن حيان يقول فى نقد ملوك الطوائف ومن حطب فى حبالهم : « ولم تزل آفة الناس منذ خلقوا فى صنفين منهم ، هم كالملح فيهم : الامراء والفقهاء ... فقد خص الله تعالى هذا القرن الذى نحن فيه من اعوجاج صنفيهم لدينا هذين بما لا كفاية له ، ولا ملخص منه ، فالامراء القاسطون قد نكبوا بهم عن نهج الطريق ، والفقهاء أئمتهم صموت عنهم ، صدوف عما أكد الله عليهم فى التبيين لهم ، قد أصبحوا بين آكل من حلوائهم ، خائض فى أهوائهم ، وبين مستشعر مخافتهم آخذ بالتقية فى صدقهم (17) » كما لا نزال نسمع شاعرا مثل السميسر يقول (18) :

ناد الملوك وقل لهم — ما الذى أحدثتم
أسلمتم الاسلام فى — أسر العدا وقعدتم

وجــب القيـــام عليكـــم اذ بـالنـصـــارى قمتـــم
لا تنكـــروا شـــق العصـــا نعمـــا النبـــى شـقـقتـم

والى هذا الوضع نفسه يمكن أن يرد ذلك الصراع الذى ذر قرنه بين الشعراء والفقهاء، اذ كان الفقيه فى أغلب العصور التاريخية بالاندلس ، يمثل تلك الرقابة الرسمية ، مثلما يعد فى نظر الشاعر منافسا خطيرا ، قادرا على أن يأكل الدنيا باسم الدين ، ويسد أمام الشاعر أبواب الرزق . والى انهيار دولة الشعر وسيادة دولة الفقه يشير الاعمى التطيلى ـ من شعراء عصر المرابطين ـ بقوله : (19)

أيـــا رحمـــا للشعـــر أقوت ربوعه عـــلى انهـا للمكرمـات منـاســك
وللشعراء اليوم ثلث عروشهـــم فـــلا الفخر مختال ولا العز تـامك
فيا دولـــة الضيـــم اجملى أو تجاملى فقد أصحبت تلك العـرى والعرائك
ويا « **قام زيد** » أعرضى أو تعارضى فقد حال من دون المنى « **قال مالك** »

واذا كان الاعمى التطيلى يتحدث بموجدة رفيقة نوعا ، فان أبا بكر الابيض من شعراء عصر المرابطين أيضا قد هاجم الفقهاء دون ترفق بقوله : (20)

قل للامام سنـــا الائمـة مالـــك نور العيون ونزهـــة الاسمــــاع
لله درك مـــــن همـــام ما جـــد قـــد كنت راعينـا فنعـــم الـراعى
فمضيت محمـــــود النقيبـة طاهرا وتركتنـــا قنصـــا لشر سبـــاع
أكلوا بك الدنيـــا وأنت بمعزل طاوى الحشـــا متكفت الاضـلاع
تشكوك دنيـــا لـــم تزل بك برة ماذا رفعت بهـــا مـــن الاوضاع

وقال أيضا ، وتنسب لغيره : (21)

أهـــل الرباء لبستـــم ناموسكـم كالذئب يدلـج فى الظـلام العـاتم
فملكتـم الدنيا بمذهب مالـــك وقسمتم الامـــوال بابن القاســـم
وركبتـــم شهب البغال باشهـــب وبأصبـغ صبغت لكـــم فى العالم

2 ـ الادب الاندلسى فى اندفاعه نحو المتعة :

أقبل الادب الاندلسى على كثير من الموضوعات المتصلة بالمتعة ، سواء أكان التعبير عنها يمثل ممارسة عملية أو حلما غايته ابراز المقدرة الفنية، من ذلك الغزل بالمؤنث والمذكر والقول فى المجون ووصف الطبيعة ووصف القصور والتماثيل والبساتين والمتنزهات ومجالس اللهو ومجالس الخمر ووصف الخمر والساقى والساقية وحفلات الغناء والتفنن فى حوك الشعر والرسائل على ألسنة الازهار ، وازجاء المراسلات الاخوانية شعرا ونثرا ، فى دعوة أو شكر على هدية أو فى شفاعة (ولنترك جانبا رثاء الاشخاص والمدن والدول التى تزول) ، وفى هذه الموضوعات كان الاندلس يجد منطلقه الواسع ورضاه الذاتى . ولم تكن الرقابة الرسمية هى العامل الوحيد الذى قوى الاندفاع فى هذه الوجهة ، بل تضافرت على تشجيع ذلك عدة عوامل فى مقدمتها البيئة الاندلسية نفسها وبنية المجتمع الاندلسى ، فقد كان الاديب أو الشاعر يستلهم فى ما يكتبه طبيعة جميلة ذات أنهار كثيرة وتنزهات جميلة ، كما يخضع فى الهامه الى مستوى حضارى مدينى قد نأى عن البساطة واتجه تدريجيا نحو المواضعات المعقدة ، كما يستمد مادته من مجتمع يكثر فيه الرقيق الصقلبى وغير الصقلبى من الجنسين ، وتشيع فيه الخمرة ، وانواع الملهيات ، وتجرى فيه الاحتفالات الخاصة بمواسم العصير ، ويكثر التفنن فى الازياء والاطعمة ، وتمتلىء الحياة بالموسيقى والغناء والرقص ـ مظاهر اضطرت الفقيه أحيانا الى أن يقر بها أقراره بأمر واقع ، محاولا وحسب الحد من انتشار شرها ؛ فهذا ابن عبدون لا يوصى بمنع الشرب فى الاعراس وانما يقول : « يجب أن يؤخذ سلاح الشبان عند اقبالهم الى العرس قبل أن يشربوا ، واذا ظفر بالمعربد كتف واهبط الى صاحب المدينة يؤدبه ويسجنه » ؛ (22) ويقول أيضا فى النساء الخراجيات ـ وهى فئة لم تكن فوق الشبهات : « يجب أن ينهى نساء دور الخراج عن كشف رؤوسهن خارج الفندق » (23) وعن شدة شيوع الغناء اكتفى بايراد ما قاله أبو ظاهر التجيبى : « كنت بمدينة مالقة من بلاد الاندلس سنة ست وأربعمائة ، فاعتللت بها مديدة انقطعت فيها عن التصرف ... وكنت اذا جننى الليل اشتد سهرى وخفقت حولى أوتار العيدان والطنابير والمعازف من كل ناحية ... لغلبة ذلك الشأن على أهل تلك الناحية وكثرته عندهم » (24) .

ان كثيرا من الموضوعات التى انصرف اليها الشعر ليس مما يقف مباشرة على النقيض

من النزعة الاخلاقية ، بل ان بعضها موضوعات تتصل بالحياة الانسانية والطبيعة الانسانية اتصالا لا انفكاك له ، ولكن موطن الخطر ـ فيما هو لا أخلاقى منها وفيما هو لا يتعارض والمقاييس الاخلاقية ـ ان الاسراف فيها يحجب الرؤية الصحيحة لما قد يكون أهم منها فى ظرف دون آخر ، ومع الاقرار بأن الاديب الاندلسى كان عاجزا عن تجاوز واقعه ، فى أغلب الاحيان ، فان تجاوز ذلك الواقع كان يغدو ضروريا بل واجبا قوميا ٠ فقد يبتدىء قائل بقوله : ان الاندلس دار جهاد ، ولهذا كان من الضرورى أن تبقى فيها الروح الحربيةقوية ، ومثل هذا الاندفاع نحو الوان المتعة يقتل تلك الروح أو ـ على الاقل ـ يضعفها ؛ وهذا ابن بسام يقول فى حديثه عن معركة بطرنة : « فاناخت تلك القطعة يومئذ ببلنسية سنة ست وخمسين وأربعمائة وأهلها جاهل غر، أو مترف « مغتر، أو غفل » لا خير ولا شر ، قد أخلدوا الى شهواتهم ، وانخدعوا باغضاء الدهر عن عوراتهم لا عهد لهم بصريع الا من كأس شمول ، أو لحظات أعين كحيل» ٠٠٠(25) ؛ أى أن بن بسام يقول ان الذين اندفعوا الى معركة بطرنة ، كانوا رغم حماستهم يفتقرون الى روح المقاتل وحسن استعداده وأن ذلك راجع لانقيادهم الى حياة الترف التى أدت الى فقدان القدرة على القتال لديهم ٠ ولكن يجب أن نتوقف هنا قليلا لنسأل : هل تم ذلك بتأثير الادب الاندلسى أو نجم عن نوع الحياة الاجتماعية ؟

واذا كان للادب ضلع فى ذلك فما هو مدى مسؤوليته ؟

قبل الاجابة على هذا السؤال ، لابد أن نحدد مدى انطلاق الادب الاندلسى ، فى الاتجاه اللا أخلاقى ولنختر لذلك شعر المجون (ولندع الغزل بالمذكر جانبا لانه موضوع شائك) ٠ ان الدراسة الدقيقة لهذا اللون من الشعر تؤكد أن ليس فيه اصرار على التبذل من أجل التبذل نفسه، ليس فيه اتخاذ المجون مذهب حياة الى جانب اتخاذه ألهية أدبية، وتوضيحا لذلك أقول ليس بين شعراء الاندلس شاعر من طراز ابن حجاج وابن سكرة وصريع الدلاء وغيرهم ممن لم يجدوا لمواهبهم متنفسا الا فى هذا اللون من الادب ؛ وهنا يجب أن نفيء الى قوة الانموذج والميل الى المحاكاة ، فقد غلب الانموذج المشرقى على الشاعر الاندلسى حتى ليصعب على الدارس أن يعرف ان كان الشاعر الاندلسى يعبر عن واقع محلى أو يحاكى نموذجا أدبيا مشرقيا محض محاكاة ٠ ان هناك من الاسباب ما يحمل على الاعتقاد بأن

ابن زيدون لم يكتب رسالته الهزلية الا محاكاة للتربيع والتدوير ، وأن ولادة لم ترهـا ، وأن ابن عبدون لم يتسلمها ، وهناك من الاسباب ما يسوغ لي أن أقول ان أبا جعفـر ابن الابار (26) حين يقول قصيدة في المحب المتعفف والى جانبها قطعة أخرى في الفتك والاباحية انما كان يحاول ابراز براعته الادبية وتفننه الشعرى ، وحين تقرأ قطعـة مجونية لابن حص الاشبيلى ثم نجده يقول فى آخرها : (27)

لم أنل من كل ما فهت به غير التمنى　　انما الشعر فكاهات وحسبى حسن ظنى

ندرك أنه يتعابث ، ويجد فى العبث ملحة وطرافة ·

ونحن نعلم كذلك أن الاندلسيين قد أخذوا عن المشارقة فكرة لعل الجاحظ كان أول من دعا اليها فى ميدان التأليف وهى الخروج من الجد الى الهزل والاخذ فى الاحماض ترويحا للنفس واجماما لها (28) ، ومثل هذا الاعتقاد يجعل شعر المجون ضرورة فى غذاء النفس الانسانية ، لانه عامل هام لا فى افساد الاخلاق بل فى التنشيط الى استئناف الجد وتحمل الاعباء الثقـال ·

وعلى الرغم من تأثر شعر المجون بالمشارقة ، فان البحث المتعمق قد يؤدى الى اكتشاف سمات أندلسية خالصة فيه لا أعنى من حيث اختلاف طبيعة الفكاهة عند كل من المشارقة والاندلسيين ، بل من حيث اتخاذ هذا الفن مفهوما خاصا بالاندلس · وخير من نحتكم اليه فى هذا المجال ناقد جمالى أندلسى ، هو ابن شهيد ، فانه حين زار ديار الجن فى رسالـة التوابع والزوابع وقابل جن أبى نواس طلب اليه هذا الجنى أن ينشده شيئا فى المجون ، فأنشده ابن شهيد القطعة التالية من شعره : (29)

ونـاظرة تحـت طـى القنـاع　　دعاهـا الى اللـه والخـير داعى
سعت بابنهـا تبتـغى منـزلا　　لوصـل التبتـل والانقطـاع
فجـاءت تهـادى كمثـل الـرؤم　　تراعى غـزالا بأعـلى اليفـاع
أتتنـا تبختـر فى مشيهـا　　فحلـت بـواد كثـير السبـاع
وريعت حـذارا عـلى طفلهـا　　فناديـت يـاهـذه لا تـراعى
غزالك تفـرق منـه الاسـود　　وتهرب منـه كمـاة المصـاع

فـولت وللمسـك مـــن ذيلهـــا   عـلى الارض خط كظهـر الشجــاع

وحين نتأمل هذه القطعة لا نستطيع أن نقول أنها ليست مجونية ، فالمجون فيها يعتمد على المفارقة بين غاية المرأة وغاية أولئك الذين يرصدون خطواتها ، وهى تؤم مكانـــا للعبادة ، فى تلك المفارقة القائمة بين عدم خشية المرأة على نفسها ـ رغم جمالها ـ وخوفها على ابنها ، ثم فى تلك الحقيقة الهزلية وهى أن ذلك الذى تفرق منه الاسود لا يستطيع أن يحمى أمه فضلا عن أن يحمى نفسه ؛ غير أننا لا نجد فيها كلمة واحدة تخدش وجــه اللياقة ، ولعل اقدام ابن شهيد على ايرادها بمحضر أبى نواس انما كان تحديا منه لشاعر مشهور بالمجون ، وذلك ليثبت له أن المجون قد يكون فنا سليما دون أن يضطر الى التبذل فى الالفاظ والصور .

ولست أزعم أن كل المجون فى الاندلس كان على هذه الشاكلة ، ولكن اختيار هـذه القطعة دون غيرها انما كان يدل على ذوق اندلسى خاص فى مواجهة الـــذوق المشرقى . وتتغير صورة المجون ـ فى الاندلس نفسها ـ حين يغطى الافحاش اللفظى على قيمة النكتة الجميلة والدعابة الذكية ، ثم تستحيل تلك الصورة الى نقيض ما صورته قطعة ابن شهيد حين تنضح بالفجاجة وانعدام التحرج والسوقية ، وذلك فى الادب الشعبى أو الازجال ، فهناك يصبح الغلو فى المجون هو الظاهرة المتميزة .

ولكن أيا كان موقع الادب المجونى الاندلسى بين طرفى الاعتدال والغلو ، فان درجـة الاستهتار فيه كانت اجتماعية ، أعنى أنه كان يمثل روغانا من الحدود الدينية لا تحديـا لها ، وتفكهة بها لا ثورة غاضبة عليها ، وهذا قد يجرئنا على القول بأننا قلمـا نصادف فى الشعر المجونى الاندلسى قطعة (30) كهذه التى قالها أحمد بن محمد بن طلحة مـــن شعراء عصر الموحدين ، مجاهرا متحديا : (30)

يقـول أخـو الفضـول وقـد رآنا   عـــلى الايمـــان يغلبنـا المجـــون
أتنتهكـــون شهـر الصـوم هـلا   حمـــاه منكـــم عقـــل وديـــن
فقلـت اصحب سوانا نحـن قـــوم   زنادقـــة مذاهبنـــــا فنـــون
نديـن بكـــل ديـن غـير ديـــن   الرعـــاع فما به أبـــدا نـديـن
فحيى عـــلى الصبوح الدهر ندعو   وابليس يقـــول لنـــا أمـــين
أيا شهـــر الصيـام اليـــك عنـا   اليـك ، ففيك أكفـــر ما نكـون

واذا كان هذا الموقف نادرا أو غريبا على الشعر الاندلسى ، فان نتيجته لم تكن غريبة فى المجتمع الاندلسى نفسه ، ذلك لان سوط الرقابة لم يترك ابن طلحة لينجو دون عقاب ، وكان عقابا صارما ، اذ أرسل اليه من هجم عليه : « واظهر ارضاء العامة بقتله » وقد يكون ارضاء العامة ستارا لمآرب شخصية أو قناعا لتصرف سياسى ، ولـكن مهما يكن من شىء فان تلك « العامة » التى كانت تجد ارتياحا نفسيا الى أشد ألوان المجون تهتكا فيما تردده من ازجال ، كانت بطبيعتها تدرك الحد الفارق بـين المتعة بالشعـر والتخطى العملى للحـدود والاعراف ، ويحدثنا ابن سعيد عن موقف العامة باشبيلية من الشاعر ابى بكر ابن العوام الاشبيلى بقوله : « وبلاه الله بحب المدام ، حتى خـرج سكران فى شهر الصيام ، فكادت العامة تبيح دمه ··· (و) رموه بالحجارة ، وطردوه من حارة الى حارة ، ··· ولا أحصى كم لقيته فى طريق دير الروم وهو مطوى على حمار أو بغل ، يحمل كما يحمل الزبل ، لا يعقل سكرا ولا يبالى حمل ذما أو شكرا » · (31)

4 ـ مدى مسؤولية الادب الاندلسى فى افساد الاخلاق ثم فى الانهيار الحضارى :

الى هذا الحد حاولت أن أدرس الادب الاندلسى فى حالتى الانضباط الاخلاقى والاندفاع نحو المتعة الذاتية ، وقد تجلت من خلال هذه الدراسة أوليات لابد أن تظل فى الذاكرة عند الانطلاق الى صعيد آخر فى هذا البحث ، منها أن الادب الاندلسى لم يكن سائبا سادرا دون ضوابط أخلاقية ، وأن أدب المتعة نفسه كان يقصد به أحيانا الى كشف جمال الكون (كوصف الطبيعة) وأن بعضه الآخر كان تقديرا للذكاء والمهارة الانسانيتين (كوصف القصور والتماثيل) وأن قسما ثالثا منه كان نقلا لمشاعر انسانية سليمـة (كالغزل العفيف) وانه حتى فى بعض صوره الماجنة كان معوانا على الجد ، ومن ثمة استطعنا أن نقول انه لم يكن ـ فى الاغلب ـ يقصد التبذل من أجل التبذل فى ذاته ؛ وعلينا أن ننطلق من هذه المفهومات الاولية الى الاجابة عن سؤالين :

أولهما : الى أى درجة كان الادب الاندلسى فاعلا مؤثرا ؟

والثانى : من خلال ذلك التاثير : ما هو دوره فى الوضع الحضارى الاندلسى ؟

ولعل الاجابة على السؤال الاول واضحة مباشرة ، فان القصص التى تحكى عن تاثير الشعر فى المجتمع المشرقى والمغربى أكثر من أن تحصر ويكاد كل واحد يذكر كيف بكى علقمة بن علاثة حين سمع قول الاعشى فيه :

تبيتــون فى المشتى ملاء بطونكــم وجاراتكـم غـرثى يبتـن خمـائصا

وكيف كاد معاوية يفر فى معركة صفين لولا أن تذكر قول عمرو بن الاطناية :

أبــت لى همــتى وأبى بــلائى وأخـذى الحمــد بالثمـن الربيح
واجشــامى عـلى المكــروه نفسى وضربى هـامــة البطـل المشيح

وفى الاندلس أخبار كثيرة عن الغضب الذى كان يجتاح نفس المهجو ، وعن اهتزاز النفوس اعجابا بقصيدة ، وعن مطارحات شعرية تستغرق اهتمام الجمهور وتملك عليه انتباهه ، وحين طغى ابن النغرالة وزير الصنهاجيين بغرناطة وحكم ا ليهود فى شؤون الجباية وغيرها نظم الشاعر الزاهد أبو اسحاق الالبيرى قصيدته ، ومطلعها (32) :

الا قـل لصنهاجــة أجمعــين بــدور النـدى وأسـد العرين

وفيها يقــول :

وانـى احتللــت بغـرنـاطــة فكنــت أراهــم بهــا عابثـين
وقــد قسمــوها واعمـالهــا فمنهـم بكــل مكــان لعــين
وهــم يقبضــون جبايـاتهـا وهــم يخضمـون وهم يقضمون
وهــم يلبسون رفيــع الكسى وأنتــم لأوضعهــا لابسـون

فكان رد الفعل المباشر لهذه القصيدة ثورة شعبية عارمة ، خلصت الناس مما كان ينالهم من جور واضطهاد ٠ ومن الممكن أن يستمر الدارس فى ايراد الامثلة للدلالــة على مدى تاثير الادب فى المجتمع الاندلسى وفى تشكيل الاذواق وفى الحركة الحضاريــة عامة ، وقياسا على الامثلة السابقة من ردود الفعل يمكن أن يقال ان أى أدب يدعو الى الانحلال الخلقى ـ اندلسيا أو كان أندلسى يمكن أن تكون له ردود فعل مشابهة ؛ ولكن من خلال هذا التاثير ماذا كان دور الادب الاندلسى فى الوضع الحضارى ؟

يتحدد هذا الدور بثلاثة عوامل متداخلة هى منزلة الاديب فى المجتمع ، وطبيعة المجتمع الذى يتحدث اليه ذلك الاديب ، ومن لقاء هذين معا ، ينتج العامل الثالث هو : العرف القائم حول مفهوم مهمة الادب :

1) ـ اما عن منزلة الاديب فى المجتمع فلست أعنى به أن يكون الاديب ذا منصب سياسى أو وجود تسلطى (اقطاعى مثلا) أو جاه مستمد من شرف المحتد ، أو ما أشبه ذلك ، مما يستطيع الاديب ان يفرض به الادب الذى ينشئه أو يستحسنه على جمهور أوسع قاعدة ، واذا وجد ذلك فان وجوده آنى مؤقت وأثره مرهون بالزوال السريع ، ولكنى أعنى الى أى حد كان الاديب ذا شخصية متميزة تفرض وجودها عن طريق الايمان المتبادل بينه وبين مجتمعه : هو من حيث ايمانه بقيمة أدبه ، ومجتمعه من حيث شعوره بحاجته الشديدة الى ذلك الادب ؟ ومرة أخرى نصطدم بعقبة الفصل التحكمى بين الاديب والادب والمجتمع ، وهو أمر من العسير تصوره أو قبوله : أليست شخصية الاديب تعتمد أحيانا على مدى ثورته على مجتمعه أو اتساقه معه أو خضوعه لمتطلباته الآنية ؟

أليست تعتمد على مدى اكتفائه ، وان شئت قلت ـ متجوزا ـ على مدى « استقلاله » الاقتصادى ؟ ولعل فى ما قدمته من قول ما يجيب عن هذا التساؤل وخاصة عن ذلك الارتباط العبودى بين شخصية الاديب والقمع ، وبين شخصية الاديب والحاح متطلبات المعيشة ، وبين شخصية الاديب وغيره وبين شخصيات المجتمع التى تنتسب الى فئة المثقفين . ولست أود أن أكون مثاليا فاقول : ان الاديب الاندلسى لم يكن يملك القدر الضرورى من الحرية ، اذ أن هذا القدر لا يمكن تحديده ، ولن أقول انه كان عاجزا عن « تحقيق ذاته » ولهذا كان غير قادر أن يجعل شخصيته الادبية ذات فاعلية عميقة شمولية ، يكفى أن أقول ان كثيرا من العوامل قد تضافرت لتجعل الاثر النابع من شخصيته وموقفه ضعيفا ، ومن ثم أن يكون ذلك ذا أثر فى اضعاف الدور الحضارى المرجو للادب ، ومن خلال الامثلة المتنوعة للشخصية الادبية دعنا نستحضر بعض النماذج التى يمكن لاى واحد أن يقرر حقيقة تأثيرها فى المجتمع : كاتب الدولة المرتبط برجل الدولة ، الشاعر المتزهد فى صومعته ؛ الشاعر الماجن ؛ المداح المنتجع ؛ المداح الحيى

الذى يبعث بقصائده من موضـــع اقامته ليأخذ العطاء دون مواجهة ، الى غير ذلك من صور ، كلها يشير الى موطن الضعف فى التأثير ٠

2) ـ اما اذا أردنا أن نتحدث عن طبيعة المجتمع نفسه فيجب أن نتذكر أمـــورا كثيرة منها سعة الرقعة الاجتماعية التى يتوجه اليها الادب ، ودرجة الوعى الثقافى فى تلك الرقعة ، وطبيعة التقبل وردود الفعل ازاء الادب ، وليس من السهل أن نتبـــع طريق البحث المستفيض عن هذه النواحى فى هذا المقام ؛ وحسبنا أن يقـــال ـ ما دام الحديث عن الاندلس ـ ان المجتمع الاندلسى لم يكن يتميز بأمور حاسمة عن سائر اجزاء المجتمع ، فى بقية اجزاء العالم الاسلامى ، من حيث نسبة عدد المثقفين الى غير المثقفين ؛ وأغلب الظن ان هذه النسبة لم تكن كبيرة ، وان القطاع المثقف كان كثيرا ما يستعلى على الوسائل الادبية التى تخاطب القطاع غير المثقف ، وان ذلك كان يحد من مدى شيـــوع الادب الكلاسيكى ، ويجعل الادب الشعبى أكثر فعالية فى التوجيه والتأثير (وهـــو أدب ضاع معظمه ولم نعد نملك الشواهد التى نستمد منها الحكم على حقيقة دوره) ٠ واذا شئنا أن نعطى للقطاع المثقف سمة فارقة ـ ولو على التعميم ـ وجدناه ذا صبغـة دينية فقهية لغوية ، وان استجابته للادب الكلاسيكى كانت قوية ، ولكنها كانت استجابة محدودة أيضا ٠

3) ـ فاذا تناولنا العرف القائم حول مفهوم مهمة الادب رجعنا الى ما قررناه مـــن قبل ، وهو ان الشعر كان فى أغلب الاحوال يمثل عند المنشىء والمتلقى ، عند الشاعـر والجمهور ، أداة من أدوات التلهى ، كان نوعا من النشاط المتفاعل المريح للفريقين ، ولم يقترن برسالة اصلاحية ، الا على نحو نظرى خالص فى أذهان بعض النقاد الاخلاقيين ؛ حتى هؤلاء النقاد الذين حددوا الجانب السلبى من تأثير ، لم يحددوا دوره الايجابى ولا رسموا له طريقا الى ذلك ؛ بل أنهم حين حددوا دوره السلبى نفسه اكتفوا بانطباعات عامة مرسلة ، مستمدة من تخوف الواعظ واشفاقه ٠ ولم يحاول أحد منهم أن يقول لنا على نحو واضح ان كان هنالك أدب يدعو عن وعى عامد الى الانحلال الخلقى ، ومن حقنا اذن أن نسألهم : فى مثل تلك البيئة ذات الصبغة الدينية : أليس يكون تأثير ذلـــك

النوع من الادب ـ ان وجد ـ عكسيا ، وذلك بان يخلق جوا أخلاقيا مضادا ، حريصا على سلامة القيم الاخلاقية ؟

وحين تنبهم الرؤية للدور الحقيقى للادب ، ويوجه نحو قطاع صغير فى مجتمع كبير يصبح دوره هامشيا ، واذا كانت فى الادب الاندلسى جوانب سلبية فلديه من الجوانب الايجابية ما يوازيها وربما يرجح بها ، فصوت الدعوة فيه الى الجمال والخير والحيوية قد يعلو على صوت الدعوة الى اليأس والتخاذل والاتكالية والرضى بالذل والاستكانة .

وعلى هذا قد يكون من الصواب الا نحمل الادب مسؤولية كبرى فى النهاية التى انتهت اليها الاندلس ، بل أن نرى فيه نشاطا انسانيا يتضافر مع سائر ضروب النشاط الانسانى من فكرية وتنظيمية واقتصادية وعسكرية ودينية ، وانه مرتبط متلاحم معها، يعكس الواقع ويقدم العون ، ويصاب بالمد أو بالجزر بحسب مد تلك النشاطات وانحسارها .

ان تغير نظرتنا اليوم الى مهمة الادب يدل على ادراكنا لخطورة دوره فى حركة الحضارة، ولكن هذه النظرة انما مهد لها التغير الاجتماعى والفكرى الذى مارسه مجتمعنا تحت تأثير التطور والتفاعل الحضاريين ، فادبنا بكل صوره يتحدث الى مجتمعنا كما كان الادب الاندلسى يتحدث الى مجتمع اندلسى ؛ ومن قضايا الدور أن يقال : هل يتغير الادب بتغير المجتمع أو يكون الادب عاملا فى تغير المجتمع ؟ هما أمران مستمران فى التناوب والتفاعل ما دامت الظاهرة الواحدة تصلح أن تكون سببا ونتيجة فى آن معا .

مصادر الدراسة

1 ـ ابن رشيق : العمدة 1 : 30 (تحقيق محى الدين عبد الحميد ، بيروت 1972) .

2 ـ ابن عبد ربه : العقد : 281 (تحقيق أحمد أمين ورفيقيه ، القاهرة 1965) .

3) Tolstoy : What is Art p. 252 (Oxford University, Press, 1938)

4 ـ ابن حزم : رسائل ابن حزم الاندلسى : 65 ـ 67 (تحقيق احسان عباس ، القاهرة 195-) وانظر احسان عباس : تاريخ النقد الادبى : 487 ، بيروت 1972 .

5 ـ الذخيرة ، القسم الثالث : 521 ـ 522 ، تحقيق احسان عباس ، بيروت 1975 ٠

6 ـ تاريخ النقد الادبى : 501 ـ 507 ٠

7 ـ المصدر السابق : 528 ـ 529 ٠

8 ـ المصدر السابق نفسه : 518 ـ 519 ٠

9 ـ الذخيرة 1/1 : 7 القاهرة : 1939 ٠

10 ـ المقرى : نفح الطيب 3 : 397 تحقيق احسان عباس ، بيروت 1968 ٠

11 ـ ديوان ابن خفاجة : 6 ـ 7 تحقيق السيد مصطفى غازى ، الاسكندرية : 1960 ٠

12 ـ ابن الابار : المقتضب من تحفة القادم : 56 تحقيق ابراهيم الابارى ، القاهرة : 1956 ، وديوان الرصافى البلنسى : 76 تحقيق احسان عباس ، بيروت 1960 ٠

13 ـ ابن عبد الملك المراكشى : الذيل والتكملة 6 : 2 تحقيق احسان عباس ، بيروت : 1973 ٠

14 ـ الذخيرة : القسم الثانى ، الورقة : 10 (مخطوطة الرباط رقم 1324) ٠

15 ـ المصدر السابق ، الورقة : 50/أ ٠

16 ـ المصدر نفسه ٠

17 ـ الذخيرة ، القسم الثالث : 181 ، بيروت 1975 ٠

18 ـ الذخيرة 1/2 : 274 ، القاهرة 1942 ٠

19 ـ ديوان الاعمى التطيلى : 90 ـ 91 ، تحقيق احسان عباس ، بيروت : 1963 ٠

20 ـ أبو البحر صفوان : زاد المسافر : 113 تحقيق عبد القادر محداد ، بيروت 1939 ٠

21 ـ زاد المسافر : 113 ونفح الطيب 3 : 448 وتنسب فى المعجب للمراكشى : 235 (ط ٠ القاهرة) لابن الينى ٠

22 ـ ابن عبدون : رسالة فى القضاء والحسبة (ضمن ثلاث رسائل أندلسية فى آداب الحسبة والمحتسب) : 54 تحقيق ليفى بروفنال ، القاهرة 1955 ٠

23 ـ رسالة ابن عبدون : 50 ٠

24 ـ أبو طاهر اسماعيل بن أحمد التجيبى : المختار من شعر بشار : 15 تحقيق محمد بدر الدين العلوى ، القاهرة : 1934 ٠

25 ـ الذخيرة ، القسم الثالث ، الورقة 233 (نسخة الخزانة الحمزية) ٠

26 ـــ ترجمة أبي جعفر بن الابار في الذخيرة ، القسم الثاني، الورقة : 26 وما بعدها ·

27 ـــ الذخيرة ، القسم الثاني ، الورقة : 33 ·

28 ـــ نفح الطيب 3 : 315 ·

29 ـــ ديوان ابن شهيد : 124 ، جمع يعقوب زكي ، القاهرة : 1966 ·

30 ـــ ابن سعيد : اختصار القدح المعلى : 117 تحقيق ابراهيم الابياري ، القاهرة : 1959 ؛ ولسان الدين ابن الخطيب : الاحاطة 1 : 247 تحقيق محمد عبد الله عنان ، القاهرة : 1955 والقطعة شديدة التحريف في الاحاطة ·

31 ـــ أنظر الحاشية رقم 30 ·

32 ـــ ديوان أبي اسحاق الالبيري : 151 ـــ 153 تحقيق غرسية غومس، مدريد ـــ غرناطة 1944 ، ونفح الطيب 4 : 322 ·

دور الشعر والفن
في تعزيز أخلاق أمة أو اخلالها

صالح جودت
شاعر ورئيس تحرير المصور
ونائب رئيس مجلس ادارة
دار الهلال (القاهرة)



من زانها باللمحات الحسان   ومن كساها الخز والطيلسان
ومن غذاها بعبير الربى   ومن سقاها من عيون الجنان
ومن جلاها من سلاف النهى   وصبوة الروح وسحر البيان
من زف للتاريخ أحلى الرؤى   فبارك الرحمن هذا القران
ومن بنى لبنات العلا   امجادها حتى غدت تلمسان
وأصبحت في الغرب زين القرى   ونافست بغداد والقيروان ؟

والله ، لا السيف على بأسه   ولا جلال الملك والصولجان
فكل هذا عرض زائل   والفن والشعر هما الباقيان

* * *

من ادعى أنهما فتنة   من عبث الليل ولهو الدنان
من أنكر الخير بمحياهما   ومن قضى أن يؤد التوأمان ؟
لا تظلموا الفن بهذا القلى   أو تصموا الشعر بهذا الهوان
فما جمال العيش لولاهما   وراحة الروح وأنس الجنان ؟
وجهان من اشراقة الخلد لم   يأت بأحلى منهما الا صغران
لو اغتربنا عن مغانيهما   تقتلنا بعدهما الغربتان
هاما بنور الله زلفى ، كما   هام بنور القمر الفرقدان
وحببا فينا ، كما حببت   فى جنبات الكعبة الصخرتان

* * *

الفن ؟ عاش الفن تعويذة   تضفى علينا لمسات الحنان
وتطرح الهم وتجلو الاسى   وتجمع الاحباب تحت الكنان
الفن ، نستقبل من لطفه   وجه الربيع الطلق فى كل آن
لولاه لم تخطر بنا فرحة   ولا زها عرس ولا مهرجان
وسوف يبقى الفن ملء الدنى   ويلبث الفنان ملء العيان
ما هدهد القلب صداح المنى   وغرد الطير على غصن بان
وأودع الله اللهاة الشجى   وألهم الابداع طرف البنان
ما أجدب الايام اما خلت   من نغمات الكرد والاصفهان
وبئس ليل ما به آهة   من أم كلثوم ومن اسمهان
ويا هوى (المألوف) اما استوت   أنغامه فوق ثغور القيان

ويا هنـاء الـروح اما انتشـت   برنـة العـود وسحر الكمـان
بعدهما تحمـو الليـالى كمـا   تحلو صـلاة الفجر بعد الأذان

* * *

والشعر ؟ عاش الشـعر ارثابه   يهـز عطفيـه ضمـير الزمـان
أبقى عـلى الفصحى ترانيمهـا   ورد عنهـا اللهجـات الهجـان
يارحـم اللـه عكـاظا ، أمـا   كانت لفرسان القـوافى الرهـان
وكانت الحجـة فى عهـدهـم   وكانت المجمـع والبرلمـان
يقضون فيها مـن خلافاتهـم   بالشعـر ما تعجـز عنه السنان
ويسدنـون البيـت فى رفعهـم   للملحمات الغـر حـول السدان

* * *

الشعر ، لا الشعر الجديد الذى   يطـول أو يقصر كالأ فعـوان
أضحى ، وقـد قصوا تفاعليه   وهنا كصوت العبد بعـد الختان
تراه مـن عجمـة ايقاعـه   يكـاد يحتـاج الى ترجمـان
ويقـرع على السمـع بلا غنة   ويرسـل الوقـع بغير اتـزان
فشطر بيـت كلـه كلمـة   وآخـر عدتـه كلمتـان
وثالـث يجـرى عـلى أربـع   كالكلب أو كالقـرد أو كالأتان
ويلبس الالـوان مجلوبـة   من عالم الصفـرة والارجـوان
مصدورة الوجـدان مأجـورة   ممسوخـة الاصبـاغ كالبهلوان
يا عرب الدنيـا ألا فانفـروا   وأنكروا بالله هـذا الرطـان
فالشعـر ما خلـد دستـوره   خليلنا البصـرى عبـر الزمان
فـلا أبـو الطيـب ازرى بـه   ولا ارتضى شـوقى له أن يهـان

يا رادة الاســـلام عفــوا اذا ... أدرت كأس الشعر حول الحـوان
ملأتها حبـــا فأسكرتكـــم ... من صفوها الحلو الحلال الزيـان
أيهما أدنى لكـــم ؟ هل عمر الخيـــام أم كسرى أنـو شــــيروان ؟
والمقرى الفرد ، هـــل نفحه ... أبقى لكم أم نفح « يغمورسان » ؟
من قال ان الشعـــر أزرى بنـا ... وبدد الملك وهـــد الكيـــان ؟
والله ما ازرت بنـــا محنـــة ... فى الدهر الا الشعب حين استكان
أسلـــم للبـــاغى مقاليـــده ... وانفلت البغى طليـق العنـــان
لا تظلموا الشعـــر ، فيا طالما ... كان عـلى الطاغوت حربا عـوان
وطالما أحيـا مـــوات المـــنى ... وأشعل السيف بكف الجبـــان
وطالمـــا جلجـــل فى قـومـــه ... يحمى ذمـار الحـــق كالديدبان
قـــد يرجـع الملـك الى ربـــه ... وتنـتهى الهالـــة والهيلمـــان
ويذهـــب الجاه ويـــذوى الغنى ... وينضب المـــاء وتخلو الجفـــان
ويسقط الظالـــم عـــن عرشه ... وتخمـــد النار ويفـنى الدخان
ويلبـــث الشاعـــر فى قبـــره ... حيا ويبقى الشعـر فى العنفوان

* * *

الشعر ان فات يـــدى انتـهى ... حظى من الدنيـــا فمالى يـــدان
والله ما لى غـــير ايقـــاعـــه ... وسيلـــة ترجى بهـــا الحسنيان
وهبتـــه للـــه أرجـــو بـــه ... كرامة العفـو وظـــل الأمـــان
نظمته مـــن وسوسات الحـــلى ... وصغتـه مـــن حدقات الجمـان
وسقتـــه أنشـــودة للهـــدى ... وصنتـه مـــن عثرات اللســان
فان تفجـــرت ففى غضبـــة ... يرضى عليهـا اللـه والقبلتـــان
وفى سبيل الوطـــن المفتـــدى ... وحسبة للـه يـــوم الطعـــان
وان تذللـــت فعـــن توبـــة ... للـه أتلوهـا بقلـب مـــدان

لعلــنى فى نــدمى أجتــلى   رحمتــه ان تــوزن الكفتـان
وان تهللـت فعــن فــرحــة   بنعمــة الله رضى وامتنــان
فهو الذى .كـم رد عنى الــردى   ومـدلى فى العيش هـذا الليـان
وان تغزلـت فـلا عـن هــوى   للناعسـات الناعمــات اللـدان
وانمــا تسبيحــة للــذى   استودع الحســن وجوه الحسان

* * *

الشعر ، ما أدناه مـن عــروة   تربطنا امـا نـأى المشرقــان
الشعر ، ما أغــلاه مــن دعوة   اما دعانا للفــدا المعمعــان
الشعر ، ما أحــلاه مــن ندوة   ان ضمنا فى اللـه هـذا المكـان
مهما افترقنـا فى الـدنى بعده   تظل فى أعمـاقنـا تلمســان

الشعر

دوره في أخلاق المجتمع - رأي الشريعة فيه

د. جعفر شهيدى
استاذ الادب العربى
بجامعة طهران
- ايران -



« والذين اجتنبوا الطاغوت أن يعبدوها وأنابوا الى الله لهم البشرى فبشر عبادى الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولوا الالباب » صدق الله العظيم ·

انه لمن دواعى الفخر حقا ان وزارة التعليم الاصلى والشؤون الدينيه فى هذا البلد الاسلامى العزيز ، قد وجهت عنايتها الى موضوع غاية فى الاهمية والخطورة ، كان له الاثر

الاكبر فى تلون العصور وتبدل الاحوال على مدى التاريخ الاسلامى ، فسجلته فى قائمة الابحاث التى يركز عليها البحث فى هذا الملتقى الاسلامى المبارك ، وهو موضوع الشعر والادب ودوره فى أخلاق الامة ، وذلك حتى يناقش فيه ليحصحص الحق الذى لابد وان يتبع · والحقيقة ان الموضوع فى حد ذاته لا يخلو من الطرافة أيضا ، فما أحوجنا عمليا أيها السادة الكرام أن نعيش برهة من الزمان فى جو من الامتزاج الروحى والعاطفى · اذ أن الادب من طبيعته أنه يبهج الفكر ويطيب النفس « والنفس ان طابت تغنى » فهو مظهر من مظاهر العاطفة الانسانية ، طالما أشار الى الحقيقة وأفاء على مريديها ظلال المعرفة والوجود · وطالما خلق من أكوان الجمال عوالم الانسان ، اللهم الا أن ينقلب الوضع فيلقى الشياطين فيه أمانيهم ·

ولما كان الشعر بطبيعته يتكون من عناصر يعتبر العاطفة والخيال أساسين مهمين فيها ، وكان الانسان بطبيعته عاطفيا ـ فالعاطفة لا تقل عن العقل فى التعامل مع الحياة ـ وكان الانسان مفتونا بالخيال وممالكه العجيبة · فقد مال الى الشعر من أقدم العصور حتى ان الحكم لم يصدر بعد قطعيا فى أسبقية أى الفنين على الآخر، الشعر على النثر أو العكس · والواقع ان الشعر قوة روحية قادرة على التحويل والتبديل · وقد قيل فى تعريفه « بأنه صناعة يؤلف بها الشاعر المقدمات التى تنشأ عن الوهم فيؤلف منها القياسات المنتجة يجعل المعنى الصغير كبيرا ومعنى الكبير صغيرا ويرد الحسن فى زى القبيح ويجلو القبيح فى صورة الحسن ليثير بالايهام القوى الغضبية والشهوانية فيحدث للطباع انقباض وانبساط وتنشأ فى العالم الامور العظام (1) ·

فللشعر وللقياس الشعرى قوة لا توجد فى النثر ، بل ولا تعادلها فى القوة الخطابة وان نشأت هى أيضا عن مقدمات غير بديهية · وهذا هو الامر الذى جعل الشعراء يقتبسون أغراضهم من مقتضيات الحال وواقع الحياة · وليس هناك من دليل أسوقه على قيمة الشعر الا ما ورد من اختلاف العلماء فى الحكم عليه عبر التاريخ ، فقد بالغ قوم فى وصفه وحسن أثره ، حين نقم الآخرون عليه واعتبروه بدعة · (2)

---

1) وقال الآخر : الشعر هو الكلام الموزون المقفى ويغلب فيه الخيال المطلق على التفكير الصحيح (3) ·

2) قال ابن قتيبة : « الشعر معدن علم العرب وسفر حكمتها وديوان اخبارها ومستودع ايامها والسور المضروب على مآثرها والخندق المحجوز على مفاخرها والشاهد العدل يوم النفار (4) ·

وقد ضرب أمثلة فى قوة تاثير الشعر على النفس أضرب الصفح عنها حفظا للوقت ورعاية لتركيز البحث ولكن لا أرى مانعا من ذكر احدى هذه الطرائف • يقول النظامى العروضى :

« سئل أحمد بن عبد الله الحجستانى كيف ارتقيت الى عرش الامارة وكنت مكاريا • فقال قرأت يوما شعر حنظلة بادغيسى اذ يقول ما معناه لو أن العظمة بين أنياب الاسد تقحم وانتزعها من بين أنيابه فاما بلغت الشرف واما أن تموت ميتة الرجال (3) » •

قال فاثر فى هذا الشعر فتركت شغلى والتحقت بآل ليث • ثم حدث ان تدخل الرجل فى شؤون الملك وتقلبت به الاحوال حتى تولى الحكم على بعض البلاد الاسلامية الشرقية وكان السبب لهذا الانقلاب الروحى ذينك البيتين • والى جانب هذا كثيرا ما نرى جنايات الشعر على المجتمع والانسانية من النواحى الاخلاقية •

والسؤال الذى يطرح نفسه فى المجال هو أنه هل لنا أن نضع الشعر فى قفص الاتهام فنخاصمه ونحكم عليه ونقول ان الشعر سبب لانحلال أخلاق الامة وقتل روحها وسوقها الى الهمجية الهدامة لشخصيتها ، وانه عامل سلبى فى سبيل نهوضها ؟ أو نحكم له ونقول ان الشعر علة قوية فى تعزيز أخلاق الانسان (4) وشحذ همته وارتقائه الى قمة المجد والشرف ، وعامل ايجابى فى نموها وازدهارها •

اعتقد انه لمن التعسف ان نضع الشعر بل وكل ما له صلة بالعاطفة والروح ، على قلب هذا الميزان الذى يفصل بمؤشر حاد قائم بين نقيضين كاملين ، لان الشعر فى حد ذاته وسيلة للتعبير عن العاطفة ، فان كان هناك سؤال بعد ذلك فهو الواسطة بين الشعر ومجتمعه • فالشعر بجملته ومقاطيعه وألفاظه ومادته مرآة تتجلى فيها نفسانية الشاعر وسجل تاريخى عن المجتمع الذى نشأ وترعرع فيه ، ويحكى عن مبلغ رقى هذا المجتمع فى مدارج الشرف والتقوى والعفاف ، أو يرسم درجة انهماكه فى الشهوة والبهيمية • أو

---

3) مهترى كربكام شير درست — شو خطركن زكام شير بجوى
يا بزركى وعزو نعمت وجا — ياجو مردانت مرك رويارى

4) ويقرب هذا مما قاله العتالبى :
فان جسيمات الامور منوطة — بمستودعات فى بطون الاوارد

بعبارة أخرى ينعكس فى الشعر سريرة الشاعر وسريرة أبناء جنسه • والشعر ليس الا تعبيرا عن الخلق الذى يسود على مجتمعه صلحت أم فسدت •

دعنا ننظر الشعر العربى خاصة وندرس البيئة التى نشأ فيها الشاعر وتاثيرها ، لنرى مرآة صادقة تلائم أخلاق هذه الامة • فالشعر الجاهلى مثلا ميزته الانفة وصدق اللهجة والبعد عن التكسب والتكدى والاعتزاز بالشخصية والعصبية ، بيد أن الشعر المخضرم يمتاز بنفحة دينية نفخه بها الاسلام بعد ظهوره ، فنلمس فيه روح الدين ونعيم الآخرة ومغفرة الرب ورعاية حقوق المسلم والتنزه عن الخلق السىء (7) « ومن يقرأ فى شعر المخضرمين متصفحا ما تضمنته كتب التاريخ والادب يجد جمهور الشعراء يصدرون فى جوانب من أشعارهم عن قيم الاسلام الروحية التى آمنوا بها وخالطت شغاف قلوبهم ولشعراء المدينة القدح المعلى فى هذا الميدان فهم الذين وقفوا مع الرسول (ص) منذ نزوله بين ظهرانيهم يدافعون عن دعوته مصورين لهديه الكريم (8) (5) •

ولكن هناك عندما فتحت خزائن الارض على المسلمين ، وانقلبت الخلافة الى ملك وسلطان وتمركز الذهب والنقود تحت أريكة العرش وفتحت سوق المواهب استعبدت ملكات وتفتحت أبواب المشارق والمغارب على عالم لم يعد عربيا ، وانما عالم اسلامى جديد بما لديه من افكار وقيم ، فاذا بالمجتمع غير المجتمع • فكانت نتيجة ذلك ان الجرائم

---

5) واليكم نماذج من شعر هذا العصر :

اعذنى رب من حصر وعى	ومن نفس اعالجها علاجا
ومن حاجات نفس فاعصمنى	فان لمضمرات النفس حاجا
وانت وليها فبرئت منها	اليك وما قضيت فلا خلاجا
	نمر بن تولب
انى وجدت الامر أرشده	تقوى الاله وشره الآثم
	نمر بن تولب
ان الذوائب من فهر واخوتهم	قد بينوا سنة للناس تتبع
يرضى بها كل من كانت سريرته	تقوى الاله وبالامر الذى شرعوا
ان كان فى الناس سباقون بعدهم	فكل سبق لادنى سبقهم تبع
اهدى لهم مدحى قلب يؤازره	فيما أراد لسان حائك صنع
	حسان بن ثابت (9)

الخبيثة تمكنت من نفوس المسلمين فشغلهم عن الحق بالباطل ،ان كثيرا من المسلمين اترفوا ترفا شديدا اذ احاطوا انفسهم بكل مظاهر النعيم من قصور باذخة ومطاعم وملابس انيقة وجوار ورقيق واذا غرقت الامم فى الترف يتورط كثير من ابنائها فى آثام مختلفة من اللهو والمجون (10) ·

وطائفة من الشعراء ـ وهم الذين يهيمون فى كل واد ـ لما رأوا ان سوق الفسق والمجون ووصف الخمر والاستهتار والعهر انفق الاسواق مالوا الى الجهر بالسوء من القول وبالغوا فى الاكثار فى هذا النوع من الشعر ، لان من يمتهن المدح لا يهمه الا السوق التى يبيع فيها سلعته فيقول ما يحب من يغليها ثمنا كائنا ما كان فخلعوا رداء الحياء ، ـ فكان شعرهم صورة لتلك البيئة المريضة الاخلاق · والعصور تحدثنا عن عمر بن أبى ربيعة وبشار بن برد ومعاوية بن ارطاة وعبد الرحمن بن الحكم وأمثالهم يقول الاصبهانى : « ذكر شعر الحارث بن خالد وشعر عمر بن أبى ربيعة عند ابن أبى عتيق » فقال ابن أبى عتيق : « لشعر عمر بن أبى ربيعة نوطة فى القلب وعلوق بالنفس ودرك للحاجة ليست لشعر وما عصى الله عز وجل بشعر أكثر مما عصى بشعر بن أبى ربيعة (11) ·

وقد أفرطوا فى الخلاعة والمجون وترك العفة والاستهتار الى حد لم يستطع الحاكم أن يحتمله ولم يربدا من كبحهم · فمنعهم من الاكثار من هذا النوع من الشعر · يقول أبو الفرج أيضا أخبرنى هاشم قال حدثنا أبو غسان دماذ قال سألت أبا عبيدة عن السبب الذى من أجله نهى المهدى بشارا عن ذكر النساء قال كان أول ذلك استهتار نساء البصرة وشبانها بشعره حتى قال سوار بن عبد الله الاكبر ومالك بن دينار : ما شيء ادعى لاهل هذه المدينة الى الفسق من اشعار هذا الاعمى ومازالا يعظانه · وكان واصل بن عطاء يقول ان من أخدع حبائل الشيطان وأغواها لكلمات هذا الاعمى الملحد ··· (12) ، ولم تكن الحالة فى البلاد الغير العربية أحسن من البلاد العربية · فاذا مضينا الى أصبهان وخراسان وسجستان وجدنا كثيرين من الامراء والاكابر المترفين «واذا أراد الله أن يهلك قرية أمر مترفيها» كانوا يتورطون فى الفسق والمجون ويقربون من ينادمهم فى معاقرة الكؤوس وينفقون أغلى الاموال وأنفس الاشياء على الشاعر الذى يصف الخمر بادق توصيف أو يشبب بالنساء بأقبح صورة فشاعت الاغراض الشعرية الرديئة الخبيثة الدواعى بين الناس وشغلهم عن الحق بالباطل · اذا فمن المدين وعلى من يحكم فى

هذه المحكمة ومن المعتدى على المثل الاخلاقية والقيم الانسانية هل هو الشعر ، كلا أيها السادة ٠ « ليس الشعر الا لغة الانسانية فى أتم ارهافها وشحذها وأتم دقتها وشحنها والشعراء ليسوا الا أقدر الناس على استعمال اللغة للتعبير عن تجاوبهم وعواطفهم التى يمارسونها مع الكون المحيط بهم والمجتمع الذى يعيشون فيه والحياة التى يحيونها والنفس الفردية التى يصارعها كل منهم وما يصاحب هذا من المشكلات والرغبات والمخاوف والآمال ٠ أو قل بعبارة أخرى انهم أقدر الناس على التعبير عن انسانيتنا الكاملة » ٠ (13)

انما المجرم هو المجتمع المريض والبيئة الفاسدة التى تفسح المجال لابن أبى ربيعة وبشار ، فى سالف الزمان ومن اقتدى بهما مدى التاريخ وتفتح أحضانها لاخلاقهم فى هذا العصر ، والتاريخ كما يقال يعيد نفسه ٠ لا أيها السادة ٠ « اذا وجدتم شعرا سخيفا يدعو الناس الى الفسق بدل التقوى ، والى الشهوة بدل العفة ، والى اليأس بدل الرجاء ، والى الذل والعبودية بدل العز والرفعة ، فلا تلوموا الشعر فقط ، بل لوموا أمة تبعت هواها وسخر الشيطان قلبها وقواها لوموا فئة صغرت همتها وتضاءلت عزائمها وفسدت أخلاقها ٠ لوموا قوما اجتزأت بالقليل وقنعت من دهرها بالدون (14) لوموا أمة ركضت الى الدعة قبح الله الدعة » ٠

والآن ننتقل الى النقطة الثانية من البحث أعنى الشعر وأثره من وجهة نظر الاسلام أو موقف الشريعة الاسلامية من الشعر ٠ وقد سبق منا ان القول بالشعر غريزى للانسان ولا يمكننا أن نمنعه عنه فاذا كان هذا صحيحا فلا يمكن ان تقول ان الاسلام حرم هذا الامر الغريزى على الانسان ٠ اذ لم تكن الحركة الاسلامية متنكرة للحياة العاطفية ولا متجهمة لها ولم يكن من شأنها ان تهمل هذا الجانب من حياة الانسان محتقرة له أو مزدرية بشأنه وانما كان من همها دائما ان تستثير هذه الحياة العاطفية وان تجعل منها قوة دافعة نحو الخير العام والصلاح المشترك (15) ٠ وان يحول الشعر من سلاح فى يد العصبية الحمقاء الى سلاح فى سبيل دعوة الحق : (6)

6) فكم من أبحاث راقية من علمى الكتاب والسنة ومن العبر والموعظة الحسنة والاخلاق يحتويها الشعر ٠ أضف اليه ما فيه من فنون الادب والشعر ديوان العرب ومواد اللغة ومبانى التاريخ ٠ فاذا كان الشعر حافلا لهذه النواحى فهو مأرب المجتمع ٠ (16) ٠

ولولا سنـــة سنها الشعـر ما درى بغاه الندى من أين تؤتى المــكارم
يرى حكمـــة ما فيه وهو فكاهـــة ونرضى بما يقضى بـه وهو ظالــم

وأنت تجد تأثير الشعر الرائق فى نفسك فوق أية دعاية وتبليغ · والحق ان هذا النوع من الشعر يوقظ الامة ويعزز أخلاقها ويبث فيها روح الحياة ويسدد خطاها للقفـز الى الامـــام ·

فأى رجل عربى بل وأى مسلم ذاك الذى يقرأ هذه القطعة ولا يثور لانتهـاك حرمة الانسان فى فلسطين العزيزة ولا يطمئن فى نفسه بأن جولة الباطل ستزهق وان دولـة الحق ستعود ويورث الله عز وجل أرضها عباده الصالحين ·

يا فاتح القدس خل السيف ناحية ليس الصليب حديدا كان بل خشبا
اذا نظرت الى أيـــن انتهت يـــده وكيف جاوز فى سلطانه القطبـــا
علمت ان وراء الضعف مقـــدرة وان للحق لا للقـوة الغلبـــا (18)

أو يمر على هذه القطعة لشاعر الارض المحتلة التى تقطر منها دم الشرف والكرامة ، والتى تزخر ببطولات الجرائم الآثمة ثم لا يجد نفسه فخورا لما قدم ابناء أمتـــه مـــن التضحية ليعلوا بها صرح العروبة والاسلام :

لا تدفنى موتاك
خليهم كأعمدة الضياء
خلى دمى المسفـوك
لافتة الطغاة الى المساء
خليه ندا للجبال الخضر
فى صـــدر الفضاء
لا تسألى الشعراء ان يرثوا زغاليل الجميلة
شرف البطولة انها
خطر على أمن القبيلة · (19)

ولقد كان الشعر فى العصر النبوى والخلفاء يذهب فى ميادين الحرب مـع صوارم الشجعان جنبا الى جنب · وكان الرسول (ص) يحث الشعراء على هذه الناحية ويامرهم بالاحتفاظ بها وكان يراه نصرا للاسلام وجهادا دون الدين الحنيف ، وكان يصور للشاعر جهاده وينص به ويقول : « اهجوا بالشعر ان المؤمن يجاهد بنفسه وماله والذى نفس محمد بيده كانما تنضحونهم بالنبل » وفى لفظ آخر : «فكان ما ترمونهم به نضح النبل» وفى رواية : « والذى نفس محمد بيده فكأنما تنضحونهم بالنبل فيما تقولون لهم من الشعر » (20) · وكان (ص) يرتاح لشعرهم كما أرتاح لشعر كعب بن زهير لما أنشده فى مسجده الشريف لاميته التى مطلعها :

بانت سعادة فقلبى اليوم مبتول   متيم اثرها لم يفد مكبول

فكساه بردة اشتراها معاوية بعد ذلك بعشرين ألف درهم وهى التى يلبسها الخلفاء فى العيدين (21) ، ولما انشده النابغة الجعدى قوله :

ولا خير فى حلم اذا لم يكن له   بوادر تحمى صفوه ان يكدرا
ولا خير فى جهل اذا لم يكن له   حليم اذا ما أورد الامر أصدرا

قال (ص) لا يفضض الله فاك (22) ·

وهذه الطائفة من الشعراء هم المعنيون بقوله تعالى : « الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيرا وانتصروا من بعد ما ظلموا » (23) · وروى انه لما نزلت الآية : « والشعراء يتبعهم الغاوون » (24) ، جاءت عدة من الشعراء الى رسول الله وهم يبكون قائلين انا الشعراء والله أنزل هذه الآية فتلا النبى (ص) : « الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات » ، قال أنتم · (وذكروا الله كثيرا) قال أنتم (وانتصروا من بعد ما ظلموا) قال أنتم (25) وفى هذا النوع من الشعر قال (ص) ان من الشعر حكماء (26) وهكذا كان الشعر موضع اهتمام لدى الأئمة والعلماء يعدونه دعاية روحية ونصرة للدين وكانوا يعظمون الشعراء ونرى كثيرا من العلماء والفقهاء من شتى المذاهب الاسلامية نظموا القريض ويرغبون طلابهم فيه ، اذا فمن الخطأ ان ننخدع فنأخذ بظاهر بعض الآيات الكريمة أو نعتمد على بعض الروايات التى وردت فى نوع خاص من الشعر كقوله (ص) : « لان يمتلىء جوف أحدكم قيحا خير له من ان يمتلىء شعرا » (27) وذلك لان شعراء

مكة فى عصر النبى (ص) كانوا لسان مقاومة زعمائها أمام تعاليم الاسلام ، المقاومة التى لقيها الاسلام • وبعضهم كانوا دعاة للطرف واللهو والخمر والتشبيب بالنساء •

والآن أستسمحكم أيها السادة مع كل التواضع ان الخص ما ألقيت على مسامعكم الشريفة كل الاختصار •

أولا : قد رأينا ان للشعر اثرا قويا فى النفوس لا يعادله فى الغالب أى قول أو بعبارة أخرى أية صناعة منطقية غيره •

ثانيا : وظيفة الشعر كما يحكم به المنطق الصحيح وتقره الشرائع السماوية أن يكون فى خدمة المجتمع وان يستخدمه الشاعر لتعزيز أخلاق أمته •

ثالثا : لو رأينا ان الشعر عدل عما هو وظيفته أعنى صالح الحياة ليس لنا أن نلوم الشعر والشاعر فقط بل يجب ان نلوم أنفسنا لاننا ندع المجال لهؤلاء ونشجعهم على عملهم فالمقصر نحن أيضا فلا بد حينئذ من عمل جماعى مشترك للقضاء على كل ما له أثر فى انحراف الفكر عن الاصول الدينية الثابتة والقيم الاخلاقية الانسانية • وليست المسألة وقفا على الشعر أو الادب فقط ، بل هى تتناول كل ما من شأنه ان يستخدم الوجدان الانسانى لتوجيه الحياة فى ناحية خاصة •

واذا كانت المسألة فى مرحلتها الاخيرة هى تفاعل مشترك بين المجتمع والشاعر فالمجتمع يخلق الشاعر والشاعر يخلق المجتمع فمسألة قيمة الشعر بالنسبة للمجتمع مسألة نسبية تحكم فيها الظروف والاحوال فقد كان الشعر ولا يزال ذلك السلاح ذى الحدين الذى أينما وجهته قطعه

مصادر البحث

1 – القرآن الكريم آية 17 – 18 سورة 39 •

2 – مقالات أربع • عبد الوهاب عزام ويحيى الخشاب • مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة 1368 هـ ، ص 35 •

3 – أدباء العرب فى الجاهلية والاسلام • بطريق البستانى ج 1 ص 5 •

4 – عيون الاخبار • ابن قتيبة • طبع دار الكتب المصرية ، ج 2 ص 185 •

5 ـ انظر : مقالات أربع · ص 34 ·

6 ـ أنظر : فوات الوفيات · طبع مصر · ج 2 ، ص 139 ·

7 ـ أدباء العرب · ج 1 ـ ص 229 ·

8 ـ تاريخ الادب العربى · العصر الاسلامى ـ دكتور شوقى · ج 2 ـ ص 68 وانظر : شوقى · شعره الاسلامى الدكتور ماهر حسن فهمي · ص 23 ـ 32 ·

9 ـ نفس المصدر ـ ص 79 ·

10 ـ نفس المصدر ـ ص 376 ·

11 ـ الاغانى · طبع دار الثقافة · بيروت 1374 ، ج 1 ص 113 ـ 114 وانظر : تاريخ الشعر العربى نجيب محمد البهبيتى · دار الكتب ص 195 ·

12 ـ الاغانى ، ج 3 ص 176 ·

13 ـ وظيفة الادب · الدكتور محمد النويهى · طبع معهد البحوث ، ص 181 ·

14 ـ العربية وشاعرها أحمد شوقى ، اسعاف النشاشبى · مطبعة المعارف 1346 ص 14 ·

15 ـ تطور الغزل بين الجاهلية والاسلام · الدكتور شكرى فيصل · مطبعة جامعة دمشق ، ص 172 ·

16 ـ الغدير عبد الحسين · أحمد أمينى ، طبع بيروت ، ج 2 ص 2 ·

17 ـ أبو تمام الطائى ·

18 ـ أدباء العرب ، ج 4 ص 194 ·

19 ـ دراسات فى شعر الارض المحتلة · الدكتور عبد الرحمن ياغى · ص 309 طبع 1969 ، ص 309 ·

20 ـ انظر : مسند أحمد · ج 3 ص 360 ، 456 ، ج 6 ص 376 ·

21 ـ الشعر والشعراء · ابن قتيبة · تصحيح مصطفى افندى مطبعة المعاهد · ص 62 الاصابة جزء 5 ص 302 ·

22 ـ الشعر والشعراء ، ص 96 ، وانظر : الاصابة جزء 6 ، ص 220 ·

23 ـ القرآن الكريم ، سورة 26 آية 227 ·

24 ـ القرآن الكريم ، سورة 26 آية 224 ·

25 ـ تفسير ابن كثير ج 3 ص 356 ·

26 ـ المعجم المفهرس لالفاظ الحديث النبوى · ج 3 ص 140 ·

27 ـ البخارى · أدب · ص 92 · وانظر : معجم المفهرس ج 3 ص 140 ·

طبيعة الشعر وصلتها بالأخلاق

د . زكي نجيب محمود
استاذ الفلسفة السابق
بكلية الآداب جامعة القاهرة

- 1 -



استاذنكم فى أن أبدأ حديثى بما سوف أنتهى اليه ، وهو أن الفنون - والشعر أحدها - لم تخلق لتخدم الاخلاق ، الا ان يجيء ذلك بطريق غير مباشر ولا مقصود .

والنقطة الاولى ، التى أريد لها أن تكون الركيزة الاساسية فى حديثى هذا لانها لو ظفرت منا بالقبول ، جاءت نتائجها تترى فى جلاء ، هى الفوارق بين القيم العليا الثلاث : قيم الحق والخير والجمال ، فلئن جمع بينها انها معايير نلجا اليها طلبا للهدى ، فهى تعود فتتفرق - ليكون لكل منها مجال خاص، فأما قيمة الحق فمجالها العلوم، أو ما يجرى مجرى العلوم من شؤون الحياة العملية ، واما الخير فمجاله أفعال الانسان الارادية ، وأما الجمال فمجاله الفنـــون .

هى مجالات ثلاثة ، وعليها قيم ثلاث ، تلتقى كلها فى الانسان ، لكنها من الاختلاف فيما بينها ، بحيث اذا اختلط فى أذهاننا حابلها بنابلها ، خرجنا من الخليط بحياة مطموسة المعالم ، لا العلم فيها علم ، ولا الاخلاق اخلاق ، ولا الفن فن ٠

قيمة الحق تتميز من اختيها بأنه لا دخل للانسان فى اختيارها ، فأمامه حقيقة واقعة ، كالشجر والحجر والماء والافلاك ، ولقد امده الباحثون عن تلك الحقيقة الواقعة باقوال يزعمون له أنها قوانين الاشياء ، فما عليه ـ ليعرف أين الحق فيها وأين الباطل ـ الا ان يقيس القول بالواقع ، فلا حيلة له فى الامر ، لانه مفروض عليه ٠

وأما الاختان الاخريان : قيمة الخير وقيمة الجمال ، فمختلفتان عن ذلك لانهما مأخوذتان لا من عالم الواقع كما يقع ـ بل هما مأخوذتان من عالم الامكان ، فمبادىء الاخلاق هى ما « يمكن » للفعل البشرى أن يصعد اليه ، وسواء استطاع ذلك بالفعل أم لم يستطع ، فالمبادىء هناك أقامها الانسان ـ أو أقيمت له ـ لتكون الهدف المنشود ، وبدائع الفنون هى ما « يمكن » أن يلوذ به الانسان من واقع كريه ، وكذلك هى ما يمكن أن يفسر لنا سلوك الانسان ٠

لكن هاتين القيمتين ، وان تشابهتا فى التعلق بالمثل الاعلى ، فهما تختلفان : فمهمة الاخلاق هى أن تقوم المعوج من سلوكنا ، ومهمة الفنون ـ ومنها الشعر ـ هى أن تفسر سلوكنا لا أن تقومه ٠

لنأخذ فكرة من الاخلاق ، وصورة من الشعر ، كى نتبين الفارق بينهما ، تقول لنا الاخلاق ـ مثلا ـ بوجوب التعاون بين الناس ، فيكون الهدف من قولها هذا هو أن نصلح حياتنا العملية ، بحيث ندخل فيها التعاون اذا لم يكن قائما ، ويعطينا الشعر صورة لرجل يطلق عليه اسم هاملت ، لا لكى نصحح شيئا فى حياتنا ، بل لنفهم تلك الحياة كلما صادفنا بين الناس رجلا شبيها بهاملت ٠

وعلى ضوء هذه التفرقة بين الاخلاق والشعر ، اذا سئلنا : هل يؤثر الشعر فى اخلاق الناس ؟ أجبنا فى ثقة : ليست هذه مهمته ٠ فان جاء تأثير كهذا ، فانما يجىء بطريق غير مباشر ولا مقصود ٠

لفيلسفونا أبى نصر الفارابى نظرية فى طبيعه الشعر ، يحق لنا ، بل يجب علينا ـ نحن الوارثين لهذا التراث العقلى العظيم ـ ان نفاخر بها أصحاب المذاهب النقدية المعاصرة فقبل أن نرطن ألسنتنا بما قاله فلان أو فلان من غير أهلنا ، ينبغى أولا ان نستمع الى ما قاله ذوونا فيما نريد الحديث فيه ثم نقارن به ، ونزيد عليه ـ مما قاله الآخرون ٠

للفارابى ـ كما قلت ـ نظرية فى طبيعة الشعر ، جديرة منا بالنظر الفاحص لانها تلقى شعاعا قويا من الضوء على علاقة الشعر بالاخلاق ، وملخصها هو ان للطريق بين الشعر فى طرف ، وسلوك الانسان فى طرف آخر ، ثلاث مراحل : فهنالك ـ أولا ـ صورة يرسمها الشاعر ، كما أن هناك ـ ثانيا ـ خبرة ماضية مخزونة فى الذاكرة ، فاذا ما طالعنا الصورة التى رسمها الشاعر ، استدعت من مخزون الذاكرة شيئا من الخبرة الماضية ، ذا علاقة بها ، من تشابه أو تباين ، وهنا تأتى المرحلة الثالثة ، وهى أن نبنى على تلك الخبرة المستدعاة من الذاكرة وقفة سلوكية ازاء العالم ـ وعلى ذلك فيمكن القول بأن الصورة الشعرية كانت هى المحرك لنا فى توجيه سلوكنا ، وان يكن ذلك قد تم عرضا وبلا قصد صريح ٠

ويبدو لى أن هذه النظرية الفارابية فى طبيعة الشعر ، تحل الاشكال الذى ما انفك قائما بين النقاد ، وهو : هل يخضع الفن لمبادىء الاخلاق ؟

أو بعبارة أخرى تلوكها ألسنة نقادنا اليوم : أيكون الفن هادفا أم لا يكون ؟

فلو كان الفارابى بيننا اليوم لاجاب : كلا ، ليس الفن هادفا بطبيعته ، ولكن ذلك لا يمنع أن تأتى منه النتائج السلوكية التى نريدها ، وذلك شبيه بقولنا : ان الريح قد دفعت شراع السفينة فحركتها ، لكن الريح كانت لتظل هى الريح بكل مقوماتها ، ان كانت هنالك سفينة تتحرك أو لم تكن ٠

انه لا مناص لنا من التفرقة الفاصلة بين مجال الشعر من ناحية ، ومجال الاخلاق من ناحية أخرى ، فلكل من المجالين طبيعته ومعياره ، وان الشعر ليظل شعرا ، سواء

أرضيت عنه مبادىء الاخلاق أم لم ترض ، ما دام قد حقق لنا ما تقتضيه طبيعة فنـه فلا فرق عند الفن بين أن يصور الشاعر فضيلة أو أن يصور رذيلة ، طالما هو قد أجاد الفن فى كلتا الحالتين ، ان دنيا الشعر ترحب بأبى نواس ترحيبها بزهير ، وان ملتـن بفردوسه المفقود شاعر فى الجانب الالهى من قصيدته كما هو شاعر فى جانب تصويره للشيطـان ٠

ومع ذلك فالنظرية الفارابية ـ كما أفهمها ـ تريحنا من العناء ، وتقف بنا موقفـا وسطا ، لان مؤداها هو أن تصوير الشاعر يعقبه تغير فى سلوك الانسان ٠

دون أن يكون ذلك التعاقب عن سببية حتمية فالشعر يظل شعرا بقيمته الفنية ، حتى لو لم يعقبه تغير فى السلوك ، كمثل الريح وشراع السفينة الذى قدمناه ، فاذا قلنـا ان الغاية الخلقية هى مدار البناء الفنى ، وجب أن نضيف الى هذا القول ، بأن الشعـر يبطل أن يكون شعرا ، اذا هو قدم لنا تلك الغاية الخلقية وعظا مباشرا ، اذ لا بد ـ فى نظرية الفارابى ـ من بناء الصورة الخيالية أولا ٠ وهى الصورة التى لا يراعى فى بنائها الا معايير الفن الشعرى وحدها ، ثم يترك الامر لما توجيه الصورة المرسومة لمن يطالعها ، فاذا كانت صورة محببة الى نفسه ، تقمصها وسلك على هداها ، أو كانت صورة منفرة ، عافها وكف عن مزج نفسه بها ، وهكذا يحقق الفن الشعرى ما يراد له بأن يحققه فى مجال الاخلاق بطريق غير مباشر ، ودون أن يفرط فى شروط الفن الشعرى وما يقتضيه ٠

ان ألف باء العمل الفنى ، هى أن يستقطر الفنان من مادة فنه كل قطرة فيها ، فلكل فن مادته الخامة ، للموسيقى الصوت ، وللتصوير الضوء أى اللون ، وللشعر اللفظ ، وللنحت الحجر ، ومهمة الفنان الاولى ازاء مادته الخامة أن يخرج منها عبقريتها الدفينة فيها ، فأول ما نطالب به الشاعر العربى ، هو أن يظهر لنا عبقرية اللغة العربية وان يخرج الى الآذان مكنون سرها ، وانه لهراء العابثين بمجدنا ذلك الذى نسمعه من بعض شعرائنا اليوم ٠ من دعاة العامية ، أو من القائلين باستخدام الشعر وسيلة لغاية اسمى منه ، فاذا كنت شاعرا ٠ فالاولوية هى للشعر ذاته ، ثم تأتى بقية الاغراض عـوارض طارئـة على الجوهر ٠

مادة الشعر ألفاظ مما تستخدمه أنت واستخدمه أنا فى قضاء شؤون حياتنا ، لكن لكل لفظة جانبين ، فلها الدلالة المنطقية التى نشير بها الى الاشياء ، ولها كذلك الغزارة النفسية وعلى هذا الجانب النفسى يرتكز الشعر • فليست كلمات اللغة بمقتصرة عن كونها رموزا كرموز الرياضة ، بل هى الى جانب هذا تشبه الكائنات الحية فى تطورها كلما امتد بها زمن استعمالها اذ تظل اللفظة تزداد امتلاء بابعادها الوجدانية مع تنوع الظروف التى تتقلب فيها مع القلوب ، وليست كل الفاظ اللغة فى هذه الغزارة الوجدانية سواء ، بل منها ما لا يجرى مع تيار المشاعر الا بأقل القليل ، وعندئذ يكاد يقتصر على دلالته المنطقية وحدها ، ولكن منها كذلك ما يعب عبا من تيار المشاعر حتى لتصبح اللفظة كنبضة القلب ، ومن هذا النوع الغزير باغواره الوجدانية ينسج الشاعر شعره •

الشعر هنا على نقيض العبارة العلمية ، فلئن كان المثل الاعلى للعبارة العلمية هو أن تكون واحدية المعنى ، لا يداخلها لبس ولا غموض ، ولا يتعدد تفسيرها عند القارئين ، فان المثل الاعلى للقول الشعرى ، هو أن يحمل من المعانى ما لا حصر له اذا استطاع الشاعر ذلك ، بحيث تتعدد زوايا الرؤية عند مختلف السامعين أو القارئين ، وذلك لان الشاعر اذ ينتقى لشعره اغزر الالفاظ قدرة على استثارة المشاعر ، فانما يسوق لنا فى قوله الشعرى ما يمكن أن تكون له استجابات مختلفة عند مختلف المنشدين ، ولذلك فسؤالنا الاول عند تقدير القيمة الشعرية ليس هو : ماذا قال الشاعر ؟ بل هو : كيف قال الشاعر ما قاله ؟ ولكى ترى الفارق البعيد فى الالفاظ بين دلالاتها المنطقية ومضموناتها الوجدانية انظر الى هذه الكلمات ـ مثلا ـ ماء ، ظل ، وطن ، أم ••• انظر اليها من حيث هى اسماء تحدد معناها القواميس ثم انظر اليها مثيرات للوجد والحب والالم والامل ، أنظر الى ما تثيره كلمة ماء عند الظامىء، وكلمة ظل عند التائه فى الصحراء وكلمة وطن عند المجاهدين فى سبيل الحرية لبلادهم ، وكلمة أم عند كل انسان •

ان الدلالة المنطقية للفظة تجعل اللفظة رمزا رياضيا لا حياة فيه ، بل ان قوتها عندئذ هى فى ان تخلو من الحياة حتى لا يفسد المعنى ، وأما فى الدلالة النفسية فان اللفظة تكون كالمنجم الذى يعطيك من مكنونه بقدر ماتحفر حوفه لتستخرج ما فيه ، واقول

ذلك لتزداد وضوحا بأن الشعر ـ كغيره من الفنون ـ يقف عند وسيلته لا يريد وراءها وراء ، فاذا رأينا وراء تلك الوسيلة هدفا فانما جاء ذلك هدفا غير مقصود ٠

ومن هذه النقطة ذاتها ، انبثقت مناقشات ، وما تزال تنبثق ، وأغلب الراى هو أنها سوف تظل ، ما دامت فى الدنيا فنون ينتجها ناس ويتلقاها آخرون ، وهى مناقشات مدارها هذا السؤال : أئذا كانت وسيلة الفن هى فى الوقت نفسه هدفه الاول والاهم ، بحيث اذا وجدنا له هدفا آخر وراء تلك الوسيلة ، عددناه هدفا جانبيا لم يقصد لذاته ، أفيكون الفن ـ اذن ـ منحصرا فى ذاته وبغير معنى ؟ أيعزف الموسيقى لنفسه ، وينشد الشاعر الشعر لنفسه ؟ فاذا كانت الفنون موجهة الى الناس ، فماذا يراد لها أن تقول لهم ؟ هل يراد لها ـ مثلا ـ أن تحمل لهم رسالة فى السياسة أو فى الاخلاق أو فى حقيقة الكون والكائنات أو غير ذلك ؟ وجوابى عن هذا السؤال هو سؤال ذو خطر بالغ فيما يشيع بيننا اليوم من حديث عن الفن الهادف وغير الهادف ـ أقول ان جوابى عن هذا السؤال الهام ، قريب من وجهة النظر التى طرحها فيلسوفنا الفارابى عن الشعر ، والتى أسفلت ذكرها ، ولعلى لا أخطىء كثيرا اذا قلت انه كذلك جواب شبيه بما قاله الناقد المعاصر رتشاردز حين تعرض لطبيعة الشعر بصفة خاصة ، والفن كله عامة ، وهو أن الفن يعنى ما يعنيه بالايحاء لا بالتوجيه المباشر ، فقد توحى اليك قصيدة الشعر بما توحى ، فى الاخلاق وفى غير الاخلاق ، على أنها فى الوقت نفسه ، قد توحى لغيرك بمعنى آخر دون أن يكون احدكما حجة على الآخر ، ومن هنا يجىء للشعر ثراؤه فى تنوع التأويل ، واما اذا اردنا ان نعثر له على المعنى الواحد الوحيد الذى قصد اليه الشاعر والذى لا يختلف فى تحديده قارئان ، فذلك أمر عسير ، لسبب بسيط وهو أن ذلك المعنى الواحد الوحيد ـ ان وجد ـ فهو فى بطن الشاعر كما كانوا يقولون ٠ أعيد القول مرة أخرى : ان وسيلة الشعر ، والتى هى اللفظ ، هى فى الوقت نفسه هدفه الاول والاهم ، يقف الشاعر عند لفظه وقفة المصور عند ألوانه ، والموسيقى عند أنغامه والنحات عند قطعة المرمر أو الجرانيت يسأل نفسه : كيف أستخرج من جوف هذا اللفظ عبقريته فى جرس النغم وتلوين الصورة والقدرة على الايحاء ؟

ولنضرب هذا المثل توضيحا لتغلغل الشاعر فى حنايا لفظه ، على وجه غير مألوف لنا عند استعمال اللغة فى شؤون الحياة الجارية :

روى أن الخنساء سمعت حسانا بن ثابت ينشد فى عكاظ قوله :

لنا الجفنات الغـــر يلمعن بالضحى وأسيافنا يقطـرن مـن نجدة دمـا

فقالت له الخنساء تنقده ، وهى الشاعرة الخبيرة باللغة وسرها :

ضعفت افتخارك وانزرته فى عدة مواضع ٠

قال : كيف ؟

قالت : قلت « لنا الجفنات » والجفنات ما دون العشر ، فقللت العـــدد ، ولو قلت « الجفان » لكان أكثر ، وقلت « الغر » والغرة هى البياض فى الجبهة ، ولو قلت «البيض» لكان أكثر اتساعا ، وقلت « يلمعن » واللمع شىء يأتى بعد الشىء ولو قلت (يشرقن) لكان أكثر لان الاشراق أدوم من اللمعان ، وقلت « بالضحى » ولو قلت « بالعشية » لكان أبلغ فى المديح ، لان الضيف بالليل اكثر طروقا ، وقلت « اسيافنا » والاسياف دون العشر ، ولو قلت « سيوفنا » لكان اكثر ، وقلت « يقطرن » فدللت على قلة القتـال ، ولو قلت « يجرين » لكان أكثر لانصباب الدم ، وقلت « دما » و (الدماء) أكثر مـــن الدم ٠٠٠ ومن نقد الخنساء الشاعرة لحسان بن ثابت ترى كيف يغوص الشاعر فى جوف اللفظة ، ولا يكتفى بظاهر دلالتها أو بمجرد كونها تشير الى مسميات بعينها وذلك لان الشاعر يريد لكل لفظة فى شعره أن تجىء مترعة بمعناها وفحواها انه يستخدم اللفظة على نحو فريد ، لا يشبهه أى ضرب من ضروب استخدامها الاخرى ، انه يريد من اللفظة أن توحى وان تستثير عند السامع حلو ذكرياته أو مرها ٠

لقد قيل كلام كثير عن المترادفات فى اللغة، ان اللفظتين المترادفتين فى المعنى ــ عند المتكلم من عامة الناس ــ تغنى احداهما عن الاخرى لانها تساويها ، فقل عن رجل انه أبى أو أنه والدى ، فالامر سيان ؟ أو قل عن حيوان انه الليث أو انه الاسد فقد دللت عليه بـأى اللفظتين ، لكن الامر مختلف عند الشاعر الذى يحس باللفظ احساسا آخر أغنى وأغزر

اذ اللفظتان المترادفتان عنده تتقاربان تقارب الشقيقتين فى أسرة واحدة لكنهما لا تتطابقان فتراه ينتقى منهما ويختار ٠

تلك هى طبيعة الشعر أو قل انها طبيعة الفن على اطلاقه ، واعنى الاهتمام بوسيلة الاداء لانها الى جانب كونها وسيلة فهى فى الوقت نفسه الغاية الاولى فمن الاجحاف بالشعر أن نطالبه بالخروج عن نفسه وبالتنكر لطبيعته ، ليخدم شيئا آخر سواه ٠ أخلاقا أو غير اخلاق ، لكن لا خوف على هذا الشيء الاخر ، فسيخدم بما يحقق رغباتنا فى ذلك سيخدم بالطريقة التى ترضى الفن ، الا وهى طريقة الاثارة والايحاء ٠

ان الشاعر اذا سها عن فنه لحظة ـ وقد يسهو ـ فوقف منا موقف الواعظ المرشد فانه فى هذه اللحظة عينها ، ينفى عن نفسه أن يكون شاعرا ، فافضل ما يكون الشاعر معلما اخلاقيا حين لا يحاول أن يعلم ، ولقد يكون عند الشاعر شيء من حكمة الحياة يريد أن يعلمنا اياها ، بل هو أحق الناس بجمع الحكمة من تضاعيف الحياة ، لان رجلا أرهفت حواسه بمثل ما أرهفت حواس الشاعر تكون حكمة الحياة أقرب الى أطراف أنامله منها الى سواه ولكن من أدراك أن الحكمة التى يستقطرها الشاعر من حقائق الحياة يتحتم أن تجيء خادمة للاخلاق كما نريدها ؟ أفلا يجوز أن تكون رؤية الشاعر للنفس البشرية ان الظلم شيمتها ، وانها اذا عفت عن الظلم فلعلة خافية ؟ أو أن تكون رؤيته لطبائع الناس هى انهم منافقون يقولون لمن يلقى الخير ما يشتهى وان يكن قولهم كذبا ، ويديرون ظهورهم لمن أخطا النجاح والتوفيق ؟

ومهما يكن من أمر فليكن واضحا أن تجميع الحكمة على هذا النحو ليس هو الشعر لانها ضرب من التعميم ، والتعميم فى الاحكام عمل عقلى ، لا شان للذوق الشعرى فيه اللهم الا ان يكون جانب الفن منه هو طريقة الصياغة ، الشعر فى أخص خصائصه يقف عند الجزئيات المفردة ، من سلوك أو مرئيات أو غير ذلك مما يجيء ادراكه محددا بحدود المكان والزمان ، فاذا رأيت أحكاما عامة ترد فى سياق الشعر ، فاعلم انها انما جاءت لا لتكون شعرا بذاتها بل جاءت لتكمل صورة جزئية فردية فريدة أراد أن يصورها الشاعر كأن تجيء ـ مثلا ـ على لسان احدى الشخصيات فى مسرحية شعرية أنك اذا كنت حكيما فلست بشاعر ، وان كنت شاعرا فلست بحكيم ، ولم تفت هذه التفرقة

بين الحكمة والشعر أسلافنا ، فقال بعض نقاد العرب الاقدمين : المتنبى والمعرى حكيمان ، والشاعر هو البحترى •

- 4 -

أن من أعمق الكتب التى شهدها مجال النقد الفنى ، كتاب « لاكون » للشاعر الناقد الالمانى « لسنج » ، فلقد فصل القول فى بيان التفرقة بين الفنون موضحا كيف أن لكل فن مجاله الخاص لا تظهر عبقريته الا فيه فاذا كانت هذه التفرقة واجبة بين فن وفن ، مع ان الفنون أبناء أسرة واحدة ، فالتفرقة أوجب بين الفن من جهة وما ليس بفن من جهة أخرى ، فلو أراد فن الشعر أن يكون رسالة أخلاقية ضاع منا الفن والاخلاق معا •

وعندما أراد « لسنج » أن يحدد مجال الشعر قال انه الفعل ، سواء كان ذلك الفعل فعلا لكائن حى أم كان فعلا لكائن من كائنات الطبيعة من غير الاحياء ولما كان الفعل فى طبيعته سيرة من أحداث تتعاقب على فترة من زمن ، كان الحدث الزمنى هو لب الشعر وصميمه فليس من مجال الشعر أن يصف شيئا ثابتا فى مكان لان ذلك من شأن التصوير وانما الحركة هى مجال الشعر وحركة الحياة بصفة خاصة ، ولذلك فلا عجب أنه اذا كان من شأن التصوير والنحت أن يمجدا موضوعاتهما لتسكن فيها الحركة عند لقطة ثابتة ، فان من شأن الشعر أن يحرك موضوعه حتى لو بدا فى ظاهره شيئا ساكنا ومن هنا ترى الشاعر يتحدث الى الاشياء وكأنها فى وجدانه كائنات حية يحدث الجبل والبحر والسحاب والهواء ، كما يحدث ناقته وجواده فضلا عن حديثه مع الاناسى من الموتى أو من الاحياء ، فالكون كله فى وجدان الشاعر مفعم بالحياة لانه متدفق بالحركة ولولا الشعر ـ كما يقول العقاد ـ لظلت الطبيعة خرساء كما تحب ان تراها النظرة العلمية ، يقول :

والشعر ألسنة ، تفضى الحياة بها — الى الحياة ، بما يطويه كتمان
لولا القريض لكانت ـ وهى فاتنة ـ — خرساء ليس لها بالقول تبيان
ما دام فى الكون ركن للحياة يرى — ففى صحائفه للشعر ديوان

فلئن كانت النظرة العلمية تجعل الانسان جزءا من الطبيعة ، تجعله ظاهرة من ظواهرها ، فان الشعر يجعل الطبيعة جزءا من الانسان ، تحيا بحياته ، وتنشط بفاعليته ، ليس فيها عنده شىء موات •

يقول لنا الشاعر بشعره : هذه هى الحياة وهذا هو نبضها كما أحسه ، وان لم يستطع ان يحسه معى سائر البشر أجمعين ، فماذا يقول الاخلاقى ؟ انه يقدم لنا المبادىء المطلقة الثابتة ليقول لنا : هذا هو ما ينبغى أن تكون عليه الحياة البشرية،والفرق بين ما هو كائن فى تصور الشاعر ، وما ينبغى أن يكون ، هو الفرق بين الشعر والاخلاق ·

– 5 –

الاخلاق تأمر ، والشعر يفسر ، بماذا يأمرنا شعر المتنبى أو شعر أبى العلاء ، مع أنهما الشاعران اللذان وصفهما القدماء بأنهما حكيمان وبين الحكمة ومبادىء الاخلاق وشيجة قربى ، بماذا يأمرنا شعرهما ؟ انه لا يأمرنا بشىء ولكنه يزيدنا فهما لطبائع البشر · الشعر كاشف عما استتر من لواعج النفس وخلجاتها ، لا يفرق فى ذلك بين خير وشر ، انه يكشف الغطاء عما لا تراه العين العابرة من طبائع الناس ، وانه لمن عجب ان هذا الانسان فى وسعه أن يعلو الى أسمى مدارج الفضيلة ، كما فى وسعه كذلك أن يسفل الى أحط مهاوى الرذيلة ، ومهمة الشعر أن يغوص الى الاعماق الخبيئة ليرى الرواسب على القاع ، فيخرجها من حالة اللا شعور المبهم الغامض ، الى حالة التصوير الواضح ، ليرى الانسان نفسه كما هى ، ان الشاعر اذ يصور لك فردا معينا ، أو حالة شعورية خاصة ، من حب أو كراهية أو غضب أو رضى فهو يقدم لك العام فى الخاص ، وهذا هو موضوع الاعجاز فى جيد الشعر ، اذ هو يقدم لك حالة مفردة ، ولكنها فى الوقت نفسه تصلح ان تكون نموذجا تفسر به سائر الحالات ·

الاخلاق تنهانا عن الرذيلة وتحضنا على الفضيلة ، أما الشعر فيفتح أعيننا على منابع الرذيلة والفضيلة معا ، فاذا كان علمنا بهذه الينابيع يقوم سلوكنا من تلقاء نفسه بلا وعظ صريح ، كان ذلك هو الجانب الاخلاقى من الشعر ·

الشعر محايد ، يصور لك العبقرى والابله على حد سواء ، فهو كالشمس تشرق على الكائنات بغير تمييز وانه لخطأ شائع بيننا ان يقال عن الشعر انه تعبير عن نفس صاحبه ، لكن هذا التعريف الضيق قد ينطبق على قلة قليلة من الشعر الغنائى ، أما الشعر من الضروب الاخرى فلا شأن له بنفس صاحبه ، لان نفس الشاعر من حيث هو فرد واحد ، ليس لها كل هذه الخطورة فى حياة الناس ، وأقرب الى الصواب أن نقول ان الشاعر

بعبقرية الفن فى فطرته ، يعطينا من نفسه الحالة الخاصة ، فاذا هى تصوير للانسان من حيث هو نوع بشرى متجانس الافراد •

واذا كان الشاعر يعبر عن نفسه هو ، فكيف أمكن للشاعر المسرحى ـ مثلا ـ أن يسوق فى مسرحية واحدة حشدا من الانفس المتباينة ، فأى هذه الانفس تكون نفس الشاعر ؟ فى أى الاشخاص الذين صورهم شكسبير ، يعبر الشاعر عن ذاته ؟ أهو ترويلس العاطفى الساذج (فى مسرحية ترويلس و كرسيدا) أم هو هكتور الفارس النبيل ؟ أهو يوليسيز ذو الفكر الناصح ، أم هو كاسندرا التى ترى العالم قاسيا لا رحمة فيه ؟ ان الشاعر يقدم هؤلاء وغير هؤلاء لا يقول عن أحد منهم انه أخطأ أو أصاب وذلك لانه لم يكتب ليدعو الى شىء بعينه ، وانما كتب ليكون شاعرا •

هن أخوات ثلاث : العلوم والفنون ودنيا السلوك ، العلوم قانونها الحق ، والفنون قانونها الجمال ، ودنيا السلوك قانونها الخير ، وعلى رؤوسهن تقوم الحضارة ، كما يقوم المثلث على أضلعه الثلاثة تلتقى الاضلاع عند الرؤوس ، لكن واحدا منها لا يلغى واحدا •

أثر الفنون والآداب
في حياة الأمّة

عمـــر فـروخ

مؤرخ وعضو مجمع اللغة العربية
فى القاهرة والمجمع العلمى
العربى فى دمشق



فى مجرى التاريخ عوامل كثيرة تؤثر فى حياة الامة قوة وضعفا منها فروع الآداب كالشعر ومنها فروع الفنون كالغناء • وللشعر والغناء خاصة أثر فى عواطف الناس ورسوخ فى مناهج حياتهم : أثر حميد اذا نحن عالجنا الشعر والغناء معالجة حميدة قائمة على الجد وعلى ادراك للمثل العليا الثابتة أو أثر غير حميد اذا نحن ملنا بالشعر والغناء الى جانب الغريزة البهيمية والرغبات العارضة والى جانب اللعب واللهو •

ولا شك فى أن الناس ليسوا ـ من حيث الاستعداد الفطرى والتثقيف المكتسب ـ

طبقات بعضها فوق بعض · وكلما كان الفرد فى طبقة أدنى كان فهمه للالفاظ والصور الخيالية أقرب منه للمدارك وللمعانى الحقيقية · والغالب على الناس عامة انهم يفهمون الامور على ما يتهيأ لهم فى نفوسهم بحسب استعدادهم الفطرى وتثقيفهم المكتسب لاعلى ما هى تلك الامور فى نفسها · من أجل ذلك نجد الذين يبحثون فى الاذاعات المسموعة والمرئية وفى الصحف والمجلات عن الاغانى العاطفية والحلقات المسلية أكثر من الذين يهتمون بالاخبار العامة وبالاحاديث العلمية ·

وينتقل هذا السوء أحيانا الى طبقات ليست فى أدنى سلم المجتمع ، ذلك لان الناس شركاء فى العاطفة يأخذون بالقريب من ظاهر الالفاظ وقلما أرادوا البحث عن المـــراد المقصود من المعنى ، لان هذا البحث يقتضى جهدا · فمن أمثلة هذا التأثر بظاهر اللفظ فى نطاق الغناء ما يغنيه ـ محمد عبد الوهاب ـ فى شعر شوقى :

وتاودت أعطاف بانـــك فى يـدى واحمر مــــن خفريهما خــــداك

ولكنه يغنى : « واحمر من خضريهما خداك » ! ويطرب الناس ، مع ان «خضريهما» لا تاتلف هنا والمعنى ولا تأتلف واللفظ ·

وكذلك يغنى محمد عبد الوهاب فى شعر مهيار الديلمى :

أعجبت بى بـــين نادى قومهــــا أم سعـــد فمضت تســـأل بى ·

غير انه يقول : أعجبت بى بين نادى قومها ذات حسن ···

هذا التبديل قد أتلف المعنى الذى قصده الشاعر · ان أم سعد « هنا كناية عـــن العـــرب ·

والشاعر مهيار الديلمى فارسى · فهو يقول : ان أم سعد العربية أعجبها شانى فى الفعل الحميد والخلق الكريم فاستغربت أن يصدر ذلك عن فارسى ، لان العمل الحميـــد تابع ، عند العرب ، للاصل الشريف · عندئذ يعدد مهيار الفارسى فضائل قومه الفرس قبل الاسلام ثم يفتخر بأنه لما ظهر الاسلام فى العرب دخل هو وقومه فى الاســـلام · ويختم مهيار قطعته الجميلة بهذه اللفتة البارعة ·

وجمعت المجـد مـــن أطرافـــه مـوضع العفـة منـى بالعصـــا

فكيف يجوز أن تحل كلمة « ذات حسن » هناك محل كلمة « أم سعد » الا عند الذين تؤثر فيهم الكلمة الملفوظة أكثر مما يؤثر فيهم المعنى المقصود ·

وغنت اسمهان مقطوعة مطلعها : « ليت للبراق عينا » جاء فى أبياتها :

··· عـذبـــونى ، ضربـــوا سـؤدد الفـرس وديـن العـرب !

ولكن اسمهان تغنى : « ضربوا جسمى الناحل منى بالعصا » · ان هذا التبديل : « جسمى الناحل » مكان « موضع العفة » يفسد المعنى ويقطع الصلة بين هذه المقطوعة وبين الحادثة المشهورة المتصلة بها ·

ويردد فريد الاطرش ، فى احدى أغنياته كلمة « بحبك » (أحبك) نحو عشريـــن مرة ، ثم نجد جماعات من الناس يموجون مع ترداده لهذه الكلمة موجا عميقا ·

كل هذا يدل على ان لفظ الغناء ونغمه يؤثران فى السامعين تأثيرا شديدا ينسيهم فى كثير من الاحيان صحة المعنى · ولقد عرف هذا الاثر البالغ للغناء منذ أقدم العصور · من أجل ذلك نجد الغناء والموسيقى أساسيا فى الدين ، كما نرى فى جميع الاديان القديمة ، أو عنصرا عارضا فيه كما نرى فى الاسلام ـ فيما يتعلق بالتهليل والذكـر · ويذكر اخوان الصفا أثر الموسيقى فى الناس فيقولون :

« ومن الدليل على ان لها تأثيرات فى النفوس استعمال الناس لها تارة عند الفرح والسرور فى الاعراس والولائم والدعوات ، وتارة عند الحزن والغم والمصائب وفى المآتم ، وتارة فى بيوت العبادات وفى الاعياد ، وتارة فى الاسواق والمنازل ، وفى الاسفار وفى الحضر ، وعند الراحة والتعب ، وفى مجالس الملوك ومنازل السوقة · ويستعملها الرجال والنساء ، والصبيان والمشايخ ، والعلماء والجهال ، والصناع والتجار وجميع طبقـــات النـــاس ·

فاذا كان أثر الغناء فى النفوس قويا الى هذا الحد ، فمن الواجب على العقلاء فى الاسرة وفى الدولة وفى المجتمع أن يجعلوا منه أداة لتهذيب نفوس الافراد وللحفاظ على المسلك القويم فى الجماعة · وعرف الدين هذا الاثر ذا الحدين خيرا وشرا ، فثار الجدال بـــين

فقهاء المسلمين فى الغناء : أحلال هو أم حرام أم مكروه ؟ وقد أراد الامام الغزالى أن يضع هذا الامر فى نصابه المخصوص به فقال قولا مصيبا عاقلا هـو :

« ويشترط فى اباحة السماع (الغناء) أن يكون السامع قد جاوز غرة الشباب أو تهذب تهذيبا نزعت به الشهوة من قلبه ·

ومكان الخطر فى الغناء انه قابل لان يصبح ادمانا ، فان لكل قوم ، كما يقول اخوان الصفا ، ألحانا يستلذونها لا يستلذ بها غيرهم ، وتجد فى الامة الواحدة قوما تلذ لهـم ألحان لا تلذ لغيرهم من أبناء أمتهم ، وقد تجد شخصا واحدا يلذ له فى بعض الاحيـان لحن ثم لا يلذ له فى حين آخر ·

وأثر الادب عامة والشعر خاصة ، فى التنشئة والتهذيب ، ليس أقل من أثر الغناء ، فان احتكاك الناس بالادباء أكثر من احتكاكهم بالمغنين · ان الاديب يلقاك فى كل يـوم وفى كل مكان : فى المدرسة التى تتعلم فيها ، وفى المجلة التى تقرأها ، وفى الكتاب الذى تطالعه ، وفى الاحاديث التى تسمعها · أما الغناء فله مناسبـــاته · حـــتى فى الاذاعات المرئية والمسموعة ، فانك لا تجد حظ الادب ـ بجميع وجوهه من الانشـاد والتحديث والتمثيل ـ أقل من حظ الغناء · والعادات تثبت بالاحتكاك والقدوة وتقوى بالمداومة · ويرى اخوان الصفا ، فى المثل على ذلك ، ان الصبيان اذا نشأوا مع الشجعان والفرسان تطبعوا بأخلاقهم وصاروا مثلهم · وكذلك اذا نشأوا مع المخانيث والمعيوبين صاروا مثلهم ، ان لم يكن فى الخلق كله ففى بعضه ·

وللفيلسوف ابن سينا قو ل كالمتمم لقول اخوان الصفا فى التنشئة والتربية · قال ابن سينا : « فاذا اشتدت مفاصل الصبى وتهيأ للتلقين أخذ يتعلم القرآن وصورت له حروف الهجاء ولقن معالم الدين · وينبغى أن يروى الصبى الرجز ثم القصيد ، فـان رواية الرجز أسهل وحفظه أمكن لان بيوته أقصر ووزنه أخف · ويبدأ من الشعر بما قيل من فضل الادب ومدح العلم وذم الجهل ، وبما حث فيه على بر الوالدين واصطناع المعروف وقرى الضيف وغير ذلك من مكارم الاخلاق ·

ويتفق ان يحتاج نفر من الناس الى اشياء من وصف للحياة الجنسية ، كما يفعـــل فى كتب الطب · ولكن يجب أن يظل ذلك قاصرا على كتب الطب لا يصل اليه الا المتعلم

المدرك ، ولا يجوز أن ينقل ذلك الى الكتب النافقة والمجلات السيارة · وكذلك يتفق أن يرسم نفر من الفنانين عددا من الرسوم العارية أو ينحتون من التماثيل المجردة من الثياب ان هذا يجوز فى دراسة التشريح وفى تبيان التناسق فى الجسم البشرى · ولكن لا يجوز أن ينقل ذلك الى بطاقات تباع للجميع · وأبعد من ذلك من العذر أن تصدر باسم دولة عربية مسلمة طوابع بريدية تحمل صور النساء عاريات ثم تباع بثمن بخس لاطفالنا وأطفال غيرنا ـ لان الشر لا يتجزأ ولا يتفاوت ·

ولقد اتفق فى تاريخ الآداب كلها ان كتب كاتبون ونظم ناظمون فى المجون بالفاظ مكنية أو صريحة ، مستورة أو مفضوحة · وربما كان فى بعض هذا المجون براعة فى التعبير أو دقة فى الوصف · ومع اننا نعبس فى وجه هذا النتاج ، فاننا نحفظه بالمعنيين : نبقيه ثم نحجزه عن الذين لا يدركون المقصد منه · وللبشر كلهم وجوه من حياة صحيحة مشروعة ، ولكن لا نفتح بابها لاحد الا اذا بلغ الطور الذى يجوز له فيه أن يدخل من ذلك الباب · وجميع العقلاء من افراد النوع الانسانى وجماعاته يفعلون مثل ذلك · لابى نواس قصائد فى المجون لا تطبع فى ديوانه ، ولكنها طبعت وحدها (فى بومباى ، سنة 1313 منذ ثمانين عاما فقط ·

وفي الغرب العاقل مثل ما فى الشرق العاقل : فى عام 1936 كنت فى باريس وخطر لى الاعداد لطبعة ثانية من دراستى القصيرة فى أبى نواس مع موازنة موجزة بين شعر أبى نواس فى المجون وشعر الشعراء من غير العرب · كنت فى مكتبة جنفياف العامة ، فطلبت ديوان فيرلان ، وديوان بيرون · فسألنى المشرف عن وجه حاجتى الى الديوانين فأخبرته · وأراد الاستيثاق فأريته بطاقتى من جامعة برلين · فأتى الى بالديوانين ، ثم رغب الى فى أن أجلس فى جناح جانبى معزول عن قاعة المطالعة ـ لان هذين الديوانين وأمثالهما لا يعاران للمطالعة ، الخارجية ولانى أنا أريد الكتابين لغرض علمى ، ولا حاجة الى أن اجلس بهما بين المطالعين الآخرين ·

هذه العناية التى نراها عند العقلاء فى الشرق والغرب ، فى الاسلام وغير الاسلام ، أمر صحيح محمود فى التربية لانه يجمع الامة على الخلق الكريم والسلوك السليم · والخلق فى الامة هو القانون الاختيارى الذى يأخذ الافراد به أنفسهم على الاحسان فى

السلوك الشخصى والسلوك الاجتماعى ٠ والجماعة تظل متماسكة ما دامت على مسلك واحد فى الحياة ٠ فاذا تشعبت بها المسالك تشتت قواها فضعف أمرها ثم هرمت وذابت فى الاقوياء أو فقدت القدرة على العيش الكريم ٠

قال الله تعالى : وان هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ، ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون ٠

والجماعات اذا كانت لا تزال فتية قوية فانها تثبت فى وجه ما يتسرب الى افرادها من التساهل فى الاخلاق والتنازع فى المبادىء مدة من الزمن تطول أو تقصر ثم لا يظهر السوء عليها الا بعد زمن ٠ اما اذا كانت الامة فى طور من أطوار ضعفها ، كحال أمتنا الاسلامية اليوم ، فان كل تساهل فى الخلق وتنازع فى المبادىء يضر بها ضررا بالغا ٠

والنزاع بيننا وبين الغرب قديم جدا استخدمت فيه جميع انواع السلاح ٠ وفى تاريخنا المعاصر نفذ الغرب الى صفوفنا من خلال التجديد ٠ والتجديد سنة من سنن الحياة : فى الطبيعة وفى المجتمع وفى الثقافة أيضا ٠ ولكن التجديد الذى جاء به الغرب الينا ، هو كره كل ما هو شرقى عربى مسلم ، وحب كل ما هو غربى أجنبى غير مسلم ٠ فمن امثلة ذلك الهجوم على تراثنا بلا وازع من خُلق أو علم ما يلى :

ـ يقول ابو القاسم الشابى : ان أدب العرب مادى لا سمو فيه ولا الهام ولا نظر الى لباب الحقائق ٠ (ثم لا نراه) ملائما لروحنا الحاضرة ورغائبنا فى الحياة ٠ لقد اصبحنا نتطلب أدبا جديدا نضيرا ٠ وهذا لا نجده فى الادب العربى لانه لم يخلق لنا نحن ابناء هذه القرون ، وانما خلق لقلوب اخرستها سكينة الموت ٠ ولا ينبغى لنا ان ننظر الى الادب العربى كمثل اعلى للادب ، بل يجب أن نعده كادب من الآداب القديمة ٠ ونقدة الاسلام الاولون كانوا لا يفهمون الادب على حقيقته ، بل فهموا منه أنه ألفاظ وتراكيب ليس وراءها روح ولا فكر ٠ والطبقة الثانية من النقدة كان الادب فى رأيها وسيلة من وسائل اللهو ونوعا من أنواع الشحاذة وضربا من ضروب الاستجداء لا غير ٠

ـ وقال أبو القاسم محمد كرو فى كتابه « كفاح الشابى » : كان الشعر العربى لا يحفل بالمجرى الانسانى الرفيع ثم لا يزيد على خواطر عابرة ٠٠٠ وظل الشاعر العربى مهرجا كبيرا يحرز قصب السبق فى المبالغة والكذب ٠

والذين يعنون بالتجديد هجر الخصائص العربية والتبدل بها خصائص اجنبية يفعلون ذلك لان التقيد بمنهج فى الحياة يفرض على المتقيد جهدا وجهادا ، وهم لا يريدون ان ينهضوا بهذه الامانة لانها عبء ثقيل • فاذا هم أخذوا بالخصائص العربية قالوا ما شاءوا من غير ان يفرضوا على انفسهم طريقا مخطوطا وتبعة مستمرة •

والتجديد فى الغناء كالتجديد فى الادب له وجوهه المشرقة ووجوهه الحالكة • بدأ التجديد عندنا بعد الحرب العالمية الاولى بهجوم الموسيقى الغربية وما يصحبها على بلادنا • وكانت حركة تطعيم الموسيقى العربية الحديثة بالموسيقى الغربية الحديثة • كحركة تطعيم الموسيقى العربية القديمة بالموسيقى الفارسية والرومية • والحضارات تتجاور ويستعير بعضها من بعض • ولكن الحركة الجديدة اتخذت من التجديد فى الموسيقى منفذا الى مقارعة اللغة العربية والحياة العربية • وكان الغناء القديم ، قبل الحرب العالمية الاولى ، يجرى فى اللفظ العفيف والمعنى الشريف والاشارة البعيدة حينما كان يقترب الغناء من العاطفة البشرية • أما بعد ذلك فقد انحدرت ألفاظه الى العامية وانحدرت معانيه الى المدارك الجنسية المكشوفة فغنت صباح فى لبنان ، مثلا ، « شب واستحلى » (شاب قد تاقت نفسه) • وفى مصر غنى محمد عبد الوهاب « ما احلى الرجوع اليه » ، كما غنت فى ذلك نجاة الصغيرة • ولكن تخيل رجلا يغنى معنى تتمناه النساء ! وغنى محمد عبد الوهاب أيضا « عينيك فى عينيه » مما لا يجوز تفسير كناياته•

كل هذا يؤثر فى الناشئين الذين لم يعرفوا بعد شيئا من الحياة الجنسية فتتمنى نفوسهم مثل ذلك • وقد يكون نفر من الناشئين قد عرفوا عددا من الاوجه المحرمة أو الشاذة ، فاذا سمعوا مثل هذه الاغانى هان عليهم ما كانوا قد صنعوه ثم جرؤوا على أكثر منه ومردوا عليه •

ولا عذر لاحد اذا قال : ان الناس يريدون ذلك ، كما قيل لى فى عدد من دور الاذاعات العربية • قد يكون فى ذلك شيئا من الواقع ، ولكن يجب على القادة ان يرفعوا الجمهور الى المستوى الكريم ما أمكن لا ان ينزلوا به الى ادنى مما كان فيه •

وللمجلات العامة والاسبوعية منها على الاخص أثر كبير فى التنشئة ، حتى انها لتطغى بأثرها على الكتاب • والمجلات التى يجوز للرجل ان يدخل بها الى بيته قليلة

ـ ولولا عدد من المجلات الرصينة السليمة كمجلة « العربى » التى تصدر فى الكويت وكعدد من المجلات التى تصدرها وزارات للثقافة فى البلاد العربية لكانت حال ناشئتنا اليوم أسوء مما هى كثيرا · واللغز الذى ليس غريبا هو ان وصول هذه المجلات الرصينة السليمة الى القراء العرب ـ مع ان معظم هذه المجلات تشرف عليها الحكومات وتغذيها ـ ليس بالسرعة واليسر اللذين يصل به غيرها من المجلات الى اطراف العالم العربى سرعة وانتظاما ·

ويعترض معترض فيقول :

ولكن هذا الادب الذى تعبس فى وجهه وهذا الغناء الذى تنكره شىء موجود عند آخرين : فى أوروبة وأمريكة · فلماذا لا يخشى الناس منه هنالك على انفسهم وتراثهم كما تخشى انت منه هنا على انفسنا وتراثنا ؟

والجواب على ذلك ان الامم ، حينما تكون قوية ، لا تتأثر بالهزات كما تتأثر الامم الضعيفة · أو اننا نحن ـ على الاصح ـ لا نرى أثر الهزات فى الامم القوية واضحا · واذا كانت الولايات المتحدة الاميركية ، مثلا ، لم تسقط بعد ، برغم ما نرى اليوم فيها من عوامل الانحلال التى نخشاها نحن الآن على بلادنا ، فليس معنى ذلك ان الولايات المتحدة لن تسقط بأثر هذه العوامل وأمثالها فى المستقبل القريب أو البعيد ، فى عشر الثمانين المقبلة · تأمل الولايات المتحدة الامريكية اليوم أو انكلترة أو فرنسا أو ايطالية، ثم قارن حالها اليوم بما كانت عليه فى عام 1923 أو فى عام 1927 أو فى عام 1935 ، فهل تجد هذه الدول من القوة حيث كانت فى تلك الاعوام الماضية ؟

ونحن المسلمين اليوم فى حال من الضعف لا فى حال من القوة ـ ولكن ربما كنا اليوم فى بعض احوالنا احسن منا بالامس فى الثروة الاقتصادية وفى بعض جوانب العلم ثم في عدد من نواحى العمران التى تعم بلادنا ببعض ما تعم به بعض بلاد غيرنا ـ غير ان ضعفنا الحاضر لا يجيز لنا ان نتساهل في تقبل عوامل تزيدنا ضعفا على ضعف · فنحن ، اذن ، أحق بأن نتمسك بما يجعل الامم أكثر قوة لا بما يدنيها من ضعف أشد ·

هذا هو الموضوع موجزا · اما معالجة السوء الذى نعانيه فيحتاج الى بحث مستقل

يمكن ايجازه بالاشارة الى ضرورة قيام الدولة بمراقبة ما ينشر ، اذا كنا نريد ان يكون لنا فى المستقبل جيل سليم البنية سليم التفكير سليم الاتجاه ٠

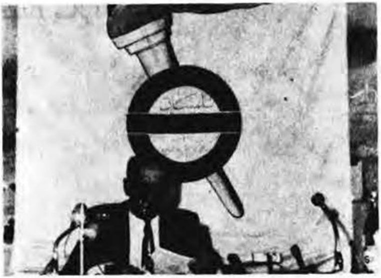
ولكن ربما اعترض بعضهم فقال : ولكن اين تكون الحرية حينئذ ؟

. وردى عليه موجز واضح ولكن فى سؤال جديد :

كيف تراقب الحكومات فى عالم النشر ما يمس سياستها الخاصة بها فتغلق صحيفة ذكرت رئيس دولة صديقة بسوء أو تطرد رجلا ألف رواية خيالية تتعرض لمدرك من المدارك النظرية فى السياسة أو الاقتصاد ، ثم لا تراقب كتبا ومجلات تتعرض لحقيقة الامة وتمس حاضرها ومستقبلها مسا شديدا ضائرا ؟

دور الشعراء الأتراك في
إيقاظ الوطنية في تركيا
فيما بين 1865 ـ 1923م

د . ارجمند كوران
استاذ التاريخ
بجامعة انقرة ـ تركيا ـ



يعتبر تأسيس الامبراطورية العثمانية بحق أهم حدث سجله الاتراك عبر التاريخ ، فقد استطاعت القبائل الوافدة من آسيا الوسطى أن تقيم في الشرق الادنى دولة اسلامية بلغت أوج سلطانها في القرن السادس عشر المسيحي ، ويرجع انتصار الاتراك العثمانيين الى روح الغزاة التي كانت تحدوهم كحماة وكدعاة للاسلام ، بيد ان توسع الامبراطورية العثمانية لقي حده غداة فتح جزيرة اقريطش سنة 1669 ، وأعقبه مباشرة عهد التقلص والافول ، حيث ان انسحاب الاتراك الذي بدأ بالتوقيع على معاهدة كارلوفتز سنة 1699 م . قد استمر طيلة القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، وكان مآله انهيار الامبراطورية على اثر الحرب العالمية الثانية ، ـ لكن الانحطاط الذي اعترى بعد

ذلك الدولة العثمانية المتعددة الجنسيات كان له تطور جدير بالملاحظة : ألا وهـــو أن الدولة التركية بدأت تشعر تدريجيا بوجودها ، وكان الفضل الواسع فى ايقاظ الوطنية التركية ، للمثقفين العثمانيين فى القـرن التاسع عشر ومستهل القرن العشرين ، ولا غرو ان مساهمة الشعراء فى التوعية الوطنية بتركيا كانت على جانب من الاهمية ، وذلك ما نحن بصدد معالجته فى هذا الابلاغ ·

ـ نمك كمال : (1840 ـ 1888) صحافى وكاتب ورجل سياسى عثمانى يمتـــاز بصفته أول شاعر قومى ، ولا يزال ذكره حيا الى يومنا هذا ، وكان نمك كمـال مـن بين نخبة الاحرار العثمانيين « الذين أسسوا المنظمة السرية » « تركيا الفتاة » سنـــة 1865 م · وذلك بسنتين قبل منفاهم الطوعى الى أوروبا لكى تتسنى لهم محاربة الوزير المستبد على باشا ·

ـ لقد عمق شاعرنا اديولوجية عثمانية المبدا ، رامية الى تاليف أمة « عثمانيـة » نتيجة انصهار مختلف المجموعات العنصرية والدينية الماثلة آنذاك فى الامبراطورية ·

وجاءت كتابته لمسرحية « الوطن أو سيلستريا » التى مثلت فى اسطنبول سنـــة 1873 م ، هادفة بالذات الى اذكاء جذوة القومية العثمانية ، وهى تشيـــد بالمقاومـــة الباسلة التى قام بها العثمانيون وهم محاصرون فى سيلستريا من قبل الروس اثنـاء حرب القرم ، وكان مقطع قصيدة « نشيد الوطن » الذى يتغنى به الجنود العثمانيون :

« نستبشر بالقتال مستعدين للاستشهاد   اننا العثمانيون ، نضحى بالنفوس

لنغنـم صيتـا (1) »

كان هذا المقطع يبعث سامعيه على الحماس ، الشىء الذى ربما كان السبب فى منـع التمثيلية وفى نفى كاتبها الى جزيرة قبرص ·

ـ وتكتسى وطنية نمك كمال ، الى جانب هذا ، ظاهرة دينية حيث ان الشاعر كان من الانصار الصرحاء لاتحاد الاسلام ، « وكانت روما نطيقيته » تدفع به الى اجلال الابطال

---

1) كمال ، **وطن ياهوت سيلستريا** ـ الطبعة السابعة ـ اسطنبول (1307 هـ ص 50) ·

والبطولة لان التاريخ فى نظره ، انما هو تمجيد للرجال العظماء الذين كرسوا حياتهم فى خدمة الرسالة التى اختاروها لانفسهم ، وكم كان يعجب بالسلطانين العثمانيين محمد الغازى وسليم الاول ، مع تقديره واكباره لصلاح الدين العظيم وللامير نيروز ، داعية الاسلام فى المغول ، واعتبارهما كذلك بطلين من ابطال القومية العثمانية ٠ (2)

ـ أثر نمك كمال على الاجيال التى تلته خصوصا بقصيدة « الحرية » التى نظمها سنة 1867 م ٠ والتى تم افشاؤها سريا أيام النظام الاستبدادى الذى كان يفرضه السلطان عبد الحميد الثانى ، واضرمت أبياتها مشاعر العديد من الثوريين الاتراك ، وأن أبياتها كهذه :

« فليقدم المصير بكل همومه »

فسأكون جبانا اذا أنا انصرفت عن طريق « النجاة » الوطن (3)

كانت تحفظ وتنشد وسط تأثر وحماس منقطعى النظير ٠

ـ على أن آراء نمك كمال التحررية حملته على أن يكون فى نفس الوقت نصيرا لفكرة النظام الدستورى ، ولذا فاننا نراه يبذل قصارى جهده لاحلال البرلمانية فى تركيا ومما لا شك فيه ان وطنيته المشتعلة قد كانت عنصر الهام للمثقفين الاتراك فى الفترة التالية ، ونحن نرى فيها كاتبا مثل سليمان نازف يقول عن جدارة : ان الله خلقنا ، لكن نمك كمال هو الذى كوننا ـ الشاعر محمد أمين (ايردكول) 1896 ـ 1944 : فتح عهدا جديدا فى حياة الادب العثمانى ، وقد نظم قصيدة بمناسبة الحرب التركية ـ اليونانية ـ سنة 1897م ، مطلعها :

« أنا تركى ، وأنتمى الى دين وأمة عظيمين » (5)

---

2) أحمد حمدى تيمار ، 19 : أسير ترك ادبيات تاريخى ، الطبعة الثانية ـ اسطنبول (1956) ص 398 وتوابعها ٠

3) محمد كبلان ، سيير تهليير (اسطنبول 1954) ص 26 ٠

4) محمد كبلان ، نمك كمال ، حياة فى اسر ليرى (اسطنبول ، 1948 ص 30 ــ 229) ٠

5) محمد أمين ياردكول ، سيير لير ، طبعة فوزى عبد الله تنسال ــ انقرة (1969 ص 22) ٠

آذنت هذه القصيدة بميلاد الشعر التركى النزعة ، وقوبل ديوانه الاول بارتيـاح من طرف المثقفين الاتراك ، مما جعل المستشرق الانقليزى ا · ج · و جيب يعبر له عن اعجابه بقوله : « لقد وجدت الامة التركية طريقها فى انتاجك الادبى ، ··· بعد ما ضلت ستة قرون فى انتظارك (6) ، ومحمد أمين ، علاوة على هذا ، حريص على ربط وطنيته بالحب الذى يضمره للشعب ، خاصة لفلاحى الانضول الفقراء (7) ويعزى تعلقه هـذا بشأن الطبقات المحرومة الى تأثير الشيخ جمال الدين الافغانى الذى كان الشاعر على اتصال شخصى به وكان يتشرف أن يذكر بين تلاملاته ، ومع أن قصائد محمد أمين لا تتصـف بالطابع الفنى ، الا أن صدق وحيها وسهولة تعبيرها قد كسياها رونقا حببها للجميع ·

ـ زيا قوهلب (1676 ـ 1924) ، كان أيضا شاعرا تركى النزعة ، لكنه انجذب قبل محمد أمين الى المبدأ « التورانى » الذى كان يحلم بالوحدة السياسية بين الاتراك ، داخل دولة موحدة، ويعرف قوهلب اليوم بمؤلفاته العلمية وبأن تاثره بنظريات دوركهايم الاجتماعية جعله أول من سبق من المفكرين الى اعطاء الشكل المنهجى لمبادىء الوطنيـة التركية ، ولتلقين آرائه للامة لجأ الشاعر قوهلب الى نظم القصائد التعليمية ، ويعترف هو نفسه بأن قصيدته التى عنوانها « توارن » كانت بمثابة الشرارة الاولى للمبـدأ « التورانى » (8) وتنتهى هذه القصيدة التى ألفها سنة 1911 بالبيتين التاليين : « ليس وطن الاتراك تركيا ولا التركستان » ان الوطن اقليم واسع وخالد ، هو توران · (9)

ـ ثم تطورت آراءقوهلب خلال السنوات التالية ، حتى أننا نراه فى قصيدته التى عنوانها « وطن » وقد نشرت سنة 1918 ، يصف وطنه كما يلى :

« بلاد يؤدى فيها الآذان باللغة التركية : (بحيث) يفهم الفلاح مغزى الصلاة وهو يصـلى » · (10)

6) اقسر وغلو يوسف ، « تركسيلوك » ، ضمن ترك يلى (1928) ص 383 ·
7) أوريال هايد ، فنديشن أوف تركيش ناسيونالزم (لندن ، 1950) ص 108 ·
8) زياقوهلب ، **تركسلوجيم اسسلارى** (انقرة ، 1339 هـ) ص 11 ·
9) نفسه **سيرليرف هلك مسلارى** ، طبعة فوزى عبد الله تنسال (انقرة) 1952 ص 5 ·
10) نفسه ، ص 113 ·

عدل قوهلب اذن عن حمله بتحقيق الامة التورانية ، وولى وجهه نحو الشريعة الاسلامية، لا سيما بعد هزيمة سرقميس التى لحقت بانور باشا أثناء حملته ضد الروس ·

ـ محمد عاكف (أرسوى) 1876 ـ 1936 ، هو الشاعر التركى الذى يستوحى أفكاره كلها من الاسلام ، كان يؤمن ايمانا خالصا وينتقد الانحطاط الذى آل اليه العالم الاسلامى ، ويهجم فى ابياته على الآفات التى اعترت المجتمع الاسلامى مقترحا التسلح بالعلم والتكنولوجيا العصريين لمعالجة تلك الامراض ، وسجل لنا محمد عاكف ، بكل وفاء ـ فى مؤلفه الرئيسى « صفحات » الوارد فى سبعة أجزاء ، سجل تطور آرائه منذ السنوات الاخيرة لعهد السلطان عبد الحميد الثانى ، حتى حرب الاستقلال ·

ـ كان محمد عاكف يميل بادىء ذى بدء الى العالمية الاسلامية ، ويستنكر كل وطنية لكونها مضرة بوحدة الامة ، غير أن ابتعاد المسلمين غير الاتراك عن الامبراطورية العثمانية ابان الحروب البلقانية قربه من الوطنية التركية ، حيث التحق بالحركة الوطنية التى تزعمها مصطفى كمال باشا ، منظما قصيدة « الاستقلال » التى اختارها مجلس النواب التركى فى 14 مارس 1924 نشيدا وطنيا ·

ومما جاء فى هذه القصيدة :

« لا يعترينك خوف ، فالعلم الاحمر المرفرف فجرا سوف لا يضمحل » (فهو) آخر نار تدخن فى بلادى ، ولا ينتسب الا لوطنى » !

ـ كان لهذا النشيد وقع نشيد المارسييز بالنسبة للاتراك ، ولا يزال يتغنى به حتى اليوم فى تركيا ·

ـ عبر محمد عاكف فى بعض قصائده عن شعور عميق مضاد للامبريالية ، وهكذا وبمناسبة تدخل الحلفاء فى الدردنيل سنة 1915 نظم الشاعر هذه الابيات الخالدة :

ما هذه الحرب بالدرد نيل ؟ وهل وجد مثلها فى العالم ؟
أربعة أو خمسة جيوش عرمرمة تهاجم

قطعة أرض حاصرتها الاساطيل
ياله من قرن عشرين هذا المخلوق النبيل !

انه بحق لئيـم لـؤم الشعوب المفضلـــة التى تؤلفه
شعوب أنتصبت أمام (الجندى) محمد وراحت تقىء طيلة الشهور ! (11)

بعد الوصف العنيف للقوات المعادية ، يتوجه الشاعر نحو (الشهيد) المســلـم فيقـــول :

« يا للجندى الساقط على الارض (دفاعا) عن أراضيه
من الذى سيحفر القبر الذى يأويك ؟
اذا قلت : « تدفن فى التاريخ » ، فانك لا تستطيع ان تدخله
ولا يسعك الا الخلود » (12)

ـ لقد بلغ عاكف وهو يطرق مواضيع عزيزة عليه درجة من الحماس قل لها مثيل ·

ـ نتبين من هذا العرض ان الشعراء العثمانيين لعبوا دورا هاما فى ايقاظ الوطنية فى تركيا · ففى البداية أشاد نمك كمال بالروح القومية لصالح الايديولوجية العثمانية المشرب ، لكن عجز هذه الايديولوجية على صيانة وحدة الامبراطورية العثمانية ، اضطر الشاعرين : محمد أمين وزيا قوهلب الى اختيار النزعة التركية ، مدفوعـين أحيانا الى التورانية ، ثم سيطرت الوطنية التركية ذات الطابع الدينى على فترة حرب الاستقـلال ، وتغلبت الامة التركية تحت قيادة مصطفى كمال علي العـدو ، فاسست سنــــة 1923 الجمهورية الوطنية العصرية ·

11) محمد عاكف ارسوى ـ **صفحات** ـ طبعة عمر رضى دغرول ـ الطبعة 7 ، اسطنبول 1966 ، ص 425 ·

12) نفسه ، ص 426 ·

مَصَادِرُ الثروة وتداولها
في شريعة الإسلام

د. محمد علي رفعت
استاذ الاقتصاد السياسى
جامعة الجزائر



مقـــدمـة :

تعرف الثروة بانها المال الكثير المتجمع فى حوز ما ، انما المذاهب الاقتصادية المعاصرة ، وما تفرع عليها من مذهبيات شتى ، جميعها تعالج قضية الثروة كما لو كانت ظاهـرة مادية محض ، تخضع فى تحليلها وفى تعليلها لمنهجيات العلوم الحسية الدقيقة ٠ لكن الاخذ بهذا الاسلوب فى المعالجة يسقط عن الثـــروة ، وعن وظائفها الاجتماعية ، تلـك

الاعتبارات والعوامل الانسانية التى تطوعها لارادة الانسان ، والتى تسخرها فى خدمته، والتى تحول دون سيطرتها عليه ، ودون تحكمها فى تصرفاته ذلك بانه أسلوب يعتمد على فروض منهجية، تتجاهل، عن عمد أو عن عجز، جانبا هاما من علاقة الانسان بالثروة، وتهمل استقصاء العوامل النفسية والوجدانية التى تؤثر فى رؤية الانسان للثروة وتعامله معها ، من حيث جمعها ، والانتفاع بها ، وتداولها .

ساعدت هذه الفروض كثيرا على استبداد المادية بالفكر الاقتصادى المعاصر ، وبالـغ رجال الاقتصاد فى تقدير مؤثرات الثروة ، من جانبها المادى فقط ، على سلوك النـاس ومعاملاتهم ، حتى ظن أن تحصيل المال غاية فى ذاته بدلا من كونه غرضا تعلو به حيـاة الانسان الى تحقيق رسالته السامية التى تدعو اليها حكـمة الله تعالى فى الكائنات ، وتنتهى بالانسان نفسه الى سعادة الدارين : الدنيا والآخرة . تلك كانت ولا تزال حال القصور الذى تعانيه المذاهب الاقتصادية الوضعية ، منذ ان نادى بها واضعوها الاولون . فذلك رائد علم الاقتصاد الحديث آدم سميث ينشر ، منذ قرنين ، الدراسة « الام فى علم الاقتصاد » تحت عنوان « ثروة الامم » ، فيرسم لمن خلفه معالم الطريق الذى كثيرا مـا يتجاهل سالكه ارادة الانسان وعقله . وهكذا صارت مشاكل الثروة ، من حيث منشأها وتراكمها ، وتوزيعها ، وتداولها ، هى المدارات الكبرى التى يسبح فيها الفكر الاقتصادى المعاصـــر .

الا انه بقى فكرا يجنح فى سبحه الى اتجاهات شتى ، تقـود الناس الى الاضطراب والفرقة والصراع ـ كالذى نشاهده الآن !

فهو فكر ينطلق من التسليم بأن طيبات الارض محدودة ، تواجه مطالب لانسان غير محدودة ، وهو يؤسس على هذا التسليم مبدأ الندرة . ثم هو يستند الى هذا المبدأ فى تحديد اصل المشكلة الاقتصادية ، وفى تحليله للنشاط الاقتصادى الذى تفرضه تلـك الندرة ، دون ان يكون لغيرها من العوامل المتعلقة بمقومات الفكر والوجدان أى شأن فى توجيه ذلك النشاط .

بيد ان الحال تختلف اختلافا جوهريا فيما يستلهمه الفكر الاقتصادى الاسلامى من أصول فى معالجته لقضية الثروة ، لا من وجه تحديد مصادرها فحسب بل أيضا من وجه تقييم وظائفها ، وتهذيب استخدامها ، وتنظيم تداولها ، ذلك بأن الفكر الاسلامى ينفـذ

الى ما وراء ما قد يشاهده الناس من ندرة فى الثروة الفطرية ، وما قـــد يلمسونه فى نفوسهم من تهافت تحصيل المال المقيم ·

انه يستلهم ابتداء عقيدة التوحيد بأن الله جل جلاله واحد أحد وأنه تعالى خالق كل شيء ومدبره ·

وتاسيسا على ذلك يرفض نظرية الندرة التى ينطلق منها الفـــكر الاقتصادى غـير الاسلامى ، لا لانها تنطوى على اتهام آثم للخالق سبحانه بالبخل وبالشح فحسب ، بل أيضا لانها تستند الى نظرة سطحية تكذبها التجارب عـبر التاريخ ، ولا سيما تجارب العصر الحديث · فضلا عن أنها السبب الرئيسى فى عقم هذا الفـــكر ذاته · ذلك بأن التسليم بحتمية الندرة استنفد تفكير القوم فى محاولات حلها عن طريق التركيز عـلى « زيادة الانتاج » ، فصرفهم عن النظر فى الاسباب الحقيقية · لما يبدو فى ظاهره نـدرة وشحة· «أفلم يسيروا فى الارض فتكون لهم قلوب يعقلون بها او آذان يسمعون بها فانها لا تعمى الابصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور » (الحج : 46) ·

اليس الصواب فى النظر الى فطرة (طبيعة) الارض وما فيها من وديان وجبـــال وبحار وانهار · وما يحيط بها ، وما يكـــمن فى باطنها من خـــيرات وثروات ظاهـرة وباطنة ··· ونقول : أليس الصواب فى النظر الى طيبات الارض على بصيرة صادقة وعقل متفتح ، لنرى ونلمس فيها المنافع الظاهرة والمنافع الكامنة التى تتطلب مجهود الانسان لاظهارها والانتفاع بها ؟

والا فكيف نفسر ذلك الفيض العميم من المنافع التى صاحبت الكشوف العلميه عبر تاريخ البشر بعامة ، وفى عصر الذرة والتكنولوجيا الحالى بخاصة · « وان تعدوا نعمـة الله لا تحصوها ان الانسان لظلوم كفار » ابراهيم 34 ·

الراهن ان الكشوف العلمية الحديثة تترى كاشفة عـن منافع كانت غير معـــروفة فاضافت جديدا ، كما ضاعفت ثمار نعمة كانت معروفة ، وما تاريخ استخراج البترول والغاز الطبيعى من باطن الارض منا ببعيد ! وها هى الصناعات البتروكيماوية تستخلص مآت المشتقات السلعية النافعة من البترول ، فلم يعد نفعه مقصورا على احراقه !

ومع ذلك ، فلا يزال العالم يعانى الامرين من الاسراف والتبذير فى استعمال طيبات الارض ، بل وتبديد ثرواتها وخيراتها فيما لا ينفع الناس ·

لقد ايقظت الازمة الراهنة فى البلدان الصناعية بعض الضمائر ـ بل ربما الاصح بعض المصالح ـ فعلت أصـــوات تتردد ان كثيرا من « المواد الاولية » كالورق وزيوت التشحيم والمعادن يمكن اعادة « استصناعها » لكى تصير صالحة للاستعمال مرات ومرات. هذا فضلا عن القصد فى مقادير ما يستخدم منها .

وفى الحـق ان الندرة ليست هى المشكلة الاقتصادية فى المجتمع الحـديث . وانما عناصر المشكلة الحقيقية تتجمع فى الجهل بحقيقة الخلق وحكمته ، أو اهمال هذه الحقيقة ، وفى سوء التدبير فى استخدام المواد الاولية ، وفى الاسراف فى الاستهلاك والانغماس فى الترف والمجون ، وفى ظلم الانسان لاخيه الانسان ... لعل ظروف العالم المعاصر ، وما تقاسيه شعوبه من اختلال موازين القيم ، تهىء فرص اليقظة ، وتهدى القـوم الى سبيل الرشاد ، ان الله على كل شىء قدير .

الفصـــل الاول

ديـــن الاســـلام وشريعـــته

لدين الاسلام ذاتية مميزة ، تتجلى فى خصائص انفرد بها بين الرسالات السماوية وقد جمعت شريعته من الاصول والحدود والاحكام والضوابط ما لو استمسك الناس بها فى معاملاتهم لما اضطربت أمورهم ، ولنعموا بحياة راغدة كريمة . من هذه الشريعة ينطلق الفكر الاقتصادى الاسلامى ، وعلى قواعدها يتأسس النظام الاقتصادى الاسلامى .

ولهذا يكون لزاما علينا ، فى مجال البحث عن الاحكام الخاصة بمصادر الثروة وتداولها ان نهتدى بأصول الشريعة . فالقضية المعروضة للنظر ، لا تتعلق بتفسير ظاهرة مادية عن طريق المشاهدة والاستقراء ، ولا هى تنصرف الى تحليل موضوعى لواقع العلاقات التبادلية فى مجتمع معين . بل هى قضية استخراج احكام ومبادىء عامة من أصـــول اساسية ـ تلك الاصول التى غاياتها دوما تحويل الواقع الاجتماعى المعتل ، اينما يكون ، الى بنية اجتماعية سليمة ، مع استمرار المحافظة عليها سليمة . ألم يكن الاسلام أعظـم وأخلد ثورة فى تاريخ البشرية ؟ ثورة دكت معـاقل الانحراف والفساد ، واستبدلتها بدعائم الاصلاح والرشاد ؟ مقومات الاستدلال واضحة ومحققة .

بعثة محمد صلى الله عليه وسلم ، كانت لاربعة عشر قرنا خلت · نصوص التنزيل الحكيم باقية مصونة · لم تنل منها غوائل الدهر · لم تمسها عاديات الزمن · لم تمتد اليها ايدى التحريف والتصحيف · لم يتنازعها اختلاف الروايات ولا تعدد الرواة ·

ـ « انه لقرآن كريم فى كتاب مكنون » الواقعة 77 ـ 78 ·

ـ « انما نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون » الحجر 15 ·

وصاحب الرسالة !

لقد امتازت سيرته عليه السلام ، على غيرها من سير اصحاب الرسالات السماوية الذين سبقوه ، بانها معروفة فى جميع مراحلها ، محققة فى كافة دقائقها · بينما الذى وصل الينا من اخبار الانبياء والرسل السابقين ـ فما عدا ما جاء عنهم فى الذكر الحكيم ـ لا يكاد يرتفع فوق الاقاصيص والروايات المبتورة غير المحققة التى فيها من الاساطير ومن نسيج الخيال الشىء الكثير ·

ـ أما كتب السيرة المحمدية فانها تزخر بروايات شهود العيان من لا يرتقى الشك الى صدق رواياتهم ·

ـ فيها سجل كامل لسلوك النبى صلى الله عليه وسلم ·

ـ فيها تحليل واف لتصرفاته العامة ·

ـ كل ذلك محقق تحقيقا لا نظير له ·

ـ كذلك كان تحقيق احاديثه المروية ·

وهكذا استقامت السنة التى يتأسى بها كافة المسلمين « لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة » الاحزاب 20 ·

نعم ، انها أسوة بشر للبشر : ··· لقد ولد عليه السلام بشرا ··· وعاش بشرا ··· ومات بشرا ·

ـ « قل انما أنا بشر مثلكم يوحى الى انما الهكم اله واحد » الكهف 110 ·

ـ « وما محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل » آل عمران 144 ·

ذلك بأن الاسوة لا تكون أسوة حقيقية الا اذا كان فى مقدور المتأسى أن يحذو حذوها·

ولهذا كانت الرسالة التى حملها محمد صلى الله عليه وسلم ، وامر بتبليغها للعالمين ، رسالة يتقبلها العقل السليم ، وتتفق وفطرة الله التى فطر الناس عليها ، لا تحـــدها حدود زائغة ··· ولا تشوبها فروض التجريد المنهجى الذى يضحى بالحقائق الثابتة فى سبيل التمسك بأسلوب منهجى معين لا يناسب تحليل تلك الحقائق · رسالة الاســلام عنصران عقيدة وعبادة !

اما العقيدة فعقيدة التوحيد · جوهرها ايمان بالله وملائكته وكتبه ، ورسله واليوم الآخر ـ على تقوى الله من طاعة أو من خشية !

ـ « ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين · الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون · والذين يؤمنون بما انزل اليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون » · البقرة 2 ـ 4 ·

الايمان بالله هو الاصل والاساس لرسالة الاسلام فلا يجوز أن ينسب الى الاسلام رأى أو فكرة أو مذهب لا يقوم صراحة على الايمان بالله ·

ولقد جاوز عدد الآيات القرآنية التى ذكر فيها لفظ آمن ومشتقاته 500 آية والايمان بالله معناه طاعته تعالى ، والخضوع لشرعه وحدوده ·

اما مناط الايمان قدوما هو ضمير الفرد · ذلك بان الدعوة الاسلامية قد استحدثت المسؤولية الفردية التى لم تكن معروفة فى المجتمعات السالفة · كانت هذه المسؤوليـــة شيئا جديدا لم يتطور مما تقدمه من فكر أو من نظام موضوع ·

« كل امرىء بما كسب رهـين » ـ الطور 21 ـ

اما العبادة ، فهى فى دين الاسلام ، متفرعة على العقيدة ، ومن ثم فهى تكليف مناطه أيضا ضمير الفرد ، ودعامته اضطلاع الفرد بمسؤوليته ·

« وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون » الذاريات 56 ·

وحيث يكون ضمير الفرد مناط العقيدة والعبادة سواء بسواء ، فهو الرقيب الدائـم على تصرفات الانسان المسلم فى حله وترحاله ، فى حركته وسكونه ، فى قيامه وقعوده فى عمله وفى تعامله مع نفسه ومع غيره · لكن التكليف لم يكن لان الله سبحانه وتعالى ليس فى حاجة اليه ···

« يا أيها الناس انتم الفقراء الى الله ، والله هو الغنى الحميد » فاطر 15 .

ولم يكـــن التكليف مقصورا على الحظر أو التحريم أو الحرمان بل انه ، فى الغالب الاعم ، حظ على العمل ، وحث على السعى ، وتزكية للاستمتاع المقدور .

« فاذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الارض وابتغوا من فضل الله واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون » الجمعة 10 .

(يا بنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا انه لا يحـب المسرفين . قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هى للذيـن آمنوا فى الحياة الدنيا خالصة يـــوم القيامة كذلك نفصّـل الآيات لقـــوم يعلمون) ، الاعراف 31 ـ 32 .

ان الانسان الراشد ، بما حباه الله من ارادة وعقل ، فى حاجة متجددة الى مقومات الحياة الفاضلة ، تلك المقومات التى تنمى ملكاته ، وتغذى مطالبه الروحية ، وتستجيب لتطلباته المعيشية بعامة .

ـ انها مقاصد لا تنال بغير مجهود .

ـ لابد من العمل المناسب .

ـ لابد من البذل المقدور .

ـ لابد من التمسك بالقيم السامية .

ـ لابد من الارتفاع فوق الغرائز البهيمية بالتحكم فيها .

وأخيرا لابد من التكافل بين العاملين حيث لا تكون طبقية ، ولا يكون صراع بـــين طبقـــات ...

ـ « يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعـوبا وقبائل لتعارفوا ان اكرمكم عند الله اتقاكم » ـ الحجرات 13 .

الا انها حكمة الخالق جل وعلا الحض على العمل وتمجيده ، وحاجة الانسان نفســـه الى مقومات الحياة الفاضلة ، هى التى تلزمه بأن يؤمن بالله ويخضع لاحكامه .

أليست العبادة تنبيها دائما لضمير الانسان بوجوده الروحى ، وبأن هناك خالق باق الى جانب الزائل المحدود فى حياته ، أليست العبادة سياجا واقيا من الزيغ والانحراف اللذين قد يتعرض لهما الانسان فيما يمارسه من نشاط تستلزمه حياته المعيشية ؟ .

أليست العبادة كذلك تحث الانسان على الاعمال الصالحة وتزكيه بها ؟

خصائص الشريعـــة

دعوة الاسلام دعوة عالمية لم يختص بها شعب دون آخر ، ولا تقتصر على جيل معين انها ممتدة الى ما شاء الله .

فى تعاليم الدين الاسلامى نظام حياة كاملة ... انه نظام ليس بالجامد المنغلق ، ولا بالسائب المستباح ... انه نظام يندب الانسان للانفتاح الفكرى ، ويحثه على استعمال العقل ، وعلى التأمل فى كل ما صنع الله جلت قدرته .

انه نظام يستند الى شريعة مستخلصة من نصوص الكتاب الحكيم ومن سنة رسوله الامين ، وجامعة للقواعد والحدود التى تحكم حياة الناس ومعاملاتهم . تلك هى شريعـة الاسلام ... انها تبرز مميزات مصادرها التى المعنا اليها فى فقرات سابقة .

ولقد اكتملت لهذه الشريعة خصائص وصفات ، مجملها ، جهد المستطاع ، فى الفطرة ـ والشمولية ـ والتكاملية ـ والواقعية ـ والانسانية .

ـ انها شريعة الفطرة التى فطر الله الناس عليها ، لانها تتعامل مـــع الانســـان الحقيقى ـ كائنا ما كان زمانه ومكانه على الارض ...

ـ وهى الشريعة الشاملة لانها تحيط بكل ما يتعلق بسلوك الفرد ، سواء فى تعامله مع نفسه أو مع الجماعة أو مع الله ... هذا فضلا عن أنها تفرض على كل مسلم مراقبة ذاتية مستمرة . ذلك بأن فرائض العقيدة والعبادات هى أيضا بمثابة نقاط مراقبـــة تلزم المسلم ان يراجع نفسه عند كل منعرج ...

ـ وهى الشريعة المتكاملة ، لان كل جزء من اجزائها ، وكل جانب من جوانبها يكمل الاجزاء والجوانب الاخرى ويكتمل بها ...

– وهى شريعة الانسانية ، لانها تسوى بين الناس جميعا ، ولانها تنفذ على الـدوام الى ضمير المسلم وتنبهه الى مسؤوليته الشخصية فى كافة ما ياتى به ••• له ما كسب وعليه ما اكتسب ••• لا وساطة ولا محاباة •

– وهى شريعة الواقعية ، لان الذى اختاره الله تعالى لحمل الرسالة وابلاغها قـد نفذ فى حياته وعلى مرأى من الخاص والعام ، كل أمر كان يدعو اليه ، وكل تكليف جاء بـه ••• كانت حياته عليه السلام ، وسلوكه ومعاملاته ، تجربة واقعية رائعة ، ماثلة للعيان ••• محققة الاختيار لم ينكر عليه أحد من اصحابه اى ناحية منها ••• هذه هى شريعة الاسلام التى توفر نظم الحياة الكاملة ••• وما كان لنا ان ندعى الاحاطة بكافـة سننها واحكامها ••• ولكن غايتنا ان نهتدى بها فى معالجة قضية الثروة من وجـه مصدرها وتداولها •

– « **والله يدعو الى دار السلام ويهدى من يشاء الى صراط مستقيم** » (**يونس 25**) ويقول تعالى وقوله الحق : « **ما فرطنا فى الكتاب من شىء** » الانعام 38 •

وفى حديث رواه مسلم يقول الرسول الامين :

(وقد تركت فيكم ما لن تضلوا بعده ان اعتصمتم به كتاب الله) •

الفصـــل الثـانى

الثـــروة ومصادرهـــا

نكرر ان الثروة مال كثير متجمع فى حوزة ما •

والمدلول الشائع للفظ المال انه كل شىء ذى قيمة تبادلية ، ومن ثم فهو قابل للحيازة وللتصرف فيه • ولذلك ينسحب هذا المدلول على النقود التى هى ممثلة للمال الحقيقى ووسيلة لمداولته •

وفى الغالب الاعم يكون هذا المال شيئا نافعا ، بل ان شريعة الاسلام تشترط المنفعة فى المال المقيم ، وذلك تمشيا مع حكمة الحظر على تداول الاشياء الضارة •

على ان شرط القابلية للحيازة يخرج من محيط المال المقيم اشياء تنفع الناس ولا غنى لهم عنها ، مثل الماء والهواء ، وهذه الاشياء تسمى اصطلاحا الاموال الطليقة •

المال المقيم اذن يشتمل على طيبات الارض التى توجد على الفطرة والتى تكون فى حوزة افراد أو جماعات معينة ـ ولذلك يمكن تسميتها بأموال الفطرة (أى الطبيعة أو الارض فى لغة رجال الاقتصاد) ·

كما يشمل هذا المال المنافع الاضافية التى يستدرها الانسان أو ينميها أو يستصنعها بمجهوده من أموال الفطرة ، وكذلك الخدمات التى يؤديها الانسان لغيره ، حسب دربته ومهارته وملكاته ·

وسواء أكان المال مال فطرة أو مالا اضافيا فان شريعة الاسلام واضحة كل الوضوح فى نسبة نشأته ·

الله خالق كل شىء ومدبره ··

ـ « الحمد لله الذى خلق السموات والارض وجعل الظلمات والنور » الانعام 1 ·

ـ « وخلق كل شىء فقدره تقديرا » الفرقان 2 ·

ـ « سبحان الذى خلق الازواج كلها مما تنبت الارض ومن انفسهم ومما لا يعلمون (يس 36) ·

ـ « الله الذى خلقكم ثم رزقكم ثم يميتكم ثم يحييكم » الروم 40 ·

ـ « ان فى خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس وما انزل الله من السماء من ماء فاحيا به الارض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والارض لآيات لقوم يعقلون » البقرة 184 ·

ـ « الا له الخلق والامر تبارك الله رب العالمين » الاعراف 54 ·

هذه الآيات البينات واضحة الدلالة على ان المصدر الحقيقى لما هو كائن فى الارض وفى السماء ، من انسان وحيوان ونبات وجماد ، انما هى ارادة الخالق جل شانه · انه سبحانه صاحب الامر كله ·

ولقد ذكر لفظ الخلق ومشتقاته اكثر من مئتين وخمسين مرة فى القرآن الكريم · فالله قد خلق أموال الفطرة التى تندرج فى مفهوم الثروة المادية ، كما انه قد خلق الانسان

وسواه ومكنه فى الارض · فاذا الانسان بمجهوده يستخرج اموالا مضافة أو يكون وسيلة استدرار أموال مضافة ·

وقد شاءت ارادته العلية أن يميز الانسان على غيره من المخلوقات فحباه بعقل وفكر ووجدان لم تحظ بها تلك المخلوقات ·

كذلك اقتضت حكمته تعالى أن يكلف ذلك الانسان بالعبادة وأن يختصه بالاستخلاف فى الارض وبتسخير طيباتها لمنفعته ومتاعه ·

ـ « واذ قال ربك للملائكة انى خالق بشرا من صلصال من حمإ مسنون ، فاذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين ، فسجد الملائكة كلهم اجمعون ، الا ابليس أبى ان يكون من الساجدين » الحجر 28 ـ 31 ·

ـ « ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا » الاسراء 70 ·

ـ « واذ قال ربك للملائكة انى جاعل فى الارض خليفة قالوا اتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال انى اعلم ما لا تعلمون ، وعلم آدم الاسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال انبئونى باسماء هؤلاء ان كنتم صادقين ، قالوا سبحانك لا علم لنا الا ما علمتنا انك انت العليم الحكيم » البقرة 30 ـ 32 ·

لا جرم أن يكون الفكر الاقتصادى الاسلامى ، فى معالجته لقضية الثروة ، منطلقا من عقيدة الخلق ، وان تكون تدفقاته نابعة من سنن الشريعة واحكامها وضوابطها فاموال الفطرة ملك لخالقها لا مراء فى ذلك ، ولكنه قد استخلف الانسان فيها استخلافا مقدورا ، غير مطلق ، اذ لا يصح بداهة ان يكون الاستخلاف تنازلا مطلقا من كافة حقوق المالك الحقيقى ، لمن ··· ؟ لكائن يدركه الموت ويفنى ·

فى حديث رواه مسلم : « يقول ابن آدم مالى مالى ! وهل لك يابن آدم من مالك الا ما أكلت فافنيت ؟ ، أو لبست فابليت ، أو تصدقت فامضيت » ·

لا بد أن تكون هناك شروط وأوضاع لانضباط ذلك الاستخلاف ولضمان حسن التدبير أو لتجنب سوء التصرف ، « **آمِنوا بالله ورسوله وانفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه** » الحديد 71 ·

يقول الزمخشرى فى تفسيره لهذه الآية انها تعنى « ان الاموال التى فى ايديكم انما هى أموال الله بخلقه وانشائه لها ، انما مولكم اياها ، وخولكم الاستمتاع بها ، وجعلكم خلفاء فى التصرف فيها ، فليست هى بأموالكم فى الحقيقة ، وما انتم فيها الا بمنزلة الوكلاء النواب » ·

ويرى الامام ابن تيمية ان الاصل ان الله سبحانه وتعالى انما خلق الاموال اعانة على عبادته ، لانه انما خلق الناس لعبادته ·

وهكذا تكون هذه الحقائق الكبرى التى تعرف على الفطرة ، والتى تؤكدها المشاهدة ويدركها المتأمل ــ حقيقة الخلق ، بمشيئة الله وبقدرته دون غيره ، وحقيقة الاستخلاف ، وحقيقة التسخير ــ هى المسلمات الاولى للفكر الاقتصادى الاسلامى فى معالجته لاموال الفطـرة ·

ونستنتج من ذلك أن الاستخلاف لا يعنى ملكية حقيقية للمستخلف ، بل هو تملك بالوكالة ، أو ملكية حيازة ·

وكذلك نستنتج ان الاصل فى هذا الاستخلاف هو العمومية أى هو للجماعة التى يشترك افرادها فى مصالح روحية ومادية · فاذا كانت هناك حيازة فردية فلا بد ان تكون خاضعة لتنظيم الجماعة ·

وفى شريعة الاسلام ربط محكم ، متصل الحلقات ، بين مصالح المسلمين ، ربط سوى من الجماعة مجتمعا يخدم الفرد ويحميه ، واقام من الفرد عضوا عاملا واعيا يشيد المجتمع وينميه ·

ويقول الامام ابو حامد الغزالى ، رحمه الله ، فى عبارة جامعة لمصالح المسلمين المرسلة : « ان مقصود الشرع فى الخلق خمسة : وهو ان يحفظ عليهم دينهم ، ونفسهم ، وعقلهم ، ونسلهم ، ومالهم ، : فكل ما يتضمن حفظ هذه الاصول فهو مصلحة ، وكل ما يفوت هذه الاصول فهو مفسدة ، ودفعها مصلحة » ·

ويضاف الى ذلك قاعدة أخرى من القواعد المقررة فى الشريعة هى : مبـــدأ ســـد الذرائع ، ومقتضاه ان ما لم يتم الواجب الا به فهو واجب ·

والى جانب كل ذلك ، يشترط فى الاستخلاف بحيازة أموال الفطرة أو بتملكهـا بالوكالة ، ان يلتزم المستخلف فيها بواجبات عليه ان يقوم بتأديتها على ما يحقق حكمة الخالق فى الخلق · فاذا ما عجز الملتزم عن التأدية أو أهمل فيها أو قصرت قدرته عـــلى تحملها ، سقط حقه فى الاستخلاف كله أو بعضه ، على قدر قصوره ·

وقد نجمل أركان هذا الالتزام ، جهد المستطاع ، فى احياء الارض وعمارتهـا وفى انماء أموال الفطرة بالطرق المشروعة ، وفى تنفيذ احكـام الشرع فى الانفاق والبذل ، كأداء الزكاة بكافة انواعها ، واعطاء الصدقات ، وغير ذلك من أبواب البر والانفاق فى اصلاح أحوال المسلمين بعامة · ولا يحل للمستخلف الاسراف والتبذير وكذلك لا يحل له تمجيد استثمار الاموال أو تعطيل ذلك الاستثمار ·

يقول تعالى :

ـ « يا أيها الذين آمنوا ان كثيرا من الاحبار والرهبان لياكلون اموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله ، والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم ، يوم يحمى عليها فى نـــار جهنم فتكـوى بها جباهم وجنوبهم وظهورهم ، هذا ما كنزتم لأنفسكم ، فذوقوا ما كنتم تكنزون » ـ التوبة 34 ـ 35 ·

فاذا كان هذا شان أموال الفطرة فى قضية الثروة ، فما حكم الاموال المضافة الـــتى يكسبها الانسان بجهوده ؟

لا جدال فى ان شريعة الاسلام تولى سعى الانسان فى طلب الرزق أهمية كبـــرى تتساوى وأهمية العبادة ، ففيها ان عمل الانسان شامل لنوعيه الدينى والدنيوى ·

وهذا الشمول يوضح لنا ذلك المزج المثالى الذى تجريه الشريعة بين قـــيم الاشياء المادية ، وقيم الرياضة الروحية التى تصون الناس من الشطط والزلل ، وتحميهم من الفســـاد ·

اذا علمنا ان شريعة الاسلام تولى ذلك الاهتمام البالغ لعمل الانسان نفسه ، سواء كان القيام به وسيلة التقرب الى الله سبحانه وتعالى ، أو أداة لقضاء حاجاته المعيشية ، فليس لنا ان نعجب من ان نظرة التشريف والتمجيد التى تراعى بها الشريعة شخصية الانسان قد امتدت كذلك لما يصدر عنه من عمل ، طالما ظل ذلك العمل محققا لغاية مشروعة .

لقد ورد فى القرآن الكريم 360 آية تتحدث عن العمل و 104 تتحدث عن الفعل .

ـ « ومن أحسن قولا ممن دعا الى الله وعمل صالحا وقال اننى من المسلمين » فصلت 33 .

ـ « ليأكلوا من ثمره وما عملت أيديهم أفلا يشكرون » يس 35 .

ـ « وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون وستردون الى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون » التوبة 105 .

وفى الحديث :

« ان الله يحب اذا عمل أحدكم عملا أن يتقنه »

واذا كان فى هذا الحديث حض على اتقان العمل ، وحث على الاخذ بأرقى الاساليب العلمية والفنية فى ممارسة العمل ، فان فى القرآن الكريم حثا متكررا على التبدر فى معالم الكون ، وعلى التدبر فى آيات قدرة الخالق ، وهل يتدبر المرء أمرا وهو لا يتقن ما يعمل ؟

انما الذى ينبغى مراعاته فى شأن العمل الدنيوى انه لا يقتصر على عمل الاجير ، بل انه فى شريعة الاسلام ليشتمل على النشاط المثمر فى كافة صوره وأوضاعه .

فصاحب المصنع يعمل حين يدير مصنعه ، وصاحب المتجر يعمل حين يمارس تجارته وصاحب المزرعة يعمل حين يشرف على مزرعته . ولا يستثنى من ذلك العمل اليدوى .

ـ « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« لان يمشى أحدكم مع أخيه فى قضاء حاجته أفضل من أن يعتكف فى مسجدى هذا شهرين » .

وقال عليه السلام أيضا :

« ان أشرف الكسب كسب الرجل من يده »

ولقد أطلقت شريعة الاسلام رخصة العمل للقادرين عليه ، ولم تنه عنه الا اذا كان يتولد عنه مفسدة أو ضرر ـ كالكسب الحرام ، والغش ، والظلم ، والقمار ، والربا والاحتكار ، والسرقة ، والرشوة ..

وهكذا يكون العمل المثمر نبعا تتدفق منه روافد الاموال الاضافية التى تتألف منها ومن أموال الفطرة ثروات الافراد والجماعات .

واذا اختلفت الاموال الاضافية فى معاملتها عن أموال الفطرة ، فلانها تعتبر كسبا يرتب لصاحبه حقوقا تمتاز على ما يتمتع به حائز أموال الفطرة ، بالقدر الذى يحميه وينميه ولكنه يظل خاضعا لسنن الشريعة فى تحقيق المصالح المرسلة وفى التزام صاحبه بكافة الاحكام الخاصة باستعماله والتصرف فيه .

وأخيرا تجدر الملاحظة بأن احجام الثروات تتغير وتتبدل بسبب التصرف فيها أو بتداولها ، وهذا موضوع النظر فى الفصل التالى :

الفصل الثالث

تداول الثروة يعنى انتقال حيازتها ، سواء كان ذلك على سبيل التملك والارتفاق كما هى حال الاموال الفطرية ، أو على سبيل الكسب بالمجهود البشرى .

ويتم ذلك التداول ، اما على وجه المبادلة ـ مبادلة مال مقيم بآخر ـ أو على وجه الوفاء بالفروض والواجبات الشرعية ، أو على وجه الهبة ، أو الوصية ، أو التوريث ، أو غير ذلك من أوجه البر والتكافل .

وأيا ما يكون مدار التداول ، فالحال ان شريعة الاسلام قد عالجت قضية الثروة من حيث نشأتها فاطمأنت الى سلامة تحصيلها وصلاحية الحائز لها .

ـ « ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التى جعل الله لكم قيما » النساء 5 .

فاذا كانت الثروة من أموال الفطرة ، فهى ، على الضرورة ، خاضعة لسنن الشريعة وأحكامها فى الانتفاع بها ، وكذلك هى خاضعة للجماعة فى تنظيم تداولها ومن هذه الاموال ما لا يجوز للافراد تملكه ·

يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« الناس شركاء فى ثلاث : الماء والكلأ والنار »

ويرى علماء الشريعة أن مقصود هذا الحديث هو تثبيت الملكية العامة للمواد الضرورية، منعا لتمكين المحتكرين لها من سوء استغلال حاجة الجماهير اليها ·

واذا كانت الثروة من الاموال المضافة ــ من الاسترعاع والاستخراج والاستنصاع والمتجارة ــ فهى أيضا خاضعة لاحكام الشريعة من حيث سلامة المنشأ والانتفاع بها ، ولتنظيم الجماعة من حيث مراقبة تداولها ·

ذلك بأن هذه الاموال انما هى ثمار تقابل جهود البشرية ، سواء أكان باذلوها افرادا أم جماعات ·

فاذا كان الباذل فردا فله ثمرة مجهوده وعليه ان يوفى حق الجماعة فيها · وان كان الباذلون جماعة ، فلكل من افرادها نصيب مقدور ــ يمتاز فيه من شارك منهم بثروة (رأس مال) الى جانب مجهوده ، أو من شارك بثروة من طريق المضاربة لان مثل هذه المشاركة لا تستقيم الا اذا تحمل الطرفان الغرم واقتسما الغنم · ولقد حرمت شريعة الاسلام « الفائدة » التى تحصل كعائد لرأس المال الذى انفصل عن ادارة صاحبه ، أو عن مشاركته فى المضاربة ، لان ذلك العائد يصبح قرضا ربويا ·

ولتداول الثروة صفة اجتماعية اصيلة ، تنشأ من علاقته بنشأة الثروة ومن اتصاله بطرائق الاستكثار منها ، ومن مجاراته اساليب توزيعها فى الجماعة ·

ان صاحب الثروة لا يحل له ان يحتكرها ، ولا ان يجمدها بأن يحجبها عن الاستثمار أو يعطل ذلك الاستثمار ، فان فعل ذلك ، كان فعله توقيفا لوظائفها الاجتماعية التى هى من حق الجماعة عليه ، وعندئذ يحق لولى الامر ان يتخذ ما يراه مشروعا لضمان تأدية تلك الوظائف حتى لو اقتضى الامر الاستيلاء عليها أو تأميمها ، أو مصادرتها ·

أما شروط التداول فتندرج فى فقه المعاملات ، وهى تكون تسعة اعشار الشريعة ، على ما يقول الفقهاء ، بل انهم يذكرون ان التفقه فى الدين واجب على من يمارس من ارباب التجارة والصناعات ، عمليات التداول المتصلة بالثروة .

يروى ان رجلا جاء الامام على بن ابى طالب كرم الله وجهه وقال : يا أمير المؤمنين انى اريد التجارة ، فادع الله لى فقال له أوفقهت فى دين الله ؟ قال : أو يكون بعض ذلك ؟ قال : ويحك الفقه ثم المتجر ان من باع واشترى ولم يسأل فى دين الله ارتطم فى الربا ثم ارتطم .

ويروى عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه قوله : « لا يبيع فى سوقنا هذه الا من تفقه فى الدين » .

وفى الحديث : ان الربا ثلاثة وسبعون بابا .

واماتداول التوزيع للاموال المضافة أى ثمار العمليات الانتاجية أو مجمل الدخل القومى بلغة هذا العصر ، فلا بد ان تراعى فيه مقتضيات التكافل الاجتماعى . وقد سنت شريعة الاسلام حد الكفاية (أو حد الاستغناء) لكل عضو من اعضاء المجتمع ، فضمنت له حاجاته الضرورية التى لا شك تتماشى مع أحوال ذلك المجتمع حسب الزمان والمكان ، فاذا عجز انسان لسبب خارج عن ارادته ، عن ان يوفر لنفسه ولمن يعولهم من أهله الحد المناسب لمعاشه ومعاشهم ، على نحو ما يجرى عليه العرف السائد ، تكفل بذلك بيت المال ، ولا يستثنى غير المسلمين من هذه المعاملة ، فان لهؤلاء نفس الحقوق التى يتمتع بها المسلمون .

- **« وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل » الاسراء 26 .**
- **« فى أموالهم حق معلوم ، للسائل والمحروم » المعارج 24 .**
- وفى الحديث :

« من ترك كلا فليأتنى فانا مولاه » أى من ترك ذرية ضعيفة ، فأنا كفيل به . ويروى أبو يوسف فى كتاب الخراج ان عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، أمر بكفلة العامل اذا أقعدته الشيخوخة أو العاهة عن العمل . اذ أنه مر ذات يوم بشيخ كبير ضرير يسأل الناس فضرب عضده من خلفه ، وقال : من أى أهل الكتاب أنت ؟ فقال : يهودى ، قال :

فما الجاك الى ما أرى ؟ قال : أسأل الجزية والحاجة ، والسن · فأخذ عمر بيده الى منزله فرضخ له بشيء ثم ارسل الى خازن بيت المال فقال : انظر هذا وضرباءه ، فوالله ما انصفنا ان أكلنا شبيبته ثم نخذ له عند الهرم · انما الصدقات للفقراء والمساكين · والفقراء هم المسلمون ، وهذا مسكين من أهل الكتاب · ووضع عنه الجزية وعن ضربائه ·

ومتى توافر حد الكفاية لكل عضو من أعضاء المجتمع يكون توزيع الاموال المضافة أى ما تبقى من الناتج القومى ، على المشاركين فى العمل حسب نتائجه · الا ان الشريعة لا تطلق لهؤلاء العنان فى الترف والاسراف فى اتلاف ما افاء الله عليهم ، أو ما عملته ايديهم · بل هى تنهى عن الاسراف والتبذير والترف وتحض على القصد والاعتدال، على عكس ما نشاهد فى المجتمعات الاستهلاكية الحديثة ·

ولهذا يقول الفقهاء ان الاسلام لا يسمح بالثراء الشخصى الا بعد توفير حد الكفاية للمجتمع ، وان هذا السماح مشروط بشرطين :

أ ـ عدم التفاوت الكبير فى الغنى ·

ـ « لكى لا يكون دولة بين الاغنياء منكم » الحشر 7 ·

ب ـ وعدم الانغماس فى الترف ·

ـ « واذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها ، فحق عليها القول فدمرناها تدميرا » الاسراء 16 ·

تداول الثروة فى ظل التكافل الاجتماعى

يتبين مما تقدم من الحديث ان هناك ارتباطا وثيقا بين تداول الثروة ونشاتها وتحصيلها وتوزيعها واستعمالاتها فى شريعة الاسلام · وقد رأينا كيف تعالج هذه الشريعة الجوانب الاساسية فى قضية الاموال ، ولا سيما فى اثباتها قاعدة ارتهان التحصيل والحيازة بالعمل النافع ، وفى اشتراط حد الكفاية قبل اجراء التوزيع وكذلك فى مطالبة القادرين على الانفاق أن يفعلوا ذلك على الدوام فى سبيل الله ووفاء لحقوقه فى أموالهم ·

هكذا تقيم شريعة الاسلام بنية اجتماعية شاملة : بنية التكافل الاجتماعى ، رياضة للقادرين، وملاذا للمحتاجين ، وتوثيقا لعرى الاخوة وأواصر التعاون · وفى نفس الوقت تؤمن للثروة المكانة السليمة النافعة ، فتصونها من العبث والضياع وتمكنها من تأدية وظائفها الاجتماعية على أحسن وجه وأكمل منوال ·

ولهذا تكون الشروط والاوضاع التى يتم فيها تداول الاموال فى ظل الشريعة كفيلة بتحقيق ما درجنا على تسميته ، فى مصطلحات هذا العصر ، بالعدالة الاجتماعية والعدالة الاقتصادية ـ وهما فى الواقع هدفان مرتبطان أشد ارتباط ، بما يتعذر معه التمييز بينهما وخاصة فى مجالات التطبيق ·

فالعدالة لغة تعنى المساواة أو الانصاف · وهل تكون هناك مساواة حقيقية لا يصاحبها انصاف ؟

وشريعة الاسلام تقرر المساواة بين الناس جميعا على اختلاف اجناسهم ، فهى تسوى بينهم ، أولا وقبل كل شىء وفوق كل شىء ، فى القيمة الانسانية المشتركة المستمدة من حقيقة الخلق ونشأة الانسان عن أب واحد ، فيمتنع لذلك أى تمييز على أساس الجنس أو السلالة أو العنصر ·

«يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ان أكرمكم عند الله أتقاكم » الحجرات 13 ·

وفى خطبة الوداع يقول الرسول صلى الله عليه وسلم : يا أيها الناس ان ربكم واحد وان أباكم واحد ، كلكم لآدم ، وآدم من تراب ، وليس لعربى على عجمى ، ولا لعجمى على عربى ، ولا لاحمر على أبيض ، ولا لابيض على أحمر ، فضل الا بالتقوى » ·

ويروى انه عليه السلام سمع أبا ذر الغفارى يحقد على بلال رضى الله عنهما ويقول له يا ابن السوداء ، فغضب الرسول وانتهر أبا ذر وقال له : « انك امرؤ فيك جاهلية ، ليس لابن البيضاء على ابن السوداء فضل الا بالتقوى أو عمل صالح » ، فوضع أبو ذر خده على الارض وأقسم على بلال أن يطأه بحذائه حتى يغفر الله له زلته هذه ·

كذلك تسوى الشريعة بين الناس فى الحقوق والواجبات ، وفى المسؤولية والجزاء ، وفى المثوبة والعقاب ، وفى فرص العمل والكسب المشروع والتعامل ، وبديهى ان مثل هذه المساواة مجالاتها واسعة ، وسبلها متشعبة ، الا ان سنن الشريعة شاملة لكافة مناحى الحياة البشرية ومنعطفاتها ـ فيها المعاملات وممارستها ، وفيها طلب العلم والسعى وراء الرزق ، وفيها الحماية من الجور والظلم ، وفيها منع الاعتداء والقصاص من المعتدين ... لا تفرقة ولا تمييز فى المعاملة .

« يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى واتقوا الله ان الله خبير بما تعملون » المائدة 8 .

وفى الحديث :

« لا تفلح أمة لا يؤخذ للضعيف فيها حقه من القوى »

أما فى المجال الاقتصادى ، فالمساواة التى تسنها شريعة الاسلام تتمثل بالدرجة الاولى فى الاخذ بما يحقق تكافؤ الفرص بين الناس ، ومن ثم يصير النظام الاقتصادى المنشود وسيلة لهدف . فهو نظام صالح ومكين طالما ذلل مشاق الحصول على الارزاق ونال فيه كل مجتهد ثمار اجتهاده ، وحصيلة عمله ، وطالما حافظ على الاموال ونماها ، وحال دون تركيزها لدى فئة قليلة ، تسىء استخدامها ، أو تتخذها أداة استغلال وفساد ومجون .

كل ذلك الى جانب مراعات ضرورات التكافل الاجتماعى . هكذا نستبين مناط المساواة الاقتصادية فى شريعة الاسلام ، ونلتمس دعائمها الكبرى التى نجملها ، جهد المستطاع ، فى حماية الكسب المشروع ، وفى تأميم المشاركة الجماعية فى أموال الفطرة التى هى ضرورية لجميع الناس ، وفى توفير مستلزمات التكافل .

وليس من المبالغة فى شىء القول بأنه يستحيل على العاقل المنصف أن يتصور وعاء من صنع البشر يتسامى الى ما استحدثته شريعة الاسلام من عدالة اقتصادية وما كفلته للناس من عدالة اجتماعية ـ كلتاهما ميسورة ومتيسرة بالايمان الصادق .

وقد نختم هذا الحديث باستجلاء لبس لدى بعض المتشككين فى أمر المساواة الاسلامية . يتساءل هؤلاء كيف تكون مساواة فى الاسلام والقرآن يقول :

« ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات »

وصحة مدلول هذا النص تبين من استكمال الآية ومن نص الآية التى سبقتها فى سورة الزخرف 31 ـ 32 ، وهما :

« وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم • أهم يقسمون رحمة ربك نحن قسمنا بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضا سخريا ورحمة ربك خير مما يجمعون » •

فى هاتين الآيتين رد على اعتراض الكفار على اختيار الله لشخص أولاه كامل ثقته ووضع فيه سر رسالته كافة للناس • ولم يكن ذلك الشخص بصاحب مال أو جاه أو سلطان • بل كان المصطفى المختار رجلا فقيرا ، شديد التواضع ، لا يقرأ ولا يكتب • ومع ذلك فقد اختصه الله باعظم رسالة •

واذ تستنكر الآية الثانية اعتراض الكفار فانها تشير فى نفس الوقت ، الى ان اختلاف الناس وتفاوتهم فى العقول والملكات والقدرات انما كان لحكمة التعاون والتكافل وتبادل المعونات والخدمات ، فلا ينبغى للمعترضين أن يتطاولوا ولا ان يغتروا بما جمعوا من مال ومتاع ، فان رحمة الله خير مما يجمعون •

وعلى كل حال فان المساواة الاسلامية انما تتعلق بمعاملة الناس وتعاملهم وعدم التفرقة بينهم بسبب الجاه والمال والقوة • فاذا اختلفوا فى القدرات واذا تفاوتوا فى العقول واذا تباينوا فى الاتجاهات ، فحسبهم ان التعاون يوحدهم ، وان التكافل يجمع شملهم ، وان التراحم يسمو بهم الى العلا •

خاتمة

لقد توخينا القصد والتبسيط فيما عرضنا عن قضية الثروة أو الاموال المقيمة فى شريعة الاسلام ، ومع تعدد المصادر الفقهية الموثوق بها وغزارة مادتها ، فقد اعتمدنا أساسا على نصوص الكتاب والسنة ، وأوردنا بعضها فى سياق العرض ، على سبيل الاستشهاد بها ، ثم على رجاء أن يشاركنا السامع والقارىء التأمل فى حكمة الخلق ، وفى مناهج الحياة الاسلامية الكاملة واتصال تلك المناهج بقضية خطيرة كقضية الثروة ،

التى تتشقق الآراء حولها ، وتختلف النزعات فى شانها ، ويحتدم التناحر من أجـــل امتلاكها ، ويشتد الصراع عند توزيعها وتداولها ـ لولا رحمـــة ربـــك بالمسلمين اذا استمسكوا بأصول شريعتهم السمحة وسنتها الجامعة ٠

ومع ذلك ، فقد يكون من المفيد الآن أن نحاول ، على قدر المستطاع ، جمع شتـــات الموضوع المعروض فى نقاط رئيسية تيسر النقاش وتحدد أبعاده فنذكر :

1) ان شريعة الاسلام ـ شريعة التوحيد ـ تحيط أصولها بكافة المقومات الضرورية التى تتطلبها حياة الانسان الكاملة ٠ انها وحدة لا تتجزأ مقصودها تمكين الانسان من أن يحقق بعمله الصالح المتقن سعادته الحقيقية فى الدارين ولذلك ينتفى أن يكون فيها أى تكليف يحول دون العمل على تحقيق تلك السعادة ، بل ان الامر على الخلاف : الشريعـة كلها حض على العمل الصالح وتزكية له ٠

2) ان من أصول هذه الشريعة أنطلق الفكر الاقتصادى الاسلامى ، ومن أحكامهـــا الجامعة تغذى على مدى عصور ازدهار المسلمين ، انما المؤسف حقا ان هذه الثروة الفكرية الضخمة ، قد تجمدت فى عصور انحطاط المسلمين ، ودفن كثيرها أو ضاع ، فى أعقاب الغزو الفكرى الصليبى وتحت ظلاله ، وانتهى الامر الى أن جمهور الدارسين فى علـم الاقتصاد فى البلدان الاسلامية والعربية ظلوا ـ الى عهد قريب ـ لا يعلمون عن الفكر الاقتصادى الاسلامى الا النزر ، على الرغم مما كان لذلك الفكر من تاريخ حافل ، وما كان لاصحابه من أصالة وشهرة مرموقتين ، وما كان لعناصره من ذاتية فريدة ـ ذاتية لعل من أبرز آياتها تلك المعالجة الشاملة لقضية الاموال ، وهى القضية « الام » الـتى تتفرع عليها مباحث علم الاقتصاد الحديث ٠

3) نعم ، على هدى شريعة الاسلام عالج رجال الفكر المسلمون قضية الامـــوال معالجة أصيلة شاملة ، لا تقتصر على أسلوب المشاهدة التى يحدها زمان ومكان معلومان ، وهو أسلوب غير مناسب منهجيا لمعالجة هـــذه القضية بل تنفـــذ الى ما وراء ذلك ـ الى نشأة الاموال ذاتها ، سواء أكانت أموال فطرة ، أم منافع أظهرها الانسان أو استدرها من تعامله مع أموال الفطرة بالاستزراع والاستصناع ، والمتاجرة ، وغير ذلك من أوجه النشاط الذى يمارسه فى سبيل استكثارها أو تنميتها ٠

4) ان الله خالق كل شيء ، ومالكه ، ومدبره ، ارادته سبحانه وتعالى هى المصدر الحقيقى للاموال ، وهو جل شأنه المالك الحقيقى لها ، وهو علت قدرته صاحب التدبير الاعلى فيما يخلق ويملك · لهذا يستنكر أهل الرأى فى الاقتصاد الاسلامى نظريـــة الندرة التى ابتدعها رواد علم الاقتصاد الحديث ، وجعلوها مشكلة المشاكل فى ذلـــك العلم ، ولذلك افترضوها أولى المسلمات فيما صاغوه « من القوانين » التى نسبـــوا اليها ما لا تحظى به من عمومية وشمول ·

5) اقتضت حكمته تعالى تفضيل الانسان على غيره من المخلوقات ، فاستخلفه فى الارض ، وسخر له ما فى السموات وما فى الارض ، واسبغ عليه نعمه ظاهرة وباطنة ، لكن هذا التسخير وذلك الاستخلاف لا يعقل أن يترتب عليهما تنازل دائم عن الملكيـــة الحقيقية · واذن فكل ما يحوزه ذلك المخلوق الفانى ، المحدود الاجل ليس ملكـــا حقيقيا ، بل هو تملك أو حيازة وارتفاق ·

6) أما مزايا التسخير فعدالة الخالق المالك المدبر ، جل جلاله ، يجعلها على الضرورة مزايا عمومية ، لا تتولد عنها حقوق خاصة دائمة يحظى بها أفراد مميزون أو تنعم بها فئات معينة ، دون قيد أو شرط · كلا : انها نعم ، هى فى الاصل للجماعة لكى يكون لكل عضو فيها نصيب مقدور · ومن ذلك كان الطابع الاجتماعى للاموال ، ومن ثـــم وظائفها الاجتماعيـــة ·

7) تلك النعم ترتهن فى جميع الاحوال بعمل المستنفع بها ، أو المستفيد منهـا · اذ يأمره الله تعالى أن يعمل لكى يحوزها ، وأن يعمل لكى ينتفع بها ، وأن يعمل لكى يحافظ عليها ، وأن يعمل لكى يستكثرها ويربيها بما لا يجلبه أو لغيره مضرة أو اساءة ، ثم عليه أن يحسن استخدامها ، متجنبا بذلك الاسراف والتبذير والمجون ، ومستمسكا على كل جال بتقوى الله والخضوع لاحكامه ·

8) من أجل ذلك كان العمل الذى ندب الانسان لممارسته ، لا يقتصر على الرياضة الروحية ، بل ينسحب على السعى وراء الرزق من أبوابه المشروعة ، فلا هو بالروحى الخاص فقط ، ولا هو بالمادى المحض وحده · ولكنه شامل لهما معا ، على اتساق وتكامل جامعـــين ·

9) ثم ان تداول الاموال مشروط على الدوام بسلامة تحصيلها وحسن تدبيرها ، .الوفاء بحق الله فيها على ما فصلته شريعة الله ٠

10) ولقد سنت الشريعة السمحة حد الكفاية (أو حد الاستغناء) فاكملت دعائم أسمى تكافل اجتماعى ـ حيث لا محل فيه لغير العدالتين : العدالة الاقتصادية الصحيحة ، والعدالة الاجتماعية الحقة ٠

« والله يهدى من يشاء الى صراط مستقيم » ٠

(صدق الله العظيم)

والحمد لله رب العالمين

مقصد الشريعة من الحج
والطريقة التي يؤدى بها اليوم

الشيخ عبد الله ابراهيم الانصـارى
مدير الشؤون الدينية والقروية
الدوحة ـ قطـر



الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين وامام ا لمتقين ، وقائد الغر الميامين ، وعلى آله وأصحابه الهداة ، الذين نشروا لواء الدين ، وسلم تسليما كثيرا ... وبعد :

قال تعـــالى :

(الحج أشهر معلومات ، فمن فرض فيهن الحج فلا رفث ولا فسوق ولا جدال فى الحج

وما تفعلوا من خير يعلمه الله ، وتزودوا فان خير الزاد التقوى ، واتقـــون يـا أولى الالبـــاب) .

وقال تعـــالى :

(واذن فى الناس بالحج ياتوك رجالا وعلى كل ضامر ياتين مـن كل فـج عميـق ، ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله فى أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الانعام فكلوا منها واطعموا البائس الفقير ، ثم ليقضوا تفثهم وليوفوا نذورهم وليطوفوا بالبيت العتيق) .

آيات بينات بين الله سبحانه وتعالى فيها كيفية الحج للمنفعة الخاصة بالناس وذلك قصد الاسلام من الحج وعلى سبيل التفصيل ، فالحج مؤتمر اسلامى نادى الله تعالى عباده للاجتماع فى تلك البقعة المعينة ، وفى ذلك الوقت المعين ، ليتفقد المسلمون أحوالهم وليتشاوروا فى حل مشكلاتهم ، وتحقيق مقاصدهم والا فليس لله تعالى مصلحة خاصة من هذا اللقاء ، وكما ذكر الله تعالى فى الهدى :

« لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم » .

ومن مقاصد الاسلام فى الحج ، تعظيم شعائر الله والانصياع لاوامره واجتنـــاب نواهيه ، فبتعظيم تلك الشعائر ، تنطلق القلوب الى بارئها صافية نقية طاهرة فـان رجع العبد الى ربه جدير به ان ينال كل خير ، قال تعالى :

« ومن يعظم شعائر الله فانها من تقوى القلوب » .

ولا شك ان المسلم انسان كسائر البشر ، ليس معصوما مـــن الاخطـاء والذنوب وارتكاب المعاصى ، فهو كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (كل بنى آدم خطاء وخير الخطائين التوابون) وفى حديث آخر (لو لم تذنبوا وتستغفروا لذهب الله بكم ولأتى الله بقوم يذنبون ويستغفرون فيغفر الله لهم) .

لذلك فان الله قدر لعباده نفحات وهيأ لهم لاستجابة الدعاء أوقاتا ومن أجل هـذه الاوقات يوم عرفة بصفة خاصة وأيام الحج بصفة عامة ، ففيها يغفر الله الذنوب ويكشف الكروب ويستجيب الدعاء ، وينادى عباده انصرفوا فانى قد غفرت لكم ، وفى هذا اليوم

دحر للشيطان عدو الانسان اللدود فلم ير فى يوم اصغر ولا اذل ولا ادحر من يوم عرفة

لهذا فان من مقاصد الاسلام من الحج تمحيص الذنوب والسيئات ، ونقاء قلب العبد ورجوعه الى ربه وتنقيته من شوائب الشهوات ، وابعاد النفس عن ارتكاب المنكرات كى تختط لنفسها طريقا بعد ذلك فيه حماية لها وللمجتمع من المنكرات ·

ومقاصد الاسلام فى الحج عظيمة وكثيرة من اهمها :

التوبة الى الله والرجوع اليه وهذه الخاصية من أهم الخواص فى الدين فلا يـأس بل باب التوبة مفتوح للعبد يلجه فى أى وقت يشاء خصوصا عقب الحج المبرور · ومن مقاصد الحج تحقيق التوحيد بالتقرب الى الله مباشرة بدون واسطة فى الدعاء والاستعاذة والاستغاثة والذبح لله وحده ومن الله وحده وبالله وحده والتوحيد من اجل العبادات ومن الاسس القويمة لهذا الدين ، فلا يكون التقرب بشىء من تلك الصفات الا الى الله وحـــده ·

ومن مقاصد الاسلام فى الحج اسداء المنفعة الى اهل الحرم استجابة لدعوة ابيـــنا ابراهيم عليه الســلام ·

(ربنــا انى اسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم ، ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل افئدة من الناس تهـــوى اليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون) ·
والصدقة فى الحرم المكى تعادل فى الاجر مائة ألف صدقة وفى الحرم المدنى ألف صدقة ·

ومن مقاصد الاسلام فى الحج تدريب العبد على الاخلاق الفاضلة والآداب الاسلامية السامية ، لان الرفث والفسوق والجدال يخالف تلك الخصال ، ولقد ادب الله تعالى عباده وعلمهم مكارم الاخلاق اثناء تأدية الفريضة ، فمن الجدير بالحاج ان يتدرب عـــلى هذه المكارم واجتناب الرذائل ويكون هذا سمته فى حياته بعد ذلك اذا رجع الى وطنه ·

ولو استرسلنا فى تعداد مقاصد الشريعة السمحاء فى الحج لطال المدى فى الكـلام ولضاق الوقت عن ذلك ، ولننطلق الآن الى الشطر الثانى من الكلمة وهو الطريقة التى يؤدى الحج بها اليـــوم ·

لقد مررت مع تجارب كثيرة فى مواسم الحج فى السنين الاخيرة ووجدت نفسى مضطرا لان اجعل منها موضوعا يطرح فى مجتمعنا هذا للبحث والتشاور لعلنا نخرج برأى مجمع عليه يخفف على الناس بعض المشقة والعناء ·

فالحج كما نعلم فريضة محكمة وركن قويم من اركان الاسلام افترضه الله تعالى على عباده سنة ست بعد الهجرة على ارجح الاقوال لدى جمهور العلماء · ومنذ فرضت هذه الفريضة والمسلمون يؤدونها فى كل عام · فتقبل وفـــود الحجيج ضيوفا على الرحمن يرجون رحتمه ، ويطلبون عفوه ومغفرته ·

واليوم ومع التقدم العلمى الذى شهدته البشرية فى السنين الاخيرة ، خصوصا فى مضمار المواصلات البرية والمائية والجوية تزيد اعداد وفود الحجيج عاما بعد عام حتى ان الحرم رغم التوسعات المشهودة التى لم تنقطع فيه منذ اكثر من عشرين عاما ، بدأ يضيق بوافديه ، واصبح الحجاج يجدون متاعب ومصاعب شتى فى اداء مناسكهم لكثرة الازدحام ولعدم التزام الحجاج بالنظام الاسلامى فى كل المراحل الامر الذى يجعل الناس فى حرج شديد قد تذهب معه حكمة الانصراف الوجدانى للعبادة ، والخلوص الروحى لها ، عندما يجد الناس انفسهم وقد ضاقت وأصبحوا يبحثون عن ملاذ يلوذون به من شدة الزحام حتى يمكنهم ان ينصرفوا بوجدانهم كليا للدعاء الى الله ·

اننى ـ ايها الاخوة ـ عندما اجعل من هذا لموضوع ميدانا للبحث لارجو ـ مـــع الاحتفاظ بالمبادىء الرئيسية فى اداء المناسك ـ ان نتذكر قول الرسول صلى الله عليه وسلم « ان هذا الدين يسر » ومن اولى الامور التى ينبغى ان نعمل لها الآن تيسير أمور حجاج بيت الله الحرام وهذا التيسير ينقسم الى قسمين ، اولهما ايجاد التسهيل اللازم فى المشاعر المقدسة وقد أعطى لهذا القسم حقا وافيا من الحكـــومة السعودية فما من صعوبة تشاهدها فى عامك الا وتجدها مسهلة فى العام القادم وهى تسير على الطريق لايجاد التسهيلات لوفود بيت الله الحرام بجد دائب ، نسأل الله ان يبارك فى جهـودها المتواصلة وان يتغمد عاملها الراحل بواسع رحمته ورضوانه ويأخذ بيـــد خلفائه الى كل خـــير ·

وحج البيت فى الزمن السابق لم يكن مشكلة أبدا ولم يكن كما نراه اليوم ، بل انه منذ عشرين سنة لم يكن كما نشاهده فى السنين الثلاث الاخيرة ، فالاعداد ـ والحمد لله ـ تتزايد ويضيق بها الحرم وسائر المشاعر الاخرى .

لذلك فاننى اعرض على بساط البحث امورا آمل دراستها دراسة وافية ، ولان يتقدم من يريد من الاخوة باقتراحات أخرى ويعدل فيها حسب ما يرى وليس لنا جميعا سوى هدف واحد هو البحث عن طريق سليم يوصلنا لحج مبرور هدفنا فيه التخفيف من ازعاج حجاج بيت الله الحرام « **ان أريد الا الاصلاح ما استطعت وما توفيقى الا بالله عليه توكلت واليه انيب** » .

وقبل ان اقدم الاقتراحات كحلول للمشاكل التى تواجه الحجاج ، احب ان أوضح منذ البداية اننى ضد أى رأى لتقنين الحج أو تحديد عدد الحجاج من البلاد الاسلامية المختلفة ، بل اننا اذا سلكنا طريقا علميا فى حل هذه المشاكل لن نكون بحاجة أبدا لمثل هذا التحديد ان شاء الله .

اما الاقتراحات التى أتقدم بها اليكم فتتلخص فى النقاط التالية :

اولا :

برامج التعليم الدينى فى البلاد الاسلامية :

سرت فى المجتمعات الاسلامية فى السنين الاخيرة كلمات جوفاء عن التطور مسرى النار فى الهشيم ، واصبح مفهوم هذه الكلمة يعنى البعد السريع عن الدين لانه رمز ـ فى نظرهم المريض ـ للتاخر ، فهل لى ان أوصى بتقوية البرامج الدينية واعادة النظر فيها فى البلاد الاسلامية بحيث تكون اركان الاسلام الخمسة تحت الدراسة والبحث فى مختلف المراحل التعليمية .

اننا لو نجحنا فى اقرار هذه التوصية فسنكون قد وضعنا لبنة قوية فى بناء الاجيال القادمة لامتنا . وسيكون لمناسك الحج حظ وافر فى هذا الميدان كما يكون لباقى اركان الاسلام .

ثـــانيــا :

الاعـلام الاسلامى قبل موسـم الحـــج :

أرى انه من الضرورة ان ينشط الاعلام الاسلامى فى الفترة التى تلى شهر رمضان المبارك مباشرة كاعداد لموسم الحج وذلك عن طريق وزارات الاوقاف والشؤون الاسلامية فى مختلف البلدان لتوجيه الذين يرغبون فى اداء فريضة الحج الوجهة الصحيحة عن طريق وسائل الاعلام المختلفة المقروءة والمسموعة والمرئية ويعرفونهم بالامور التى تيسر طريق الحاج وتحفظ له جهده من الضياع ومن أهمها :

1 ـ المحافظة على النظافة ، سواء منها البدن أو المكان أو المظهر العام ، فكثيرا مـا نرى العوام من الحجاج يقضون حاجاتهم فى الشـــوارع العامة ويلقون بالفضلات فى الطرقات عند الحرم علما بان الحكومة السعودية قد بنت وتكلفت كثيرا جدا فى عمـــل دورات مياه كافية بجوار الحرم ووضع أوعية للفضلات فعمل مثل هذا من عوام الحجاج يعطى مظهرا غير مناسب على المكان وقدسيته فى نفوس رواده من وفود الرحمن .

2 ـ ان يحرص الحاج على أداء نسكه كاملة ، وذلك بان يضع نصب عينيه دائما قول الله تعالى : (فلا رفث ولا فسوق ولا جدال فى الحج) وليحرص الاعـــلام الاسلامى باجهزته المختلفة على تذكيره بان يكون الحاج طيلة ايام اقامته فى المناسك بعيدا عن اللغو والجدل ، ذاكرا الله فى كل آونة محافظا على اداء نسكه على الوجه الاكمل قارئا للقرآن الكريم مذكرا اخوانه ممن يجهلون امور نسكهم محافظا على النظام وروعة المشهد وان لا يكون عاملا من عوامل الشغب وداعية للفتنة ، فان مثل هذه الايام المباركة ينبغى على كل مؤمن ان يقضيها فى العبادة والتوجه الى الله بكل جوارحه ، والانصراف عن هموم الدنيا ومشاغلها . متسما بالصفح والعفو عمن تجاوز الحد عليه ، وان يكون واسع الصدر رحب القلب ليستكمل ثواب حجه .

3 ـ الزحام : الزحام أمر لا بد منه عند أداء نسك الحج، سواء فى الطواف أو السعى و رمى الجمار .. الى غير ذلك من الافعال التى يؤديها الحاج ... وانما ينبغى ان ننبه الحجاج الى مراعاة مكارم الاخلاق واحسن الفضائل فى مثل هذا الموقف العظيم وقد ورد ان النبى صلى الله عليه وسلم قال لعمر رضى الله عنه وقد كان يزاحم على الحجر (يا أبا

حفص ، انك رجل قوى ، فلا تزاحم على الركن فانك تؤذى الضعيف ولكن ان وجـدت خلوة فاستلم ، والا فكبر وامض) ·

لمثل هذه المكارم والفضائل ينبغى ان ينبه ضيوف الرحمن ، خصوصا العوام منهم الذين يتقاتلون فى هذه المواقف ، فيضيع عملهم ويفسد حجهم ·

4 ـ المحافظة على الصحة العامة ، وذلك بتنبيه الحجاج الى ضرورة اتباع قواعد الصحة العامة منذ ان يعقدوا نيتهم على المضى لاداء الفريضة فيحصنوا انفسهم ضـد الامراض المعدية قبل ان يغادروا بلادهم بالوسائل المعروفة كما ينبغى ، وأن ينبهوا الى الحـــذر دائما فى حلهم وترحالهم بالبعد عن مصادر الامراض وان يكونوا على صلة تامة ودائمـة بالبعثات والهيئات الطبية فى الحرمين الشريفين فى كل ما يلم بهم من آلام وأمراض ·

5 ـ **الفتيا بشأن الحج والمناسك فى الحرمين** : كثيرا ما يقع الحجاج فى المحظور اثناء الحج أو العمرة فيلجأ العوام منهم الى استفتاء اقرب الناس اليهم وقد يكون هذا المسؤول مطوفا أو عاملا عند المطوف وكثيرا ما لا يردون سائلا خصوصا اذا كان الامر يتعلق بفدى فنجد الجواب فى كثير من الحالات غير مناسب للاصول الشرعية ، لذلك ينبغى ان تقام ندوات فى الاذاعة والتلفزيون فى البلاد الاسلامية ، ينبه فيها الحجاج دائما الى المحظورات التى كثيرا ما تقع واذا عن لهم سؤال اثناء الحج أو العمرة فليكن المسؤول عنه أحد الذين يتعرضون للفتيا داخل أحد الحرمين الشريفين وهم كثيرون ·

ثالثا : الاعلام الاسلامى على مدار السنة :

وهذه هى النقطة الهامة التى ارجو ان ألفت لها الانظار وتتلخص فى اننى أرى ان توجه انظار المسلمين فى مشارق الارض ومغاربها ، وعوامهم وخواصهم ، الى حقيقة دينية ثابتة ألا وهى أن الحج يجب مرة واحدة فى العمر الا بنذر ينذره المسلم ، فيجب الوفاء بالنذر وما زاد عن ذلك فهو تطـــوع ·

فعن أبى هريرة قال : خطبنا رسول الله عليه الصلاة والسلام فقال : « يا ايها الناس ان الله كتب عليكم الحج فحجوا ، فقال رجل ، أفى كل عام يا رسول الله ؟ فسكت حتى قالها ثلاثا ، ثم قال صلى الله عليه وسلم : لو قلت نعم لوجبت ولما استطعتم ، ثم قال :

« ذرونى ما تركتكم ، فانما أهلك من كان قبلكم كثرة سؤالهم واختلافهم على انبيائهم فاذا امرتكم بشيء فاتوا منه ما استطعتم واذا نهيتكم عن شيء فدعوه » ٠

وفى حديث آخر عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : « خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا ايها الناس كتب عليكم الحج » فقال الاقرع بن حابس أفى كل عام يا رسول الله ؟ فقال « لو قلتها لوجبت ، ولو وجبت لم تعملوا بها ، ولم تستطيعوا ، الحج مرة فمن زاد فهو تطوع » ٠ من هذا يتبين لنا انه لا يجوز للمسلم ان يحمل نفسه فوق طاقتها بتكرار الحج ، بل عليه ان يترك الفرصة لاخوانه الذين لم يؤدوا الفريضة لكى يؤدوها باطمئنان ويسر ٠

كما أريد أن أنبه الى حقيقة مكملة للحقيقة الاولى الا وهى ان الحج واجب على الفور وقت الاستطاعة ولا مانع من تأخيره لمعذرة ، فيؤديه المسلم وقت ما يستطيع بعد ذلك ، ولنا فى رسول الله صلى الله عليه وسلم أسوة حسنة ، فقد أخر صلى الله عليه وسلم الحج الى السنة العاشرة من الهجرة ، مع ان وجوبه كان سنة ست ، فلو كان واجبا على الفور لما أخره النبى صلى الله عليه وسلم ، كما أنه يستحب تعجيله والمبادرة به متى استطاع المكلف أداءه فى أول فرصة ٠

من هذا المنطلق ألفت الانظار الى المسلمين الذين يحجون كل عام وكأنما الحج فريضة سنوية عليهم أن يؤدوها ، لذلك أرى ان ينبه المسلمون الى حقائق الدين وأصوله وان كان هناك فضل من مال لدى هؤلاء فليكن صدقات تقدم لمن هم بحاجة اليها فى أوطانهم وهم كثيرون للاسف الشديد فى البلاد الاسلامية وان كان ولابد فلنلفت انظار هؤلاء الى فضل العمرة للتوجه اليها فى غير موسم الحج تخفيفا عن الناس فى الموسم ، وقد وردت فى العمرة احاديث شتى ٠

فعن ابن عباس رضى الله عنهما ان النبى صلى الله عليه وسلم قال : « عمرة فى رمضان تعدل حجة » ٠

وعن أبى هريرة رضى الله عنه ان النبى صلى الله عليه وسلم قال : « العمرة الى العمرة كفارة لما بينهما » ٠

وقد ورد فى الاثر ان العمرة كان يؤديها الصحابة اكثر من مرة فى العام ، فقد قال نافع : اعتمر عبد الله بن عمر رضى عنهما أعوانا فى عهد ابن الزبير، عمرتين فى كل عام ٠

وقال القاسم : ان عائشة رضى الله عنها اعتمرت فى سنة ثلاث مرات ٠

كما انه يجوز للمعتمر أن يعتمر فى أشهر الحج من غير أن يحج ، فقد اعتمر عمر رضى الله عنه فى شوال ، ورجع الى المدينة دون أن يحج ٠

وقد ورد عن ابن عباس رضى الله عنهما ان النبى صلى الله عليه وسلم اعتمر أربع عمر هى :

- عمرة الحديبية ٠
- وعمرة القضاء ٠
- والثالثة من الجعرانة ٠
- والرابعة مع حجته ٠

أيها الاخوة الافاضل :

من هذا المنطلق نريد ان ننبه المسلمين فى مشارق الارض ومغاربها الى فضل العمرة وانها مرغوب فيها بعد حجة الاسلام ٠ وان نية المرء خير من عمله فكم من حاج يتكبد المشاق ولعله لا يستحضر الاخلاص فى عمله ويكون خيرا منه مسلم تخلف لعذر أو عسر من ان يدرك الحج ٠ ومن أحسن ما قيل :

يا راحلين الى البيت العتيق لقد سرتم جسوما وسرنا نحن أرواحا
انا أقمنا على عذر وقد رحلوا ومن أقام على عذر كمن راحا .

والقادمون الى البيت الحرام يزدادون لدرجة تهدد بالخطر ، فبدل ان ينصرف المرء الى ربه يدعوه وهو فى نسكه ، يكون همه الاول والاخير هو المحافظة على حياته من شدة الازدحام الذى تزهق فيه كثير من النفوس ٠

وديننا ولله الحمد دين الفطرة ، ودين اليسر ولا يمكن ابدا ان يحضنا على السكوت على هذه الحالة بل يوجب علينا ان نحافظ على سلامة أبداننا وان نبحث عن مخرج لما

يعترينا من امر وهذه حالة تستدعى ان نتضافر جميعا بالرأى وان نتداول الفـــكر لما فيه صالح الاسلام والمسلمين ، فادعوكم جميعا ـ أيها الاخوة الاعزاء ـ لتخصيص ملتقى آخر للبحث فى الحج ، وليدل كل منكم بدلوه فى هــذا المضمار • ولا اظننى قد اكملت البحث أو وفيته حقه ، بل من ضم آرائكم النيرة الى رأيى المتواضع ، وفى تداول الرأى والفكر الخير والبركة وفى الشورى المنهج السليم لمن اراد ان يسلك سبل الرشاد •

هذا وآمل أن أكون باقتراحى هذا قد فتحت بابا للخير فى توجيه الانظار الى فريضة الحج المحكمة حتى يفقهها الناس فقههم للصلاة والصيام وباقى الاركان الاخرى •

واكرر رجائى بأن تضعوا جهودكم القوية الى جهدى المحدود وعلمكم الغزير الى علمى المتواضع وأن تتضافر جهودنا وقوانا حتى نؤدى بعض ماعلينا تجاه النصيحة والتوجيه لاخـــواننا •

والله أسأل ان يبارك فى مجتمعنا هذا وان يجعل عملنا خالصا له ومتقبلا منه وان يثيبنا عليه ، يوم لا ينفع مال ولا بنون الا من اتى الله بقلب سليم •

وفى الختام أشكر الحكومة الجزائرية وعلى الاخص وزارة التعليم الاصـــلى والشؤون الدينية على اتاحة هذه الفرصة لنا فى هذا الملتقى ، واسأل الله ان يحقق لنا الآمال وأن يهدينا الى سبيل الرشاد •

وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه •

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته •

رأى الاستاذ أحمد محمد جمال
فى تعويض الهدي نقدا

اجرى مندوب وكالة الانباء الجزائرية حديثا مع الاستاذ أحمد محمد جمال الاستاذ بجامعة الملك عبد العزيز بجدة حول الطريق التى يؤدى بها الحج والتى كانت قد اغفلت من طرف المحاضرين وحاموا حولها دون أن يمسوا لب القضية ، وحول سؤال يتعلق بهذه النقطة ، أجاب الاستاذ احمد محمد جمال قائلا : بان المسلمين لا يؤدون فريضة الحج كما ينبغى أن تؤدى من حيث الانتفاع بها فى معاونة اخوانهم الحجاج والتعاون معهم على قضاء حاجاتهم وحل مشكلاتهم حتى يحققوا الاخوة الاسلامية التى فرضها الحج كوسيلة من وسائل تقوية هذه الاخوة وتعزيزها .

واجاب السيد أحمد محمد جمال عن سؤال يتعلق بمهمة المطوفين ، وهل يؤدونها كما ينبغى فى خدمة الحجاج ، فاوضح بان كثيرا من المطوفين وهذا حق نعترف به لا يؤدون واجبهم كما ينبغى ، الى جانب ذلك هناك كثير من الحجاج لا يستفيدون بما ينصحون به فى هذا الشان ، لهذا اقول بان على وزارات الشؤون الدينية فى العالم الاسلامى أن تقوم بتوعية حجاجها بكل ما يلزم لاداء الحج من وسائل وأدوات ونفقات ، اما قضية الهدى والمشاكل الناتجة المختلفة على الآلاف المؤلفة من الانعام التى تذبح كل عام وتذهب سدى بدون فائدة ، فان هذه القضية أيضا لم يتطرق اليها المحاضرون رغم انها من المشاكل التى كان من المفروض أن يركز عليها الملتقون ولو أنها لم تطرح فى المناقشة لاهملت تماما .

وحول سؤال يتعلق بهذه النقطة أكد الاستاذ أحمد محمد جمال بانه من الملاحظ بان معظم ما يذبح من هدى فى (منى) يذهب سدى لا يستفيد منه الحاج نفسه والفقراء والمساكين وذلك خلافا للاهداف التى يرمى اليها الاسلام من الهدى حين شرعه فى الحج ولذلك طرحت أفكار ونظريات ومقترحات كثيرة لعلاج هذا الوضع الشيء الذى يشوه سمعة الاسلام والمسلمين وكان أحسنها فى نظرى (يقول الاستاذ أحمد محمد جمال) هو أن يسمح للحجاج بذبح هداياهم فى مكة قبل الصعود الى عرفات لياكلوا منها ويطعموا الجائع والفقير ، كما وجه لذلك القرآن الكريم يذبح فى ـ منى ـ القدر الذى يستفاد منه أكلا وطعما اذا كان هناك عدد من الهدى يزيد عن الحاجة فى أيام ـ منى ـ يؤجل الى ما بعدها ويذبح فى مكة المكرمة أيضا .

وبذلك تتوزع عملية الذبح من أول موسم الحج الى آخره ولا يكون ثمة ضياع لهذه الثروة من الهدى والأضحيات وبذلك نحقق فى الوقت نفسه الهدف الذى رمى اليه الشارع الحكيم ، ويقول الاستاذ احمد محمد جمال انه فى حالة استكمال ذلك مع عدم وجود من يستفيد من هذه الذبائح فانه يمكن فى نظرنا ان يصدقه الحاج بثمن هديته أو ضحيته نقدا .

ومن هنا نرى أن الاستاذ أحمد محمد جمال يتفق مع الفتوى التى صدرت مؤخرا عن وزارة التعليم الاصلى والشؤون الدينية الجزائرية والتى أجازت تعويض الهدى نقدا والاختلاف الشكلى الذى يشيره الاستاذ أحمد محمد جمال هو البدء بتطبيق رأيه السابق فان لم ينجح فلا مانع من تعويض الهدى نقدا.

الحج
المؤتمر الإسلامي الكبير

أحمد محمد جمال
أستاذ الثقافة الاسلامية بجامعة
الملك عبد العزيز (جدة)



بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الاخوة الاحباء ...

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، وأحمد الله اليكم ، وأصلي وأسلم معكم على نبينا سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن تبعهم باحسان الى يوم الدين .

وبعد : فالحديث عن (الحج) بعده ركنا من اركان الاسلام الخمسة ، ولان المسلمين يفدون من أقطار الدنيا كل عام الى بيت الله الحرام « بمكة المكرمة » حجاجا وعمارا ‥ طاعة لله فيما فرض عليهم ، والتماسا لمثوبته وأجره ، وطمعا فى بركات هذه الفريضة العبادية ورحماتها ـ الحديث عن (الحج) على هذا الاعتبار : مهم وضرورى ، لان أكثر المسلمين ـ بما فى ذلك قادتهم وسادتهم ، وعلماؤهم وكبراؤهم ـ لا ينتفعون من أدائهم وأداء شعوبهم وأممهم واتباعهم لهذه الفريضة العبادية السنوية : الانتفاع الاساسى الذى قصد اليه الشارع الحكيم من وراء الالزام بالحج ؟

ولابد ـ فى البداية ـ من تمهيد بحديث وجيز عن (الحج) كمؤتمر اسلامى سنوى ، مع الاعتراف المطلق بانه طاعة محضة ، وعبادة خالصة ، وذكر لله تبارك وتعالى ، بكيفيات مخصوصة ، فى أيام معدودات ٠

هذا التمهيد نذكر فيه حوارا أو خلافا بين بعض العلماء والمفكرين العصريين ‥ حول الانتفاع بفرصة (الحج) لتحقيق وحدة المسلمين ، وجمع كلمتهم ، وحل مشكلاتهم والتعاون فيما بينهم على الحق والخير والسلام ٠

كانت هناك ـ قبل خمسة أعوام تقريبا ـ ندوة تلفازية اجتمع فيها بعض العلماء والمفكرين ليتحدثوا عن (الحج) وحكمته ، أو فلسفته بالتعبير العصرى ٠

واساء فهم الحوار الدائر بين المتحدثين بعض الادباء الذين استمعوا الى الندوة ، فكتب اعتراضا فى بعض الصحف يقول :

« ان الخلاف بين المتحاورين جذرى ‥ فأحدهم يرى ان (الحج) عبادة وليس مؤتمرا أى انه عبادة روحية وبدنية ، يشتغل الحاج فيها بالدعاء والتنقل بين المشاعر ، وذكر الله ، وتلاوة القرآن ، والصلاة ، والطواف ، والسعى ، ورمى الجمار ـ الخ ‥٠

والآخر يرى ان (الحج) مؤتمر اسلامى بكل ما تحمله كلمة مؤتمر من المعانى ‥ انتهازا للوجود الاسلامى المتكاثر فى الحجاج على الايخل ذلك باعمال الحج ‥

ثم يعقب المعترض على وجهتى النظر المختلفتين ـ فى نظره ـ بقوله : ولو أننا تساهلنا فسمينا العبادات بغير اسمائها الحقيقية ‥ بالمصطلحات التى تطلق فى البيئات السياسية أو الاجتماعية لادى هذا التساهل الى ان تترسب هذه المعانى

الطائرة ، فتترسب معها على مر الزمن مقاصد أخرى تنزع عن العبادات روح القداسة الالهية ، وتنحرف بها الى أغراض أخرى ، والمسالة ليست كما فهمها صاحبنا المعترض. فالقول بان (الحج) عبادة محضة خطأ – كما ان الزعم بانه مؤتمر اسلامى محض خطأ أيضـــا ..

وانما القول الصائب : ان نفهم (الحـج) وسائر الفرائض الاخرى كالصـــلاة ، والصيام ، والزكاة على انها (عبادات) قصد الشارع من وراء الالزام بها الى (مصالح) اخلاقية واجتماعية واقتصادية وسياسية .

وعامة المسلمين – مع هذا الفهم المطلوب من سادتهم وكبرائهم وعلمائهم – ملزومون بالخضوع والتسليم باداء هذه الفرائض ... ولو لم يدركوا ما وراءها مـــن مقاصد ومصالح ، قد تتحقق لهم دون أن يريدوها أو دون أن يشعروا بها .

والقول : بأن (الحج) مؤتمر اسلامى لا ينفى عنه انه عبادة وطاعة واعمال خاصة .. تؤدى بخضوع وخشوع ، ورجاء فى رحمة الله وثوابه تماما كالصـــلاة ، والصـــوم والزكـــاة ..

وزيادة فى البيان نقول : ان للعبادات فى الاسلام – كما للمعاملات والعقوبات – مقاصد تهدف الى مصالح ، وتدعو الى مكرمات ، واذا كنا نذعن باداء (الحـج) كعبادة وطاعة وذكر لله بكيفية مخصوصة فى أيام معدودات ، يجب فى الوقت نفسه أن ننتفع بمقاصده ومصالحه ومكارمه والقرآن الكريم صريح فى التنبيه الى (الانتفاع) بفرصـة (الحج) مع التعبد المفروض اساسا وابتداءا على المسلمين .

يقول تبارك وتعالى – فى سورة الحج – : « وأذن فى الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق .. ليشهدوا منافع لهم ، ويذكروا اسم الله فى أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الانعام » والمنـــافع – وان فسرها بعض المفسرين أو معظمهم بالاعمال التجارية – الا انها تتسع لمعان وأبعاد ومجالات متعددة ، فكل أمر أو عمل أو سلوك تتحقق به منفعة لجماعة المسلمين .. دينية أو اقتصادية أو اجتماعية أو سياسية .. فذلك من (منافع) الحج لا ريب فيه . وليلاحظ صاحبنا المعترض ان كلمة (منافع) جاء بها القرآن الكريم نكرة وجمعا فى وقت واحد .. لتكون عامـــة

شاملة لكل المصالح الاسلامية المحققة التى لا غبار على كونها منافع خالصة من كل الشوائب والاكدار ·

وعلى هذا الاساس من الفهم الصحيح لمعنى العبادة الزاما ومقصدا ـ قلنا ان على المسلمين وبخاصة قادتهم وسادتهم وكبراءهم وعلماءهم ، ان ينتهزوا فرصة (الحج) ليجعلوا منها بعد ان يفرغوا من اعماله العبادية : مؤتمرا اسلاميا يتعارفون خلاله ويتعاونون على حل مشكلاتهم ، وقضاء حاجاتهم والفصل بين المتخاصمين من حكوماتهم وشعوبهم ، وبذل المساعدات المادية والثقافية لمن يفتقر اليها منهم ·· حتى يكونوا كما وصف القرآن الكريم سلفهم الصالح : « ان هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون » · وكما قال عنهم فى آية أخرى أيضا : « كنتم خير امة أخرجت للناس ·· تامرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله » ·

وليس (الحج) وحده هو المؤتمر الاسلامى الوحيد الذى نبه اليه الشارع الحكيم ·· بل هناك مؤتمرات اسلامية أخرى ، ولكنها محدودة : بكل بلد اسلامى ، أو مدينة ، أو قرية أو حى ـ فصلاة الجماعة مؤتمر ، وصلاة الجمعة مؤتمر أكبر من الاول ، وصلاة العيدين مؤتمر أكبر من الثانى ـ و (الحج) أكبرها جميعا ـ وكلها مؤتمرات لصالح الجماعة الاسلامية ، وتحقيق منافعها ، والتعرف على مشكلاتها أو حاجاتها ، والتعاون على البر والتقوى فيما بين أفرادها وأسرها ·

فالاسلام ـ اذن ـ دين المقاصد والمصالح والمكارم التى يجب أن تتحقق لاتباعه ، وليس دين العبادات المجردة من الاهداف والغايات ولا هو ـ كذلك ـ دين الطقوس والشكوك والتراتيل ·

أما اعتراض صاحبنا ·· من حيث الاصطلاح اللغوى فى اطلاق لفظة (مؤتمر) على اجتماع المسلمين فى (الحج) ·· لانه لفظ مصطلح عليه فى البيئات السياسية والاجتماعية وغيرها ، ويخشى أن تترسب مع مرور الزمان مقاصد أخرى للمعنى العبادى (للحج) فى أذهان المسلمين نتيجة لاطلاق هذا المصطلح : (مؤتمر) ·· أما هذا الاعتراض ، فغير وارد ، لاننا لم نسم (الحج) مؤتمرا اسلاميا ، وانما وصفناه بانه « مؤتمر » ·· فهو اطلاق وصف لازم للحج ، كما نقول : الصلاة رياضة روحية ،

والصوم رياضة بدنية · أو نقول : ان المسجد مدرسة لما يكون فيه من وعاظ ومعلمين يعظون الناس ويعلمونهم أمور دينهم عقب الصلوات · أو نقول : ان المدرسة مسجد لان طلب العلم عبادة ، كما ثبت ذلك فى بعض الاحاديث والآثار ·

فكل ذلك جائز لانها أوصاف لازمة · ولا يقصد بها اطـــلاق شعارات جديدة أو مستوردة على العبادات الاسلامية ، كما توهم صاحبنا المعترض ·

لقد أطلق على الصلاة ـ فى بعض الاحاديث النبوية ـ بأنها : (عماد الدين ، وعـلى الصوم : بأنه (جنة) وعلى الجهاد : بأنه (رهبانية) الامة الاسلامية ، وعلى الحج : بانه (جهاد) لا شوكة فيه · ثم ان لفظة (مؤتمر) ليست شعارا غريبا مستوردا كما ظن أخونا المعترض · فهى عربية أصلا واصطلاحا ، وقد غلـب (الائتمار) فى الاصطـلاح السياسى على الاجتماع من تدبير الامر الطيب ، وغلب (التآمر) على الاجتماع من اجل تدبير امر خبيث ·· مع أن القرآن الكريم أورد اللفظ الاول فى المعنى الاخير فى قوله عز وجل : « ان الملاء يأتمرون بك ليقتلوك » ·

والاصطلاح اللغوى ـ على كل حال ـ يجيز التعبير باللفظتين معا عن تبادل الامر بين المجتمعين بالمعروف فنقول : تآمروا بالمعروف أو ائتمروا به ، ومثله تناهوا عن المنكر ··

ويلاحظ ان كلمة « مؤتمر » ليست شعارا دينويا كما توهم صاحبنا المعترض ولو أطلقت أحيانا على الاجتماعات غير الدينية ، فانها استعملت كذلك للاجتماعات الدينية أيضا ·· اسلامية كانت أم مسيحية أم يهودية ··

فهى اسم قابل للاوصاف المتناقضة مثل « معركة ـ وميدان ـ ونادى ـ وسبيل ـ وندوة الخ » فنقول معركة خير أو شر ، وميدان سباق شريف او دنىء ، وسبيل الرحمن أو سبيل الشيطان · وورد فى القرآن الكريم قول لوط عليه السلام لقومه : (وتأتون فى ناديكم المنكر) وعرفت دار الندوة فى الجاهلية قبل بعثة الرسول صـلى الله عليه وسلم وبعدها بالتآمر عليه من أعداء الاسلام · واذا كان (النادى) جاء فى القرآن الكريم موصفا بأتيان المنكر فيه ·· فهل نمنع استخدام اللفظ كاسم على التجمعات الرياضية والثقافية ؟ أم هل نمنع استعمال لفظة (الندوة) فى المحاورات الفكرية والادبية فى

الاذاعة أو التفاز أو المواسم الثقافية ٠٠ لان الندوة كانت أول اجتماع لاعداء الاسلام للتآمر عليه والكيد له ؟

ان الالفاظ والكلمات أوعية لما يراد بها من معان مع ما يضاف اليها من قرينة لفظية أو حالية والعبرة أولا بالمقاصد ثم بغلبة الاستعمال على مقصد دون آخر ٠

واذن ـ كما أسلفنا ـ يكون اطلاق (مؤتمر اسلامى) على الحج صحيحا دينيا ولغويا ٠

الحـــج كما يتحـدث عنـه القـــرآن الـــكريم

والآن نبدأ الكلام عن الحج : حكمته واسراره ، ومنافعه وآثاره ٠٠ كما يتحدث عنها القرآن الـــكريم ٠٠٠

الحج : هذا الركن الخامس من أركان الاسلام ـ ماذا يرى فى تشريعه الملاحدة ؟ وماذا يرى المؤمنون ؟ اما الملاحدة فانهم لا يرون فى الحج الا تجريدا للثياب ـ وهـو بزعمهم يناقض الحياء ـ والا سعيا بين الصفا والمروة ـ وهو بزعمهم يخالف الوقار ـ والا رميا للجمار لغير مرمى ـ وهو بزعمهم سخرية بالعقول ! ! ولو انهم فقهوا لافعال الحـــج حكمتها أو عرفوا ثمرتها لكان لهم ازاء فلسفة الحج ايمان واجلال ٠

ان فى طليعة ما يستهدفه الاسلام مما شرعه للناس من عبادات ، تاليف جماعتهم ، وتقويتها عن طريق هذا التأليف ، فصلاة الجماعة تتحطم فى روحيتها فوارق الحيـاة الدنيا ، حيث تتساوى رؤوس المصلين ، وتتقارب مناكبهم ، وتتحد صفوفهم ، على ما بينهم من اغنياء وفقراء ، وسادة وعامة ، والامام فيهم كقائد جيش تلتزمون حركاته وسكناته ٠

وفى الحج ومناسكه مثل ذلك ، بل أكثر : فيه تقريب للابعاد ، وتاليف للاضداد ، من شتى البلاد ! وفيه درس ورياضة على الصبر واحتمال المشاق ! وفيه مغفرة وتوبة بعد ندم على الخطأ والزلل ! وفيه فوق ذلك كله فرصة للائتمار والشورى بين المسلمين فى مصالحهم ، وتوثيق روابطهم ، وجمع كلمتهم وجهودهم ، واحباط مكائد أعدائهم ! ٠

وهذه هى المنافع التى يشير اليها القرآن الكريم :

« واذن فى الناس بالحج ٠٠ ياتوك رجالا ، وعلى كل ضامر ياتين من كل فج عميق ليشهدوا منافع لهم ، ويذكروا اسم الله فى أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الانعام ، فكلوا منها واطعموا البائس الفقير ثم ليقضوا تفثهم ، وليوفوا نذورهم ، وليطوفوا بالبيت العتيق ٠ ذلك ومن يعظم حرمات الله فهو خير له عند ربه ٠ » (الحج : 27 ـ 30) ٠

فى هذه الآية يتفضل الله سبحانه وتعالى باستيفاد عباده المؤمنين الى بيته ، الاول اقامة ووضعا ، والاول حرمة ، ومثابة وامنا ، ليحضروا منافع لهم ـ لا منافع له ـ فلن ينال الله سبحانه من هداياهم وضحاياهم لحوم ولا دماء ، ولا يناله من صدقاتهم ونفقاتهم غداء ولا سقاء ، ولا تدركه تبارك وتعالى من طوافهم وسعيهم وجمراتهم ووقفاتهم وافاضاتهم فائدة ولا عائدة ! وانما ينالهم وحدهم ـ ان صدقوا النية واحسنوا التأدية ـ خير كثير ٠

وهذا الخير ـ فى رأيى ـ هو خلوص قلوبهم من علاقتهم بمادة الارض وحنينها عشية عرفات الى نفحات السماء ، وهو كذلك تعارفهم وتآلفهم ، خلال ما بقى من أيام المنسك ، وتفاهمهم على مصالحهم المشتركة ، وتآزرهم على تحقيق الجامعة الاسلامية ، بهداية القرآن وحماية السلطان ٠

ويقول القرآن الكريم :

«فاذا قضيتم مناسككم فاذكروا الله كذكركم آباءكم أو أشد ذكرا ٠٠» (البقرة 200)٠

فى هذه الآية توجيه رشيد الى (الجماعية) الدينية الشاملة ، حيث يكون ذكر الله وتدبر آياته وتتبع تشريعاته : أجمع لقلوب الحجاج وكلمتهم على أمر واحد ، فى سبيل واحدة ، الى غاية مشتركة ٠ ولا كذلك ذكر الآباء والاجداد ، كما كانت الجاهلية الاولى تفعل ـ تمدح عصبى ، وافتخار قبلى ينفثان سموم الكبرياء والبغضاء والتفريق ٠

ويقول القرآن الكريم :

« الحج أشهر معلومات ، فمن فرض فيهن الحج فلا رفث ولا فسوق ولا جدال فى الحج ٠٠ » (البقرة 197) ٠

فى هذه الآية توجيه خلقى الى ما للحج من قدسية ، ينبغى للحجاج أن يقدروها حق قدرها وأن يرعوها واجب رعايتها ، فيصدفوا عن نوازع الشهوة ، ودوافع الخصام ·· عسى أن يكون ثمرة ذلك محبة وألفة بين هؤلاء الاخوة المتساوين فى انسانيتهم والمتساوين فى دينونتهم لاله واحد أحد ، دعاهم جميعا دعوة واحدة ، الى موسم واحد ، ثم عسى أن يكون من بركات هذا الموسم الالهى توبة نصوح للخاطئين منهم ـ وكلهم خطاؤون ـ من ذنب فضوح أو غير فضوح ـ توبة تطيب بعدها الحياة وتصلح وتحمد بها العقبى وتفوز ·

ويقول القرآن الكريم :

« واذ بوأنا لابراهيم مكان البيت : الا تشرك بى شيئا ، وطهر بيتى للطائفين والقائمين والركع السجود » (الحج 26) ·

فى هذه الآية تتعين الغاية الاولى من اقامة الكعبة قبلة واحدة للمسلمين فى هد أوطانهم القصوى والدنيا ، وهى التوحيد والتنزيه : توحيد المعبود سبحانه من كل شرك ، وتنزيه العبادة من شبهات النفاق والدخل والتدجيل ·

وفى هذه الآية أيضا تتعين ضرورة طهارة الحال لطهارة المحل ، وفى ذلك دعوة صريحة للانسانية للخلاص من حمأتها والعودة الى فطرتها ، لتصفو أكدارها ، وتعلو أقدارها ، مصداقا لما أثبته القرآن الكريم لها من استعداد وامداد حين قال :

« ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ، ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا » (الاسراء 70) ·

ويقول القرآن الكريم :

« ولله على الناس حج البيت من استطاع اليه سبيلا ··· » (آل عمران 97) ·

فى هذه الآية نتبين رحمة الديانة الاسلامية بأهلها ، فهى لا تكلفهم فوق ما يستطيعون ولا تحملهم ما لا يطيقون ، فالحج انما يجب على من استطاع اليه سبيلا ، من زاد وراحلة وصحة وأمان ، وما أغنى هؤلاء الذين يحجون **جياعا مشاة** ، يهلكون انفسهم ، ويتكففون الناس ، عن اعنات انفسهم وغيرهم ، فى غير موجب من قرآن ولا سلطان !

أما قول القرآن الكريم ـ فى هذه الاية نفسها : **(من كفر فان الله غنى عن العالمين)** فها هنا مفتاح فلسفة العبادات الاسلامية وفى مقدمتها الحج : فليس لله حاجة الى صلاة الناس وزكاتهم ، ولا الى صيامهم وحجهم ، وانما هم الفقراء اليه سبحانه ، وهو الغنى الحميد : **(ان تكفروا فان الله غنى عنكم ، ولا يرضى لعباده الكفر ، وان تشكروا يرضه لكم ... » (الزمر 7)** .

ثم ماذا ؟

لقد تحدث القرآن الكريم في سورة الحج عن بعض أفعاله ومقاصده : ذكر أذان ابراهيم صلى الله عليه وسلم فى الناس وبالحج ليشهدوا منافع لهم ، ويذكروا اسم الله على ما رزقهم من بهيمة الانعام ، يطعمون منها ويطعمون ، وذكر ما يجب عليهم من قضاء التفث ووفاء النذور ، والطواف بالبيت العتيق ، وذكر حرمات الله وشعائر الدين ، وان تعظيمها دليل التقوى وبشير الخير ، وذكر الشرك وأن من يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوى به الريح فى مكان سحيق ، وذكر الوثنية وقول الزور وأمر بأن يجتنبا ، وذكر الذبائح والضحايا ، وان الله سبحانه لا تهمه دماؤها المهراقة ولحومها المقسمة ، ولكن يرضيه تبارك وتعالى أن يصحبها اخلاص وتقوى .

بعد ذلك ذكر القرآن الكريم ثمرة من ثمرات الايمان المخلص الذى اشترطه فى أداء الحج آنفا ، وهى ان الله يدفع عن الذين آمنوا مكر كل خائن ، وعدوان كل كفور .

ثم قال القرآن الكريم :

« ولينصرن الله من ينصره ان الله لقوى عزيز ، الذين ان مكناهم فى الارض أقاموا الصلاة ، وآتوا الزكاة ، وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ، ولله عاقبة الامور ... » (الحج 40) .

وهنا أريد ان يقف الحاج مليا يتأمل حديث القرآن الكريم عن الحج ، وما يجب لادائه من ايمان واخلاص ، وما يكون فى ادائه من مشقة وصبر ، وما ينتظر من ادائه من مثوبة وقبول ، حيث يكمل الله نعمته على حجاج بيته ، فيصبحوا أحرياء بدفاعه عنهم ونصره اياهم .

لنتأمل استرسال القرآن الكريم بعد عرضه لاعمال الحج وغايته ، فى الكلام عن الذين آمنوا ، ودفاع الله عنهم ، ووعده الناجز : **«ولينصرن الله من ينصره»** ، ووصفه الثابت لهؤلاء الناصرين المنصورين بأنهم : (**اقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر**) .

ذلك ما أردته وقصدته ، حين أشرت فى بداية حديثى الى بركات الحج ، التى يظفر بها الحاج لنفسه وأهله وذريته وأسباب معيشته ، وحين قلت ان هناك بركات عامة يجب أن تشمل مجتمع الحاج مجتمعه الكبير من اخوانه وجيرانه وكافة مواطنيه .

أجل يجب أن تشمل بركات الحج مجتمع الحاج حين يعود اليه ـ يجب عليه ـ حين يقدم لاهله وأولاده وذوى قرباه الهدايا المادية التذكارية ـ أن يقدم لمواطنيه فى عين الوقت هدايا أخرى معنوية ، هدايا لا تكلفه أكثر من قلب ذكي ولسان طرى ، هدايا هى : دين ثابت ، وخلق كريم ومعاملة حسنة ، ونصح بالخير ، ودعوة الى البر ، وجهر بالحق، وأمر بالمعروف ونهى عن المنكر ، وبذل لمن ذات النفس ودا ، ومن ذات اليد رفدا .

هكذا يكون الحج واهب بركات ونفحات خاصة وعامة ، وكذلك يكون الحجاج بايمانهم واخلاصهم جديرين بدفاع الله عنهم ، ونصره اياهم ، حتى تنجلى حروبهم فيما بينهم ، وتيأس مطامع عدوهم فيهم .

ان الحج منسك جماعى ، فرض لصالح الجماعة الاسلامية ، لا لصالح كل حاج على انفراد ، اذ لو كان الامر كذلك لجاء إيجابه على كل فرد خلال أيام العام كله ، ولحج الناس البيت الحرام فرادى فى أى وقت شاؤوا ، ولكن الحج ـ تأكيدا لغاية الجماعية ـ قد فرض على المسلمين فى أشهر معلومات .. يتوافد خلالها الحجاج من كل فج عميق ، حتى يلتئم شملهم جميعا فى يوم واحد ـ يوم عرفة الذى هو خير الايام كما جاء فى حديث نبوى ـ فيتلاقون فى صعيد واحد .. يتعارف أبيضهم بأسودهم ، وغنيهم بفقيرهم وشرقيهم بغربيهم ـ على ما بين أقطارهم قبل أن يحجوا من ابعاد سحيقة ، واختلاف فى اللغة ونظام الحكم وتقاليد الاجتماع .

وبعد .. فاذا فرغ الحجاج من مناسك الحج وأعماله ، عليهم أن يتأملوا : هل فرغوا حقا من غاياته والتزاماته ، وهل حققوا فى أنفسهم هذه الغايات والالتزامات التى تحدثت عنها آيات القرآن الكريم ، وأحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم ؟ ثم ليسألوا الله الكريم الرحيم : أن تبقى معهم بركات الحج ونفحاته طوال عامهم ، بل طوال عمرهم ، وأن يعيد لهم أيام الحج السعيدة مرددين مع القائل ـ :

« يا حبذا الموسم من موعد وحبذا الكعبة من مشهد »

حول تعويض الذبائح
فى الحج نقدا

قرأت فى العدد (25) من مجلة الاصالة (جمادى 1 - 2 - 1395 هـ = ماى - جوان 1975 م) : (... أن العلامة الشيخ محمد البشير الابراهيمي - رحمه الله - وهو من علماء الاسلام قد أفتى فى البقاع المقدسة بجواز تعويض الذبائح بدفع أثمانها ...) الى آخر ما جاء فى المجلة .

وأريد أن أضيف هنا ، الى أننى كنت فى شهر أوت من سنة 1953 م ، أزور الشيخ محمد البشير الابراهيمى - رحمه الله - كل مساء فى النزل المصرى الذى يقوم به فى مكة المكرمة ، وكان يقيم فيه معه الشيخ محمد الغسيرى - رحمه الله - وكان ذهب حينذاك مع الكشافة الجزائرية الى مصر ومن هناك انتقل الى مكة - فكان الشيخ محمد البشير الابراهيمى - غير راض عن الحالة التى كانت تؤدى عليها الذبائح ، ويقول ما معناه : الاولى ، والانفع أن تجمع أثمان الذبائح ، وتصرف فى مشاريع خيرية نافعة ، أو تقوم الحكومة السعودية ببناء مستودعات لحفظ اللحوم بطرق علمية : حتى لا تضيع الفائدة التى قصدها الشارع من الذبائح ، وحتى لا تتسبب هذه اللحوم المتعفنة ، الملقاة هنا ، وهناك بمنى فى خلق أمراض معدية فتاكة » .

وكلفنى - رحمه الله - أن أجمع أثمان ذبائح الحجاج الذين كانوا معى ، فجمعت ثمن 35 ذبيحة ، فوزعها - رحمه الله - بين مستحقيها .

وفى سنة 1961 م ، أفتى الشيخ النعيمى - رحمه الله - ، والشيخ العباس - أطال الله حياته - بجواز دفع الثمن .

(موسى الاحمدى نويوات)
مديرية التعليم الاصلى
برج بوعريريج

مَقصِدالشريعَـةِ مِن الحج
وَالطريقَـة التى يؤدى بهَا اليوم

الاستاذ ابراهيم محمود جوب السنغالى
أمين الاتحاد الاسلامى الافريقى
ورئيس تحرير مجلة المسلم
الافـريقى ـ السينغـال



بسم اللـه الرحمـن الرحيم

الحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله ٠

معـالى الوزيـر ٠

أيهـا الاخـوة والاخـوات

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، تحية وداد واخاء فى ذات الله لا أكاد أقـوى على تاديتها لان جلال الموقف يكاد يعقل لسانى ٠

وكيف لا يتهيب مثلى ـ ومثلى هو القاصر الوانى ، ولكن تنكرى استحياء ـ كيف لا أتهيب مواجهة هذا المجمع الممتاز ، وفيه هذه الوجوه الكريمة التى زانها العلم فى أصالة والتزام ، وصانها التوفيق عن معوقات قرن التحديات : فما تلتقى الا فى سوح الجهاد فى سبيل الدعوة وعلى درب العمل الاسلامى الجاد ـ

وماذا عسانى أن أقدم اليكم من على هذا المنبر ؟

حقا لو ترك القطا ليلا لنام ٠

بيد أنى أقدم بين هذا الحديث اعتذارا صادقا ليس من قبيل التواضع المتواضع على البداءة به فى مثل هذه المواقف محض تقليد لا تنفعل له أوتار القلوب ، اعتذارا عن كل ما قد يشوب حديثى من نقص وقصور ٠

واعتقد فى شبه يقين أن المقصود من تشريفى بهذا التكليف انما هو مجرد التشجيع ، باعتبارى أخا من صغار الدعاة الى الله ، فلعل فى لقاء الجهابذة لقاحا لفكرى وعقلى ، وشحذا لهمتى وارادتى ، ودفعا بى الى الامام لمواصلة السير على درب الصالحين العاملين فى حقل الدعوة الاسلامية ، لا سيما فى افريقيتنا الخضراء جنوب الصحراء حيث المجال واسع خصيب أمام الدعاة المسلمين ، وحيث السباق مسعور بين زعماء النجدين ، ودعاة الحضارتين ٠

ولقد تخيرت الموضوع السادس من جدول أبحاث ملتقانا فى هذا العام وهو : مقصد الشريعة من الحج ، والطريقة التى يؤدى بها اليوم ٠ وما توفيقى الا بالله عليه توكلت واليه أنيب ٠

ان الحج عبادة شرعها الله وفرضها على الناس « ولله على الناس حج البيت من استطاع اليه سبيلا » ٠

وفى الكتاب العزيز ، وفى السنة المطهرة فيض من الآيات والاحاديث لبيان هذه العبادة ، والترغيب فيها ، والحث عليها ٠

وحديث العبادة ـ فى الاسلام ـ لحسن أنيس ، موضوع بالغ الاهمية ، ولكنه مع ذلك لا يخلو من موجبات التهيب ، اذ العقل رغم مشيبه ووقاره ما زال فى الايام جد صغير ، وأحرى فى غيبة المشيب وانتفاء الوقار ٠

والشريعة الاسلامية التى نتلمس هنا بعض مقاصدها بحر لجى ٠

ولاسرار التشريع رجال لهم فى نهاره سبـــح طويل ، ولهم بذلك منابر من نــور التحقيق حدث عنها ولا حـــرج •

وأما وافد افريقيا السمراء فما أحجاه أن يعرف مقعده تحت هذه المنابر ، وبين أيدى هؤلاء الاكابر ، يتلقى ويترقى ريثما يثمر غرسه ، ويتأيد باذن الله •

وسوف أتحدث بايجاز عن الشريعة وميزتها ، ثم أقفى عليه بكلمة عن الحج كتابا وسنة بايجاز أيضا ، ثم اتطرق لغاية الحج التى هى فى نظرى تحقيق العبودية والاستجابة الصادقة لله ، ثم أشير فى النهاية الى حجيج اليوم وبعض ما يستدعى التأمل والاعتبار من شؤونهم بتركيز شديد وفقا لمنهاج الملتقى الكريم •

الاســـلام وشريعتـــه :

الاسلام دين الله الخالد ، فهو نور منه تعالى وهدى ورحمة • ولن تجد فى تعاليمه جملة وتفصيلا الا الخير المحض ، والا دليل صدق النبى المصطفى الذى تلقى الوحى من عند الله « شاهدا ومبشرا ونذيرا وداعيا الى الله باذنه وسراجا منيرا » • .

وشريعة الاسلام تمثل قمة الكمال ــ ولا ريب ــ « فقد ولدت هذه الشريعة شابــة مكتملة ، ونزلت من عند الله شريعة كاملة شاملة جامعة مانعة ، لا ترى فيها عــوجا ولا تشهد فيها نقصانا • أنزلها الله تعالى من سمائه على قلب رسوله صلى الله عليه وسلم فى فترة قصيرة لا تجاوز المدة اللازمة لنزولها ، فترة بدأت ببعثة الرسول صلى الله عليه وسلم، وانتهت يوم قال الله تعالى : «اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ، ورضيت لكم الاسلام دينا » (المائدة : 3) ولم تات الشريعة لجماعة دون جماعة ، أو لقوم دون قوم ، أو لدولة دون دولة ، وانما جاءت للناس كافة من عرب وعجم ، شرقيــين وغربيين على اختلاف مشاربهم وتباين عاداتهم وتقاليدهم وتاريخهم ، فهى شريعة كل أسرة ، وشريعة كل قبيلة ، وشريعة كل جماعة ، وشريعة كل دولة ، بل هى الشريعة العالمية التى استطاع علماء القانــون الوضعى أن يتخيلوها ولكنهم لم يستطيعوا أن يوجدوها •

وشريعتنا الغراء رفيقة الانسان فى درب الحياة على طول البقاء ، فهى « لم تات لوقت دون وقت ، أو لعصر دون عصر ، أو لزمن دون زمن ، انما هى شريعة كل وقـــت ، وشريعة كل عصر ، وشريعة الزمن كله حتى يرث الله الارض ومن عليها » •

ولا غرو مطلقا فى بلوغ الشريعة الاسلامية قمة الكمال فصانعها الله ، وتتمثل فيها قدرة الخالق وكماله وعظمته واحاطته بما كان وما هو كائن ، ومن ثم صاغها العليم الخبير بحيث تحيط بكل شىء فى الحال والاستقبال ، حيث أحاط علمه ـ سبحانه ـ بكل شىء • وامر جل شأنه ان لا تغير ولا تبدل حيث قال : « لا تبديل لكلمات الله » (يونس : 64) لانها ليست بحاجة للتغيير والتبديل مهما تغيرت الاوطان والازمان ، وتطور الانسان (1) • « الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا » • والحمد لله الذى تأذن بحفظ الكتاب والمسلمون فى مراحل العسرة • والحمد لله الذى ضمن قرآنه وبيانه وكتب له الخلود فى الوجود • والحمد لله على توفر مصادر السنة ، وعلى تراثنا العلمى الضخم الاصيل ، والحمد لله على نعمة الحرية والاستقلال لمعظم بلاد المسلمين ، والحمد لله على هذه الحركة المباركة التى بدأت تسرى فى جسم الامة سريانا لم يعد يخفى على أحد ممن يهتمون بأمر المسلمين • فهل حان لنا أن نهب ـ بعون الله ـ لحمل أعباء الدعوة ، ولنشر شريعتنا فى العالمين ، جهادا مقدسا تبرأ به الذمم ، وتسعد الامم ، وتزول العقد النفسية الخطرة التى عطلت وتعطل طاقات كثير من ابناء الامة الاسلامية اليوم حيث تأثروا بالغزو الفكرى المدمر ، الذى حرف مفاهيم التطور والتقدم والحرية ، حرف المفاهيم والكلم عن مواضعها ، حتى بات بعض المفتونين منا يتشككون فى قيمة تراثنا ، ويأتون الشعائر وهم كسالى •

ألا ان نشر هذه الحقائق واجب اكيد يتحتم علينا ان نستهين بكل التضحيات والعقبات فى سبيل تأديته •

وأنا ـ فى الواقع ـ لا يلهينى التغنى بأصالتنا عن واجب الاهتمام بحشد عوامل الفعالية ، اذ الاصالة بدون فعالية متجددة تعتبر قليلة الجدوى ، ورفع العقيرة بذكر الماء لا يبل الصدى ولا يروى الظمآن •

والمطلع على أحكام الشريعة الاسلامية المدرك لسموها وتميزها وكمالها لا يكاد يملك دمع العين وهو يرقب واقع البشرية فى سائر أرجاء الارض تقريبا ، حيث الجاهلية ممعنة فى تعميق الهوة بين انسان القرن العشرين ، وبين الاسلام ينبوع السعادة والخير والسلام ، السلام الحقيقى العميق •••

1) راجع الجزء الاول من التشريع الجنائى الاسلامى للمرحوم عبد القادر عودة •

ان مسيرة الحضارة تتعثر ، وتعتاقها العقبات المادية واللا انسانية ، عقبات تتسم بالعلم ، ويغريها ضعف المناعة فى صفوفنا بالتبجح والتحدى .

وليس لتحدياتهم جواب الا قرآننا مفهوما مطبقا : « ان هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم ، ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات ان لهم أجرا كبيرا » .

انها لرسالة سامية وضرورية ، رسالة الهداية الحق هداية الناس الى صراط الله المستقيم الواصل ، ليعرفوه وليستقيموا عليه « **فالمعرفة والاستقامة كلتاهما ثمرة لهداية الله ورعايته ورحمته** » (الظلال المجلد الاول) .

والمهتدى بنور الاسلام انسان قوى موفق فيجب ان يعرف قيمته فى هذا الوجود ، ويجب عليه أن يستعلن باسلاميته فى كل ناد وأمام كل انسان ، فلا يلبث الحق أن يتغلب وينتصر ، « ولينصرن الله من ينصره ان الله لقوى عزيز » .

وقد حدثنا الكاتب الفرنسى هنرى بسكو عن حادث حدث هنا فى الجزائر ذات يوم ، له دلالته البالغة ، واعنى بذلك يوم اعترف اندرى جيد بهزيمة الفكر الغربى امام جلال الحق ممثلا فى المسلم الفرنسى المشهور رينو جينو ، فقد تحدث جيد قائلا :

« اذا كان جينو على حق فانه من الواضح أن كل ارائى تصبح عديمة القيمة ، انها تنهار انهيارا تاما » .

فقال أحد الحاضرين : « ويرافقها فى الانهيار كثير من آراء أئمة الفكر ، آراء الفيلسوف مونتج مثلا » .

فيتابع جيد فى أسى قائلا : « اننى حقا لا أجد شيئا قط أعترض به على ما كتبه جينو أن ما كتبه لا يتطرق اليه النقض » .

والحق هو ما شهد به أندريه جيد يقينا وما كان رينو جينو بسيطا ساذجا خفيف الوزن ، وانما كان مفكرا عميق التفكير هداه الله الى الحق وشرح صدره للاسلام ، فأسلم له وجهه على خطوات السلف الصالح ، ودين الاسلام من ينابيعه ، وفقه لغة القرآن الكريم ، فكيف يتطرق الى انتاجه نقض ، انه كان يمثل تسورى العلم والايمان **ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور** ...

ان حديثى هو كما أسلفت عن مقصد الشريعة ، مقصد هذه الشريعة الممتازة من الحج

فما هـو الحـــج ؟

الحج عبادة كما قلت ، وهو مؤتمر المسلمين السنوى العام ، يتلاقون فيه عند البيت الذى صدرت لهم الدعوة منه ، والذى بدأت منه الملة الحنيفية على يد أبيهم ابراهيم ، والذى جعله الله أول بيت فى الارض لعبادته خالصا ، فهو تجمع له مغزاه ، وله ذكرياته هذه التى تطوف كلها حول المعنى الكريم الذى يصـــل الناس بخالقهم العظيم • معنى العقيدة استجابة الروح لله الذى من نفخة روحه صار الانسان انسانا ، وهو المعـنى الذى يليق بالاناسى أن يتجمعوا عليه وأن يتوافدوا كل عام الى المكان المقـدس الذى انبعث منه النداء للتجمع على هذا المعنى الكريم (فى ظلال القرآن م 2 ص 12) •

فالحج اذن قصد البيت العتيق بمكة المكرمة استجابة لله • وهو الركن الخامس من أركان الاسلام ، وقد فرضه الله على كل من يستطيع أداءه ، وفريضته مما علم مـــن الدين بالضرورة ، فانكار وجوبه يعتبر ردة عن الاسلام والعياذ بالله •

وقد فرض سنة ست من الهجرة على ما ذهب اليه الجمهور بنزول قـــوله تعالى : (وأتموا الحج والعمرة لله) • ويرى الامام ابن القيم انه فرض سنة تسع أو عشر من الهجرة وقد اسلفت أن فى الكتاب العزيز والسنة المطهرة فيضامن الآيات والاحاديث لبيان هذه العبادة والترغيب فيها ، والحث عليها فلننصبت اذن الى الوحيين (القرآن ، والحديث) لانى واياكم لعلى يقين حازم ان خير الحديث كتاب الله وخير الهـدى هـدى محمد صلى الله عليه وسلم ، وشر الامور محدثاتها ، وكل بدعة ضلالة ، وكل ضلالة فى النـــــار •

ولسوف نرى عقب هذه الاستشهادات اننا فعلا أمام شعيرة عظيمة جديرة بكـــل اهتمام مليئة بالدروس والعبر والفوائد واللطائف •

قال تعالى فى سورة آل عمران : « ان أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركا وهدى للعالمين ، فيه آيات بينات مقام ابراهيم ، ومن دخله كان آمنا ، ولله على الناس حـج البيت من استطاع اليه سبيلا ، ومن كفر فان الله غنى عن العالمين » (97) •

وقال تعالى فى سورة البقرة : (وأتموا الحج والعمرة لله ، فان احصرتم فما استيسر من الهدي ولا تحلقوا رؤسكم حتى يبلغ الهدي محله ، فمن كان منكم مريضا أو بــه أذى من رأسه ففدية من صيام أو صدقة أو نسك ، فاذا أمنتم فمن تمتع بالعمرة الى الحج فما استيسر من الهدى ، فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام فى الحج وسبعة اذا رجعتم تلك عشرة كاملة ذلك لمن لم يكن أهله حاضرى المسجد الحرام واتقوا الله واعلموا أن الله شديد العقاب ، الحج أشهر معلومات فمن فرض فيهن الحج فلا رفث ولا فسوق ولا جدال فى الحج وما تفعلوا من خير يعلمه اللــــه ، وتزودوا،فان خير الزاد التقــوى واتقون يا أولى الالباب،ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلا من ربكم ، فاذا أفضتم مــن عرفات فاذكروا الله عند المشعر الحرام واذكروه كما هداكم وان كنتم من قبله لمـــن الضالين ، ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس واستغفروا الله ان الله غفور رحيــم . فاذا قضيتم مناسككم فاذكروا الله كذكركم آباءكم أو أشد ذكرا ، فمن الناس مـــن يقول ربنا آتنا فى الدنيا ، وما له فى الآخرة من خلاق ، ومنهم من يقول ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار،أولئك لهم نصيب مما كسبوا والله سريع الحساب،واذكروا الله فى أيام معدودات فمن تعجل فى يومين فلا اثم عليه ومن تأخر فلا اثم عليه لمن اتقى واتقوا الله وأعلموا انكم اليه تحشرون) (196 ـ 202) .

وقال تعالى فى سورة الحج : « ان الذين كفروا ويصدون عن سبيل الله والمسجد الحرام الذى جعلناه للناس سواء العاكف فيه والبادى ومن يرد فيه بالحاد بظلم نذقه من عذاب اليم ، واذ بوأنا لابراهيم مكان البيت أن لا تشرك بى شيئا وطـــهر بيتى للطائفين والقائمين والركع السجود،واذن فى الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله فى أيام معلومات عــلى ما رزقهم من بهيمة الانعام،فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير،ثم ليقضوا تفثهم،وليوفوا نذورهم،وليطوفوا بالبيت العتيق ، ذلك ومن يعظم حرمات الله فهو خير له عند ربه ، وأحلت لكم الانعام الا ما يتلى عليكم ، فاجتنبوا الرجس من الاوثان،واجتنبوا قـــول الزور، حنفاء لله غير مشركين به ، ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوى به الريح فى مكان سحيق ، ذلك ومن يعظم شعائر الله فانها من تقوى القلوب

لكم فيها منافع الى أجل مسمى ثم محلها الى البيت العتيق ، ولكل أمــة جعلنا منسكا ليذكروا اسم الله على ما رزقهم من بهيمة الانعام، فالهكم اله واحد فله اسلموا وبشـر المخبتين الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم، والصابرين على ما اصابهم، والمقيمى الصلاة ومما رزقناهم ينفقون ، والبدن جعلناها لكم من شعائر الله لكم فيها خير ، فاذكروا اسم الله عليها صواف فاذا وجبت جنوبها فكلوا منها واطعموا القانع والمعتر ، كذلك سخرناها لكم لعلكم تشكرون ، لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم ، كذلك سخرها لكم لتكبروا الله على ما هداكم وبشر المحسنين » .

وقال : « واذ جعلنا البيت مثابة للناس وامنا واتخذوا من مقام ابراهيم مصـلى وعهدنا الى ابراهيم واسماعيل أن طهرا بيتى للطائفين والعاكفين والركع السجود ، واذ قال ابراهيم رب اجعل هذا بلدا آمنا وارزق أهله من الثمرات من آمن منهم باللـه واليوم الآخر ، قال ومن كفر فأمتعه قليلا ثم اضطره الى عذاب النار وبئس المصير، واذ يرفع ابراهيم القواعد من البيت واسماعيل ربنا تقبل منا انك انت السميع العليم، ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك، وأرنا مناسكنا، وتب علينا، انك انـت التواب الرحيم، ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم انك انت العزيز الحكيم ، ومن يرغب عن ملة ابراهيم الا من سفه نفسه، ولقـد اصطفيناه فى الدنيا، وانه فى الآخرة لمن الصالحين، اذ قال له ربه اسلم، قال أسلمت لرب العالمين، وأوصى بها ابراهيم بنيه ويعقوب يا بنى ان الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن الا وانتم مسلمون » (البقرة 132) .

وقال فى سورة المائدة : « يأيها الذين آمنوا ليبلونكم الله بشيء من الصيد تناله ايديكم ورماحكم ، ليعلم الله من يخافه بالغيب فمن اعتدى بعد ذلك فله عذاب اليم . يا أيها الذين آمنوا لا تقتلوا الصيد وأنتم حرم ، ومن قتله منكم متعمدا فجزاء مثـل ما قتل من النعم يحكم به ذوا عدل منكم هديا بالغ الكعبة أو كفارة طعام مساكين أو عدل ذلك صياما ليذوق وبال أمره عفا الله عما سلف ، ومن عاد فينتقم الله منـه ، والله عزيز ذو انتقام أحل لكم صيد البحر وطعامه متاعا لكم وللسيارة وحرم عليكم صيد البر ما دمتم حرما واتقوا الله الذى اليه تحشرون ، جعل الله الكعبة البيت الحـرام

قياما للناس والشهر الحرام والهـدى والقلائـد ذلك لتعلموا أن اللـه يعلـم ما فى السماوات وما فى الارض وأن الله بكل شىء عليم ، اعلموا ان الله شديد العقاب وان الله غفور رحيم · ما على الرسول الا البلاغ والله يعلم ما تبدون وما تكتمون»(94 ـ 99) ·

أيها الاخـوة الاكارم :

تلكم آيات بينات من الذكر الحكيم تتضمن كثيرا من أحكام الحج فى سهولة ويسر تتخللها حكم وتوجيهات ربانية ، أرجو أن يعكف الشباب المسلم بوجه خاص عـلى دراستها وتمليها ، وكل الصيد فى جوف الغرا ·

فالكعبة المشرفة أول بيت وضع بأمر الله خصيصا لعبادة الله وحده ربا والها له الحمد فى الاولى والآخرة · لا شريك له مطلقا فى ذاته وصفاته وأفعاله جل جلاله ·

وهو بيت مبارك ميمون وهو منارة هداية لسائر الاجيال فى سائر العصور : فيه آيات بينات مقام ابراهيم ··· وهو هذا الحجر الاثرى الذى كان أبو الانبياء ابراهيم عليه السلام يقف عليه وهو يبنى الكعبة المشرفة ، وكان لصيق البيت ـ فيما ذكره الازرقى ـ ثم أخر عنه تيسيرا للطائفين والحج ـ كما نطقت به الآيات حق ثابت للـه على الناس بشرط الاسلام والبلوغ والعقل والحرية والاستطاعة وتتحقـق الاستطاعة بصحة البدن وأمن الطريق والزاد المبلغ على التفصيل المعروف فى كتب الفقه الاسلامى

وتجدر الاشارة الى أن هذه الاستطاعة فى اطارها المادى الصرف أمرها فى الواقع الصحيح سهل ميسر فى زماننا الراهن ، فسبل المواصلات مريحة ، والامن مستتب ، والنفقات ليست من الكثرة بحيث تعجز ، انها عند العزم المصمم لا تلبث أن توجـد فى يسر نسبى ، وانه اذن من المخداع الزائف ان يتعلق الانسان بالاستطاعة ، فـان هذه الاستطاعة تتبع حرارة الايمان ارتفاعا وانخفاضا والناس فى الاغلب الاعـم مستطيعون قادرون ، ولكن الامل فى امتداد العمر ، والانغماس فى غمرات المـادة ، والاستغراق فى شؤون الدنيا يجعل الانسان ـ وهو مستطيع ـ يمهل ويهمل حتى تنتهى به الحياة · وفى مثل هذا يقول سعيد بن جبير ، ومجاهد وطاووس رضى اللـه عنهم « لو علمت رجلا غنيا وجب عليه الحج ثم مات قبل ان يحـج ما صليت عليه » (عبد الحليم محمود : العبادة ص 144 ط ا) ومن كفر فان الله غنى عن العالمين ·

والحج أشهر معلومات وهى شوال وذو القعدة وذو الحجة فمن اعتزم الحج فى هذه الاشهر الحرم فعليه أن يقدر الشعيرة العظيمة حق قدرها ، فيتوب ويخلص ، ويتطهر ويتزكى ، يتخلى عن السيئات والغفلات ، ويتحلى بالصالحات ومكارم الاخلاق ، فلا رفث ولا فسوق ٠ ويكف حتى عن مجرد الجدال ، لان الامر جد ، والرقيب قريب ، والناقد بصير ، وما تفعلوا من خير يعلمه الله ٠ وليجعل تقوى الله زاده فى الحياة ، فالتقوى ملاك الامر « والتقوى زاد القلوب منه تقتات ، وبه تتقوى وترق وتشرق وعليه تستند فى الوصول والنجاة ، وأولوا الالباب هم أول من يدرك التوجيه الى التقوى وخير من ينتفع بهذا الزاد » (الظلال م أ ــ ص 119) وفضل الله واسع وأسباب الرزق الحلال كثيرة ، والمسلم مكلف بعمارة الارض ؛ فالعمل والانتاج والتجارة والصناعة كل أولئك عمل صالح ما دام المسلم ينطلق من قاعدة الايمان ٠ فلا جناح ولا حرج مطلقا فى أن يزاول الحاج عملا منتجا نافعا أثناء حجه ما دامت نيته خالصة لله ٠

والآيات فى أثناء ذلك كله قد أبرزت أهمية ، ذكر الله فى تلك الاماكن المقدسة مع شهود المنة لله ، والشعور بالتقصير دواما ٠

والبيت الحرام مثابة للناس وهو أمن لهم ، وهو أيضا قيام لهم وأى قيام ٠ وما أجمل قول من قال ابان ليل الاستعمار الطويل فى بلاد الاسلام « ان المسلمين فرقتهم السياسة وسوف تجمعهم الكعبة » ٠

ولننتقل الآن الى أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم لنستمع فى مدرسة سيد الاولين والاخرين نتعرف فيها منه على مكانة هذه الفريضة ، وعلى بعض ما أعده الله للابرار بحج بيته العتيق : عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم أى الاعمال أفضل ؟ قال : ايمان بالله ورسوله ٠ قيل ثم ماذا ؟ قال : ثم جهاد فى سبيل الله ٠ قيل ثم ماذا ؟ قال : حج مبرور ، ويعنى صلى الله عليه وسلم الحج الذى لا يخالطه اثم وارتكاب محظور ، والذى يؤثر فى سلوك الحاج بعد عودته من رحلة العمر ! وعن الحسن بن على رضى الله عنهما أن رجلا جاء الى النبى صلى الله عليه وسلم فقال : انى جبان وانى ضعيف ، فقال هلم الى جهاد لا شوكة فيه : الحج (رواه عبد الرزاق والطبرانى ورواته ثقات) ٠

وعن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : جهاد الكبير والضعيف والمرأة : الحج (رواه النسائى باسناد حسن) ٠

وعن عائشة رضى الله عنها أنها قالت يا رسول الله : نرى الجهاد أفضل العمل أفلا نجاهد ؟ قال : لكن أفضل الجهاد : حج مبرور (رواه البخارى ومسلم) ٠

وعن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من حج فلم يرفث ولم يفسق رجع من ذنوبه كيوم ولدته أمه » (رواه البخارى ومسلم) ٠

وعن عمرو بن العاصى قال : لما جعل الله الاسلام فى قلبى أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت أبسط يدك فلأبايعك قال : فبسط فقبضت يدى ، فقال : ما لك يا عمرو ؟ قلت : اشترط ، قال تشترط ماذا ؟ قلت أن يغفر لى ٠ قال : أما علمت ان الاسلام يهدم ما قبله ، وأن الهجرة تهدم ما قبلها ، وأن الحج يهدم ما قبله (رواه مسلم) ٠ وعن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال : الحجاج والعمار وفد الله ان دعوه أجابهم ، وان استغفروه غفر لهم (رواه النسائى وابن ماجه) ٠

وروى البخارى ومسلم عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله وسلم العمرة الى العمرة كفارة لما بينهما والحج المبرور ليس له جزاء الا الجنة ٠

وروى ابن جريج ـ باسناد حسن ـ عن جابر رضى الله عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ قال : « هذا البيت دعامة الاسلام ، فمن خرج يوم هذا البيت من حاج أو معتمر كان مضمونا على الله ان قبضه ان يدخله الجنة ، وان رده رده بأجر وغنيمة ٠٠ » ٠

فالحج كما تعلمنا هذه النصوص هو من افضل الاعمال ، وهو جهاد مقدس وهو يمحو الذنوب كلها ، وثوابه الجنة ، والحجاج هم وفد الله وفى ضمانه أحياء وأمواتا ٠ لقد كثر خير الله وطاب على حد تعبير سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه ٠

مقـــاصـــد الشـــريعـــة

يقول الامام الشاطبى رحمه الله فى موافقاته « ان وضع الشرائع انما هو لمصالح العباد فى العاجل والآجل » ولم يعتبر الامام معارضة الفخر الرازى فى موضوع علل الشريعة ، وانما انطلق من قناعته المبنية على استقراء نصوص القـرآن الـكريم ، واستدل على مذهبه بآيات بينات ، منها قوله فى بعثه الرسل وهو الاصل : رســلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل ، وقوله : وما أرسلناك الا رحمة للعالمين ، وقوله فى أصل الخلقة (وهو الذى خلق السماوات والارض فى ستة أيام ، وكان عرشه على الماء ليبلوكم أيكم أحسن عملا) (وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون) (الذى خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا) .

قال وأما التعاليل لتفاصيل الاحكام فى الكتاب والسنة فأكثر من أن تحصى كقوله بعد آية الوضوء (ما يريد الله ليجعل عليكم من حـرج ، ولكن يريد ليطهركم وليتم نعمته عليكم) وقال فى الصيام (كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون) (ولكم فى القصاص حياة يا أولى الالباب) .

وفى التقرير على التوحيد (ألست بربكم قالوا بلى شهدنا ان تقولوا يوم القيامة انا كنا عن هذا غافلين) (ص 3) .

ورغم قوة الامام الشاطبى فى الاستدلال فقد جنح بعض علماء أصول الفقـه الى ضرورة التمييز الواضح بين العلة والسبب ، بين الدافع والغاية . ويرى أن مقاصد الشريعة هى مقاصدها ككل ، وليست هى مقاصد كل حكم بعينه ، ان الدليل الذى دل عليها واضح فيه أن الرحمة انما تنتج عن الشريعة ككل ، لا عن كل حكم بعينه اذ قال : وما أرسلناك الا رحمة للعالمين ــ أى أن الرسالة رحمة . وقال : وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة . ومن هنا للبيان ــ أى ــ ننزل القرآن شفاء ورحمة ، وليس معناها ننزل بعض القرآن شفاء ورحمة ، وبعضه ليس كذلك ، ولذلك نجــد الشارع فى الوقت الذى بين فيه مقاصد الشريعة من حيث هى ككل ، بين مقصده مـن شرع بعض أحكام بعينها (راجع الثقافة والثقافة الاسلامية لسميح الزين ص 250) .

والحج من هذا القبيل فقد تبين المقصد منه بقوله تعالى : « واذن فى الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله فى أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الانعام » ·

فالمقصود اذن هو شهود منافع لهم ولا يتأتى هذا الشهود فى صورتها المطلوبة الا بصدق العبودية وباسلام الوجه لله باحسان ويتمثل ذلك كله بنشيد الحجيج العظيم لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك ان الحمد والنعمة لك والملك لا شرك لك ·

وعن هذه المنافع التى شرع الحج من أجل شهودها يقول فخر الدين الرازى : « لما أمر بالحج فى قوله تعالى : (واذن فى الناس بالحج) ذكر حكمة ذلك الامر فى قوله : (ليشهدوا منافع لهم) · واختلفوا فيها فبعضهم حملها على منافع الدنيا وهى أن يتجروا فى أيام الحج ، وبعضهم حملها على منافع الآخرة وهى العفو والمغفرة ، عن محمد الباقر عليه السلام وبعضهم حملها على الامرين جميعا وهو الاولى ثم قال : انما نكر المنافع لانه أراد منافع مختصة بهذه العبادة دينية ودنيوية لا توجد فى غيرها من العبادات (التفسير الكبير ــ ج 6 ص 157 ط م) ·

ويقول الالوسى : منافع عظيمة الخطر ، كثيرة العدد ، فتنكيرها وان لم يكن فيها تنوين للتعظيم والتكثير ، ويجوز أن يكون للتنويع ، أى نوعا من المنافع الدينية والدنوية وتعميم المنافع بحيث تشمل النوعين مما ذهب اليها جمع · وروى ذلك عن ابن عباس فقد أخرج ابن أبى حاتم عنه انه قال فى الآية : منافع فى الدنيا ومنافع فى الآخرة فأما منافع الآخرة فرضوان الله تعالى ، وأما منافع الدنيا فما يصيبون من لحوم البدن فى ذلك اليوم والذبائح والتجارات · (راجع روح المعانى ــ ج 16 ص 145 ط 2) .

والواقع أن المنافع التى يشهدها الحجيج كثير فالحج موسم ومؤتمر · الحج موسم التجارة وموسم العبادة · والحج مؤتمر اجتماع وتعارف ، ومؤتمر تنسيق وتعاون ، وهو الفريضة التى تلتقى فيها الدنيا والآخرة ، كما تلتقى فيها ذكريات العقيدة البعيدة والقريبة ·· أصحاب السلع والتجارة يجدون فى موسم الحج سوقا رائجة حيث تجبى الى البلد الحرام ثمرات كل شىء من أطراف الارض ويقدم الحجيج من كل فج ، ومن كل قطر ، ومعهم من خيرات بلادهم ما تفرق فى أرجاء الارض فى شتى المواسم يتجمع كله

فى البلد الحرام فى موسم واحد ، فهو موسم تجارة ومعرض نتاج ، وسوق عالمية تقام فى كل عام • وهو موسم عبادة تصفر فيه الارواح وهى تستشعر قربها من الله فى بيته الحرام ، وهى ترف حول هذا البيت وتستروح الذكريات التى تحوم عليه ، وترف كالاطياف من قريب ومن بعيد •

طيف ابراهيم الخليل ـ عليه السلام ـ وهو يودع البيت فلـــذة كبده اسماعيل وأمه ، ويتوجه بقلبه الخافق الواجف الى ربه « ربنا انى اسكنت من ذريتى بواد غـير ذى زرع عند بيتك المحرم ، ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوى اليهم وأرزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون » •

وطيف هاجر ، وهى تستروح الماء لنفسها ولطفلها الرضيع فى تلك الحرة الملتهبة ، وهى تهرول بين الصفا والمروة ، وقد نهكها العطش وهدها الجهد وأضناها الاشفاق على الطفل •• ثم ترجع فى الجولة السابعة وقد حطمها اليأس لتجد النبع يتدفق بـين يدى الرضيع الوضىء واذا هى زمزم ينبوع الرحمة فى صحراء اليأس والجدب •

وطيف ابراهيم عليه السلام ، هو يرى الرؤيا فلا يتردد فى التضحية بفلـــذة كبده ، ويمضى فى الطاعة المؤمنة الى ذلك الافق البعيد : « قال يا بنى انى أرى فى المنام أنى أذبحك فانظر ماذا ترى » فتجيبه الطاعة الراضية فى اسماعيل عليه السلام « قال يا أبت افعل ما تؤمر ستجدنى ان شاء الله من الصابرين » واذا رحمة الله تتجلى فى الفداء : « وناديناه أن يا ابراهيم قد صدقت الرؤيا انا كذلك نجزى المحسنين ان هذا لهو البلاء المبين ، وفديناه بذبح عظيم » •

وطيف ابراهيم واسماعيل عليهما السلام ، يرفعان القواعد من البيت فى أنابـــة وخشوع : « ربنا تقبل منا انك انت السميع العليم ، ربنا اجعلنا مسلمين لك ومـــن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا انك انت التواب الرحيم » •

وتظل هذه الاطياف وتلك الذكريات ترف وتتتابع حتى يلوح طيف عبد المطلب وهو ينذر دم ابنه العاشر ان رزقه الله عشرة ابناء • واذا هو عبد الله • واذا عبد المطلب حريصا على الوفاء بالنذر •

واذا قوم من حوله يعرضون عليه فكرة الفداء ، واذا هو يدير القداح حول الكعبة ويضاعف الفداء ، والقدح يخرج فى كل مرة على عبد الله حتى يبلغ الفداء مائة ناقة بعد عشر هى الدية المعروفة ، فيقبل منه الفداء فينحر المائة وينجو عبد الله ، ينجـــو ليودع رحم آمنة أطهر نطفة وأكرم خلق الله على الله ـ محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم • ثم يموت ، فكأنما انقذه الله من الذبح لهذا القصد الوحيد الكريم الكبير •

ثم تتواكب الاطياف والذكريات من محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم • وهو يدرج طفولته وصباه فوق هذا الثرى ، حول هذا البيت •• وهو يرفع الحجر فيضعـــه موضعه وهو يطفىء الفتنة التى كادت تنشب بين القبائل •• وهو يصـــلى •• وهو يطوف •• وهو يخطب •• وهو يعتكف • **وان خطواته ـ عليه الصلاة والسلام ـ** لتنبض حية فى الخاطر ، وتتمثل شاخصة فى الضمير ، يكاد الحاج هناك يلمحها وهو مستغرق فى تلك الذكريات وخطوات الحشد من صحابته الكرام وأطيافهم ترف وتدق فوق هذا الثرى حول ذلك البيت ، تكاد تسمعها الاذن وتكاد تراها الابصار •

والحج بعد ذلك كله مؤتمر جامع للمسلمين قاطبة ، مؤتمر يجدون فيه أصلهم العريق الضارب فى أعماق الزمن منذ أبيهم ابراهيم الخليل : « ملة أبيكم ابراهيم هو سماكم المسلمين من قبل وفى هذا » •• ويجدون محورهم الذى يشدهم جميعا اليه : هـــذه القبلة التى يتوجهون اليها جميعا ، ويلتقون عليها جميعا ويجدون رايتهم التى يفيئون اليها : راية العقيدة الواحدة التى تتوارى فى ظلها فوارق الاجناس والالوان والاوطان ويجدون قوتهم التى قد ينسونها حينا • قوة التجمع والتوحد والترابط الذى يضـــم الملايـين ، الملايين التى لا يقف لها أحد لو فاءت الى رايتها الواحدة التى لا تتعدد : راية العقيدة والتوحيد •

وهو مؤتمر للتعارف والتشاور وتنسيق الخطط وتوحيد القوى وتبادل المنافـــع والسلع والمعارف والتجارب وتنظيم ذلك العالم الاسلامى الواحد الكامل المتكامل مرة فى كل عام فى ظل الله ، بالقرب من بيت الله وفى ظلال الاطياف البعيدة والقـريبة ، والذكريات الغائبة والحاضرة ، فى أنسب مكان وأنسب جو وأنسب زمان •

أجل ليشهدوا منافع لهم · كل جيل بحسب ظروفه وحاجاته وتجاربه ومقتضياته · وذلك بعض ما أراده الله بالحج يوم أن فرضه على المسلمين وأمر ابراهيم عليه السلام أن يؤذن به في الناس (راجع في ظلال القرآن · سورة الحج) أضف الى ذلك كله أن الالوف المؤلفة التى تؤم البيت الحرام كل عام هم من مختلف البلاد ، ومن مختلف الاجناس والالوان وفيهم من جميع المستويات ومنهم رجال العلم والدين ومنهم الكتاب والمفكرون ومنهم رجال التجارة والصناعة والاقتصاد ومنهم رجال الادارة والحكم ومنهم العمال والفلاحون ، ان مشاهد الحج نموذج للعالم الاسلامى فى كافة ، يقبلون جميعا وقد توحد مظهرهم بالاحرام ، واتحدت وجهتهم بالكعبة ، يطوفون بها قاصدين رب الكعبة فارين بدينهم من جميع ألوان الشرك والمعاصى ما ظهر منها وما بطن ، لا يريدون بأعمالهم ونسكهم الا وجه الله فلا يرجون غيره ، ولا يخافون سواه ، ولا تأخذهم فى الله لومة لائم ·

هذه حالتهم في مكة المكرمة وفى منى ، وفى عرفات الله وفى المزدلفة فى روعة وجلال دونهما ما وصف الواصفون هذه هى الصورة المثالية للحج والحجاج، وتلك ايماءات مشرفة الى منافعه والى الآفاق الرحيبة التى ينتظر من الحج أن يفتحها للحجيج ضيوف الرحمان ·

والسؤال الآن هو هل تم لسائر الحجاج شهود تلك المنافع ؟

وهل هذه الشعيرة المقدسة تؤدى اليوم على مستوى التشريع الحكيم الذى ندينا اليها ، وفرضها علينا ؟

ما حاولت يوما معالجة هذا الموضوع المهم الا ووجدت أمامى من يثبط همتى ويحاول شل تفكيرى بقوله مهلا يا فلان · انها عبادة فنحن نؤديها تعبدا لله ، وليس فى الامكان أبدع مما كان والحج فعلا ــ كما أسلفت ــ عبادة · ولكن ما هى العبادة ؟ وما حدودها وآفاقها ؟

ان فترات الضعف والجفاف الفكرى التى مرت بالعالم الاسلامى ، والتى أختلفت شدة وطأتها فى بلد عنها فى آخر قد حرفت وقلبت كثيرا من المفاهيم ، ولا داعى للاسهاب فى تفصيل هذه الحقيقة ، فهى تكاد تكون معروفة لدى الجميع ، ومن تلك المفاهيم بالتأكيد

مفهوم العبادة فى الاسلام فقد مسخه بعض الناس الى أن أصبح مرادفا للسذاجة ، والخمول والاتكالية بل والجهل والسلبية ، وهذا منتهى التحريف وهو مفهوم يرفضه القرآن الكريم ويرفضه هدى رسول الله ، ويرفضه العقل المستنير واذا أردنا أن ندرك المعنى الكبير العميق الواسع للعبادة فلنستنطق كتاب الله القائل وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون ما أريد منهم من رزق ، وما أريد أن يطعمون ان الله هو الرزاق ذو القوة المتين فالآية صريحة فى أن الهدف الوحيد من خلق الجن والانس انما هو أن يعبدوا الله ، أى أن يؤمنوا به ، ويوحدوه ويستسلموا له ولارادته وشريعته على الدوام كما قال تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم « قل ان صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين » فمفهوم العبادة اذن واسع فالكون كله محراب المؤمن وهو – بهذا المفهوم القرآنى الواسع – يقوم بشعائر الصلاة والصيام وغيرهما من أركان الاسلام ، ويذكر الله فى سائر الاحوال وفى جميع المواقف ، ويتفكر فى خلق السماوات والارض ، ولكنه فى نفس الوقت ذو مسؤولية كبيرة متعددة الجوانب يجب أن لا ينشغل بلذة الذكر والفكر والمناجاة عنها أبدا فالانسان مكلف بالخلافة فى الارض ، ومكلف بالمشى فى مناكب الارض طلبا للرزق الحلال ومكلف باقامة العدل ومناهضة الظلم ثم ان السماوات والارض مسخرات له فهل يسوغ له ان يجهلها مطلقا ويجهل ما فيها من طاقات ومنافع ، وهو مكلف بالتعلم والبحث والاعتبار والآيات القرآنية المحكمة وردت بكل ذلك وغيره ، وجاءت السنة المطهرة لتحثنا على العمل والانتاج والاتقان والتفوق فى جميع مجالات الخير ولنقرأ مرة أخرى هذه الآية التى جاءت معلمة مربية وسط آيات تتعلق بالحج وأحكامه : **فمن الناس من يقول ربنا آتنا فى الدنيا وماله فى الآخرة من خلاق ، ومنهم من يقول ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار أولئك لهم نصيب مما كسبوا والله سريع الحساب .**

وساداتنا العلماء رضوان الله عليهم لم يتركوا هذا الموضوع دون تبيان وجه الصواب والحكمة ، فالمحققون منهم جميعا على أنه لا يعبد الله تعالى بغير ما شرع وأن من العبادات ما يمكننا ادراك مقاصدها يقينا ، أو استنباط حكم وفوائد لها دون الجزم بأن تلك الفوائد هى الغرض المقصود ، كما أن هناك أمورا تعبدية لم نهتد بعد الى الحكمة فيها

كاستلام الحجر الاسود ، وكرمى الجمرات بمنى مثلا • ولكن ذلك لا يخل بشىء من منافع الحج التى ذكرنا بعضها ولا يمنعنا من الاهتمام باصلاح ما يحتاج الى الاصلاح من شؤوننا المتصلة بالحج خصوصا •

ووضع الحجيج اليوم ـ بالتأكيد ـ لم يحقق الا جزءا يسيرا جدا من تلك المنافع لتى توخاها الشرع الشريف بهذه الشريعة •

على أن رمى الجمرات ـ فى الواقع ـ وليس من الغموض بالدرجة التى يتصورها بعض المعاصرين •

يقول الامام الغزالى رحمه الله (فى الاحياء) : وأما رمى الجمار فليقصد الرامى به الانقياد للامر واظهار للرق والعبودية ، وانتهاضا لمجرد الامتثال من غير حظ للنفس والعقل فى ذلك ثم ليقصد التشبه بابراهيم عليه السلام حيث عرض له ابليس ـ لعنة الله تعالى ـ فى ذلك الموضع ليدخل على حجه شبهة ، أو يفتنه بمعصية فأمره الله عز وجل أن يرميه بالحجارة طردا له ، وقطعا لامله •

فان خطر لك أن الشيطان له ، وشاهده فلذلك رماه ، وأما أنا فليس يعرض لى الشيطان فاعلم أن هذا الخاطر من الشيطان وأنه هو الذى القاه عليك ليفتر عزمك فى الرمى ، ويخيل اليك أنه لافائدة فيه وانه يضاهى اللعب فلم تشتغل به فاطرده عن نفسك بالجد والتشمير والرمى ، فبذلك ترغم أنف الشيطان واعلم أنك فى الظاهر ترمى الحصى فى العقبة وفى الحقيقة ترمى وجه الشيطان ، وتقصم به ظهره اذ لا يحصل ارغام انفه الا بامتثالك أمر الله سبحانه وتعالى تعظيما له بمجرد الامر من غير حظ للنفس فيه» •

انها روح التلبية فى عمقها وايجابيتها • وفى ذلك فليتنافس المتنافسون •

وقبل حصر النقط التى اعتبرها مثار القلق والامتعاض ومدعاة التأمل الطويل من شؤون الحجيج أرى أن من الانصاف الاشادة بالجهود الكبيرة التى تبذلها حكومة المملكة العربية السعودية فى سبيل خدمة الحجاج ، فهى حقا جهود مشكورة ومتنوعة • ونلمس فى كل سنة تحسنا هو من ثمرات جهودهم الهائلة فى هذا الباب •

ولكن المشكلة متشعبة معقدة وهذا عدد من المشاكل التى تتحتم معالجتها فورا ، وبكيفية حاسمة أولا وقبل كل شىء الفرد المسلم واعنى الحاج المسلم رجلا أو امرأة •

فقد لاحظ كثير جدا من أهل الفكر والمعرفة بالحج وشؤونه أن اغلب الحجاج يصلون الى الاراضى المقدسة وهم يجهلون كل شىء عن الحج وآدابه فضلا عن اهدافه فمعظم الحجاج هم على مستوى منخفض جدا من العلم والثقافة ومعظم مشاكل الحج ناجمة من الجهل • فما العمل لاعداد الحاج المسلم قبل توجهه الى مكة المكرمة لاداء فريضة الحج ؟

ثانيا ـ هناك استمرار ملحوظ فى تصاعد عدد الحجاج عاما بعد عام فقد بلغ عـدد الحجاج غير السعوديين فى الموسم الاخير حوالى سبعمائة ألف حاج من الجنسين بالاضافة الى السعوديين حتى سالت بهم الشوارع واكتظت الدور والمساجد • ومكة المكرمة لا يمكن أن تستوعب فى ظل الامكانات الموجودة حاليا كل هذه الالوف فى ظروف ملائمة لائقة بضيوف الرحمان •

ثالثا ـ مهمة المطوف مهمة شاقة وضرورية فى الظروف الراهنة فيجب أن تخضـع لمزيد من الرقابة لان ثمة مشاكل جمة فى هذا المحيط لابد من حسمها بحكمة اذا ما توخينا فعلا راحة الحجاج ، أو سلامتهم على الاقل •

وهذا الوضع المجافى حكمة التشريع أنتج بطبيعة الحال :

ـ فوات كثير من المنافـــع

ـ بل وحصول كثير من المضـــرة

رابعا ـ ثم تاتى مشكلة لحوم الهدى فى منى فان الوفا مؤلفة من الخرفان وغـيرها تذبح وتترك للرياح والجراثيم وقليل هم أولئك الذين ياكلون من ذبائحهم أو يطعمون منها البائس الفقـير •

ولست أرى أن يستبدل الحاج بها النقود (لان الفقهاء جميعا يعتبرون التعبد فى هذه المسألة باراقة الدماء دون أن أرى فى كلام واحد منهم ما يشير ـ ولو من بعيد ـ الى استبدال النقود بها) (فتاوى شلتوت) •

وثمت عدة مقترحات لحل هذه المشاكل يتقدم بها هذا المفكر أو ذاك فى هذه المناسبة أو تلك غير أنى أرى أن الافضل والاقرب الى الكمال أن تتعاون الحكومات والمؤسسات الاسلامية معا وبكل جدية لدراسة هذه المسالة •

ورابطة العالم الاسلامى وهى فى حد ذاتها ثمرة مباركة من ثمار الحج وقد أصبحت مؤسسة لها وزنها وآثارها هذه الرابطة مهتمة بموضوع الحج والحجاج ، وعالجه مجلسها التأسيسى فى عدة دورات واتخذ حياله عدة توصيات تتعلق بالذبائح ومنى وماء زمزم ومدى امكانية تصديره بكيفية علمية سليمة والمطوفين والادلاء ...

وتلح هذه المقترحات على انشاء صناعة لتعليب تلك اللحوم ووضع مخطط اسلامى للاستفادة منها مما يحقق مصلحة البائس الفقير والقانع والمعتر ومن فى معناهم وفقا للسياسة الشرعية .

وأرى أن تشكل فى الدول الاسلامية أو بالاحرى فى بلاد المسلمين هيئات خاصة بالعناية بالحج وما يتصل به على مستوى أحسن من مستوى جمعيات الحجاج المعروفة حتى الآن ... فهذه الهيئات سوف تكون قادرة باذن الله على معاونة الحكومات والدوائر المسؤولة عن شؤون الحجاج فى العالم الاسلامى .

وقد علمت من مصدر موثوق جدا أن مؤسسة كبيرة فى ايران ـ وتضم مجموعة من المهندسين المسلمين قد قدمت ـ قبل الموسم الاخير ـ الى الملك الراحل فيصل بن عبد العزيز مشروعا كبيرا لحل جميع مشاكل منى الخاصة بالسكن والمواصلات والمسلخة (1) ولعل المستقبل القريب يبشرنا بما يشرح الصدور باذن الله .

ويمكن التعاون مع وزارات الخارجية فى بلاد المسلمين لمعرفة أهم الاطارات التى تنتوى اداء فريضة الحج قبل الموسم بوقت كاف لكى يتيسر تنظيم اللقاءات الهادفة بين هؤلاء الصفوة مما يساعد على قطف ثمار الحج لا سيما فى ميدان الشورى وتبادل الخبرات ورسم معالم طريق العمل المجدى فى سبيل خدمة المسلمين ونشر دين الحق ، وصون حرمات الله والميدان واسع .

والله الموفق للصواب ومنه نرجو الرعاية والتوفيق . وأؤكد فى ختام هذه المحاضرة أن كل ما يشكو منه الملاحظون والمفكرون من واقع مجاف لسمو الاسلام وكمال الشريعة الغراء فانما مرده الى نقص أو قصور أو تقصير فى التطبيق أو بعبارة أخرى العيب فى جهاز الاستقبال وليس فى جهاز الارسال يقينا .

والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته

---

1) حدثنى بكل هذا المدير المسؤول عن المؤسسة ونحن فى مدينة الرسول عليه الصلاة والسلام عام 1395 هـ .

أتبقى الأمة غمة ؟ (1)

مولود قاسم نايت بلقاسم
وزير التعليم الاصلي والشؤون الدينية ـ الجزائر ـ

حضرات الاساتذة الافاضل ،

حضرات السادة والسيدات ،

اخوتى الطلبة والطالبات ،

تختتمون فى هذه اللحظة أعمال ملتقاكم بعد عشرة أيام من أعمال دائبة ، كثيرا ما تواصلت هنا فى هـــذه القاعة أو فى مقاركم بالثانويات الى ساعات متاخرة مـن الليل ، فهنيئا للجميع بهذا الجهد الذى استعصى عـــلى الضيق ، والعطش ، والحرارة ، والذى وان بلغ كل هـــذا

(1) كلمة اختتام الملتقى التاسع للفكـــر الاسلامى تلمســـان 10 رجب 1395 هـ 19 يونيو 1975 م .

احيانا عتبة الصبر والتحمل فلم يعقب الضجر ، ولا الندم ، ولا المرارة !

عشرة أيام وليال فى محاضرات ومناقشات ، وفى صراع ومناوشات ، تخللها جو من المرح واستمرار البحث على الطبيعة وفى الحافلات ، بدون أن تنسى مع هذا كله الفروض والنافلات !

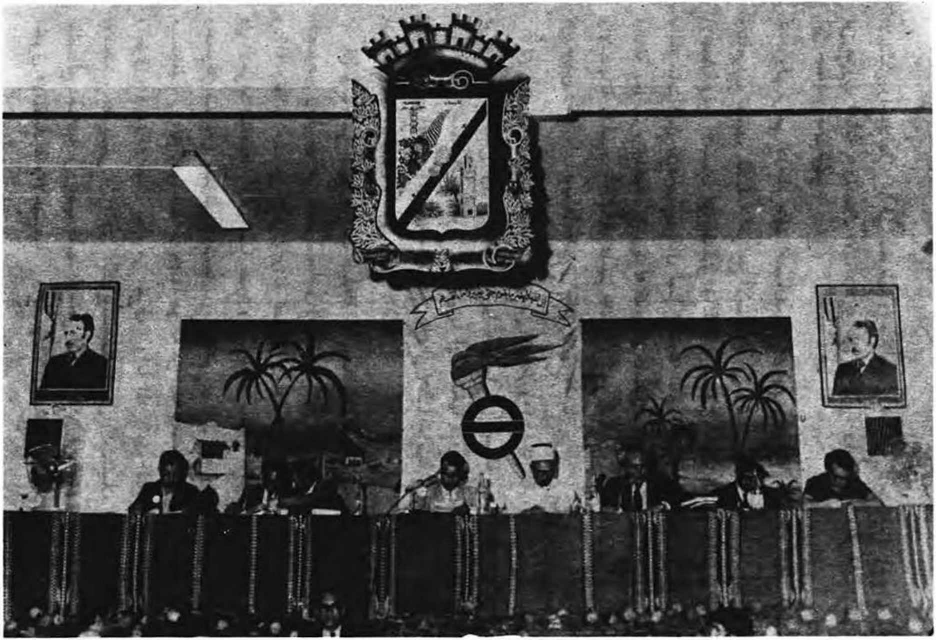
1) لقد اتضح لكم ان عاصمة بنى زيان قدمت للانسان فكرا وحضارة ، وكانت فى ذلك جوهرة ناصعة النضارة ، ولم تتوار الا بعد ان تخلت عن أصلها ومنطلقها ، وتحلت بغير زيها وانزوت عن منبثقها !

فشاعت فيها بين الاب والابن الفتن والاحن ، وانهالت عليها المصائب والمحن ، وانقض عليها الجيران الاشقاء ، واصبح رجالها الصلاب مخنثين ارقاء ، فذاع التحلل والانحلال ، اللذين يعقبهما دوما الاختلال والاحتلال !

2) والقيتم نظرة فاحصة على دور الدولة العثمانية ازاء الاندلس وباقى العالم الاسلامى ، وموقفها واجزاء هذا الباقى بعضها نحو الاخرى ، واتضح لكم ان شعب الاندلس الذى كان عليه الصليب ينقض ، والهلال فى أغلبه يتوارى وينفض ، كان هو المسؤول الاول فيما ألم به من نوائب، بما جنح اليه من استهتار وغيره من معائب ، وانه اذا صح الحديث الذى جاء فى محاضرة الاستاذ الانصارى من أن كل ابن آدم خطاء ، وحق اللوم والتسجيل على كل من هو الى انجاد المستغيث متردد بطاء ، فان لآل عثمان كغيرهم عيوبا ومزايا ، واخطاء وسجايا ، وأنهم وان قصروا فى الاخير تقصيرا فظيعا ، فلم يكن موقفهم دائما مخزيا ، خسيسا ، وضيعا ٠

وانصافا للامم والرجال ، مع مراعاة الحال والمجال ، ينبغى الاعتراف بالفضل لذويه، وعدم اغفال الاخطاء كما يقول ابن مسكويه ! وعندما لم يضربعضهم الآخر بالتآمر عليه مع العدو والتواطىء ، فعلى الاقل تصامم على ندائه أو قابله بالتباطىء ، وهكذا كان ما كان بالجزائر وغيرها ، بعد صراع ودفاع ، وتلتها شقيقاتها واحدة تلو الاخرى ، وتقاسمت أوروبا الامة ، التى أوقعت نفسها بغفلتها وتخاذلها فى هلاك وغمة !

3) وبحثتم فيما اذا كان الشعر فى الاندلس سببا فى انحلال اخلاقها ثم سقوطها ، أم كان لهما مجرد مرآة وانعكاس ، وانتهيتم الى أن الشعر كان له دوره فى انحلال



جلسة الاختتام ، ويرى من اليمين الى اليسار الســادة :

عبد اللطيف عبادة ، محمد عبد الله عنان ، د · عبد الهادى التازى ، محمد محمود الصواف ، مولود قاسم نايت بلقاسم (وهــو يتلو كلمة الاختتام) ، أحمد اسماعيل ، يوسف العظم ، د · محمد الشريف قاهر ·

الاندلس واختلالها ، ثم فى سقوطها واحتلالها ، وانه اذا كانت هناك أسباب أخـــرى من حروب أهلية ، واقتتال الاب والابن على كراس ، وأميرات ، وطويفات ، الى حد ان ابن حمديس قال فيهم :

ولم ترحم الارحام منهم اقـــارب ، تروى سيوفا من دماء الاقـــارب !

ويتآمرون بعضهم ضـــد الآخر مع الاسبان ، فى وقـــت كانت فيه البابـــوية تحـرض الاسبان وغير الاسبان على التكتل والتعاون ضدهم ، فان الشعر والتغنى بالخمريـات والغلاميات لدى الاندلسيين كان لهما لا شك الدور الفعال فى قتل الروح لديهـــم ، واذابة نخوتهم ، واطفاء كل رجولة لديهم ، فاستكانوا وكان طابعهم التخنث والهمود ، والاستهانة والخمود ، فتهالك عليهم الاسبان لا من قلة ، ولكن بما تمكن من نفوسهـــم من مرض وعلة ، وذهب ما كان من ملك ومن ملك !

4) ونقدتم النظرية القائلة بان الفن للفن ، ورأيتم ان الآداب والفنون ليست غاية فى ذاتها ، لاشباع نزوات الامة ولذاتها ، وانما هى وسيلة وسلاح ذو حدين ، للدفاع عن الامة أو سلخها ، ولابراز شخصيتها أو مسخها ، ولرفع معنوياتها أو إهباطهـا ، ولتعزيز جهودها أو احباطها ، وانه آن الاوان لامتنا خاصة ان تدرك هذا وتفيق ، قبل ان يلحق بها الانحلال ويحيق !

5) وتناولتم جميع جوانب العدالة الاقتصادية والاجتماعية فى الاسلام ، وقارنتـم النصوص وتطبيقها فى الماضى بحاضر الامة بين الامم ، واتضح جليا أن الاسلام ديـــن ودولة ونظام اجتماعى كامل ، وانه نصوص ومقاصد ، يدركها ذوو البصيرة كما تنفذ الى الاجرام المراصد ، وان عميا بصرا وبصيرة قد سلموا الامة للطغـــاة فى اغـــلال ، وجعلوها ضحية استنزاف واستغلال ، وقلتم ان المال لله وان الانسان انما هو فيـــه مستخلف ، وانه ليس ملكا له وانما هو له من الله مستلف ، فله ان يكتسبه بالجهـــد والعرق ، ويصرفه بعدل نجاة من الغرق ، وانه اذا كانت الملكية الفردية مصونـــة فى الاسلام ، فلا ينبغى ان يؤدى ذلك بالمستضعفين الى الاستسلام ، وان الدولة مكلفـــة بالمصالح الجماعية ، ويجب عليها التدخل لتضمن لكل فرد على قدر جهده قسطه مـــن الحقوق الاقتصادية والاجتماعية ، واعلنتم ان التضامن الاسلامى يفرض على الاغنيـــاء



منظر آخر من جلسة الاختتام ، ويرى فيه من اليمين الى اليسار السادة :
عبد اللطيف عبادة ، محمد عبد الله عنان ، د · عبد الهادى التازى (جانبيا) ، محمد محمود الصواف ، مولود قاسم نايت بلقاسم ، د · خير الله عصار (وهو يتلو نص مشروع البرقية الى الرئيس هوارى بومدين للشكر والتهنئة) ، يوسف العظم ، د · محمد الشريف قاهر ، وخلفه أحمد اسماعيل ·

اسعاف الفقراء على مستوى الدول وليس فقط الافراد ، وان اعانة الشعوب الاسلامية بالمال والرجال وليس فقط بكتب الاذكار والاوراد ، وانه لو ارسل الفائض فقط من الكتب والسيارات ، والمواد الغذائية والاطارات ، لتغير وجه الامة وخدمنا ديننا ، ولاصبح التآخي الفعال مبدأها وديدنها ، ولتم العمل بتلك الآية التى حفظناها صغارا ، والحديث الذى لانفتأ نلوكه كبارا ، عن ان « انما المؤمنون اخوة » داخل الامة ، وعن البنيان المرصوص والسهر والحمى !

6) ودرستم موضوع الحج ، ومقاصد الشريعة منه للامة ، ومحصتم الطريقة التى يؤدى بها اليوم ، فاجمعتم والاجماع بينكم نادر ، والله على كل شىء قادر ، ان الطريقة التى يؤدى بها اليوم تنافى فى كثير من جوانبها المقاصد، وقلتم ان الدين يسر، لا عسر ولا خسر ، وان الاجدر بالامة أن تعطى عن هذا الركن من أركان الاسلام أجمل الصور وأبهاها ، وعن نفسها أنصع الصفحات وأزهاها .

حضرات الاساتذة الافاضل ،

حضرات السادة والسيدات ،

اخوتى الطلبة والطالبات ،

لم يبق بعد هذا الا أن نشكر كل واحد منكم على ما عمل وبذل ، ونطلب منكم أن يصفح بعضنا عن الآخر ان عاتب أو عذل ، خاصة حضرات الاساتذة الافاضل ، ونشكر ولاية تلمسان على ذلك الجو الاخوى الذى خففت به عن الجميع الانهاك والتعب !

وليصفح عنى الجميع عن كل ما بدر منى عن حسن نية نحو ملتقاكم ، وليطمئن الاخوة من الطالبات والطلبة اننا سنكون معهم فى المستقبل أصرم وأشد !

وداعا مدينة ابن خلدون وابن خميس والوريط ، التى هى على خريطة الحضارة العلامة والشريط، وداعا منشأ ابنى الامام والمقرى، ومعهد الدرس، والبحث، والتحرى !

والى اللقاء فى الملتقى العاشر فى العاصمة الصناعية مدينة الحجار ، التى قاومت بالامس البعيد الغزاة والفجار ، معترك دونات والدوناتيين ضد القديس والعصابة ، ومثوى ابى مروان للعلماء رئيس النقابة ، حقل العنب والعناب : عنابة !

والسلام عليكم ورحمة الله .